المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

الجنرال ڤيكتور فرنر

الحرب العالمية الثالثة

الخوف الكبير



ترجمة
الدكتور هيثم الكيلاني

الحرب العالميّة الثالثة
(الخوف الكبير)

تأليف
الجنرال ڤيكتور فرنر

ترجمة
الدكتور هيثم كيلاني

المؤسّسة
العربيّة
للدراسات
والنشر

صدر هـذا الكتاب باللغة الفرنسية تحت عنوان

GENERAL MAJOR VICTOR WERNER

LA GRANDE PEUR

LA 3e GUERRE MONDIALE

ROSSEL EDITION
PARIS -- BRUXELLES

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير ـ
ت ٨٠٧٩٠٠/١ برقياً « موكيالي »
بيروت ـ ص.ب : ٥٤٦٠/١١ بيروت
تلكس : LE/DIRKAY ـ ٤٠٠٦٧ .

الطبعة الثانية ١٩٨٨ م

الفهـــرس

البـاب الأول

ظاهرتان مجهولتان: الحرب والسلم.

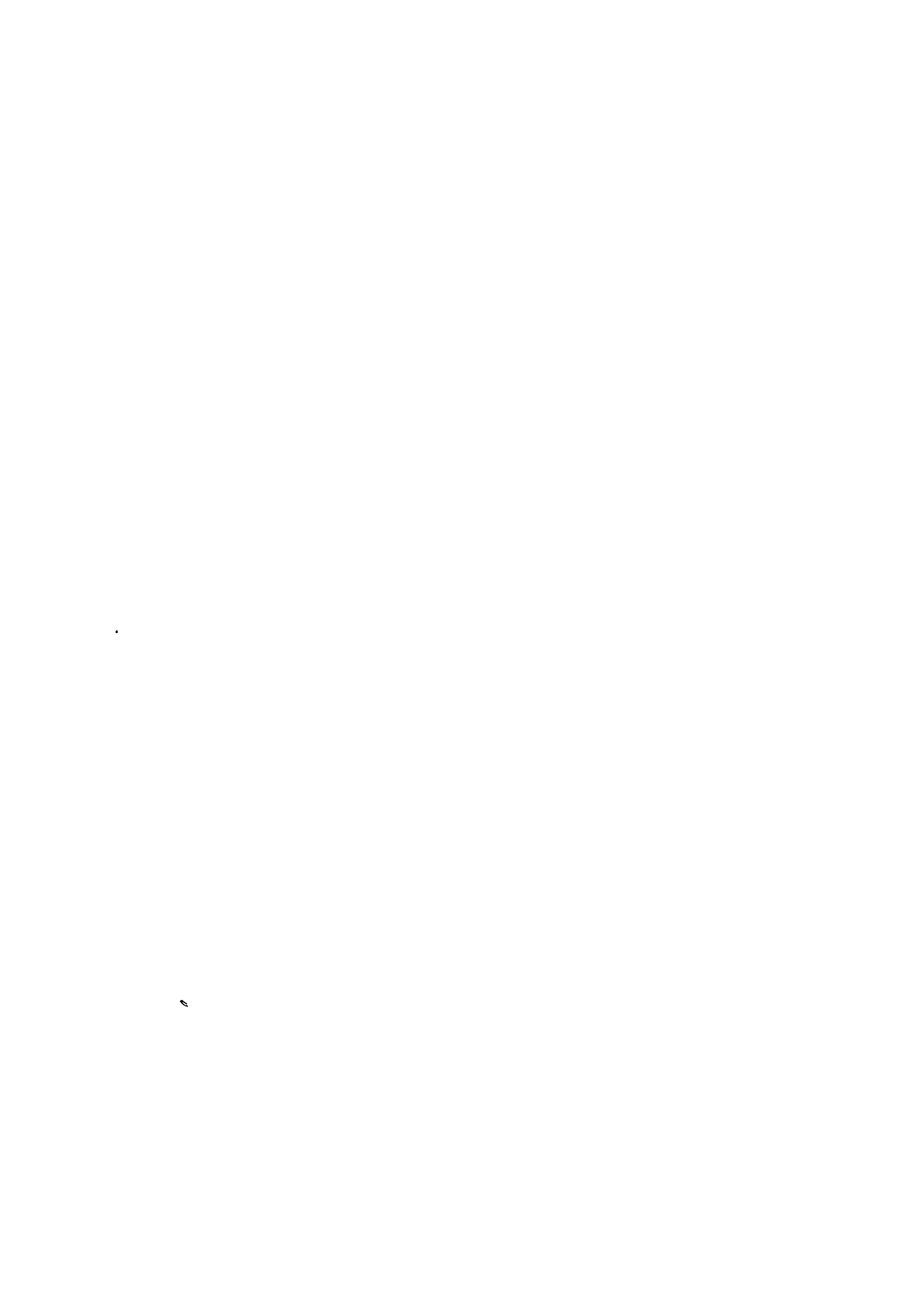
الباب الثاني
الأوهام الكبيرة

الباب الثالث
الآمال الصادقة

الباب الأول

ظاهرتان مجهولتان: الحرب والسلم

١ـ الحرب العالمية الثالثة.
٢ـ السلام الداعي إلى الحرب.
٣ـ نظرية الحرب المستحيلة.
٤ـ نظرية السلام المستحيل.



الفصـــل الأول

الحـرب العالميـة الثالثـة

١ـ في حال نشوب الحرب العالمية الثالثة.
٢ـ مائتا مليون قتيل في ساعات قليلة.
٣ـ تلاطم الأمواج.
٤ـ الحرب الفضائية.
٥ـ الحرب الكيميائية والبيولوجية.
٦ـ ظاهرة مجهولة.

١ـ في حال نشوب الحرب العالمية الثالثة.

اذا ما نشبت الحرب العالمية الثالثة، فان الانسانية قد تواجه كارثة هذه بعض مظاهرها:

آـ يباد، خلال ساعات قليلة، اكثر من مائتي مليون إنسان.
ب ـ يقتل مئات الملايين من الحيوانات.
ج ـ تزول النباتات من مساحات واسعة.
د ـ يغزو البحر أراض واسعة بسبب تلاطم الأمواج الناتجة، بصورة اصطناعية، عن الانفجارات النووية، ويغرق اناس كثيرون من جراء ذلك.
هـ تلتهم الحرائق مدناً بأكملها.
و ـ تهدد الغيوم الاشعاعية حياة الأحياء، وتترك فيهم آثاراً وراثية لا يمكن التنبؤ بها.
ز ـ ينتشر الجوع.
ح ـ تنتشر الاوبئة بواسطة الجراثيم التي تلقيها الصواريخ والاقمار الصناعية.
ط ـ تتغير عوامل المناخ.

ان احتمال نشوب حرب عالمية ثالثة في الوقت الحاضر يبدو ضعيفاً، ولكن هذا

الاحتمال يبقى ممكناً مما يستدعي وضعه في الحسبان، وينستحق الدراسة عن قرب، وذلك لأن الواقع المأساوي الذي يسيطر على دراسة الحرب كظاهرة اجتماعية، هو أن بني البشر قد بلغوا في الوقت الراهن درجة من التقدم التكنيكي (التقني) جعلتهم، لأول مرة في تاريخ الانسانية، قادرين على هدم أنفسهم بأنفسهم.

٢ـ مائتا مليون قتيل في ساعات قليلة.

لقد اشار كثير من الكتاب الموثوقين إلى أعداد القتلى نتيجة حرب شاملة، واستندوا في ذلك إلى وثائق رسمية. وهكذا كتب السيد يوليوس موش يقول:

«يرى الخبراء ان حرباً نووية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ستتمثل منذ بداياتها بأكثر من مائة مليون ضحية في كل معسكر منهما»[١].

ويشير البيان الثالث عشر الذي اورده موش في ملحق كتابه «مصير السلام» إلى أن هجوماً سوفييتياً ورداً اميركياً سيؤديان إلى قتل ١٢٠ مليون من الجانبين، وذلك بدون استعمال الشبكات المضادة للصواريخ السوفييتية والأميركية. والسيد موشى هذا وزير سابق، وكان مندوباً لفرنسا لنزع السلاح سنوات عدة، وهو اختصاصي ذو كفاءة عالية.

ويتنبأ الاستاذ الهولاندي ب. ف. آ. رولينغ[٢] بان من المنتظر ان يبلغ عدد القتلى في كل جانب من المعسكرين مائة مليون، وذلك خلال الايام الأولى ان لم يكن خلال الساعات الأولى لحرب ابادة، مما يعني ان مجموع القتلى سيبلغ مائتي مليون.

وذكرت المجلة الدولية للدفاع[٣] بناء على بيانات السيد مكنمارا ان السوفييت يستطيعون عن طريق المفاجأة قتل ١٢٠ مليون أميركي.

ومن جهة أخرى، كتب وزير الدفاع الأميركي السابق يقول:

«ان المسألة التي تفرض نفسها اليوم هي، ضرورة معرفة ماذا يجب ان نفعله في عصرٍ

---

(١) يوليوس موش: «مصير السلام»، نشر ميركور في فرانسا، ١٩٦٩، ص ١٣ و٢٨٥.

(٢) ب. ف. آ. رولينغ: «Ineiding tat dr wetensehap van oolag en vrede». ص ١٧، نشر فان غوركوم وشركاه، آسن ١٩٦٨.

(٣) العدد ١ لعام ١٩٦٨، ص ٥٤.

تعادل الحرب الشاملة فيه موت عدة مئات الملايين من بني الانسان، ويمكن ان تؤدي إلى تخريب الوراثة لمليون جيل»[٤].

واخيراً، فقد قدر تقرير مقدم الى جمعية اتحاد اوروبا الغربية عدد الضحايا المدنيين في حرب نووية- حرارية بمئات الملايين[٥].

واذا كان من غير المفيد الاستمرار في سرد هذه الشواهد، فان هذه التقديرات في الخسائر الانسانية المرعبة، يجب النظر اليها على انها ادنى مما يمكن انتظاره، ذلك لأنه لا احد يستطيع ان يتنبأ عن التأثيرات المتعلقة بالوراثة التي يمكن ان تتركها الاشعاعات على الأحياء. ولنذكر، في هذا المجال تجربتين جرتا في مختبر مدرسة الحماية المدنية في نيفيل ليروش (فرانسا)، منذ اكثر من عشر سنوات.

- التجربة الأولى: عُرِّضت ذبابات لمقدار معين من الاشعاعية، فجاءت سلالتها الأولى باجنحة منحنية إلى أعلى، أما سلالات الجيل الثاني فكانت بدون اجنحة!

- التجربة الثانية: عُرِّض عشرون فأراً سميناً للاشعاعية، فجاءت أولادها وهي تحمل شكلاً مرعباً، مما دعا امهاتها إلى اكلها، باستثناء فأرين صغيرين امكن انقاذهما. وكان هذان الفأران الوليدان مجردين من الشعر تماماً، وجلدهما وردي اللون، ولم يكن لهما في مكان العينين سوى ثقبين فارغين[٦].

بعد هاتين التجربتين، يمكن التساؤل برعب عن التغييرات الوراثية التي ستتعرض لها جميع انواع الكائنات الحية، والناتجة عن تأثير الاشعاعية، بسبب عدد كبير من الانفجارات النووية- الحرارية. فماذا سيكون مصير الماشية؟ وما هو مصير الحيوانات الضارية؟ والخضروات؟ انه، في حدود معرفتنا، لا يوجد انسان يستطيع الاجابة عن هذه الاسئلة.

وقد نشرت الأكاديمية الوطنية للعلوم في الولايات المتحدة، مؤخراً، بناء على طلب

(٤) روبير س. مكنمارا: «الامن الأميركي والسلام العالمي». نشر فايار، ١٩٦٩: ص ٧٨.

(٥) الوثيقة ٢٩٣، الدورة التاسعة، الجزء الثاني، ص ٣.

(٦) لقد رأيت بنفسي هذه الذبابات بدون اجنحة، كما رأيت الفئران بدون شعر ولا عيون.

وكالة مراقبة الاسلحة ونزع السلاح، دراسة حول النتائج العالمية، على المدى الطويل، الناجمة عن انفجار اسلحة نووية عديدة.

وبالرغم من ان للعلماء الأميركيين، في الوقت الحاضر، معرفة جيدة بالتأثيرات الناجمة، على المدى الطويل، عن انفجار عدد كبير من الاسلحة النووية والنووية- الحرارية، فانهم يعترفون بانه لا يزال هناك عدد كبير من العناصر المجهولة.

ويعلن هؤلاء العلماء ان من المحتمل ان يؤدي انفجار ذو قوة ١٠ آلاف ميغا طن (اي قوة تعادل قوة انفجار ١٠٠٠٠ مليار كلغ من مادة ت. ن. ت) إلى ازالة ٣٠ إلى ٧٠٪ من غاز الأوزون في النصف الشمالي من الكرة الارضية (حيث يرجح ان تقع هذه الانفجارات)، و٢٠ الى ٤٠٪ من الغاز ذاته في النصف الآخر من الارض. ويحتاج الأمر إلى نحو عشر سنوات لاعادة بناء هذه الطبقة من غاز الأوزون. وخلال هذه الفترة، لن تجد الاشعة فوق البنفسجية ما يمنعها، بعد ان كانت طبقة الأوزون تقف في طريقها، وسيؤدي هذا مع الأسف إلى حدوث حروق شمسية خطيرة في المناطق المعتدلة.

ويعيد تقرير الأكاديمية الوطنية للعلوم إلى الذاكرة، بعض المفاجآت التي تحدثها عدة انفجارات نووية- حرارية. ولنذكر احدها: في ٢٨ شباط ١٩٥٤، فجرت الولايات المتحدة في جزر بيكيني المرجانية قنبلة قوتها ٨ ميغاطن (اي ما يعادل قوة انفجار ٨ مليارات كلغ من مادة ت. ن. ت)، وقد احدثت الانفجار طاقة ١٥ مليار كلغ من مادة ت. ن. ت ولم يكن هذا قط منتظراً.

يضاف إلى ذلك، ان آثار هذا الانفجار لم تكن، ايضاً، منتظرة بالشكل الذي انتهت إليه. فبعد نحو ست ساعات من الانفجار، ظهر نوع من الرماد الناعم فوق باخرة الصيد اليابانية «لاكي دراغون» التي كانت تبعد نحو ١٥٠ كلم من مكان الانفجار. وظهر الغبار ذاته فوق جزر رونجيلاب المرجانية.

لقد اصابت النظائر المشعة لهذه الاسقاطات الشعاعية (ايودون ١٣١) الغدد الدرقية لبحارة «لاكي دراغون»، وللأولاد في جزيرة رونجيلاب. كما لوثت القنبلة مساحة مقدارها ٧٠٠٠ ميل مربع. ويجسد هذا، بصورة مأساوية، الكارثة التي يمكن أن تحدث نتيجة تبادل

آلاف القنابل النووية- الحرارية.

ويشير تقرير الأكاديمية الوطنية للعلوم في الولايات المتحدة، ايضاً، إلى ان الإشعاعات يمكن أن تُحدث:

-أضراراً جسمانية (تكاثر الكريات البيضاء في الدم، سرطان الغدد الدرقية والرئتين، الخ.).
- اضراراً وراثية (ولادات غير طبيعية).
- نمواً جسمياً وعقلياً سيئاً للأجنّة والأولاد الصغار.

ومن جهة أخرى، فان نقص غاز الأوزون في الفضاء الخارجي، وعدم قدرته على حجب الأشعة فوق البنفسجية، يمكن أن يؤدي الى حدوث حروق، وشيخوخة مبكرة للجلد الانساني، كما يمكن أن يسبب سرطان الجلد. يضاف الى ذلك ان هناك خشية من تغيرات تطرأ على المناخ تؤثر تأثيراً خطيراً على الزراعة. وخلاصة التقرير انه من غير الممكن أن يتنبأ المرء بالتأثيرات الشاملة لتبادل الأسلحة الذرية. واذا كان من الممكن أن نقدر أن عدد الضحايا في الولايات المتحدة قد يبلغ ١١٠ ملايين نسمة، اذا ما هوجمت هذه الدولة بألف قنبلة قوة كل منها ميغا طن واحد، فليس بالمستطاع اعطاء أية فكرة عن عدد الأميركيين الذين يمكن أن يموتوا بسبب الحرائق التي تشعلها الانفجارات، أو بسبب الاسقاطات المشعة. وفي جميع الأحوال، فان الأغذية ستكون ملوثة، كما ان اولئك الذين يأكلون مثل هذه الأغذية سيتعرضون لأضرار جسدية ولو بعد سنوات عدة.

لقد استطاع تقرير الأكاديمية الوطنية للعلوم في الولايات المتحدة، بتركيزه على المجهولات الخاصة بالأسلحة الجديدة، أن يثبت ان الحرب العالمية الثالثة، اذا ما نشبت، سيجعل الانسانية تواجه افظع كارثة في تاريخها.

هذا عن تأثيرات الاسلحة. فلنر الآن كيف يمكن استخدام هذه الاسلحة الجديدة.

٣- تلاطم الأمـواج:

تهتم منظمة الأمم المتحدة، منذ سنوات عدة، بأعماق البحار التي تحتوي على

ثروات ضخمة من البترول والنباتات والحيوانات.

ويبدو أن احد اهم الاهتمامات في هذا المجال هو تنظيم الاستخدام السلمي لأعماق البحار التي اصبح استخدامها عسكرياً أمراً ممكناً.

وتستطيع ابراج مُحكمة ومسلحة بصواريخ نووية أن ترسو في قاع البحر. ويمكن اطلاق هذه الصواريخ من بُعد، بواسطة قيادة آلية. ويستطيع كل صاروخ تدمير مساحة ٢٠٠٠٠ كلم مربع تبعد عنه ٣٠٠٠ كلم[٧]. ويمكننا القول، من الناحية النظرية، أن برجاً واحداً راسياً في قاع البحر، ومسلحاً بصواريخ «بولاريس» أو «بوزيدون» يستطيع تدمير منطقة «الرور» في ألمانيا تدميراً كاملاً. إن مثل هذا الحساب يفتقر، حتماً، إلى الواقعية، ولكنه يعطي صورة مؤثرة عن الخسائر التي يمكن أن تحدثها هذه الاسلحة.

ومن المؤلم، حقاً، ان يكون في القدرة الرهيبة للأسلحة النووية- الحرارية وسيلة اخرى للتدمير الجماعي ما تزال غير معروفة. فقد تنبأ «خان» و«فيينر»[٨]. بانه سيكون من الممكن، خلال السنوات العشر او العشرين الأخيرة من القرن العشرين، احداث امواج اصطناعية، فاذا ما انفجرت قنبلة هيدروجينية قوتها ١٠ ميغاطن على عمق مرتفع، وبعد يبلغ ١٠ كلم من الشاطىء، فانها ستحدث موجة يبلغ ارتفاعها حين وصولها إلى الشاطىء نحو ٢٠٠ متر. وإذا ما انفجرت القنبلة ذاتها على بعد ١٠٠ كلم من الشاطىء، فإن ارتفاع الموجة يصل إلى ٥٠ متراً حين اصطدامها بالشاطىء[٩]. ويمكن ارساء مثل هذه القنابل بسرِّية في قاع البحار، كما يمكن اطلاقها من بُعد. الأمر الذي يجعل من المتعذر تحديد هوية المعتدي.

واذا افترضنا أنه، عوضاً عن قنبلة واحدة من عيار ١٠ ميغاطن، تم وضع مجموعة من هذه القنابل، بصورة سرية مقابل نيويورك، أو في البلطيك، وتم تفجيرها كلها في آن واحد، فأية كارثة هذه التي ستحدث؟. وإلى من يجب أن يوجه الرد، طالما أن هناك، دولاً

---

(٧) يولبوس موش: المرجع ذاته، ص ١٩٣.
(٨) هيرومان خان وانطوني فيينر: «العام ٢٠٠٠»، ص ١٣٣، نشر روبير لافون، ١٩٦٨.
(٩) اللواء ف. غامبي «جلد الحزن»، مجلة الدفاع الوطني»، عدد كانون الثاني ١٩٧٠، ص ١٣.

غير الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة قادرة على ارتكاب مثل هذه الجريمة الفظيعة؟ . لا شك في أن هذا العمل هو نوع من الجنون، ولكن هناك واقعاً هو ان مثل هذا العمل سيصبح عما قريب أمراً ممكناً.

٤- الحرب الفضائية:

افتتح السوفييت سباق الفضاء باطلاقهم يوم ٤ تشرين الأول ١٩٥٧ «سبوتنيك» sputnik ثم أطلق الأميركيون أول قمر صناعي «ايكسبلورار- ١» Explorer —1 في يوم ٣١ كانون الثاني ١٩٥٨.

ومنذ ذلك الحين، تم اطلاق اقمار صناعية سوفييتية وأميركية وصينية كثيرة تدور حول الأرض. وصف بعضها بانها اقمار تجسس، فهي تراقب ارض العدو المحتمل بصورة دائمة. وخصص بعضها الآخر للاتصالات بعيدة المدى. سوى أنه لا توجد اية رقابة تسمح بالتحقق فيما إذا كانت هذه الأقمار الصناعية تحمل قنابل أو صواريخ نووية- حرارية او لا تحمل مثل هذه الأجهزة. وينتج عن ذلك أن من الممكن وضع مثل هذه الأجهزة ذات القوة التدميرية الكبيرة على مدار فضائي، واطلاقها آلياً واسقاطها في الوقت المحدد على الهدف المحدد. وقد تنبأ «خان» و«فيينر» بانه «في مطلع أواسط الثمانينات، سيكون لدى الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي إمكانات فضائية كبرى، دفاعية وهجومية في الوقت ذاته...»[١٠]. وتحدث يوليوس موش عن إمكان وجود «قمر صناعي ذي رأس نووي يطلق في وقت السلم، ويدور في مدار يمكن تعديل مساره ليصيب تماماً الهدف المحدد...»[١١].

وفي العام ١٩٦٥، اعلن رئيس الولايات المتحدة ليندون جونسون، ان القوات المسلحة الاميركية لن تضع اسلحة التدمير الشامل في مدار فضائي. ولكنه اعلن في الوقت ذاته، ان مخبراً فضائياً عسكرياً سيتم وضعه في المدار الفضائي (١٢).

---

(١٠) المرجع ذاته، ص ١٣٢.

(١١) المرجع ذاته، ص ٩٥.

(١٢) انظر جريدة «لوسوار» الصادرة في بروكسيل يوم ٢٧ آب ١٩٦٥ (بناء على برقية من وكالة الصحافة الفرنسية من واشنطن يوم ٢٥ آب ١٩٦٥).

ويقدر الاستراتيجيون أن اول دولة ستتوصل إلى اقامة قاعدة عسكرية على القمر يمكن أن تحقق «ردعاً كاملاً»، لأنه لن يكون هناك تزامن بين تخريب الشبكات الدفاعية القمرية والارضية. «فاذا ما هوجم الدفاع الارضي، فان القاعدة القمرية سترد. أما اذا هوجمت القاعدة القمرية، فان القواعد الارضية تصبح مُنْذَرَةً بان مقذوفاً هو في الطريق إليها، ويحتاج إلى يومين ليبلغ هدفه، ويمكنها ان تصده»[١٣]. ومن المؤكد أن يستبدل القمر، بقمر صناعي يجهز خصيصاً لهذه الغاية.

ولا يوفر الفضاء السلامة لوسائل الدفاع والهجوم فحسب، وانما يؤمن ايضاً المهلة الزمنية الضرورية التي تسمح باطالة مدة الانذار، مما يجعل الرد ممكناً.

ان الاستعدادات للحرب الفضائية تجري على قدم وساق. فسباق التسلح دخل مرحلة لم تُعرف من قبل. واذا ما كان هناك ادنى شك في هذا الأمر، فان الكتمان الذي يحيط بالابحاث الفضائية والمبالغ الضخمة التي تنفق على غزو الفضاء[١٤]، كافية لتثبت أن الأمر ليس بحثاً علمياً خالصاً لمنفعة الانسانية جمعاء.

ان الواقع الذي لا جدال فيه، هو أن الاقمار الصناعية التي تدور الآن حول الارض تخبىء قنبلة أو عدة قنابل نووية ـ حرارية يمكن اسقاطها، في وقت واحد تقريباً، فوق عدة أهداف[١٥].

٥ـ الحرب الكيميائية والبيولوجية:

لقد استعملت الغازات الخانقة في حرب ١٩١٤ـ ١٩١٨. وفي الحرب العالمية الثانية، كانت هناك مستودعات كبيرة احتياطية من الغازات في الولايات المتحدة وانكلترا

---

(١٣) جمعية اتحاد أوروبا الغربية، الدورة السابعة العادية (الجزء الثاني)، وضع الأمن الأوروبي ١٩٥٦ـ ١٩٦١، الوثيقة رقم ٢١٥، ص ٣٤.

(١٤) انظر: المجلة السياسية (آب ـ ايلول ١٩٦٩) ص ١٥٤. «لقد انفقت الولايات المتحدة، في الواقع، ٤ مليارات دولار بصورة وسطية كل عام من اجل تنفيذ برامجها الفضائية (المجموع ٢٤ مليار دولار). اما المصاريف التي انفقها الروس على استثمار الفضاء فليست معروفة، ولكن يبدو منطقياً الافتراض بانهم انفقوا ما لا يقل عما انفقه الأميركيون.

(١٥) المجلة الدولية للدفاع، العدد ١ـ ١٩٦٨، ص ٥٦، الوثيقة ٤٤٤ بتاريخ ٤ أيار ١٩٦٨ حول «شبكة القذف الفضائي السوفييتية» في «الوقائع الرسمية»، الدورة ١٤، الجزء الأول، تشرين الأول ١٩٦٨، وثائق الجلسات لجمعية اتحاد اوروبا الغربية.

لاستعمالها في حالة قيام هتلر باستعمال اسلحة كيميائية. ولم يلجأ هتلر الى ذلك، لأنه حينها حصل على السيطرة الجوية، لم يجد ضرورة لاستعمال الغازات السامة من اجل انجاح العمليات العسكرية، وبعد ان فقد هتلر التفوق في الجو، كان باستطاعة الحلفاء إغراق المدن الألمانية بما لديهم من اسلحة كيميائية، انتقاماً من هتلر. وهذا ما منعه من استخدام هذه الاسلحة.

ومن الخطأ الاعتقاد بان الغازات لن تستخدم اذا ما نشبت الحرب العالمية الثالثة، على أساس أنها لم تستخدم في الحرب العالمية الثانية. وتوجد في الوقت الحاضر انواع كثيرة من الاسلحة الكيميائية[١٦] وقد خصص الأميركيون مئات ملايين الدولارات لإعداد الحرب الكيميائية، وفي الولايات المتحدة مستودعات كبيرة للغازات التي أوقف الكونغرس صناعتها [١٧]

وقد ذكر يوليوس موش ترجمة لنص ورد في «مجلة علماء الذرة» الصادرة في ايلول ١٩٦٨، طالب فيه ٢٥٠٠ عضو من رابطة العلماء الأميركيين بوضع حد لصناعة جميع الاسلحة البيولوجية أو الكيميائية ذات التدمير الشامل: ومن بين ما جاء في اعلانهم ما يلي: «... ان مصالح أمن الولايات المتحدة لا يتطلب استعمال غاز الاعصاب... ان هذه الغازات جد متقنة ومجربة، وقد ثبت ذلك حديثاً بإهلاك ٦٤٠٠ رأس من الغنم قرب مكان التجارب في (دوكوي). وليست هناك حاجة ماسة لكي تهاجم الولايات المتحدة محاصيل أمم كاملة...»[١٨].

وفي الاتحاد السوفييتي وغيره من البلدان ايضاً، يتم الإعداد للحرب الكيميائية بخطى حثيثة.[١٩]

ويستعمل المتنازعون في الحرب البيولوجية الجراثيم ومنابع العدوى، بغية نشر الأوبئة وإبادة الحيوانات واتلاف المحاصيل. وقد ذكر الدكتور ر. فان روسوم أن من بين

---

(١٦) توجد أمثلة على ذلك في الجزء الخامس، ص ٣٨٥ من الموسوعة البريطانية.

(١٧) انظر جريدة «لوموند» بتاريخ ٢٧ تشرين الثاني ١٩٦٩، ص ٤.

(١٨) المرجع ذاته، ص ٢١٤.

(١٩) جريدة «لوموند» بتاريخ ٢٧ تشرين الثاني ١٩٦٩.

الجراثيم العضوية التي يسهل زرعها وإكثارها وأستعمالها استراتيجياً: «جرثومة شيغا (Shiga)، والحمى المالطية، وجرثومة إلتهاب الأنسجة الجلدية المخاطية، وداء العصيّات الكولونية، وجرثومة الانفلوانزا»[20].

ويمكن ان تقذف الاسلحة البيولوجية بواسطة صواريخ موجهة آلياً، او بطائرات بدون طيارين، كما يمكن أن تحملها حيوانات مصابة بها تلقى بالمظلات (فئران، جرذان، ارانب، الخ. . .) أو توضع في الارياف بواسطة عملاء يمتلكون مناعة ضد هذه الجراثيم.

ان تكلفة الاسلحة الكيميائية والبيولوجية غير مرتفعة، ويمكن صنعها بصورة سرية. ومن بين جميع الاسلحة المعروفة في الوقت الحاضر، يبدو ان السلاح البيولوجي هو الاكثر فعالية بشكل واضح. فقدرته على التدمير تفوق مائة مليون مرة قدرة المتفجرات التي استعملت في الحرب العالمية الثانية، كما تفوق مائة مرة قدرة السلاح النووي- الحراري[21].

ومن الناحية النظرية، فان خمسة عشر طناً من المواد البيولوجية تعتبر كافية للقضاء على كل مظهر من مظاهر الحياة على كوكبنا الأرضي[22].

وهناك بلدان ذات اهمية متوسطة على وشك ان تنتج مثل هذه المواد البيولوجية. والخطر المرعب لسباق الاسلحة الكيميائية والبيولوجية هو مع الأسف حقيقة مؤلمة، وذلك لأن هذه الاسلحة مخصصة قبل كل شيء لابادة الشعوب، ففي اية استراتيجية مضادة للمدن، تتميز هذه الاسلحة بقدرتها على ابادة الناس، تاركة المنشآت الصناعية ومرافق الموانىء سليمة.

٦- ظاهرة مجهولة:

يمكن ان تأخذ الحرب العالمية الثالثة أشكالاً أخرى غير شكل الحرب النووية- الحرارية. ذلك أن البعض يرى أن القدرة الرهيبة للأسلحة الحديثة تشكل بكل تأكيد

(٢٠) الدكتور ر. فان روسوم «حرب ذرية، ام جرثومية، أم كيماوية؟». (النص من مجلة «سكاليبل» العددان ٢٣ و٢٤، بتاريخ ١٥ و٢٥ آب ١٩٦٨. انظر ايضاً: روبين كلارك «الحرب البيولوجية هل هي حرب الغد»، نشر فايار ١٩٧٢.

(٢١) يوليوس موش، المرجع ذاته، ص ٢١١.

(٢٢) يوليوس موش، المرجع ذاته، ص ٢١١.

احسن ضمانة ضد استخدامها. بينما يعبر آخرون عن قناعتهم بان النزاعات بين الأمم ستسوى ايضاً بواسطة الاسلحة التقليدية، او عن طريق حروب تهدف إلى قلب انظمة الحكم عند الأعداء، أو بواسطة حروب ثورية، او حروب تحرير، أو عن طريق العصابات أو أي شكل من اشكال الاغتيال الجماعي. وهناك من يتساءل عما اذا كانت اعمال خطف الطائرات، واختطاف «السياسيين» واغتيالهم تمثل شكلاً لم يسبق له مثيل من أشكال الحرب الحديثة. إلا انه بالاستناد إلى الوقائع وحدها، لا بد من الاعتراف بان الحرب المدمرة الشاملة التي تضع بقاء النوع البشري موضع التساؤل هي منذ الآن فصاعداً أمر ممكن الحدوث.

وهكذا تبدو مثل هذه الحرب ظاهرة جديدة كل الجدة. فكلمة «حرب» تتضمن اليوم مفهوماً يختلف كل الاختلاف عما كان عليه في الماضي. فقد كان الأمر يتعلق بعمل عنف جماعي، تقوم به جماعة بشرية ترغب في ان تخضع لارادتها جماعة بشرية أخرى. أما اليوم، فلأول مرة في التاريخ، لا تقتصر المذابح المتبادلة على جيوش وشعوب المتخاصمين فقط، وانما تمتد لتشمل ايضاً شعوب الدول التي لا تشترك في الصراع. ولأول مرة في التاريخ ايضاً، تشكل التأثيرات غير المباشرة للأسلحة التي يمكن ان تستخدم مأساة مجهولة.

إننا نقف اليوم أمام ظاهرة جديدة لم يعرفها العالم من قبل: ذلك ان حجم التدمير وسرعته اللذين يمكن أن يحدثا لن يغيرا أبعاد الحرب فقط، وانما سيؤديان الى تغيير في جوهر الحرب، فاذا كان هناك انسان طوله متران ونصف المتر، ووزنه ٢٠٠ كلغ، فانه يبقى انساناً، بالرغم من انه غير عادي. ولكن، هل يمكن ان نعتبره كائناً بشرياً اذا بلغ طوله مائتي متر ووزنه عدة أطنان؟. ان هذا ينطبق على الحرب العالمية الثالثة، اذ لم يعد هناك أي شبه أو علاقة قط بينها وبين الحروب الماضية. فقد اصبحت الحرب ظاهرة جديدة كل الجدة، وبخاصة حين غيرت طبيعتها(٢٣).

---

(٢٣) جان غيتون «الفكر والحرب»، ص ١٧٠، نشر دبكليه- دي بروور، باريز ١٩٦٩.



الفصل الثاني
السلام العدائي

٧- مفهوم السلام.
٨- الوضع منذ الحرب العالمية الثانية.
٩- ردود الفعل حيال الوضع الحاضر.

٧- مفهوم السلام:

يمكن فهم السلام، من الناحية المثالية، على أنه الحالة التي لا يكون فيها أي عنف ولا تهديد بالعنف الجسماني أو النفساني تمارسه جماعة انسانية على جماعة أخرى. ولا يقتصر الأمر على ترتيب قانوني يتضمنه اتفاق مشترك يسمح بتسوية النزاعات سلمياً، ولكنه يتضمن حالة فكرية جماعية، تجعل اللجوء إلى السلاح أمراً لا يمكن التفكير فيه. ان مثل هذا المفهوم، حسب ما نعلم، لا يعدو أن يكون أضغاث أحلام.

لقد اطلق بعض المؤلفين[٢٤] تعبير «السلام الايجابي» في مقابل تعبير «السلام السلبي»، الذي لا يعني اكثر من عدم نشوب القتال. سوى أن هذا المفهوم عن «السلام السلبي» أبعد ما يكون عن الدقة. فما ذا يعني بالدقة تعبير «القتال»؟ هل هو فقط المجابهة الدموية بين جيشين متخاصمين يدافع كل منهما عن مصالح الدولة التي ينتمي اليها؟ وهل تعتبر اشكال الحرب الاقتصادية نوعا من انواع «القتال» أم لا؟. وهل المعارك الكلامية التي تتبادلها الاطراف المتخاصمة يوميا على موجات الأثير هي «قتال» أم لا؟ وماذا نقول عن البلدان العربية التي تخفض شحناتها من البترول؟*

---

(٢٤) رولينغ، المرجع ذاته، ص ٥٩. راجع ايضاً: دومينيك بير، «العيش أو الموت معاً»، المنشورات الأكاديمية الأوروبية، بروكسيل، ١٩٦٩، ص ٤٣.

(*) ان اشارة الكاتب الى استخدام السلاح النفطي، الذي لم تشهره بعض الدول العربية الا من اجل تحقيق هدف عادل (تحريري)، تدفعنا الى ان نذكر اساليب أخرى مستخدمة تجاهلها الكاتب مثل: التهديد الاميركي باحتلال منابع النفط العربية لتكريس الاستغلال، والتهديد بسلاح التجويع (القمح) بغية قهر ارادة الشعوب، ومنعها من المطالبة بحقها في التحرر والسيادة على ثرواتها.
(الناشر)

وهل الحرب الباردة «سلام سلبي»، أم انها مقدمة للحرب؟ وهل هي بديل عن الحرب، أم ترى هي الحرب ذاتها؟ . وهل الحروب بالوكالة، حيث تجد الدولتان العظميان نفسيهما وجها لوجه من خلال وكلائهما، تدخل ضمن مفهوم «السلام» أم لا؟ انه لا يكفي التأكيد على ان السلام مستتب، عندما لا يتخاصم الناس في جزء من العالم، مثل الولايات المتحدة واوروبا، وهم شاهرون الاسلحة بأيديهم، اذ من الممكن قتل الناس أو اخضاعهم بتدابير اقتصادية، او باستعمال القلم او الكلمة.

لقد اصبح صعبا ان نطلق تعبير «السلام» على وضع اصبحت فيه الاسلحة المرعبة مكدسة على جانبي الستار الحديدي الذي يفصل بين بلدان حلف وارسو وبلدان حلف شمالي الاطلسي، الى جانب ملايين الرجال المسلحين حتى الاسنان، والمستعدين في كل حين، للانقضاض بعضهم على البعض الآخر. وللتجسس الذي يقوم به كل طرف على الآخر، بواسطة العملاء السريين والطائرات والاقمار الصناعية.

ومما لا شك فيه ان استخدام تعبير «التعايش السلمي» أو «الانفراج» بدلا عن تعبير «الحرب الباردة» لا يغير من الحقيقة والواقع شيئا. واذا كان الامر غير ذلك، فكيف نستطيع ان نبرر تلك المبالغ الضخمة التي تنفق كل عام على الاستعداد للتقاتل؟.

لقد اصبح الخط الفاصل بين الحرب والسلام، في الحقيقة، ضبابيا غير واضح، إذا لم يكن مجرد افتراض.

٨ـ الوضع منذ الحرب العالمية الثانية:

يوصف الوضع الراهن باوصاف متنوعة، اذ تختلف المصطلحات المستعملة لهذا الغرض حسب اختلاف الاحداث التي تتداخل فيما بينها بسرعة تزداد جدة كل يوم.

ويتحدث الإعلاميون العاملون في الصحافة والإذاعة والتلفزيون كثيراً عن «سلام الرعب المتبادل»، و«السلام الصاروخي»، و«التعايش السلمي»، و«الانفراج»، و«التصعيد»، و«تخفيف حدة التوتر»، و«التحذير»، و«ردع العدوان»، و«تأزيم الوضع». ويستعمل الآن ايضاً مصطلح «الانفراج بالقوة»!.

لقد اصبح الرأي العام يتأثر بالأحداث المقلقة والمهدئة معاً، فسكان المدن، مثلهم في ذلك مثل سكان الارياف، يحاطون علماً، من ساعة إلى أخرى، بأصغر حدث عسكري أو سياسي يقع في العالم. ومثل هذا يجري حتى في البلدان النامية، حيث يستمع كل يوم ملايين من الأميين، الذين لا ترتبط همومهم المباشرة مع السياسة الدولية، إلى التعليقات حول المعارك التي تجري في آسيا والشرق الأوسط. وغالباً ما تقدم دور السينما واجهزة التلفزيون أفلاماً مصورة عن مسارح هذه المعارك. وهكذا يشترك الرأي العام العالمي في المعارك العديدة التي جرت منذ العام ١٩٤٥ حتى الآن، وذلك بواسطة الإذاعة، والسينما، والصحف، والتلفزيون[٢٥] .

ان صورة الحرب موجودة في كل مكان، فمنذ ثلاثين عاماً يسيطر جو الحرب الذي اعتاد عليه العالم بدون وعي منه. ويسهم كل انسان في ذلك رغماً عنه، فالذين يتمنون انتصار إسرائيل هم، بدون وعي منهم، يقفون ضد السوفيات الذين يزودون العرب بالصواريخ والطائرات، والذين يطالبون بانسحاب الأميركيين من فييتنام يدعمون الشيوعيين في كفاحهم ضدالرأسمالية*. وكل إنسان يعرف ان القوتين العظميين تتحاربان بواسطة وكلائهما، بالرغم من انهما في حالة سلام من الناحية القانونية. ويجد العالم نفسه في الوقت الحاضر أمام نوع من القتال جرى ترتيبه، ضمن اطار اتفاق مشترك، بحيث لا تقع فيه مواجهة مباشرة، وما جرى في كوبا في العام ١٩٦٢ مثال على ذلك، فعندما اصبحت اللعبة جد خطيرة، فضل احد الخصمين الانسحاب على اللجوء الى خطر نشوب حرب شاملة.

وهكذا نجد ان الدولتين العظميين لا تجرءان، أو بالاصح لم تمتلكا الجرأة بعد، على استعمال ما لديهما من اسلحة الدمار الشامل، وذلك لان من الواضح ان الانتحار الجماعي سيكون النتيجة الوحيدة الممكنة للمجابهة المباشرة.

وفي جميع الاحوال، فإن سباق التسلح هو أبعد ما يكون عن التوقف. فقد بلغت

---

(٢٥) انظر «سلام عنيف»، تأليف كارل وشيلي ميدانس. نشر ستوك ١٩٦٨.

(*) كان ذلك قبل هزيمة الولايات المتحدة وانسحابها من فيتنام. (الناشر)

الميزانية العسكرية للولايات المتحدة في العام ١٩٧٤ حوالى ٨٦ مليار دولار.[٢٦] ومع ذلك، فان هذا غير كاف، لان الاميركيين يسعون الى حماية انفسهم من الصواريخ السوفييتية والصينية. لقد كلفت شبكة الصواريخ المسماة «بشبكة الحماية» التي اقامتها الولايات المتحدة عشرة مليارات من الدولارات.[٢٧] ومن العام ١٩٦٣ حتى العام ١٩٦٩، انفقت الدول العظمى على شؤون تسلحها خمسمائة مليار دولار.[٢٨] ويمكن ان تضاف إلى هذه الأرقام المبالغ الأسطورية التي يستهلكها غزو الفضاء والبحث العلمي.

لقد بلغت تكلفة تعبئة اكثر من ١٢ مليون رجل في الولايات المتحدة وتزويد الحلفاء بالاعتدة الحربية خلال فترة (١٩٣٩ـ ١٩٤٦) نحو ٣٥٠ مليار دولار،[٢٩] اي ما يساوي ٥٠ مليار دولار كل عام.

وبالرغم من عدم دقة الارقام المتعلقة بتكاليف الحرب التي يمكن حسابها بأشكال مختلفة، ومع الاخذ بالاعتبار ما طرأ على العملة من انخفاض، فالدقة المتوافرة اليوم في التقدير تسمح بالاستنتاج بأن الولايات المتحدة تنفق على شؤون الدفاع في الوقت الحاضر مبلغا سنويا يفوق ما كانت تنفقه في الحرب العالمية الثانية. وبالرغم من ان التعرف على نفقات الاتحاد السوفييتي العسكرية أقل سهولة من التعرف على مثل هذه النفقات في الولايات المتحدة، فانه يبدو من المنطقي ان نفترض ان النفقات السوفييتية العسكرية لا تقل عن مثيلتها الاميركية. وقد جاء في تقرير اعدته حديثا «الوكالة الاميركية لمراقبة

(٢٦) «النفقات العسكرية في العالم وتطور الاسلحة من ١٩٦٥ الى ١٩٧٤، الوكالة الاميركية لمراقبة الاسلحة ونزع السلاح»، الوثيقة ٨٤.

(*) تزايدت موازنة الدفاع الاميركية بعد العام ١٩٧٤، فأصبحت كما هو محدد بالجدول التالي:

العام	١٩٧٥	١٩٧٦	١٩٧٧	١٩٧٨	١٩٧٩
الموازنة بملايين الدولارات	٨٨,٩٨٣	٩١٠٠٠	١٠٤,٢٥٠	١١٣٠٠٠	١١٤,٥٠٣

(٢٧) يوليوس موش، المرجع ذاته، ص. ٢٥٠

(٢٨) انظر جريدة «لوسوار» الصادرة في بروكسل بتاريخ ١٩٧٠/٣/٢٤، ص. ٣.

(٢٩) الموسوعة البريطانية، الجزء ٢٣، ص. ٨٠١.

الاسلحة ونزع السلاح» بعنوان «النفقات العسكرية ونفقات التسلح في العالم ١٩٦٥ـ ١٩٧٤»، ان النفقات العسكرية للاتحاد السوفييتي قدّرت بمبلغ ١٠٣ مليارات دولار لعام ١٩٧٤ وان النفقات العسكرية العالمية تزيد على ٢١٥ مليار دولار. واستنادا الى هذه المعلومات يمكن استنتاج ثلاث ملاحظات:

١) يكرس كل مواطن سوفييتي او اميركي عددا كبيرا من ساعات العمل للاعداد للحرب، نظرا لان جزءا من الضرائب التي يدفعها الى الدولة يستخدم لتغطية النفقات الدفاعية.

٢) هناك عدد كبير من المواطنين السوفييت والاميركيين يستمدون من الاعداد للحرب مصادر عيشهم، فعدد العسكريين العاملين أقل بكثير من عدد العمال الذين يأخذون اجورهم ـ بشكل مباشر أو غير مباشر ـ من الاعتمادات المالية المخصصة للدفاع.

لقد كانت الاسلحة في الماضي بسيطة، وكان صانع السلاح وحده يعرف، من الناحية العملية، وبسبب البنادق والمدافع التي يصنعها، أن هناك أناساً سيقتلون في يوم من الأيام. أما اليوم، فان الاسلحة، وما يتعلق بها اصبحت معقدة، بحيث يشترك في صنعها عدد كبير جداً من المهنيين والاخصائيين. فالبيولوجي، والكهربائي، والفلكي، والميكانيكي، ولاحم المعادن، والإحصائي، مروراً بالعالم النفساني، والفيزيائي، ورسام التصاميم، وعدد آخر كبير من العاملين اليدويين والمثقفين، هؤلاء جميعهم لا يشتركون في صنع وانتاج اعتدة الموت والإعداد للحرب فحسب، وانما يجدون في ذلك أيضاً مصدر رزقهم ووجودهم.

٣) حتى تتمكن الدول من انتاج الاسلحة باقل تكلفة ممكنة، فقد لجأت إلى انتاجها بالجملة، فاصبحت الاسلحة بذلك سلعاً للاستثمار ذات مردود جد مرتفع. وتعاقبت الحكومات على وراثة «أسواق المدافع»، ونشب بينها صراع مرير للسيطرة على هذه

(*) ارتفعت نفقات الدفاع السوفياتية بعد العام ١٩٧٤، وغدت وفق الجدول التالي:

العام	١٩٧٥	١٩٧٦	١٩٧٧	١٩٧٨
نفقات الدفاع بملايين الدولارات	١٢٤٠٠٠	١٢٧٠٠٠	١٣٣٠٠٠	١٤٨٠٠٠

الأسواق، حيث تبيع طائراتها ودباباتها وصواريخها المضادة للطائرات. وعندما رغبت القوات الجوية البلجيكية، والهولاندية، والدانمركية، والنرويجية في استبدال ما لديها من طائرات «ف-١٠٤-ج»، جرى الحديث عن «صفقة العصر». وخلاصة الأمر انه كان هناك اعتماد مالي مقداره نحو ٣٠ مليار فرنك بلجيكي، مخصص لشراء مائة طائرة، يمكن أن تكون من طراز الطائرة «ميراج ف-١» الفرنسية، أو «ف-١٦» الأميركية. وقد تعرض وزير الدفاع الوطني البلجيكي لضغوط متنوعة، وتدخل رؤساء الدول الراغبة في بيع الطائرات لديه تدخلاً شخصياً، بغية تأمين هذه الصفقة. ومن غرائب الأمور ان يُستخدم الازدهار الاقتصادي ومكافحة البطالة من قبل بعض الحكومات كأسباب مبررة لانتاج الأسلحة أو لشرائها، وأن تطلب بعض الدول المشترية من الدول البائعة ان تدفع إليها «تعويضات» على شكل مبالغ كبيرة من المال، مقابل عقد صفقات لشراء الاسلحة منها.[٣٠]

وفي الوقت الراهن، هناك دول تنفق مبالغ معادلة لتلك التي كانت تنفقها عندما اشتركت في الحرب العالمية الثانية. وتشكل هذه المبالغ التي يُحقن بها الاقتصاد نوعاً من الميزانية الظرفية الطارئة، التي لا تستخدم لمكافحة البطالة فحسب، وانما تستخدم ايضاً لتأمين العمل لجزء كبير من السكان. وهكذا تكون النتيجة ان يشترك ملايين العمال في سباق التسلح دون أن يدركوا ماذا يفعلون.

وفي مثل هذه الحالة الغريبة التي يعيشها العالم اليوم، يسهم كل مواطن بواسطة عمله، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، في الاعداد للدفاع عن بلاده، أي في الإعداد للحرب. فهو منذ «زمن السلم» مقاتل، وبذلك يغدو في الوقت ذاته هدفاً. ويتجسس علماء كل طرف على الطرف الآخر، وقد ينتقلون، برضاهم أو رغماً عنهم، الى معسكر الخصم. وقد تقوم اضرابات منسقة يحركها اخصائيون في التخريب لارباك اقتصاد بعض البلدان. وتنشط الدعاية الموجهة الى وجدان الافراد للتأثير على ارادتهم الدفاعية.

---

(٣٠) تقبل الرأي العام البلجيكي عام ١٩٦٨ ببعض السهولة شراء بلجيكا دبابات «ليوبارد» من المانيا، وطائرات «ميراج» من فرنسا لأن الحكومة البلجيكية آنذاك حصلت على «صفقات مقايضة»، وفرت للعمال البلجيكيين ملايين من ساعات العمل. وفي الواقع، فان صناعة الطيران البلجيكية انتعشت بصفقة «الميراج». وقد تكرر الأمر ذاته عند شراء طائرات (ف- ١٦) في العام ١٩٧٥.

ولقد خلق هذا الجو من الصراع وعدم الثقة قلقاً تمثل، اكثر ما تمثل، بالاستعمال المتسع لأقمار التجسس الصناعية. فطائرات «يو- ٢» التي كانت مهمتها مراقبة المنشآت العسكرية عند العدو المحتمل، تم استبدالها الآن باقمار صناعية تدور حول الارض دوراناً دائماً، ولا يقتصر عملها على اكتشاف تحرك الصاروخ لحظة اطلاقه فحسب، وانما يمتد إلى مراقبة جميع انحاء أراضي الخصم، وذلك بفضل آلات التصوير المتقدمة المجهزة بها. وهناك بعض أقمار التجسس الصناعية المحلقة على علو ٦٥٠ كلم، قادرة على تصوير التفصيلات الارضية الموجودة في بقعة طولها ٧٠ متراً وعرضها ٢٠ متراً.[٣١]

وبعد، فهل ما يزال ممكناً، ضمن هذه الشروط، أن يستمر الحديث عن «السلام»، أو حتى عن «السلام السلبي»؟.

ومهما تكن الصفة التي توسم بها الحالة الراهنة، فاننا نجد انفسنا ملزمين بملاحظة ما يلي:

آ) هناك مذابح تجري بصورة مستمرة في العالم.
ب) تتحارب القوتان العظميان بواسطة وكلاء عنهما.
ج) يُسهم ملايين العمال في سباق التسلح، ويرتزقون منه.
د) هناك جيوش قوية تقف وجهاً لوجه، ويراقب بعضها البعض الآخر، ويتجسس كل منها على الآخر، وهي مستعدة لِيَنْقَضَّ بعضها على بعض.

هـ) لم تتوقف الحرب على الأثير أبداً.

ترى هل يمكن ان نقول مع جاك بريفير «السلام هو عندما تكون الحرب في مكان آخر»؟. لقد انزلق العالم، بصورة تدريجية، نحو وضع ذي طبيعة مجهولة. ويبدو أن الحديث في الوقت الحاضر عن السلام، حتى السلبي منه، أمر عسير. ففي خلال الحرب العالمية الثانية، لم تتعرض اراضي الولايات المتحدة للاحتلال أو القصف. وكانت المعامل الأميركية تنتج أسلحة تكاليفها اقل من تكاليف التسلح في الوقت الحاضر. وكان جنود

---

(٣١) انظر الوثيقة رقم ٢١٥ «جمعية اتحاد أوروبا الغربية»، الدورة السابعة (الجزء الثاني)؛ «حالة الأمن الأوروبي» ١٩٥٦- ١٩٦١، ص ٢٨.

الولايات المتحدة يقاتلون في اوروبا. وكان كل أميركي يعتبر ان بلاده في حالة حرب بالرغم من ان المدنيين في الولايات المتحدة يعيشون في سلام وفي مأمن من ويلات الحرب، ولا ينالهم تقنين المواد الغذائية، ولا يعانون احتلال العدو لاراضيهم. وتعيش الدول الاعضاء في حلف شمالي الأطلسي في الوقت الراهن، مثلها في ذلك مثل الدول الأعضاء في حلف وارسو، في حالة شبيهة بتلك التي كان يعيشها المدنيون الأميركيون اثناء الحرب العالمية الثانية. إننا لسنا في حالة حرب من الناحية القانونية، ولكننا لا نعيش في سلام.

ألا يؤدي بنا هذا إلى ان نستنتج بان السلام، مثله في ذلك مثل الحرب، قد غيّر ايضاً من طبيعته؟.

٩- ردود الفعل حيال الوضع الحاضر:

يمكن القول ان ردود الفعل لدى الناس حيال الوضع الحاضر متموجة، وتختلف حسب الظرف السياسي، واختلاف البلدان، والانتماء الطبقي. فهناك من ينكرون احتمال نشوب حرب عالمية ثالثة، بالطريقة التي يرفضون فيها تصور فكرة الموت بالنسبة اليهم. وهناك من يتظاهرون بارتداء لبوس الجبرية. ويبدو ان الوعي الشعبي يشعر شعوراً غامضاً بأن خطر الكارثة كامن. ويعطي سبر للرأي العام قامت به مؤسسة فرنسية[٣٢] بعض المعالم التي وان كانت معبرة عن رأي قسم من الشعب الفرنسي- تبقى ذات قيمة توضيحية:

- تعتقد الفرنسيات، اكثر من الفرنسيين، بان الحرب العالمية الثالثة ستقع.
- ان الذين تقل نسبة اعتقادهم بالحرب عن غيرهم هم الشبان (أي الذين تتراوح اعمارهم بين ٢١ و٣٤ سنة، أي الذين لم يشهدوا الحرب العالمية الثانية).
- ان الخطر يأتي من نهوض الصين اكثر مما يأتي من العداء بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة.
- هناك فرنسي من كل فرنسيين اثنين يعتقد بان فرنسا ستنخرط في الحرب العالمية الثالثة، مهما كان مصدر تلك الحرب وأصلها.

---

(٣٢) راجع «مجلة باري ماتش»، العدد ١١٠١، بتاريخ ١٢ حزيران ١٩٧٠، الصفحة ١٤ وما بعدها.

ـيقدر غالبية الفرنسيين بان اميركا تخلق اسباباً للحرب اكثر من الاتحاد السوفييتي.
ـتريد فرنسا السلام للعالم. ولا مجال للشك في هذا التأكيد بصورة عامة. ولكن غالبية الفرنسيين مقتنعون بان دور فرنسا في الحفاظ على السلام لا يمكن إلا ان يكون ثانوياً.

إن نتائج سبر الرأي العام هذا تعبر عن قلق جماعي مؤكد، وتشير الى ردود فعل انفعالية لجمهور ليس لديه إلا القليل من المعلومات. وحينما طرح السؤال التالي: «هل تخشون أن يعرف جيلكم حرباً عالمية ثالثة»، جرت الاشارة، بشكل طبيعي، إلى الحربين العالميتين الأولى والثانية، اذ لم يتم جذب انتباه الجمهور بشكل كاف إلى الإعداد الكثيف للحرب المدمرة الشاملة التي سيُجر اليها الشرق والغرب.

ويبدو أن بعض الحكومات تهتم بالحديث عن نزع السلاح والانفراج، أي بتهدئة خواطر الرأي العام، اكثر من المجازفة بارعابه بالحديث عن المخاطر التي تهدد الإنسانية.

ويمكن تصنيف ردود فعل الناس حيال امكان نشوب حرب مدمرة شاملة كما يلي:

آ) تدعم مجموعة منهم الفكرة القائلة بان حرباً نووية- حرارية هي أمر مستحيل الوقوع. وترى ان ذلك جنون محض، نتيجته الوحيدة لا يمكن أن تكون إلا الابادة المتبادلة. وهذا أمر غير مقبول في المرحلة الحالية من مراحل حضارتنا. ويمثل هذا رأي انصار «نظرية الحرب المستحيلة».

ب) يرى آخرون أن الحرب، طالما هي موجودة منذ القدم، فانها تقوم بوظائف اجتماعية تسهم في الحفاظ على النظام الاجتماعي لجماعة انسانية معينة. فاذا ما الغيت الحرب من الوجود، دون الاستعاضة عن وظائفها الاجتماعية ببدائل صحيحة، فان ذلك سيؤدي إلى نشوء حالات فوضى يمكن ان تفسد حياة الجماعات. وما دام الأمر كذلك، فان من غير الممكن اذن ايجاد بدائل مقبولة لجميع الوظائف الاجتماعية التي تؤديها الحرب، وبخاصة وظيفتها السياسية. وينتج عن هذا ان السلام غير ممكن، ومن هنا جاءت «نظرية السلام المستحيل».

ج) تقدم مجموعات أخرى، يمكن تصنيفها بصورة عامة تحت اسم «السلميين»،

سلسلة من الحلول للقضاء على الحرب. وتتميز «الحركات السلمية» بالصفات الرئيسية التالية:

- الإرادة الطيبة.
- العاطفة.
- اللافاعلية.

وحتى الآن، لم تؤد جميع النظريات المقترحة لهذه المجموعات إلا إلى خلق اوهام كبيرة.

د) واخيراً رد الفعل العلمي. وفكرته الأساسية هي ان الحرب العالمية الثالثة ستكون اسوأ كارثة يمكن ان تعرفها الانسانية. ولهذا يجب تجنبها. ولكن كيف؟ ان ذلك ممكن بالسيطرة على الظاهرة الاجتماعية- الحرب، بغية توجيهها وحرفها عن مسارها، ان لم يكن القضاء عليها.

وحتى تمكن السيطرة على ظاهرة ما، فيجب بادىء ذي بدء التعرف إليها. وبغية التعرف إلى الحرب، وفهم اسباب قيام جماعة انسانية منظمة، في وقت محدد بعينه وليس في وقت آخر، بشن هجوم على جماعة انسانية أخرى، مجازفةً بان تدمر نفسها بنفسها، فليس هناك سوى وسيلة وحيدة، هي دراسة الظاهرة الاجتماعية- الحرب، تماماً كما يدرس رد فعل كيميائي، بصورة موضوعية، ودون أية عاطفة.

ان هذا يعني البحث عن الأسباب العميقة التي تكمن وراء الادعاءات التي يحاول الناس ان يبرروا بها اعمالهم العدائية. ويمكن التساؤل، من جهة اخرى، عما اذا لم تكن هذه الجريمة الجماعية التي تسمى الحرب سوى ظاهرة عارضة لا تمثل إلا الجانب المتفجر والظاهري لبعض التغييرات الداخلة على بنيات الجماعات الاجتماعية.

ان علم الاجتماع الخاص بالحرب هو اذن ذلك القسم من علم الاجتماع الذي يهدف بصورة رئيسية إلى دراسة البنيات الاجتماعية الداعية للحرب دراسة علمية.

ولكن ظاهرة الحرب معقدة كتعقيد الحياة ذاتها، ودراستها تتجاوز وسائل باحث

منفرد. ولهذا فان مجموعات الاخصائيين المؤلّفة من ذوي النزعات المختلفة، هي وحدها قادرة على بلوغ نتائج مفيدة.

لا شك في ان العمل في هذا المجال صعب، ذلك أنه لا يؤدي إلى الاكتشاف السريع لحلول مذهلة ومهدئة. ولكن ليس هناك وسيلة أخرى يؤمل منها ان تعطل في الوقت المناسب الآلية الجهنمية التي يمكن ان تفجر في يوم ما الحرب المدمرة الشاملة.

وعندما تفشل جميع الطرائق العاطفية والسحرية، فان الطريقة العلمية تستطيع وحدها امتلاك حظوظ النجاح. وهذا يقودنا الى نظرية السلام بالبحث العلمي؛ تلك النظرية التي تقدم لنا آمالاً صحيحة.

وسنقوم في بادىء الأمر بدراسة:

- نظرية الحرب المستحيلة.
- نظرية السلام المستحيل.

وسنشرح لماذا نعتبر هاتين النظريتين خاطئتين. ومن ثم سنستعرض مختلف الحركات السلمية، مما يسمح لنا بالوصول إلى أن اية حركة منها غير قادرة على منع الحرب من النشوب او الاتساع. واخيراً، سنبرهن على ان البحث العلمي الصابر الدؤوب، يشكل الأمل الوحيد في تجنب كارثة الحرب العالمية الثالثة.

الفصل الثالث

نظرية الحرب المستحيلة

١٠ـ الحرب لا ترتبط ارتباطاً كلياً بالارادة الانسانية.

١١ـ الحرب الفرنسية ـ الألمانية في ١٨٧٠ـ ١٨٧١.

١٢ـ حرب ١٩١٤ـ ١٩١٨.

١٣ـ حرب ١٩٣٩ـ ١٩٤٥.

١٠ـ الحرب لا ترتبط ارتباطاً كلياً بالارادة الانسانية:

هناك سياسيون، وناشرون، وكتّاب عسكريون لديهم رد فعل يدعو الى الدهشة. ذلك انهم غالباً ما يعرفون اتساع الخطر، ولكنهم يعلنون عن قناعتهم بان الحرب النووية ـ الحرارية بشكلها المرعب هي أمر مستحيل عملياً.

والفكرة التي تشكل قاعدة قناعتهم هذه، هي ان الحرب النووية ـ الحرارية لا يمكن أن تكون لصالح أحد قط، طالما أن المعتدي الذي يهاجم خصمه هجوماً مفاجئاً سيكون هو نفسه وبدوره معرضاً للدمار بالقذائف التي تطلقها الغواصات السابحة تحت الماء، والتي يجهل المهاجم مكانها، أو معرضاً للدمار بالأقمار الصناعية التي تحمل القذائف النووية ـ الحرارية. وينتج عن ذلك ان شن حرب شاملة سيكون لا عقلانياً بشكل كلي، لان تلك الحرب لن تكون في نهاية الأمر سوى انتحار للجميع. كما أن الوسائل الهائلة للرد على الهجوم المفاجىء، تسمح بان تثني الخصم عن ارادة الهجوم، أي انها تسمح بـ«ردع العدوان». وهكذا فان قدرة الاسلحة الحديثة تجعل الحرب النووية ـ الحرارية أمراً مستحيلاً.

تنطلق «نظرية الحرب المستحيلة» من مُسلَّمة خاطئة، هي أن الحرب ظاهرة ترتبط ارتباطاً كلياً بالارادة الإنسانية، وانها تنشب حينما تريد الحكومات ذلك، وأن هذه الحكومات لا تشن الحرب إلا بعد ان تكون قد وزنت بوضوح النتائج المترتبة على

قرارها[٣٣] ان احد التأكيدات القليلة التي توصل إليها علم الاجتماع الخاص بالحرب، هو ان الحرب لا ترتبط ارتباطاً كلياً بالارادة الإنسانية.[٣٤]

تنشب الحرب عندما تتلاقى، شيئاً فشيئاً، مجموعة من الوقائع والمشاعر، وتنتهي إلى خلق حالة تبدو فيها أنها غير محتملة بالنسبة لأحد الخصمين، في هذا الوقت بالذات وليس في غيره. وتظهر الحرب آنذاك على أنها الحل الوحيد المقبول.

ان هذه الوقائع والمشاعر التي تتشابك فيما بينها ويؤثر بعضها في البعض الآخر بصورة مستمرة هي ذات طبيعة معقدة. فالبُنى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، والعوامل الناجمة عن النفسية الفردية والجماعية، واختلال التوازنات السكانية، والظروف الاقتصادية غير الملائمة، والعقائد والعقليات، ليست كلها، وباختصار، سوى بعض من مجموعة المتغيرات التي يؤثر كل منها في الآخر تأثيراً متبادلاً، وتنتهي إلى خلق توترات لا يمكن كبحها، بل تدفع المجموعات البشرية إلى التقاتل الجماعي.

وفي جميع الأحوال، فان التجربة والعقل السليم يبرهنان على ان الحرب ليست مستقلة استقلالاً كلياً عن الارادة الانسانية. وقد يحدث، في الواقع، أن يجد رجل أو مجموعة من الرجال أنفسهم مضطرين إلى اتخاذ قرار البدء، بالقتال او عدم مباشرته. وينطبق هذا على حالة هتلر وموسوليني اللذين قاما بدور مشعلي الحريق. أما الرئيس كينيدي فقد كان على العكس من ذلك، اذ برهن، بوضوح فكره وشجاعته اللذين منعا نشوب الحرب اثناء الأزمة الكوبية[٣٥] على أن الانسان يستطيع ايضاً ان يمنع الحرب من النشوب.

ومن الواضح دائماً أن القرارات المجنونة او العاقلة لبعض الرجال، في الوقت

---

(٣٣) انظر دراستنا حول «القلق والخوف والحرب» في «السلام بالبحث العلمي» الندوتان ٥ و٦ تشرين الثاني ١٩٦٩، نشر المعهد الاجتماعي لجامعة لير في بروكسيل.

(٣٤) غاستون بوتول «الحروب- عناصر علم الحرب» ص ٩، بايو ١٩٥١- ج. ب دوروسيل، «اوروبا من ١٨١٥ الى وقتنا الحاضر». دار النشر الجامعية الفرنسية، ١٩٦٤، ص ٣٠٠ وما بعدها- روجيه كيللوا، «انحدار الحرب»، آ. ج. نيزيت، باريز، ١٩٦٣، ص ٢٣٢.

(٣٥) روبيرت كينيدي، «ازمة في البيت الابيض»، نشر الاكسبريس، دينوييل، باريز ١٩٦٨، ص ١١٠ وما بعدها.

المناسب، هي التي تسمح لاغراءات الاقتتال بالانفجار أو السكون[٣٦]. ولهذا فان من الخطر الانسياق إلى الاعتقاد بحتمية يائسة، تعتبر الحرب ظاهرة محكومة حكمًا كلياً بمجموعة من الحالات والبُنى الاجتماعية او السياسية أو الاقتصادية التي لا قدرة لنا عليها، طالما أنه يحدث ان تُمنع حروب من النشوب بفضل قرار زعيم سياسي ذكي.

ولكن تطرح هنا مشكلة حرية الاختيار الفردية والجماعية. فكلما تقدمت العلوم الاجتماعية، ظهرت حرية الاختيار وكأن مجال عملها قد ضاق، بالرغم من ان ذلك غير قابل للمناقشة علمياً[٣٧] فقد اصبح بإمكان التحليل النفسي اليوم، أن يفسر سلوك فرد ما، ليس بالاستناد الى ممارسته الحرة لارادته، وانما بالعكس، اذ يفسر السلوك بواسطة كشف الدوافع غير العقلانية التي تنبعث من عمق اللاوعي لديه.

إن تركيبة الانفعالات، وحالات القلق، والعقد، وأعمال الكبت، والانعكاسات، والمفاهيم، واسقاط الميول المكبوتة، والشعور بالحرمان من الحقوق- ان تركيبة هذه العوامل التي تركزت في ذات كل فرد منذ نعومة أظفاره، تحدد القسم الأكبر من سلوكيته. ويضاف إلى ذلك كله، تأثير البيئة، وضبط السلوك، والتربية الناجحة أو الفاشلة، وأثر وسائل الاعلام والعقليات السائدة.

ضمن هذه الشروط، لا بد من الاعتراف بان افعال الفرد لا تُحدَّد بارادته، ووفقاً للمعايير التي يقدمها العقل إلا نادراً، اذ ان العقل يتدخل، عموماً، بعد الفعل لتبرير الافعال وليس للأمر بها.

وهذا الواقع مقبول لدى العدالة، فقد افاد اكثر من مجرم من الظروف المُخَفِّفة، لأن ظروفه السابقة النفسية- الاجتماعية، كمثل طفولة بائسة او فترة صبا قضاها في بيئة غير سليمة اخلاقياً، تبرهن على أن مسؤوليته محدودة، لأن ارادته لم تكن كاملة الحرية.

وللزعماء السياسيين، مثلهم في ذلك مثل جميع الناس، ظروفهم السابقة

---

(٣٦) لويس ديلبي، «مفهوم الحرب»، باريز، نشر بيدون، ١٩٥٣، ص ١٧.

(٣٧) هنري جان، «النظام الاجتماعي- دراسة نظرية عامة» نشر المعهد الاجتماعي لجامعة لير في بروكسيل، ١٩٦٨، ص ٢٤٦ وما بعدها.

الاجتماعية- النفسية، وماضيهم، وتربيتهم الناجحة أو الفاشلة. وجميع هذه العوامل تفرض نفسها على سلوكيتهم وتحددها.

ان رؤساء الدول بشر كالآخرين. وهم ليسوا اكثر من بقية الناس حرية في ان يقولوا او يفعلوا ما يعتقدون بانه الأكثر عدلاً والأسلم منطقاً، بل هم على العكس من ذلك. حتى الحكام الطغاة، لا بدّ لهم في حدود معينة، من ان يأخذوا بعين الاعتبار ردود فعل الرأي العام. وتتدخل ردود الفعل هذه ايضاً سواء من اجل كبح جماح هؤلاء الطغاة أو من اجل دفعهم الى العمل. وهكذا فان حرية الاختيار لدى رؤساء الدول محددة بضغوط خارجية وتحريضات وحوافز داخلية، ولا تتدخل عقولهم وارادتهم في الاختيار بين الحرب والسلم إلا قليلاً.

وفي غالبية الدول الديموقراطية تُتخذ القرارات السياسية من قبل «معاهد الزعماء». ولكن، هل يكفي ان يتناقش هؤلاء الزعماء ويتخذوا القرارات كجماعة لتأييد الرأي القائل بأن حرية اختيارهم الجماعية هي أوسع من حرية الاختيار الفردية لكل منهم على حدة؟. يبدو، على الارجح، ان الأمر هو عكس ذلك، فعلم نفس الاجتماعات والجمعيات يعلمنا ان الرجال متى كانوا في جماعة يتأثر بعضهم ببعض، ويصلون احياناً إلى اتخاذ قرار بالاجماع يختلف كل الاختلاف عن القرار الذي يتخذه بعضهم فيما اذا عمل كل منهم بمفرده منعزلاً عن الآخرين، ويتحملون، بالتالي، وحدهم مسؤولية أعمالهم.

ويبدو القول بان هناك حتمية جبرية تقود بصورة قطعية الى الحرب بسبب سلسلة من التغييرات في البُنى المادية والفكرية للمجتمعات قولاً غير مقبول. اذ من الصعب، في الواقع، ان نتصور أن مجريات الأحداث في حرب ١٩٣٩- ١٩٤٥، مثلاً، يمكن أن تكون هي نفسها تماماً، لو كان المستشار أديناور في محل هتلر، أو كان آلسيد دي غاسبيري في محل موسوليني، اذ لا جدال في ان الزعماء السياسيين لا يمكن أن يتبادلوا الادوار فيما بينهم مثل دواليب آلة ميكانيكية، لأن الشخصية الذاتية لكل منهم تلعب دوراً في قرارات اعلان الحرب أو إقامة السلام.

ونظراً لأن الزعماء السياسيين هم بشر كالآخرين، فانهم يقومون بأعمال وردود فعل بتأثير من امزجتهم، وطباعهم، وهمومهم، وعقليتهم، وشعورهم بالخيبة، ورغبتهم في

إثبات الذات، وعواطفهم، اكثر من ان يقوموا بهذه الأعمال وردود الفعل بعد أن يكونوا قد لجؤوا، بهدوء وصفاء كاملين، إلى منطق صارم، كما لو كانوا يفعلون حينما يتوجب عليهم حل مسألة هندسية. ويفسر هذا الوضع بان الهندسة غريبة بشكل كلي عن المصالح الشخصية، والمشاعر، والأهواء. وهذه حالة مختلفة عن حالة السياسة وحالة الحرب.

ينتج مما تقدم، أنه يبدو من الصعب جداً، أن نعتبر أن الحرب ظاهرة ارادية وعقلانية بشكل كلي، بل على العكس من ذلك، اذ يعلمنا التاريخ ان حروباً غير مرغوب في شنها، تندلعُ بالرغم من منافاة اسبابها للعقل. وليست الحرب الفرنسية الألمانية لعام ١٨٧٠- ١٨٧١، والحربان العالميتان سوى أمثلة تسمح لنا بتأكيد ما تقدم.

١١- الحرب الفرنسية الألمانية ١٨٧٠- ١٨٧١:

اعلنت فرانسا الحرب على بروسيا يوم ١٩ تموز ١٨٧٠. وقد فعلت ذلك «بقلب لا تُثقله هموم»، اذ أعلن رئيس الوزراء الفرنسي إميل أوليفييه أمام المجلس التشريعي[٣٨] :

«اننا نقبل الحرب بقلب لا تثقله هموم... (احتجاجات صاخبة من اليسار)... نعم بقلب لا تُثقله هموم، ولا تُحمِّلوا هذه الكلمة اكثر مما تحمل من معنى... اريد أن أقول بقلب لا يُثقله الندم، بقلب واثق، ان الحرب التي سنقوم بها سنتحملها... لأننا فعلنا، انسانياً وبشرف، كل ما هو ممكن من اجل محاولة تجنبها؛ واخيراً، فان قضيتنا عادلة وقد عهدنا بها إلى الجيش الفرنسي» (اشارات تأييد كثيرة وصاخبة. تصفيق مكرر).

لقد اخفقت سياسة نابليون الثالث التوسعية. وكان النصر الصاعق الذي احرزته بروسيا على النمسا، عام ١٨٦٦، مفاجأة محزنة لأمبراطور الفرنسيين. وقد مست سياسته الايطالية ومغامرته المكسيكية التعيسة هيبة الاسرة الحاكمة، أي ان مركز الأسرة الأمبراطورية يمكن أن يوضع مرة أخرى موضع التساؤل، سواء في المدى الزمني القريب أو البعيد.

فكرت الأمبراطورة اوجين بأن حرباً ظافرة يمكن أن تعيد الهيئة إلى الأمبراطور،

---

(٣٨) الجريدة الرسمية بتاريخ ١٦ تموز ١٨٧٠.

ولكنها، في قرارة نفسها، كانت تريد بصورة خاصة أن تنقذ عرش ابنها[٣٩]. لهذه الأسباب شجعت الأمبراطورة، وهي امرأة، على الحرب.

كيف يمكن تبرير هذه الحالة عقلياً؟. ألا يعني الأمر هنا ردة فعل حرة من كل قيد تصدر عن أم مستعدة للقيام بكل عمل يؤمن لها مستقبل ابنها؟

عقد مجلس الوزراء ثلاث جلسات متتابعة ايام ٤ و٦ و١٤ تموز ١٨٧٠[٤٠] واصطدمت الإمبراطورة في بادىء الأمر بحذر الإمبراطور. وكان الرأي العام هائجاً[٤١] وطرح وزير الخارجية م. دي غرامونت (سمي وزيراً يوم ١٥ أيار ١٨٧٠ بالصدفة و«تكملة عدد»)[٤٢] صيغاً تثير النزعة العدوانية الجماعية، مثل الجملة التي صفق لها المجلسان النيابيان تصفيقاً حاداً حين تحدث عن بروسيا فقال: «تنصيب أحد أمرائها (أي فرنسا) على عرش شارل كانت»، أو، مثل الجملة التي وجهها إلى اوليفييه رئيس مجلس الوزراء، «يا عزيزي، انك ترى رجلاً تلقى صفعة!». وقد انتشر النبأ على أساس أن فرانسا قد صفعت[٤٣]. وحسب عقلية ذلك العصر، فالجبناء وحدهم يتلقون الضرب دون ان يردوا عليه.

طالب الرأي العام بالترضية. وارتفع في باريز نداء «إلى برلين» (وفي برلين ارتفع نداء «الى الرين»!).

وفي ١٢ تموز سحب الأمير ليوبولد دي هو هنزولرن (ابن عم ملك بروسيا) ترشيحه لعرش اسبانيا. وكان هذا نصراً دبلوماسياً كبيراً لفرنسا. ولم يعلن وزير الخارجية، دي

---

(٣٩) د. جينيت، «الفترة المعاصرة ١٨٤٨- ١٩٣٩»، نشر آ. هاتييه، باريز، ١٩٤٦، ص ١٦١.

(٤٠) هنري هوزيه، جان موران، بيير بينيرت: «من الليبرالية إلى الأمبريالية» (١٨٦٠-١٨٧٨). سلسلة: شعوب وحضارات. دار النشر الجامعية الفرنسية، باريز ١٩٣٩، ص ١٤٤ وما بعدها.

(٤١) انظر من اجل هذا الموضوع الدراسة الهامة التي اعدها ج. ستينجر «في اصول حرب ١٨٧٠: الحكومة والرأي االعام» في «المجلة البلجيكية للفلسفة والتاريخ»، الجزء ٣٤، ١٩٥٦، الصفحات من ٧٠١ إلى ٧٤٧.

(٤٢) الموسوعة البريطانية، الجزء ١٠، ص ٦٦٨. ان هذه النقطة هامة، ذلك ان الوزير الجديد لا يملك ردود فعل مماثلة لتلك التي يملكها وزير ذو تجربة في الحكم معروفة عنه لدى الجميع. (انظر لهذا الأمر دراستنا حول «القلق والخوف والحرب»، المرجع ذاته، ص ٥٦، «شرح موقف الوزير البلجيكي بول هيمانز يوم ٢ آب ١٩١٤»).

(٤٣) جان دوشي، تاريخ العالم، الجزء الرابع «المنعطف الكبير»، القسم الأول «١٨١٥- ١٩١٤)، ص ٢١٥، فلاماريون، ١٩٦٦.

غرامونت، عن ارتياحه لذلك وانما طالب، دون أن يبلغ بذلك رئيس مجلس الوزراء أوليفييه، بان يعلن ملك بروسيا التزامه بان لا يعود إلى تقديم ترشيح من نوع ترشيح الأمير دي هو هنزولرن.

وقد ذهل غليوم الأول من الطلب الفرنسي، بالرغم من السرور الذي شعر به حينما رأى الأزمة وقد حلت، واخبر السفير الفرنسي بانه ليس لديه ما يقوله، وابرق إلى بسمارك بتفصيل الحادث. ومن هنا نشأت قصة برقية «إيمز» المشهورة. وحينما أوجز بسمارك البرقية حوّرها إلى شكل طلب مهين تقدمت به فرنسا، كما حوّرها في الوقت ذاته إلى رفض غاضب من قبل غليوم الأول. وقد نشرت البرقية في جريدة «المانيا الشمالية»، مما أثار فوراً حركة في الرأي البروسي لصالح الحرب.

وفي الجلسة الثالثة التي عقدها مجلس الوزراء الفرنسي يوم ١٤ تموز، حاولت الأغلبية ان تقاوم الأمبراطورة والوزير دي غرامونت. وفي المجلس التشريعي احتج «تيير»، واوضح أن فرنسا، في الأساس، تلقت ما يرضيها، وانه ليس هناك احد يقاتل من اجل مسألة شكلية، فهوجم، وعومل على أنه «بوق الكارثة المعادي للمواطنية» وأنه «بروسي». وقد صوت المجلس التشريعي على النفقات ليلة ١٥ـ ١٦ تموز ١٨٧٠ بتأييد ١٠١ صوت ومعارضة ٤٧ صوتاً.

وقد اختار نابليون الثالث، المريض والمتعب، الحرب، في الوقت الذي كان يريد السلام، وذلك بعد تدخل الأمبراطورة والمارشال لوبوف وزير الحربية. وهكذا زج نفسه كلياً في الخطأ، حين اعلن الحرب على بروسيا يوم ١٩ تموز ١٨٧٠ [٤٤].

(٤٤) انظر مؤلفات:
آ- هنري هوزر- جان موران- بيير بينارت.
ب- جان دوشي.
ج- دوروزيل.
د- ل. جينيت.
هـ- جان دي بانج: «ألمانيا» منذ الثورة الفرنسية ١٧٨٩- ١٩٤٥، نشر فايار، الدراسات التاريخية الكبرى، باريز ١٩٤٧، ص ١٤٠ وما بعدها.
و- اندريه غيران «الحرب المجنونة ١٨٧٠»، هاشيت، ١٩٧٠، ص ٦٧ وما بعدها.

وفي المانيا، احتلت شخصية بسمارك مقدمة مسرح الأحداث. وبالرغم من انتصارات بروسيا، فأن الصعوبات الداخلية كانت تهدد الوحدة الألمانية. وكانت الارياف الكاثوليكية تقاوم بشدة، بروتستانتيي الشمال. وقد وقر في ذهن المستشار بسمارك ان الحرب وحدها ضد فرنسا تسمح بترسيخ الوحدة الألمانية. وعندما تلقى البرقية التي تتضمن بصيغة غير منحازة أن غليوم الأول رفض استقبال سفير فرنسا، وانه متفق مع رئيس الاركان العامة «مولتكه»، ومع «روون» وزير الحربية، اوجز بسمارك البرقية بشكل اعطاها معنى مهيناً لفرنسا، لأنه اعتقد ان نصه هذا «سيحدث في الثور الغولوازي التأثير الذي تحدثه الخرقة الحمراء». وقد كان محقاً في ظنه هذا.

لقد اصبح الممثلون الذين قادوا فرنسا وألمانيا إلى المواجهة في ساحات القتال معروفين الآن. فهل اتخذ هؤلاء قراراتهم بوضوح كامل وباستقلالية كاملة؟.

● لنبدأ بنابوليون الثالث؛ الذي كانت «سياسة البخاشيش» التي اتبعها فاشلة. وكان عليه ان يحسب حساب معارضة نشيطة. وكان الرأي العام هائجاً صارخاً «إلى برلين». وكانت زوجة الأمبراطور تمارس على زوجها تأثيراً كبيراً. واذا ما ذهب المرء إلى عمق الأمور، فقد يكتشف هنا تأثير الغريزة الجنسية للأمبراطور، وقد اختلطت بشعور الذنب المتولد من الخيانات الكثيرة التي ارتكبها والتي يريد ان ينال عليها المغفرة [٤٥] ولقد انعقد مجلس الوزراء يوم ١٤ تموز في المساء، أي في وقت يكون فيه المرء متعباً وبالتالي تصبح مقاومته ضعيفة أمام الضغوط النفسية التي يتعرض لها. وبالاضافة إلى ذلك، كان نابوليون الثالث مريضاً. اي انه لم يكن يملك جميع طاقاته، مما ادى به، بعد مناقشات طويلة، الى التنازل شيئاً فشيئاً، وإلى اختيار الحرب، في الوقت الذي كان يريد السلام.

● الأمبراطورة: كانت تريد الحرب، لانها كانت مقتنعة بان النظام الليبرالي يقود الأمبراطورية إلى الدمار، وان النصر يمكن أن يحيي نظاماً متسلطاً قادراً على تأمين خلافة الأمير الأمبراطوري على العرش. وهنا تبدو لعبة غريزة الأمومة واضحة: فالأم تريد أن تحمي مستقبل ابنها دون أن تفكر في نتائج عملها. ان هذا، بكل بساطة، عمل غير واعٍ، فعقلها كان غريباً عن عملها.

---

(٤٥) انظر ل. جينيت، المرجع ذاته، ص ٧٥.

● وزير الخارجية الدوق دي غرامونت: سمي وزيراً يوم ١٥ أيار ١٨٧٠، بفضل حماية الامبراطورة له. وقد عُرف ترشيح ليوبولد هوهنزوليرن البروسي لعرش اسبانيا يوم ٢ تموز في إثر إفشاء سر الترشيح. وكان تصرف دي غرامونت، الوزير الجديد، بتسرع وطيش، فقد كان يريد أن يتأكد من الترشيح. لقد القى كلمات كانت مشحونة بطاقة مثيرة متفجرة. . . «انك ترى رجلاً تلقى صفعة!»، وهذا يعني أنه رجل مستعد للذهاب إلى القتال بالمبارزة ليحصل على ترضية. وهنا يجب اللجوء الى عمل الغريزة القتالية لتفسير الوضعية غير المنطقية للدوق دي غرامونت.

● تيير: تدخل يوم ١٥ تموز في المناقشة التي تلت البيان الذي قدمه رئيس مجلس الوزراء في المجلس التشريعي. وكان تيير يتكلم بلغة العقل، وقد عومل على انه «بروسي».

●كان دي غرامونت في الواحدة والخمسين من عمره، وكان تيير يبلغ ثلاثاً وسبعين سنة. وكان الأول يعمل على أن يتقدم إلى أمام، بينما كان مستقبل الثاني يقف وراءه. وبعد خدمة طويلة كزعيم سياسي بلغ هذه السن المتقدمة، لم يكن يسعى الى ارضاء الآخرين، وكان يتخلص من الهموم التي تثير من هم اصغر سناً.

ونظراً لأن تيير كان مستقلاً بالنسبة لزملائه الأصغر منه سناً، وكان قد مارس السلطة كزعيم سياسي طيلة سنوات عديدة، وتاريخه زاخر بالأمجاد، فلم يكن هناك ما يربحه، لذا فهو يقول ما يفكر فيه، ويستطيع التفكير بكل حرية.

● بسمارك: كان عمره ٤٧ سنة، حينما اصبح وزير الملك غليوم الأول. كانت فترة شبابه قاسية، وقد كبتت لديه كل إحساس. وحينما حل عام ١٨٧٠ كان قد مضى على وجوده في منصب الوزير ثمانية أعوام. لم يكن اذن مبتدئاً، فتجربته السياسية وقوامه الهرقلي خلقا عنده عقدة التفوق التي احتفظ التاريخ بالشواهد عليها. جريء، ولكنه ماهر في التخطيط، ويعرف كيف يتحمل مسؤولياته. محافظ، ولكنه انتهازي وواقعي.

كان بسمارك، مثله في ذلك مثل الملك، و«رون» وزير الحربية، و«فون مولتكه» رئيس الاركان العامة، يريد القيام باصلاح عسكري يعطي بروسيا جيشاً يتناسب

وسياستها. وحتى يتمكن بسمارك من إسكات المعارضة كان يبحث عن نجاحات خارجية.

وقد اقتنع بسمارك انه بتحقيق الوحدة الألمانية حول بروسيا بواسطة الحروب المتتالية، يخدم بلاده وملكه والنبالة التي ينتسب إليها. وكان يرى الحرب، وفق الصيغة الشهيرة لكلوزويتز «استمراراً للسياسة بوسائل اخرى». وكان يرى ان حرباً مع فرنسا تنزل الى المرتبة الثانية خطة البعض المعادية لبروسيا، ليحل محلها الشعور الوطني الالماني. كان بسمارك يعرف ان غليوم الأول يكره فرنسا. لماذا هذا الكره؟. لأن قطعات نابوليون الأول طردت غليوم الأول من برلين عام ١٨٠٦ حينما كان صبياً.

طبق بسمارك، بحدسه، الصيغة المعروفة جيداً في علم الاجتماع، وهي: تجميع الأنداد بالمعارضة المشتركة. ويعني تطبيق هذه الصيغة في الحرب، ان اندلاع القتال يؤدي الى اختفاء كل معارضة سياسية لتخلي مكانها لاتحاد الجميع ضد العدو المشترك.

ومن بين جميع ممثلي هذه المأساة التي تمثلت في الحرب الفرنسية- الالمانية، يبدو، لأول وهلة، أن سلوك المستشار بسمارك كان ذلك السلوك الذي لعب فيه العقل والارادة، نسبياً، الدور الاكبر، مع الاخذ بعين الاعتبار الاطار النفسي- السياسي لذلك العصر.

ولكن، ماذا كان تأثير الثقافة التي تلقاها بسمارك في عمله السياسي؟. كانت أمه، كما صرح بذلك بسمارك نفسه، قاسية وباردة تجاهه. وفي هذه الحال، فان علم النفس الحديث كشف اهمية العلاقات التي تقوم منذ الولادة بين الولد وأمه وأثرها في سلوك الفرد. وينسب بسمارك إلى أمه سلوكه الاستبدادي. وقد اصبح، كنتيجة لذلك، عدوانياً متمرداً. [٤٦]

كانت أم بسمارك بنت مستشار في مكتب ملك بروسيا، وقد غضب عليه لأنه هلل للثورة الفرنسية ولحقوق الانسان. ولذا ورثت عن ابيها تعاطفاً مع الافكار الليبرالية. وكانت اثناء الثورة الفرنسية لعام ١٨٣٠ تبعث بابنها «أوتو» (وكان عمره آنذاك ١٥ عاماً) ليشتري لها الصحف التي تحمل انباء باريز.

---

(٤٦) جان دي بانج، المرجع ذاته، ص ١٢٠ وما بعدها.

ولقد اصبح بسمارك، دون وعي منه، وخلافاً عن أمه، عدواً للثورات، ومحافظاً لا يقبل إلا أن يكون اصلاح الأمبراطورية بواسطة تصويت يتم في برلمان فرانكفورت.

وهكذا اصبح هذا المخطط الماهر الهادىء يتألم من الكبت والعقد التي تحدد، الى حد كبير، مواقفه وسلوكه. وبالرغم من المظاهر، فان بسمارك لم يتصرف بارادة حرة حرية كاملة، ولا بوضوح خال من كل حقد، فماضيه، وطفولته، وانتسابه إلى طبقة شعبية، لها نصيبها في سلوكه السياسي.

ويبدو انه في اصل واسباب حرب ١٨٧٠- ١٨٧١، من الصعب ان يجد المرء أسباباً غير تفاعل مجموعة قوى نفسانية، فقد كانت هموم السلطة والهيبة حاسمة.(٤٧)

لقد كانت ارادة بسمارك مسيطرة، وكان يقود الأحداث، وهذا واضح من أول نظرة. ولكننا نتساءل، هل كان لهذه الحرب أن تقوم، لولا خفة الدوق دي غرامونت العجيبة، ورغبة الأمبراطورة في تأمين العرش لابنها، وحالة نابوليون الثاني الصحية الضعيفة، والرأي العام الفرنسي والألماني الهائج، أي لولا مجموعة من العوامل الغريبة عن العقل وعن الارادة الخالصة الحرة؟.

واذا كان بسمارك هو «مشعل الحريق»، فهل هو المسؤول مسؤولية كاملة؟ وعلى كل حال، فقد ساعدته الأمبراطورة اوجين والدوق ذي غرامونت على ذلك.

ومن المؤكد، أن حرب ١٨٧٠ لم تكن عملاً ارادياً وعقلانياً، فقد اندلعت ضد ارادة رئيسي الدولتين المعنيين. ودفعت آلية الأحداث وتداخل مجموعة من القوى النفسانية الغامضة وغير المقيدة الشعبين إلى القيام باعمال تدمير متبادلة، كانت مجازر ١٩١٤-١٩١٨ و١٩٣٩- ١٩٤٥ امتداداً لها.

ان هذا أول مثل ينقض نقضاً كاملاً المُسَلَّمة التي تقوم على اساسها نظرية الحرب المستحيلة. فلننتقل الآن الى المثل الثاني.

---

(٤٧) دوروسيل، المرجع ذاته، ص ٣٠١.

١٢- حرب ١١١٤- ١٩١٨.

لم يكن تشابك الأحداث التي جرت بين ١٨٧٠ و١٩١٤ خاضعاً لمراقبة زعماء أوروبا.

لقد هدأت النفوس، بعد تلك الفترة التي كان اساتذة التاريخ الفرنسيون والألمان يعلمون خلالها طلابهم بان المسؤول الكبير عن الحرب العالمية الأولى كان غليوم الثاني «سيد الحرب»، او الرئيس بوانكاريه «النَّقوم اللوريني». واليوم، بعد انقضاء اكثر من نصف قرن على مأساة ١٩١٤- ١٩١٥، يسعى المؤرخون الى فهم اسباب اندلاع هذه الحرب.

ويتفق جميع هؤلاء على «ان المسؤولية الارادية والوجدانية لهذه الحرب الشاملة لا تعود إلى اي من المعسكرين، وانه لا يبدو أن هناك سبباً مطلقاً حاسماً»[٤٨]. وقد كتب الاستاذ هنري برنارد: «. . . ليس هناك مؤرخ أو حقوقي قط، يستطيع حتى الآن أن يقدم لنا بصورة مقبولة جميع الأسباب الحقيقية لهذا النزاع. ولم يتم الاتفاق ابداً حتى اليوم حول ترتيب هذه الاسباب حسب اهميتها»[٤٩].

ويبدو ان العوامل النفسانية[٥٠]، من بين جملة القوى التي دفعت، دون وعي، الدول الأوروبية نحو الحرب، قد لعبت دوراً جد هام.

وقد كان بسمارك، منذ انتهاء حرب ١٨٧٠- ١٨٧١، يخشى الفكر الانتقامي لدى الفرنسيين. فقد كان سلام فرانكفورت (١٠ أيار ١٨٧١) «حاملاً بالحرب». وكان بسمارك يعرف هذا «ولكنه كان يقول ان فرانسا لن تغفر لنا اننا رددنا عنا ظافرين هجوماً إجرامياً». وقد قدر بسمارك، ضمن هذه الشروط، أنه من الأنسب له ان يأخذ القلاع والحصون الشرقية ليحمي نفسه ضد انتقام فرانسا «لكبريائها المجروحة»[٥١].

---

(٤٨) دوروسيل، المرجع ذاته، ص ٣٠٣.

(٤٩) هـ. برنارد، «الحرب الشاملة والحرب الثورية»، الجزء الأول، نشر بريبول، ١٩٦٥، ص ٢٥٧.

(٥٠) بيير رونوفان، «السلام الأوروبي والحرب العالمية الأولى»، الطبعة الثالثة، دار النشر الجامعية الفرنسية، سلسلة «شعوب وحضارات»، باريس ١٩٤٨، ص ٢٠٢.

(٥١) جان دوشيه، المرجع ذاته، الجزء الرابع، القسم الأول، ص ٢١٩.

ويبدو أن من المؤكد ان ضياع الألزاس واللورين قد خلق في العقل الباطني الجماعي للفرنسيين فكراً انتقامياً. فقد رفع «غامبيتا» رجل حرب الابادة في وقت مبكر شعار «فكروا في الحرب دوماً، ولا تتحدثوا عنها».

ولكن، مع الأسف، هناك البعض لم يكتفوا بالتفكير في الحرب فقط، وانما تحدّثوا عنها كثيراً. فالجنرال بولانجيه (١٨٨٦- ١٨٨٧) تجرأ على الحديث عن الانتقام بشكل عدواني. وقضية «درايفوس» التي بدأت عام ١٨٩٤ واستمرت حتى ١٩٠٦، تعبر عن اضطراب وطني خطير.

ونظمت «رابطة المواطنين» التي يقودها «ديروليد» مظاهرات صاخبة. واسهمت ازمات عديدة نشأت بين فرنسا وألمانيا في خلق جو عدائي لدى الرأي العام الفرنسي ضد المانيا: (حريق شنوبيل عام ١٨٨٧- الازمات المغربية في ١٩٠٥ و١٩١١-، واستقالة «ديلكاس» التي طالبت بها المانيا عام ١٩٠٥).

وكان الالمان، من جهتهم، يخشون الفكر الانتقامي الفرنسي. وكانوا يخافون، بصورة خاصة، من ان يتم تطويقهم نتيجة للعبة التحالفات (الاتفاق الثلاثي: فرنسا، روسيا، انكلترا). وكان الجو النفسي ابعد ما يكون ملاءمة للسلام.

لقد ساعدت أمِّية الجماهير على انتشار الدعاية بصورة كبيرة. واخذ المدرسون واساتذة الجامعات والصحفيون والكتاب يمجدون فكرة الوطن. واثار المؤرخ الالماني «تريتشكيه» الشعور الوطني لدى الألمان، ونشر افكار «هيجل» التي ترى ان الحرب ليست ضرورية فقط، وانما هي ايضاً عمل يُشَرِّف الانسان. ونشأت في عام ١٨٩١ رابطة قومية المانية كان هدفها المعلن ان يستوعب الرايخ الالماني ذاته جميع الالمان الذين يعيشون خارج حدوده، ومن بين هؤلاء، كان ليوبولد بوتش «أستاذ التاريخ في المدرسة الملكية في لينز، فقد جعل من هتلر ثورياً»[٥٢].

لقد حجبت ديانة عبادة الوطن، في الجانب الفرنسي، كما في الجانب الالماني، المشاعر الجماعية الأخرى. «فقد كان لهذه الديانة معتقداتها: للدولة- الأمة سلطات غير

---

(٥٢) دي بانج، المرجع ذاته، ص ١٧٠.

محدودة؛ والقواعد الاخلاقية لها: الأنانية، والتقديس، والتضحية الكاملة؛ وطقوسها: الاستعراضات العسكرية، والاستعراضات البحرية، والتطواف بالمشاعل، والاحتفالات؛ ولهذه الديانة ابطالها، وتماثيلها، واعيادها (١٤ تموز، سيدان ـ تاك)؛ ولها رموزها: النسور، والفهود، والأحصنة الأسطورية، والأسود، والديوك، والحيوانات من مختلف الانواع، والشعارات، والأعلام؛ ولها اناشيدها الوطنية؛ ولها رعاتها: ضباط من مختلف الرتب، ورجال سياسيون، ومدرسون من جميع الاختصاصات، وصحفيون، وكتاب. واذا كان البعض كانوا يغتاظون من مرشّة الماء المقدس، فانهم كانوا يجلّون السيف، طالما ان الحقيقة الواقعة، حتى في العصر الحديث، تؤكد على أن الانسان ما يزال حيواناً ذا شعائر وطقوس. فحيثما لم تكن المواكب كافية لتلبية الحاجة إلى التقديس، فان السلطات كانت تحرض على إقامة الاستعراضات، والمظاهرات الوطنية. . . إن لرنين الابواق أثراً لا يقاوم على الجماهير. واذا كان «بيبلي» و«جوريس» قد استطاعا أن يرفضا التصويت على الاعتمادات المالية العسكرية، فان العمال انفسهم كانوا يحيُّون العلم»[٥٣]

لقد سمَّم القلق المتولد عن السباق الى التسلح الجوي فأخذ القلق يساور انكلترا بسبب تطور البحرية الالمانية. وخشيت هيئات الاركان أن تسبقها التطورات. وفي فرنسا والمانيا تم االتصويت على القوانين العسكرية من اجل زيادة الملاكات العسكرية بنسب كبيرة.

وخضعت الدبلوماسية لسيطرة لعبة التهديدات المتبادلة، وتستر الخوف واضحاً تحت غطاء التفاخر، واخذ الحديث في كل جانب يعلو صوته وتشتد نبرته. وراحت الكلمات الهادئة إلى التخويف تتردد على السنة رؤساء الدول. فقال غليوم الثاني «ان مشكلة الشرق يجب أن تحل بواسطة الحديد والدم». واعلن كليمصو وسط تصفيق المجلس التشريعي «اذا ما فُرضت علينا الحرب، فنحن هنا!». وقال بوانكاريه أثناء زيارته لموسكو في حفلة اقيمت يوم ٢٣ تموز ١٩١٤ ان لفرنسا وروسيا «نفس الهدف من السلام في القوة والشرف والكرامة».

---

(٥٣) ماري - جوزيف لوري «اثنا عشر درساً من اوروبا ١٩٠٤ - ١٩٤٧»، بروج، دوتامبل، تامبلهوف ١٩٦٨، ص ٦ وما بعدها.

كان اغتيال الارشيدوق ولي عهد النمسا وزوجته في سراجيفو يوم ٢٨ حزيران ١٩١٤، من قبل طالب عضو في منظمة «اليد السوداء» حلقة من حلقات الصراع بين القوميات، ذلك الصراع الذي جرت وقائعه في امكنة عدة أخرى. وقد اراد المستشار النمساوي «بير شتولد» ان ينتهز هذه الفرصة «ليسوي حساباته مع بلاد الصرب». واخذ السؤال عما اذا كان نشوب نزاع بين النمسا وبلاد الصرب يمكن ان يكون سبباً في اندلاع حرب أوروبية يدور ويُناقش. وقد راح البعض يخافون مثل هذه المغامرة.

وقال بير شتولد «ولكن، ماذا يظن بنا الآخرون؟ ففي المانيا لم يفهموا اننا تركنا هذه الفرصة تمر دون ان نرد عليها». وفي برلين تم التمسك بالتبرير نفسه، وهو ان فيينا لا تفهم بان الفرصة فاتتها. ولكن ماذا عن نيقولا؟. لقد رفض غليوم أن يظن به أنه «يقف الى جانب قتلة ولي العهد». وكان من نتيجة ذلك أن اعطى النور الأخضر: «إما الآن وإما لا أبداً! يجب ان ننهي الأمر مع الصرب بما امكن من سرعة»[٥٤].

وهكذا بسبب الخوف من التعرض للاتهام بالضعف أو الجبن، غاص الزعماء السياسيون، بلا وعي مضطرب، وبعد ان فكروا ملياً في مخاطر حرب أوروبية، في بحر المغامرة. وكان عليهم، مع ذلك، أن يدركوا أن حرباً شاملة بين دول مدججة بالسلاح حتى الاسنان، ولديها صناعة حرب حديثة، تكلّف حياة الملايين من الناس. ولكن مع الاسف، كما قالت الاستاذة لوري [٥٥] «كان الإعلام في اوروبا متخلفاً عن التصور» وكان الذين يدركون بان «التقدم التكنيكي الذي يفخرون به ينطبق ايضاً على فن القتل».

وكانت حملات نابليون الأول ونابليون الثالث تشكل حتى ذلك الحين اساساً لدراسة التكتيك والاستراتيجية. وكان البعض يعتقدون بان الرشاشات ما تزال تنقصها الفعالية، لأنها لا تستطيع ان تفعل اكثر من ان تقتل الشخص ذاته عدة مرات، أو ان تتابع طلقاتها بتواتر سريع بحيث تمر جميع الطلقات في الثقب ذاته! لقد كان الحديث عن الحرب مبنياً على صور تعود إلى الحروب الماضية.

ولم تكن الطائرات، والسيارات الشاحنة، ودبابات الهجوم، والغازات الخانقة قد

(٥٤) جان دوشيه، المرجع ذاته، الجزء الرابع، القسم الثاني، ص ١٨.
(٥٥) المرجع ذاته، ص ١٥.

استخدمت بعد في اوسترليتز ، أو سيدان . وكيف يمكن تصور دور وسائل القتال الجديدة هذه، وهي ما تزال في اول عهد استخدامها. ولقد ظن بها في بادىء الأمر أنها ستؤكد ان الحرب ستكون قصيرة الأمد، ولم يكن يعتقد آنذاك ان الصناعة تستطيع ان تستبدل العتاد المدمر بغيره لفترة عدة سنوات.

وكان العسكريون يعتقدون بان الحرب يمكن أن تكون قصيرة الأمد اذا بدىء بها في الوقت المناسب، أي عندما يقرّرون أنهم أقوى من خصومهم. وكانت هيئات الاركان تعيش في قلق دائم بسبب خوفها من أن لا يكون لديها عتاد معادل لعتاد العدو المنتظر، ان لم يكن متفوقاً عليه. والاسلحة غالية التكاليف، وتتغير نماذجها بسرعة، ومن هنا نشأ اغراء القيام بحرب وقائية.

وتصور الجنرال «فون شليفن» انه لكي يتم توجيه ضربة حاسمة للجيش الفرنسي، فيجب أن يضرب من خلف، وذلك بالعبور من بلجيكا. وكانت مثل هذه الخطة التي تجر، بطبيعة الحال، انكلترا الى الحرب، يمكن ان تكون مقبولة من وجهة النظر الاستراتيجية فقط. أما من الناحية السياسية فانها تشكل خطأً خطيراً قام الزعماء السياسيون الألمان آنذاك بتغطيته.

وكان الضباط الأمراء الألمان كثيراً ما يتخذون، بتأييد من الرأي العام، سلسلة من التدابير يؤدي تطبيقها بالضرورة إلى حرب شاملة. ولم تستطع السلطة السياسية الألمانية، أو انها لم تشأ، وهي وحدها المسؤولة، ان توقف هؤلاء الضباط عن المضي في تطبيق هذه التدابير.

وقد ظن «فون مولتكه»، بناء على نصيحة «فون شليفن»، ان في سيره نحو فرنسا عبر بلجيكا يستطيع ابادة الجيش الفرنسي. وقد كانت وجهة نظره هذه سليمة من الناحية التكنيكية. وكان سلوكه هذا مفهوماً، فقد كان، على الأقل، يبرهن على انه يعرف مهنته كجندي.

ولكن كيف يمكن الحكم على العمى السياسي للحكومة الألمانية التي كان يجب عليها ان تعرف ان انكلترا لن تتسامح ابداً بشأن وجود الجيش الألماني في «أنفير»، هذا الوجود

الذي يعتبر بمثابة «مسدس موجه إلى قلب انكلترا»، كما كان عليها في الوقت ذاته ان تفكر ملياً بالنتائج المعنوية لانتهاكها الصارخ لحقوق الآخرين.

ولقد رُوي عن المستشار «بيتمان- هولويغ» أنه وصف اتفاقية لندن الموقعة في ٢٦ شباط ١٨٣١ والتي نصت على ان المانيا تضمن حياد بلجيكا، بأنها «قصاصة ورق». وسواء كان هذا من الناحية التاريخية صواباً أم خطأً، فقد كان مرفوضاً طالما ان استنكار العالم أثير وظهر لسبب بسيط هو ان المانيا تصرفت وكأنها تعتبر اتفاقية ١٨٣١ «كقصاصة ورق».

وكانت خطة «فون شليفن» معروفة في فرنسا، ولكن لم يكن هناك من يصدقها. ومن الجدير بالذكر، ان الجنرال «ميشيل»، وخلفه الجنرال «جوفر» فكّرا ايضاً بالقيام بخرق وقائي عبر بلجيكا. وفي عام ١٩١١، كان لدى الحكومة الفرنسية الشجاعة والحكمة لترفض الموافقة على هذه الفكرة[٥٦]. ومنذ ذلك الحين، غدا موقف هيئة الاركان الفرنسية، التي اهملت خطة فون شليفن، غامضاً.

وماذا عن دعاة السلم عام ١٩١٤؟

لم يكن «جوريس» يؤمن بالحرب. وقد ارتكب الخطيئة ذاتها التي ارتكبها «نورمان آنجل»: ان شبكة المصالح الاقتصادية اصبحت جد متداخلة ومتشابكة بحيث لم يعد ممكناً ان يتصور المرء أن حرباً يمكن ان تنشب بين فرنسا وألمانيا. اذ لم ير جوريس وآنجل هذه الحقيقة الأساسية وهي ان العواطف حينما تنطلق ثائرة، فان المصالح لا تؤخذ آنذاك في الحسبان.

لقد قال جوريس لفاندير فيلد يوم ٣٠ تموز ١٩١٤: «سيكون الأمر كما كان في أغادير. وسيكون هناك مرتفعات ومنخفضات. لدي ساعتان قبل أن اصعد الى القطار. لنذهب الى المتحف لنرى مواطنيك الفلمنديين البدائيين»[٥٧].

أيد الإشتراكيون الالمان الاعتمادات المالية العسكرية يوم ٤ آب ١٩١٤. وكان «بيبيل» قال عام ١٩١٣ إن الاشتراكيين كانوا مستعدين لحمل الاكياس فوق ظهورهم من

---

(٥٦) هنري بيرنار، المرجع ذاته، ص ٢٨٩.

(٥٧) جان دوشيه، المرجع ذاته، الجزء الرابع، القسم الثاني، ص ٢٠.

اجل الدفاع عن استقلال المانيا ضد الروس. وحتى جوريس كان كتب في جريدة «الاوماتيتيه» قبل ذلك بسنوات:

«ان بلادنا لا تقبل الحرب بخفة ودون اهتمام. ولا تعني هذه الحكمة أبداً الخوف. واذا ما تعرضت فرانسا لعدوان شنيع، فانها ستهب ضد هذه المؤامرة بجميع طاقاتها الحية»[٥٨].

وظهرت الأممية المسيحية والاشتراكية غير قادرة بشكل كامل على ان تترجم نفورها من الحرب إلى وقائع. وهؤلاء الذين عبروا جميعهم منذ سنوات عن حبهم للسلام، انحاز كل منهم، في آب ١٩١٤، إلى وطنه، والقى على غيره مسؤولية الكارثة.

وماذا عن غليوم؟. انه يعاني من عقدة رهيبة في الدونيَّة، ويسعى بمختلف الوسائل الى التعويض عنها. فقد كانت ذراعه اليسرى مشلولة وضامرة. وكانت اتصالاته بأمه باردة مما زاد حدة قلقه الداخلي. وكانت تربيته هي تربية ضابط بروسي. وكان يعتبر نفسه، الى حد ما، وكأنه امبراطور ذو حق إلهي، وذلك بسبب ردة فعله تجاه ليبرالية أهله. وكان نزّاعاً إلى الخدعة، ميّالاً الى «الظهور» بمظهر المتجاهل للأعراف، ويترك نفسه لعواطفه. انه متعجرف متحسس بالمديح. وكان حيناً يلقي خطباً عدوانية، وحيناً آخر يدعي انه «أمير السلام».

لقد كان غليوم الثاني غير مستقر، وكان منصب امبراطور ألمانيا عبئاً جد ثقيل عليه. فالى أي حد كان غليوم الثاني «مُشْعِلاً للحريق»؟. والى أي حد كان هذا العاجز المعقد مدركاً لأهمية اقواله وافعاله؟.

لم يجب التاريخ عن هذه الأسئلة بالدقة المطلوبة بعد. غير أنه يبدو من المؤكد حتى الآن، ان الحرب العالمية الأولى لم تكن محبّذة من أحد قط، وان الكثيرين كانوا ينظرون إليها على أنها حرب مستحيلة. وحينما سأل «فون بولو» «بيتمان- هولويغ»- وهو المفروض فيه أن يعرف- لماذا وضع الاصبع على الزناد، صرخ هذا قائلاً: «آه لو كنت اعرف»[٥٩].

---

(٥٨) جان دوشيه، المرجع ذاته، الجزء الرابع، القسم الثاني، ص ٨.

(٥٩) لوري، المرجع ذاته، ص ٢٧.

كتب الأستاذ بيرنار يقول «ليست حرب ١٩١٤-١٩١٨ احدى اقل الحروب نفعاً فحسب في التاريخ، وانما كانت ايضاً احدى اكثر الحروب غباءً. . .»[٦٠] انها حرب غبية، تدل على فقدان الذكاء.

ان الحرب العالمية الأولى مثال ثانٍ يثبت أن الحرب ظاهرة لا ترتبط بصورة كلية بارادتنا. وسنأتي الآن إلى المثال الثالث.

١٣- حرب ١٩٣٩- ١٩٤٥ [٦١] :

تبدو الحرب العالمية الثانية في السلسلة المعقدة للأسباب والنتائج وكأنها استمرار للحرب العالمية الأولى. ذلك أن معاهدة فرساي لم ترض أحداً. واصبحت مقاومة «الأمر المفروض» احد الموضوعات الهامة لدى الوطنية الالمانية، كما غدا وضع الاتفاقية وتطبيقها من اسباب الاختلاف بين الحلفاء. وقد رفضت المانيا الهزيمة، واخذ المنتصرون يتنازعون حول الاتفاق المُتعِب في فرساي.

وبعد عام ١٩١٩، خلقت الازمات الاقتصادية والنقدية صعوبات مادية ومعنوية جد خطيرة. واصبح شبح البطالة مسيطراً. وبغية محاربته، اعيد التسلح من جديد وتطبيق قوانين التجنيد العسكري. وفي مثل هذا الجو من الشقاء المادي والمعنوي اصبح الشعب الألماني مهيأً لأي نوع من انواع المغامرة.

ويقدر الرأي العام العالمي والغالبية العظمى من المؤلفين ان الحرب اندلعت بارادة هتلر وحدها.

ولم تكن الحرب بالنسبة لهتلر سوى وسيلة لتحقيق سياسته. وقد منحته «فتوحاته

---

(٦٠) هنري بيرنار، المرجع ذاته، ص ٢٦٢.

(٦١) راجع:
آ) هـ. بيرنار، المرجع ذاته، الجزء الثاني، ص ١٤٤ وما بعدها.
ب) دوروسيل، المرجع ذاته، ص ٣٠٦ وما بعدها.
ج) لوري، المرجع ذاته، ص ٦١ وما بعدها.
د) موريس بومونت، «سقوط السلام» (١٩١٨- ١٩٥٩)، سلسلة «شعوب وحضارات» دار النشر الجامعية الفرنسية، باريز ١٩٤٥، ص ٧٦١ وما بعدها.

دون حرب» هيبة عظيمة يحسب حسابها، وكان يفضل ولا شك ان يتابع التوسع دونما حاجة إلى القتال.

ويُجمع المؤرخون على أنه ليس هناك شعب، بما في ذلك الشعب الالماني، يريد الحرب [٦٢]؛

لقد كان «سبق التصميم» واضحاً عند هتلر. وفي الواقع، فقد صرح هتلر في خطابه إلى الصحافة الألمانية يوم ١٠ تشرين الثاني ١٩٣٨ قائلاً[٦٣]:

«انني لم أتحدث عن السلام طيلة سنوات إلا لأني كنت مضطراً إلى ذلك. وقد اصبح ضرورياً منذ الآن فصاعداً، تغيير الحالة الفكرية للشعب الألماني بواسطة عمل نفساني متقدم، وجعل هذا الشعب يفهم، شيئاً فشيئاً، أن هناك مشكلات لا بد من حلها بالقوة. ولهذا، فقد اصبح لزاماً أن لا تُمجد القوة لذاتها، وانما يجب تقديم بعض احداث السياسة الخارجية إلى الشعب الالماني في جو يتأتى فيه للوعي الشعبي شيئاً فشيئاً أن يطالب باستعمال القوة... لقد استغرق تنفيذ هذا العمل عدة اشهر، وبدأ بصورة منهجية، واستمر ايضاً مكثفاً بالصورة ذاتها...».

فهل كان هتلر، اذن، اكثر من «مُشْعِل حريق» بسيط؟. وهل استطاع، بالمنهجية، ان يُقَوْلب، خلال أشهر، الوعي الشعبي الالماني بشكل يتجه فيه شيئاً فشيئاً نحو قبول الحرب؟. وهل كانت الحرب العالمية الثانية، بذلك، حرباً محبّذة ومقررة من رجل واحد؟.

يبدو أن ذلك يحتاج الى مناقشة. وعلى العكس من ذلك، يبدو من المؤكد أنه كان من الممكن، في مناسبات عديدة، منع هتلر من ان يكون مؤذياً، فيما لو توافرت الشجاعة السياسية لزعماء الديمقراطيات الغربية، ليمنعوه في الوقت المناسب عن الاستمرار في سلوكه.

---

(٦٢) دوروسيل، المرجع ذاته، ص ٣٠٦.

(٦٣) تاريخ الحرب ١٩٣٩- ١٩٤٥، من مؤلَّف هانس- أدولف جاكوبسون وهانس دوللينجر، الجزء الأول «من ميونيخ إلى بيرل هاربر». مجموعة وثائقية اعدت باشراف بيير لازاريف، وكتب نصوصها إيف غروسريشار، هاشيت، ١٩٦٧، ص ٥١.

وهكذا، فعندما احتل الجيش الألماني منطقة غربي الراين، في ٧ آذار ١٩٣٦، منتهكاً بذلك معاهدتي «فرساي» و«لوكارنو»، صرح رئيس مجلس الوزراء الفرنسي قائلاً: «اننا لن نتسامح بأن تكون كاتدرائية ستراسبورغ تحت نار المدافع الالمانية». ولكن العالم شهد، بعد هذه الكلمات القوية، تراجعاً غير مجيد، فقد ابلغ وزيرُ الحربية الفرنسي الجنرالُ «موران» رئيس مجلس الوزراء، ان الجيش الفرنسي، بسبب تبنيه لمفهوم الحرب الدفاعية، غير قادر على التدخل في «ريناني». مع العلم، أن وحدات الجيش الألماني التي احتلت غربي الراين، لم تكن مزودة بالدبابات او الطائرات أو المدفعية الثقيلة. وكان عدد من الضباط الأمراء الالمان يشُكّون في نجاح هذه المغامرة. ولكن هتلر قرر اعادة احتلال الضفة الغربية للراين، وأمر الوحدات الغازية بالانسحاب فوراً إلى ما وراء النهر في حال قيام الجيش الفرنسي بهجوم. «لقد ربح هتلر بشكل ساحر القسم الأول من لعبة البوكر...»[٦٤].

وبدءاً من ذلك الحين، اخذ هتلر يلعب بقية أقسام البوكر. وكان يكسب في لعبته هذه، لأنه كان مقتنعاً بان:

«كل شيء مرتبط بي، وبوجودي، بشكل أساسي. وهذا بسبب عبقرياتي السياسية... أما في جانب الخصم، فان الصورة سلبية... ولا توجد أية شخصية ذات اهمية في انكلترا وفرانسا...»[٦٥].

ولقد جاء النصر الذي حققه هتلر يوم ٢٩ ايلول ١٩٣٨ في ميونيخ ليدعم قناعته بأنه يستطيع أن يحقق سياسته في «الفتوحات بدون حرب» بشكل مستمر وبدون ان يتعرض للعقاب. وحينما قرر غزو بولونيا، قال إن فرنسا وبريطانيا العظمى تواجهان صعوبات هائلة، وان تسليحهما لا يرقى الى مستوى التورط في حرب، وانه لا يوجد فيهما انسان سياسي واحد ذو قيمة، وان رجالاتهما ليسوا سوى «دويدات صغيرة... فلقد رأيتهم في قضية ميونيخ»[٦٦].

---

(٦٤) هـ. بيرنار، المرجع ذاته، ص ١٣١ وما بعدها.

(٦٥) تاريخ الحرب ١٩٣٩-١٩٤٥، من مؤلف جاكوبسن دوللينجر، المرجع ذاته، ص ٣٩.

(٦٦) هـ. بيرنار، المرجع ذاته، ص ١٥١.

بعد ان احتل هتلر المنطقة المجردة من السلاح، وبعد «انشلوس» وتمزيق تشيكوسلوفاكيا وميونيخ، استطاع أن يتصور تصوراً يقوم على المنطق الى حد ما، بانه يستطيع ان يحتل «دانتزيغ» و«الممر» دون ان يؤدي ذلك، بالضرورة، الى تدخل فرنسي أو انكليزي. وفي الواقع، فقد كانت الاحكام الاقليمية الخاصة بالحدود البولونية اكثر الاحكام الاقليمية التي تضمنتها معاهدة فرساي حراجة وتعرضاً للنقد. فلماذا، اذن، هذا التصلب البريطاني؟ ولماذا في هذا الوقت وليس قبل الآن؟.

وأمام هذا الموقف البريطاني، وأمام تراجع موسوليني الذي ابلغ هتلر ان جيشه غير مستعد للقتال، وانه، نتيجة لذلك، لا يستطيع ان يمارس سوى سياسة غير عدوانية، واجه الفوهرر «ازمة عصبية عنيفة، واجّل الى ما بعد امره الذي كان اصدره بان تبدأ العمليات ضد بولونيا فجر يوم ٢٦ آب ١٩٣٩»[٦٧]. ولكنه تمالك نفسه بسرعة. وشن، بارادته، الحرب على بولونيا، اذ كان يعتقد، حتى آخر لحظة، بأن انكلترا لن تتدخل. وحينما ادرك انه في هذه المرة خدع نفسه، كان الوقت قد فاته، فقد اندلعت الحرب العالمية الثانية نتيجة خطأ في الحساب السياسي.

هل كان هتلر المسؤول الوحيد عن الحرب العالمية الثانية؟

لقد قيل ان الحلف الالماني- السوفييتي الموقع في ٢٣ آب ١٩٣٩ كان مشجعاً للعدوان الألماني[٦٨]، وانه لولا هذا الحلف لما اندلعت الحرب العالمية الثانية. ولقد قيل ايضاً انه يجب النظر إلى خصوم هتلر بعين الاعتبار.

ومن المؤكد ان تشمبرلن لم يكن من النوع الذي يمكن مقارنته أو قياسه بالديكتاتور النازي[٦٩]. وكان رئيس وزراء بريطانيا العظمى قدم إلى هتلر يوم ٣٠ أيلول ١٩٣٨ مشروع تصريح يتضمن الجملة التالية:

«... اننا نعتبر الاتفاق الذي تم التوقيع عليه في الليلة الفائتة والاتفاق البحري

---

(٦٧) هـ. بيرنار، المرجع ذاته، ص ١٥٣.

(٦٨) دي بانج، المرجع ذاته، ص ٤٧٦، وهـ. ب. جيزيفيوس، «حتى الثمالة..» الجزء الثاني، كالمان- ليفي، باريز، ص ٩٥.

(٦٩) جيزيفيوس، المرجع ذاته، ص ٩٦.

البريطاني- الالماني كرمز على رغبة شعبينا في أن لا يدخل احدهما حرباً ضد الآخر ابداً. . .».

وقع هتلر على هذا التصريح دون تردد، ولوَّح تشمبرلن بهذه الورقة من نوافذ «شارع داونينغ» مقر رئيس الوزراء البريطاني، مصرحاً بهذه الكلمات:

«هذه هي المرة الثانية في تاريخنا، حيث نأتي بالسلام من المانيا إلى شارع داونينغ مصحوباً بالشرف. اني اعتقد ان السلام سيستمر طيلة حياتنا».

وبالرغم من ذلك، قال تشمبرلن لها ليفاكس، وكانا معاً في السيارة: «لن يبقى من هذا كله شيء خلال ثلاثة أشهر»[٧٠].

وبعد أن ضحى تشمبرلن ودالادييه بتشيكوسلوفاكيا، استقبل كل منهما في بلده بالترحيب. وكتبت «التايمز» تقول:

«لم يُستقبل فاتح عاد منتصراً من ساحة القتال إلى بلده مكللاً بالغار بأكثر مما استقبل به هؤلاء الذين يشكلون جبهة تشمبرلن لدى عودة هذا الأخير من ميونيخ يوم أمس»[٧١].

وهكذا فقد شجع الرأي العام الفرنسي والبريطاني الزعماء على الاستمرار في سياسة التساهل التي اتبعوها: فلماذا اذن، في مثل هذه الظروف، لا يدعم الرأي العام الألماني زعيمه الذي يعرف جيداً كيف يستعد للمخاطر؟.

واذا كان صحيحاً ان الرأي العام الألماني قد اصبح مُمْكَناً بفضل الدعاية، فمن الضروري ملاحظة أن العلاقات بين هتلر والجماهير التي اخضعها لارادته، لا تسير ابداً في اتجاه وحيد. فالتصفيقات وهتافات الحماسة التي تثيرها خطبه تشجعه وتحمله على تثبيت قناعاته الخاصة. وليس هذا سوى تعبير عن ظاهرة تعرف باسم «الجنون المسموح به»، حيث يؤثر كل طرف في الطرف الآخر بشكل تبادلي اشبه ما يكون بحركة الميزان. وحينما

---

(٧٠) وينستون س. تشرشل، «الحرب العالمية الثانية، ١- العاصفة تقترب- من حرب الى أخرى- ١٩١٩- ١٩٣٩»، باريس، بلون ١٩٤٨، الصفحتان ٣٢٤ و٣٢٥.

(٧١) ورد ذلك في «تاريخ الاحداث الدولية من ١٩٢٠ الى ١٩٣٩» تأليف ج. م. غاثورن- هاردي، دار النشر الجامعية الفرنسية، ١٩٤٥، ص ٤٨٥.

تنفجر نزوة بدائية من خطيب، فان هذه النزوة تجد لدى كل مستمع مدى واسعاً ينعكس بشكل تصفيق. ويتسع هذا المدى كلما ازداد عدد المستمعين، بحيث يجد الخطيب دعماً من الجمهور الذي يوجه إليه خطابه، مما يعني ان الخطيب يسير في الاتجاه الصحيح، وان الجمهور يشجعه على ان يستمر في هذا الاتجاه. وكانت الهتافات المحمومة والحماسية للنازيين الهاذين تجد الجواب عليها في نباحات هتلر. ولم يلق قط أي زعيم حزب أو دكتاتور مثل هذا النجاح، أو مثل هذا الدعم الشامل من الجماهير الشعبية. ومنذ ذلك الحين، كيف يمكن لمستشار الرايخ الثالث ان يتصور، ولو للحظة واحدة، انه يسير في اتجاه خاطىء؟.

لقد تحقق انتخاب هتلر من قبل الرأي العام الألماني، باستفتاء شعبي، في اكثر من مناسبة، كما ايد الرأي العام في فرانسا وانكلترا سياسة التساهل التي يتبعهاويسيرعليها زعماؤهما.

وهكذا نجد انفسنا امام مجموعة من القوى التي يؤثر بعضها في بعض، في جميع الاتجاهات. واذا كان من غير المشكوك فيه ان هتلر وجد نفسه ضمن هذه الشبكة من الافعال وردود الأفعال، فهل يمكن ان نقول ان سلوكه كان ينبعث من فكره وحده؟. من المؤكد ان الأمر هو على العكس من ذلك.

وكما يبرهن جان غيتون (٧٢)، فالفوهرر لم يكن سوى نوع من الوسيط الذي يعمل بالغريزة. وكان يملك قدرة عجيبة على بث الرهبة التي استطاع بفضلها ان يقيم، بسهولة، نوعاً من وحدة الآراء الممزوجة بالجنون، ونادراً ما كان يقف على ارضية من العقل والمنطق. ولكن، قبل كل شيء، من هو هتلر؟.

ينحدر هتلر من محتد جد متواضع. وكان ابوه، الموظف في ادارة الجمارك النمساوية، يريد ان يتبع ابنه أدولف خطاه فيدخل في خدمة الدولة. ولكن هتلر عصى ارادة ابيه. وكانت اخفاقاته المدرسية كثيرة، وتمرد على معلميه. وقد وصفه احد معلميه بالشكل التالي:

---

(٧٢) جان غيتون، «الفكر والحزب» نشر ديكليه- دي بروور، ١٩٦٩، ص ٣١ وما بعدها.

«لقد كان هتلر، بصورة أكيدة، موهوباً في بعض الموضوعات فقط، ولكنه كان يفتقد سيطرته على نفسه. وكان يُنظر إليه على أنه محاور، محبٌ للسلطة، عنيد، عابس الوجه، غير قادر على الأنضواء تحت الانضباط المدرسي. وكان، إضافة إلى ذلك، غير دؤوب على الدراسة. ولم يكن يحصل على النتائج الجيدة التي تؤهله إليها مواهبه»[٧٣].

ولم يمارس احد تأثيراً عميقاً على هتلر، سوى استاذ التاريخ «ليوبولد بوتش». وكان هذا الاستاذ وطنياً المانياً متعصباً.

فقد هتلر وهو في سن ١٣ عاماً، اباه. وعاش خلال الفترة بين عمر ١٦ و١٩ عاماً في خمول، فقد كان يرفض العمل ليكسب عيشه، ولم ينقطع عن العيش في الأحلام، ولقد وُصف، في تلك الفترة، بأنه كان خجولاً، ولكنه كان مستعداً لثورات الغضب العصبي المفاجئة تنتابه تجاه معارضيه.

ومنذ ان بلغ سن ١٦ عاماً، سيطرت عليه السياسة. فقد كان قارئاً نهماً. وكانت الكتب المفضلة لديه تلك التي تبحث في التاريخ الألماني والميثولوجيا الجرمانية. لقد عاش في فيينا في ظروف تعيسة. وحينما بلغ عمره ١٨ عاماً، تقدم إلى فحص الانتساب الى اكاديمية الفنون الجميلة في فيينا، ولكنه لم ينجح.

وفي العام التالي واجه فشلاً جديداً في الأكاديمية ذاتها، ولكنه تأثر بفشله هذا تأثراً عميقاً. وفي عام ١٩٠٩، وكان عمره اذ ذاك ١٩ عاماً، فقد هتلر أمه التي كان يحبها. ولم تكن لديه مهنة، فعاد الى فيينا، وعاش فيها ما بين ١٩٠٩ و١٩١٣ عيشة بؤس محزن. وكان يلتمس العيش بمختلف الوسائل، ويكثر من شرب الحساء الشعبي، ويسكن في الأكواخ القذرة.

أية تنكيدات واحقاد تحمَّلها هتلر طيلة هذه الأعوام؟ أية أفكار نبتت في عقل هذا الفتى المراهق القلق؟. لقد عاش هتلر، في نظر الجميع، حياة فشل كامل- لقد كان منبوذاً من المجتمع.

---

(٧٣) ورد ذلك في كتاب «الرايخ الثالث- من جذوره حتى سقوطه» تأليف وليم شيرر، نشر ستوك، باريس ١٩٦٠، ص ٢٥.

فما هي العواقب النفسانية لعزلة هتلر المعنوية؟.

لم تكن حرب ١٩١٤-١٩١٨ بالنسبة لهتلر كارثة كما كانت بالنسبة لكثيرين آخرين. وعلى العكس من ذلك، فقد كانت هذه الحرب فرصة العمر بالنسبة له، اذ انخرط في أحد ألوية الملك لويس الثالث، ملك بافاريا، ونال مرتين وسامين على أعمال شجاعة قام بها. لقد منحت الحرب قيمة لهتلر، فقد اصبح هذا الفاشل «شخصاً يُذكر»، واصبحت له هوية. لقد خرج أخيراً من إطار فقدان الشخصية.

ولنلاحظ الآن ان هتلر لو ارتكب جريمة قتل رجل واحد فقط، فان المحامي الذي سيدافع عنه سيجد مهمته سهلة. فاذا ما اعاد هذا المحامي إلى الذاكرة العاهات النفسانية لموكله، وعِقَدَه وما كان يعانيه من كبت وحرمان، وما تحمله في صباه من تنكيد وحقد، وهو ما يرفض قبوله احد، فان المدافع عنه سينجح في استخدام الظروف المخففة لهذه الجريمة.

ولكن الأمر لا يتعلق بموت رجل واحد، وانما بموت ٣٨ مليون انسان، وهذا يعني عملية ابادة لم يسبق لها مثيل في التاريخ. وليس الأمر مجموعة جرائم ارتكبها زعيم سياسي، يعمل وحده، وانما الأمر على العكس من ذلك، فعدد المشتركين في الجريمة يرتفع إلى عدة ملايين من الرجال. ولقد ارتكبت تلك المذابح الجماعية، بتصميم سابق، شجِّع عليه، بصورة غير مباشرة، فقدان الشجاعة لدى الزعماء السياسيين الانكليز والفرنسيين. وضمن هذه الشروط، من هو الذي قرر تفجير الحرب العالمية الثانية؟ ومن هو المسؤول عن ذلك بشكل جازم؟. هل العالم كله، أم شخص واحد؟ أم مجموعة من شبكات قوى مؤثرة، واحداث طارئة، وخلل في التوازنات الاقتصادية أو الديموغرافية أو النفسانية، وتصريحات مفجرة، وترتيبات انتخابية، وأوضاع نشأت بالصدفة، بحيث تؤثر عناصر هذه المجموعة بعضها في بعض بصورة دائمة وبقوة وشدة تتغيران بلا انقطاع؟.

لقد علمتنا تجربة الأعوام المائة الأخيرة ان الحرب هي ظاهرة اجتماعية لا يملك الانسان في يده أمر إطلاقها أو ايقافها حسب خياره. ولكن، بعد ان اصبحت الآن قدرة الاسلحة على التدمير غير ذات حدود، وبما ان هذه الاسلحة لم تستخدم بعد خلال الأعوام الثلاثين الماضية، فان بعض المفكرين ينتهون إلى ان هذه الاسلحة تشكل الضمانة الحقيقية ضد الحرب. فبسبب الرعب الذي توحي به الأسلحة المذكورة يغدو الرجال «منطقيين».

وفي مقابل ذلك، ينبئنا علم النفس، مع الاسف، بان الانسان يملك موهبة الاحساس بالخطر مسبقاً، مما يثير في نفسه القلق، كما ينبئنا بان هناك علاقات وثيقة بين القلق والنزعة العدوانية. وهكذا تعمل نظرية «الردع الحراري- النووي» على تهديد الخصم وارعابه في بادىء الأمر، ثم تطالبه بالتعقل بهدوء وصفاء، والتفكير بان الحرب ستكون بالنسبة له كارثة، لذا يتوجب عليه، نتيجة لذلك، أن يمتنع عن القتال. وهكذا يتم هنا نسيان حقيقة أنه تحت تأثير الخوف يفقد العقل قدرته. واذا ما تدخل العقل، فانما يفعل ذلك ليشرح، فيما بعد، الافعال التي نتجت، في الحقيقة، عن الدوافع غير الخاضعة للرقابة، والمنبعثة من اعماق اللاوعي الفردي والجماعي، وليس لكي يحرك هذه الدوافع ويطلقها.

ولقد فنّد «ريمون آرون»، من ناحيته، نظرية الحرب المستحيلة بالشكل التالي [٧٤] :

«إذا كانت الحرب الحرارية- النووية مستحيلة، بالمعنى المادي للتعبير، فكيف يمكن ردع شخص بتهديد يتصف بان تنفيذه مستحيل؟... ان النظرية التفاؤلية القائمة على أساس السلام بالخوف (او على الأقل، على أساس الحد من الحروب بواسطة الخوف من نهاية العالم بحرب حرارية- نووية) يمكن ان تُبنى على تجربة الأعوام الخمسة عشر الماضية. ولكن مدة هذه التجربة جد قصيرة بحيث لا تكفي لتثبيت النظرية أو دحضها...».

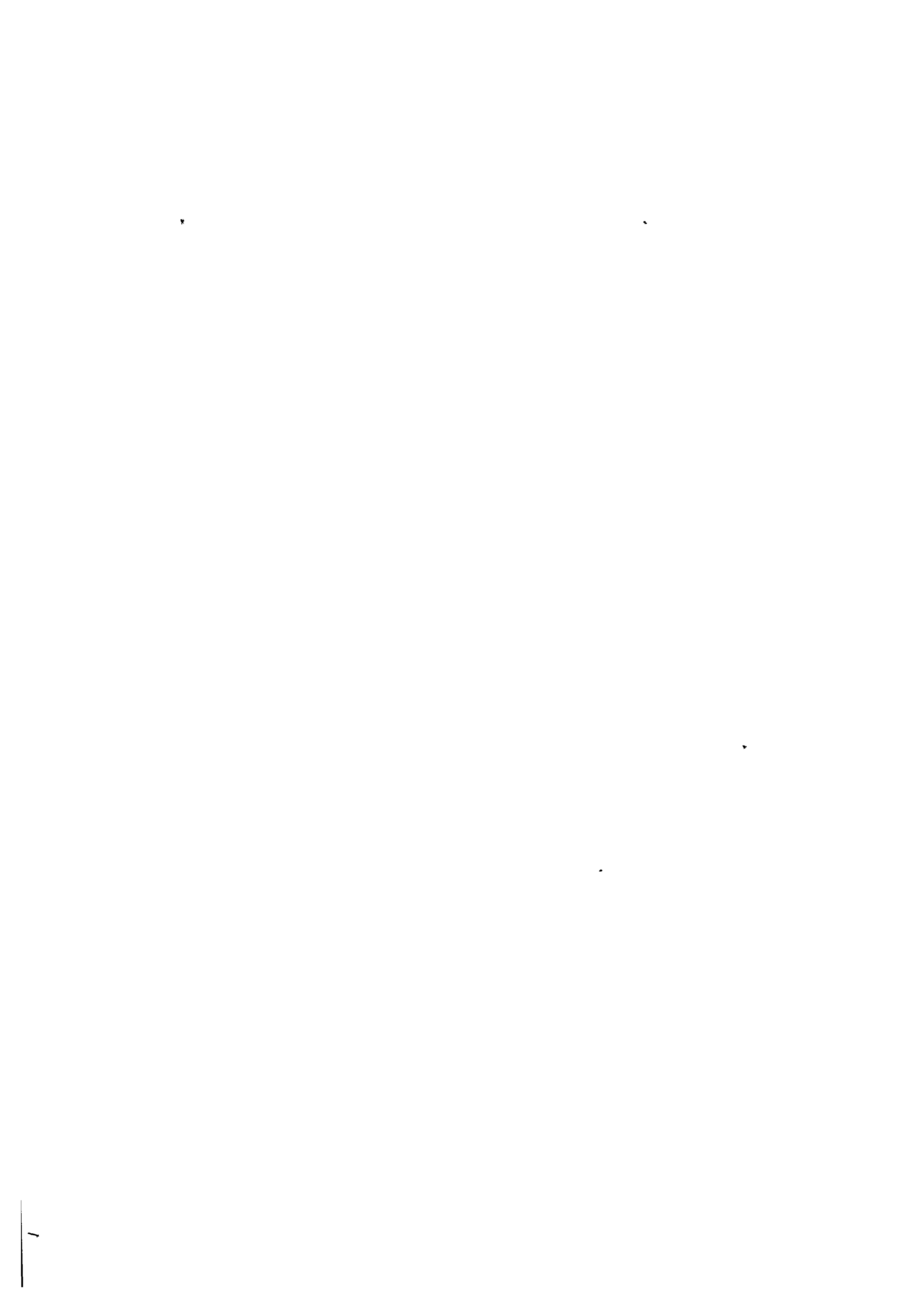
ولننشر الآن إلى الدراسة القيمة للاستاذ «رولينغ» والتي عنوانها «السلام بالردع»[٧٥]، حيث اثبت فيها ان أقل ما يمكن ان تفعله الاسلحة هو انها تخلق عالماً تصبح فيه الحركة الدولية في حالة جد خطيرة، تحدث في اطارها طوارىء يمكن وصفها بانها «حرب عرضية» لا مناص من مواجهتها في المدى الزمني الطويل.

وهكذا تبدو نظرية الحرب المستحيلة وكأنها خاطئة وخطيرة. فهي ليست سوى تعبير عن رغبة يفرضها القلق، كما أن أساسها غير علمي، بل هو على العكس من ذلك. وانه لمن السخف ان يتصور المرء، في حالة صراع شامل، ان تفضل دولة تملك اسلحة للتدمير الكثيف، ان تشهد ابادة شعبها بقصف تقوم به اسلحة تقليدية، دون ان ترد على ذلك باطلاق قنابل نووية- حرارية.

---

(٧٤) ريمون آرون «السلام والحرب بين الأمم»، نشر كلمان- ليفي، باريس ١٩٦٢، ص ٤٠٣.

(٧٥) من «السلام بالبحث العلمي»، المرجع ذاته، ص ٢٢٥ وما بعدها.



الفصل الرابع

نظرية السلام المستحيل

١٤ـ فكرة الحرب الازلية والمفكرون السياسيون.
١٥ـ هل السلام مرعب اكثر من الحرب؟
١٦ـ قيمة نظرية السلام المستحيل.

١٤ـ فكرة الحرب الأزلية والمفكرون السياسيون:

يرى البعض ان الحرب ظاهرة لا تستطيع الانسانية ان تتخلص منها أبداً. وتقوم قناعتهم هذه، بصورة عامة، على أسس دينية او اجتماعية ـ سياسية. ويرى هؤلاء ان محاولات إقامة سلام دائم هي اضغاث أحلام، ويوجزون رأيهم في جملة واحدة: «لقد كانت هناك حروب دائماً، وستكون هناك حروب دائماً».

● يرى «سان اوغوستان» ان الحرب قدر إلهي، حالها في ذلك حال الكوارث الانسانية المرتبطة بارادة الله. ولذا فمن الواجب قبولها، لأنه من المستحيل الوقوف ضد ارادة الله.

● يستمد «جوزيف دوميتر» رأيه من رأي «سان اوغستان» فهو يؤكد في الجزء السابع من كتابه «حديث الأمسيات في سان بيترسبورغ» أن «قانون التدمير» لا يوفر احداً قط في الميدان الواسع للطبيعة الحية، ويرى ان الحرب ستكون أزلية لأنها تساعد على التكفير عن الجرائم الجماعية بسفك دماء الأبرياء.

● يرى «ليبنيتز» ان وجود الدول ليس سوى فدية عن الحرب، ولهذا يجب قبولها لأنها رد فعل طبيعي من قبل الشعوب. وكل ما ينبعث من الطبيعة حكيم وحسن. لا شك في اننا نتألم من الحرب، غير ان الله، قبل ان يخلق العالم، تصور مجموعة لا حدود لها من العوالم الممكنة، ثم خلق العالم الأقل سوءاً من بينها. ولهذا فان الجرائم والحروب يجب ان تأخذ

مكانها في عالم هو، في جوهره، غير كامل.

وفي القرن التاسع عشر، راجت، بتأثير «هيغل» الفكرة التي تقول ان الحرب أمر حتمي.

●يرى «هيغل» أن الفرد ليس سوى عدم حقيقي، وان المجموعات وحدها هي التي يجب ان تؤخذ في الاعتبار، وان الأهم من هذه المجموعات هو «الدولة». وعلى هذا، فالدولة نوع من الاله الارضي، واستقلالها مطلق، وسيادتها شاملة. «والشعب باعتباره الدولة هو الفكر في عقلانيته الجوهرية وحقيقته المباشرة، وهو القوة المطلقة على الارض. وتصبح الدولة، حينذاك، بالنسبة للآخرين، هي السيادة الحاكمة[٧٦].

ولكن هذا ينطبق على جميع الدول. ولذا، فمن اجل حل النزاعات بين دولتين، لا توجد هناك وسيلة سوى عمل الحرب. ان الحرب لا تقرر ان الحق هو في جانب هذه الدولة أو تلك، وانما تقرر أن على هذه الدولة أو تلك ان تتنازل للأخرى. ولهذا يجب ان تنشب الحرب حتى ينتهي الأمر بأن يُلغَى التعادل بين الحقين، وينتصر أحدهما على الآخر، بعد أن كانا متناقضين، ويفرضان، في الوقت ذاته، وجودهما. ومن المؤكد ان هذا لا يمكن ان يتم إلا اذا غلب أحد الحقين الآخر.

الحرب اذن أمر حتمي لا مفر منه. يضاف إلى ذلك أن الحرب أمر ملائم، ذلك لأنه «بقدر ما تحفظ حركة الرياح البحار ذاتها من التعفن الذي تتعرض له اذا ما انتابها هدوء دائم، بقدر ما تصاب الأمم بالتعفن اذا ما تعرضت هذه لسلام دائم، بل السلام الأزلي»[٧٧]. وطالما اننا في صدد الحديث عن هيغل الذي توفي عام ١٨٣١، فلا بد من الاشارة الى ان كلمة «حرب» كانت تعني آنذاك الحرب النابوليونية. وبما انه جرت العادة، منذ سنوات عدة، على ذكر هذا الفيلسوف، فيمكن التساؤل الآن، عما اذا كان رأيه بشأن مشكلة الحرب سيكون هو ذاته فيما إذا كتب آراءه عن هذه المشكلة فيما بعد مذابح الحربين العالميتين. لقد حافظ الالمان القوميون على النظرية الهيغلية في الحرب بشكل حرفي.

---

(٧٦) هيغل، «مبادىء فلسفة الحق»، نشر غاليمار، ١٩٤٠، أفكار، ص ٣٥٩ وما بعدها. انظر ايضاً فيكتور باش، «المذاهب السياسية للفلاسفة الألمان» ص ٣١٢ وما بعدها.

(٧٧) ورد ذلك في كتاب فيكتور باش، المرجع ذاته، ص ١٤٤.

●كذلك فعل الأنثروبولوجي «كلاوس فاغنر»، اذ دعم القول بان الحرب ازلية لأن الأعراق الدنيا تعرض للخطر دائماً الأعراق المتفوقة.

●اعلن الجنرال «فون بير نهاردي»، وهو قومي الماني، أن الحرب هي قانون الدول، مثلما هي قانون الكائنات الحية. فالحرب تقوم بعمليات انتقاء بين الدول طبقاً لقوانين الصراع في الحياة، تلك القوانين التي استخلصها «داروين». فالضعفاء، اذ يلجؤون الى الحيلة، يحاولون أن يجدوا لهم ملاذاً. ويقع على الدولة القوية واجب إخلاقي هو شن الحرب، وستكون جريمتها الوحيدة هي أن لا تظفر فيها.

●وأخيراً، يستمد «ترايتشكيه» افكاره من فلسفة هيغل، فيرى أن مفهوم الدولة يفرض مفهوم الحرب، لان جوهر الدولة هو القوة. ويعتقد ان الواجب الأول للدولة هو تأمين وجودها الخاص، وحماية نفسها من الاعداء الداخليين والخارجيين. ان الدولة التي تتخلى عن الحرب، وتلجأ، دون جهد تبذله، إلى محكمة دولية، تكون قد تنازلت عن قوة سيادتها، اي انها تخلت عن ذاتها(٧٨).

وحسب المفكرين الذين اشرنا اليهم، ليس السلام الدائم سوى حلم سخيف. ان السلام مستحيل لأن الحرب أمر حتمي لا مفر منه. ولكن هذه الافكار تنتسب إلى فلاسفة ومؤرخين، وتقوم على أساس تأملي نظري، ولم تُبن أية فكرة منها على ملاحظات واقعية او على منجزات بعض العلوم الانسانية. وهؤلاء الفلاسفة والمؤرخون يتحدثون عن ظاهرة الحرب التي لا يمكن ان تقارن قط بما يتهددنا الآن، لأن ابعاد تلك الظاهرة قد تغيرت بنسب تصبح مذابح الحروب النابوليونية أمامها غير خاضعة لأي قياس اذا ما قورنت بمذابح القرن العشرين، بل بما يمكن ان تجره علينا حرب عالمية ثالثة. ولكن يمكن القول ان الدفاع الذي ساقه هؤلاء عن الحرب يمكن ان يكون مفهوماً، إلى حد ما، في ضوء العصر الذي عاشوه.

وفي الماضي، لم تكن الحرب اكثر تخريباً وايذاءً من الكوارث التي تهدد النوع الانساني. فالأمراض السارية، والأوبئة، والمجاعات، والزلازل الارضية، والطوفانات

---

(٧٨) لوئيس دوبليز، «مفهوم الحرب»، باريس بيدون، ١٩٥٣، ص ٣١ وما بعدها.

كانت تبيد من الضحايا اكثر مما كانت تفعله الحروب، وبسرعة تفوق سرعة الحروب في الإبادة. فقد قضى الطاعون في القرن الرابع عشر (في بعض المراكز المأهولة بالسكان في اوروبا الغربية) على حياة اناس تراوح عددهم بين نصف وثلاثة ارباع السكان. وما بين عامي ١٣٤٧ و١٣٥٣ قضى «الطاعون الاسود» على حياة ٢٥ مليون انسان في اوروبا. وفي مطلع القرن العشرين اباد الطاعون مليون نسمة من سكان الهند. وفي مقابل ذلك لم تدمر الغزوات الفرنسية من عام ١٧٩٢ حتى ١٨١٥ اية مدينة (اذ ان موسكو كانت قد احرقت من قبل الروس انفسهم). وكانت الخسائر الفرنسية بالارواح خلال الفترة ذاتها نحو مليون ونصف مليون نسمة، أي أقل من مائة الف في كل عام، وقد استعيض عن هذه الخسائر بالأجيال التالية. وحتى عام ١٩٤٥، لم تكن الحرب ذلك الوحش المرعب الذي يهدد بقاء النوع الانساني.

ولكن الأمر قد اختلف الآن، فبسبب الثورة العلمية والتكنولوجية التي تطورت، منذ اكثر من ثلاثين عاماً، بشكل غير منظم ولا خاضع للرقابة، اصبحت الحرب الكونية المدمرة الشاملة أمراً ممكناً. واذا ما نشبت الحرب، فان ملايين القتلى الذين ابادهم الطاعون، والحربان العالميتان، وحروب كوريا، وإسرائيل، وفييتنام، وبيافرا، وغيرها من الحروب، ستكون كمًّا صغيراً اذا ما قورنت بملايين الملايين من القتلى الذين سيكونون ضحايا حرب عالمية ثالثة. وحينذاك ستكون القدرية المبسطة وغير الجديرة بالحياة أمراً مرفوضاً. ان القول بانه «كانت هناك دائمًا حروب، وستكون هناك دائمًا حروب» غدا امراً كان مقبولاً حتى عام ١٩٤٠، أما الآن فلم يعد مقبولاً.

١٥ـ هل السلام مرعب أكثر من الحرب؟

لقد اصبحت نظرية السلام المستحيل، سواء كانت مصوغة بشكل مباشر أو غير مباشر، نظرية مدانة بشكل حاسم.

لقد عرض كتاب أميركي [٧٩]، ظهرت ترجمته الفرنسية عام ١٩٦٨ لهذه النظرية

(٧٩) العنوان الأميركي للكتاب هو: «تقرير من آيرون ماونتن حول امكانية السلام والرغبة فيه». وقد نشر الكتاب بترجمته الفرنسية من قبل كالمان- ليفي عام ١٩٦٨، بعنوان «السلام غير المحبَّذ»، تقرير حول منافع الحروب.

١

بصيغة جديدة، هذه خلاصتها:

ليس بالمستطاع اليوم القول بأن السلام لا يمكن تحقيقه بصورة دائمة. ولكن لنفترض أن ذلك ممكن، فهل هذا أمر مرغوب فيه؟.

كتب مقدمة الكتاب الاقتصادي الأميركي «غالبريث». وقُدم الكتاب على شكل تقرير أُعِدَّ، في ظروف جد غامضة، من قبل فريق مؤلف من خمسة عشر باحثاً (لم يكشف عن اسمائهم) من مختلف الاختصاصات: الحقوق، والتاريخ، والاقتصاد، وعلم الاجتماع، والعلوم السياسية، والأنثروبولوجيا، وعلم النفس، والطب النفساني، والكيمياء، والكيمياء الحيوية، والرياضيات، والفيزياء، والفلك. وكان التقرير موجهاً إلى إحدى الجهات الحكومية للولايات المتحدة الأميركية، وجرى توزيعه على نطاق واسع. وكانت الانتقادات الموجهة إليه في اوروبا غير مشجعة بصورة عامه.

وفي جميع الأحوال، فقد فند المؤلف، او المؤلفون، هذه الانتقادات مسبقاً، حين وصفوها بأنها عاطفية، ووصفوا تقريرهم بأنه علمي، اذ ارادوه ان يكون مجرداً من كل فكرة مسبقة، واكدوا على ان موضوعيتهم هي التي كانت المستند في العمل.

لقد اتجهت نظريتهم اتجاهاً يعاكس جميع التطلعات السلمية. وكانت بعض الكلمات المستعملة بقصد ضرب تلك التطلعات، قاسية صادمة. وبما ان التقرير قد قدم على أنه وثيقة علمية، فمن المناسب تفحصه بكل موضوعية.

ما هو الموضوع؟ في بادىء الأمر، يمكننا تلخيص الموقف الذي انطلق منه مؤلفو الكتاب كما يلي:

١)«ان واقع بناء المجتمع على اساس استعداد هذا المجتمع في كل حين للقيام بالحرب، يتجاوز في اهميته البُنَى الاقتصادية والاجتماعية. فالحرب هي حجر الزاوية في النظام الاجتماعي، اذ انها حكمت وسيطرت على القسم الاكبر من المجتمعات الانسانية، منذ اقدم العهود حتى ايامنا هذه. وتعمل الانظمة الاقتصادية وتشريعات الدول لصالح الحرب وفي خدمتها، وتطيل في أمدها الزمن، وليس العكس، كما يقول «كلوزفيتز».

٢)«لقد حمى النظام الاجتماعي المؤسس على الحرب النوع الانساني عبر التاريخ».

٣)«تؤدي الحرب وظائف اجتماعية عديدة، بعضها ظاهر، مثل الدفاع عن المجتمع ضد التهديدات الخارجية والداخلية، وبعضها الآخر مستتر. وهذا النوع الثاني من الوظائف هو الأهم، لأنه يجعل من الاستعداد للحرب القوة المهيمنة على المجتمعات».

٤) «إن هذه الوظائف غير العسكرية للحرب هي اساسية لاقامة التوازن في المجتمع».

٥) «إن استبدال النظام القائم على أساس الحرب بنظام آخر يقوم على أساس السلام يشكل مغامرة اذا لم يكن ممكناً، في الوقت المناسب، انشاء مؤسسات قادرة على القيام بالوظائف ذاتها التي تقوم بها الحرب».

٦) «يجب فهم طبيعة الوظائف غير العسكرية للحرب قبل السعي إلى ايجاد بدائل مقبولة لها».

لقد قاد تفحص الوظائف الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والبيئية مؤلفي الكتاب إلى النتائج التالية:

١) الاقتصاد:

تشكل النفقات العسّكرية صمام أمان تستعمله السلطة بارادتها خارج نظام العرض والطلب. ويتمثل ذلك بنوع من الميزانية المناسبة التي تسمح بمكافحة الازمات الاقتصادية.

ان أي برنامج من البرامج الخاصة بنزع السلاح لا يمكن تطبيقه من الناحية الواقعية، لان تكييف الاقتصاد على أساس نزع السلاح يمس عشر الانتاج الكلي للاقتصاد العالمي. كما ان الجيوش تسمح بحل مشكلة البطالة. وبذلك تكون الحرب عاملاً من عوامل التطور الصناعي، وتثبيت الاستقرار في المجتمعات.

٢) السياسة:

يشكل التهديد الخارجي عاملاً جد ممتاز لتحقيق التلاحم، ويُقوِّي السلطة، ويدعم الواقع الذي يقبله الجميع، مما يساعد على استقرار المجتمع.

٣) علم الاجتمـاع:

يساعد الجيش على الامساك بالعناصر المعادية للمجتمع، وبالمتنكرين للقيم الاخلاقية، واصحاب الطاقات المخربة. والجيش هو الملجأ للعاطلين عن العمل، وللذين لا يصلحون لأي عمل- ويخلق النظام الاجتماعي المؤسس على الحرب انفراجاً نفسانياً للمجتمع وقيمه. ان ذلك كله يخلق التلاحم الاجتماعي.

٤)عـلم البيئـة:

تؤمن الحرب بقاء النوع الانساني، غير انها لم تدخل أي تحسين عليه، طالما ان الرجال الشبان والأقوياء هم الذين يبادون حتى الآن. وقد ادى ذلك الى إحداث آثار تراجعية على الانتقاء الطبيعي. ولكن اسلحة التدمير الكثيف وضعت نهاية لهذه الحالة.

ويتضمن التقرير ايضاً وظائف اجتماعية أخرى، ولكنها غير اساسية للانتقال إلى السلام الدائم.

أما فيما يتعلق بالبدائل عن الوظائف غير العسكرية للحرب، فان المؤلفين يقترحون عدداً منها، ويرون انها فعالة وقادرة على ان تقوم بالدور ذاته الذي تقوم به الحرب في مجالات الاقتصاد، وعلم الاجتماع، وعلم البيئة. ولكن هؤلاء المؤلفين لم يجدوا بديلاً يحل محل الوظيفة السياسية للحرب. وهذا ما يجب ان يتركز عليه الاهتمام.

ان النظام المؤسس على الحرب يفرض على المجتمع قبول السلطة السياسية. فأية مؤسسة يمكن ان تقوم بهذه الوظيفة بدلاً عن الحرب؟. ومن أي مصدر جديد تستمد الدول سلطتها اذا ما استقر السلام الدائم (أي بعد التعريف الذي قدمه المؤلفون بشأن غياب أية امكانية للعنف الخارجي والداخلي)؟.

ان جميع الحلول التي قدمت حتى الآن لا تعدو أن تكون من طراز «الدولة العالمية» أو «الأمم المتحدة» مزودة بسلطة حقيقية. وتتصف طبيعة هذه الحلول بصورة اساسية بانها قانونية. وتعمل، بموجبها، شرطة دولية تحت سلطة «محكمة» دولية. ويفترض في هذه الشرطة ان تحل محل العدو الخارجي.

ويقول كاتبو التقرير، ان هذا العمل ذو صفة عسكرية، وسيلته التهديد دائمًا

باستعمال العنف، مما يتنافى مع فرضية السلام الحقيقي الدائم.

يجب ان يكون هناك عدو، وان يكون هناك خطر خارجي لتقوم الحرب بوظيفتها السياسية. غير ان هذا الخطر يجب أن يكون مصدّقاً ومحسوساً به، كما هو في الواقع، من قبل الجميع. وكمثل على ذلك نتساءل هل يمكن ان نعتقد، بشكل جدي، بوجود خطر من قبل بعض «المخلوقات» يأتينا من أعماق الفضاء ويهدد سكان الكرة الارضية؟ أوليست «الصحون الطائرة» سوى محاولة لاقناعنا بوجود مثل هذا الخطر؟.

وفي جميع الأحوال، فان الاخطار القادمة الينا من الفضاء ليست مصدّقة بشكل كاف لكي تستطيع أن تعتبر عدواً بديلاً. ولهذا فان المؤلفين يعبرون عن اسفهم لأن برنامجاً فضائياً ذا اهداف غير محدودة يمكن ان يكون بديلاً عن الوظيفة الاقتصادية للحرب، ولكنه، مع الاسف، لا يمكن أن يكون بديلاً عن وظيفتها السياسية.

وبالرغم من ذلك، فان المؤلفين يرون انه يمكن استعمال الخطر الذي يشكله تلوث الجو والماء ومصادر التغذية ليقوم بدور العدو البديل.

وفي الواقع، فانه لا يمكن الدفاع ضد مثل هذا الخطر إلا باستخدام التنظيم الاجتماعي والسلطة السياسية إلى اقصى حد ممكن. غير ان تلوث الجو المحيط لا يشكل، في الوقت الحاضر، تهديداً خطيراً في الاطار العالمي، كما يستبعد ان يشكل مثل هذا الخطر بصورة اصطناعية.

ويرى المؤلفون، انه اذا ما اريد الانتقال من النظام الاجتماعي المؤسّس على الحرب إلى النظام المؤسس على السلام الدائم، دون التعرض لخطر التفكك الاجتماعي، فيجب خلق خطر ذي اتساع ومصداقية كافيين لتحقيق التلاحم الاجتماعي ولقبول السلطة السياسية. غير ان المؤلفين لا يجدون ما يستطيعون اقتراحه علينا في هذا المجال، ويعترفون، نتيجة لذلك، بانهم غير قادرين على اقتراح بديل عن الوظيفة السياسية للحرب.

والخلاصة التي ينتهي اليها التقرير هي أن أية خطة للانتقال إلى حالة سلام دائم في الوقت الحالي لا تستجيب للضرورات الوظيفية لعالم بلا حرب. ومن المستحيل تحمل

مسؤولية إزالة النظام المؤسس على الحرب:

١- «الا بعد أن نعرف بدقة ماذا خططنا لنقيم بدلاً عنه».

٢- «وبعد أن نكون متأكدين كل التأكد بأن المؤسسات التي تقرر أن تكون بديلاً عن الحرب ستحقق الهدف منها وبخاصة ضمان وجود المجتمع واستقراره».

ويخشى المؤلفون ان يروا العالم وقد جُرَّ إلى السلام فجأة. ولا يترددون عن التأكيد على انه: «اذا كان لزاماً اليوم الخيار بين الحفاظ على النظام المؤسس على الحرب وبين تدمير هذا النظام، فان المنطق السليم سينصح باختيار النظام المؤسس على الحرب». ويمكن القول، بعبارة أخرى، ان السلام الدائم يشكل مغامرة تجعل من الافضل الاحتفاظ بالنظام المؤسس على الحرب. وهذه هي خلاصة «تقرير من آيرون ماونتن».

١٦- قيمة نظرية السلام المستحيل:

اننا نعتقد بان نظرية السلام المستحيل خاطئة. وفيما يلي الدليل:

١- من المؤكد ان إقامة السلام الدائم تطرح على المجتمعات الانسانية مشكلات خطيرة، غير أنه ليس لدينا أية فكرة دقيقة عن هذه المشكلات ولكننا ندرك انها تمس، من الناحية العملية، جميع قطاعات الحياة العامة، وأحد هذه القطاعات هو الاقتصاد الذي سيصاب، بصورة خاصة، بالخلل، بسبب ضخامة المبالغ المخصصة لانتاج الأسلحة.

ويقدر مؤلفو «تقرير من آيرون ماونتن» أن نزع السلاح سيؤدي إلى هبوط في الانتاج الاجمالي للاقتصاد العالمي مقداره العشر، ويرون في الحرب باعثاً محرضاً على التقدم الصناعي ومصدراً له، وحامياً للاقتصاد من الانهيار، وينتهون إلى القول:

«مع أننا لا نؤكد انه من المستحيل تصور ايجاد بديل عن الحرب في مجال الاقتصاد، فان أية مجموعة من التكنيكات المخصصة لمراقبة الاستخدام والانتاج والاستهلاك لم توضع موضع التجربة بعد، لا يمكن ان تقارن قط بفعالية الحرب في مجال الاقتصاد».

ان هذا التأكيد قابل للجدل ومنقوض في الوقت ذاته. وفي الواقع، فان فريقاً من الخبراء، وهم ليسوا باميركيين وانما ينتمون الى عشر دول مختلفة، قدم تقريراً إلى الأمين

العام للأمم المتحدة عنوانه: «النتائج الاقتصادية والاجتماعية لنزع السلاح»(٨٠). وفيما يلي الخلاصة التي انتهى اليها هذا التقرير:

«يعتقد اعضاء الفريق الاستشاري، بالاجماع، بأن جميع المشكلات والصعوبات التي ستنتج عن نزع السلاح يمكن ان تحل بتدابير مناسبة تتخذ على الصعيد الوطني وعلى الصعيد الدولي. وليس هناك أي شك في ان استعمال المصادر المخصصة في الوقت الراهن للدفاع من اجل غايات سلمية سيكون لمنفعة جميع البلدان ويؤدي إلى تحسين الظروف الاقتصادية والاجتماعية في العالم أجمع.

«ولن يؤدي تحقيق نزع السلاح العام والشامل إلى مجموعة من النعم لصالح الانسانية جمعاء».

هل عرف مؤلفو «تقرير من آيرون ماونتن» بتقرير خبراء الأمم المتحدة؟ أم انهم ارادوا ان يتجاهلوه؟.

٢- يطرح مؤلفو التقرير كأساس لمنطقهم ان السلام «يعبر عن حالة دائمة، أو شبه دائمة، تتصف بانها خالية من كل تطبيق للعنف الاجتماعي، او انتظار له، أو اي شكل منظم من اشكاله، أو أي تهديد به، أو أي مظهر من المظاهر تندرج، بصورة عامة، تحت اسم الحرب».

---

(٨٠) نشرته «ادارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية للأمم المتحدة» في نيويورك عام ١٩٦٢. ويتألف الفريق من الخبراء الآتية اسماؤهم:

- مأمون بحيري: حاكم المصرف المركزي في السودان.
- آرثر ج. براون: عميد معهد العلوم الاقتصادية، جامعة ليدز، انكلترا.
- ب. ن. غانغولي: مدير مدرسة العلوم الاقتصادية، نيودلهي، الهند.
- أفتاب أحمد خان: اقتصادي، لجنة التخطيط، الباكستان.
- اوسكار لانج: رئيس المجلس الاقتصادي، مجلس الوزراء، بولونيا.
- و. و. ليونتيف، استاذ العلوم الاقتصادية، جامعة هارفرد، الولايات المتحدة.
- جوزيه أنتونيو مييوبر: سفير فنزويلا في واشنطن.
- الفريد سوفي: مدير المعهد الوطني للدراسات السكانية، فرانسا.
- لوديك أورбان: معهد العلوم الاقتصادية، اكاديمية العلوم، تشيكوسلوفاكيا.

يكمن في هذا التعريف الخطأ الأساسي في التقرير. فالسلام، خسب التعريف الوارد في التقرير، هو سلام جامد، يمنح المجتمعات الانسانية استقراراً اشبه ما يكون باستقرار الصخور. وهو، بكلمة واحدة، سلام خارج عن كل حياة، ولا يمكن، نتيجة لذلك، تصوره. كما ان السلام الذي يخيم على الدولة في داخلها لا يتصف بزوال العنف الاجتماعي أو التهديد بهذا العنف، ولا يشكل سلاماً مقبولاً ولا نافعاً. واذا كان السلام الدائم، حسبما عرَّفه مؤلفو التقرير، لا يمكن تصوره، فكذلك لا يمكن تصور الأساس المادي الفاسد الذي يبنى عليه ذلك السلام. ان الانطلاق من مبدأ مسلَّم به، ولكنه خاطىء في الوقت ذاته، يمكن ان يكون أساساً لتفكير منطقي، غير ان النتيجة المبنية عليه ستكون، بالضرورة، خاطئة.

وحينما اتخذ مؤلفو التقرير التعريف الذي عرضوه أساساً لدراستهم، فقد انطلقوا من استحالة مادية ادت بهم، بشكل حتمي، إلى صياغة نظرية غير صحيحة.

٣ـ ادخل التقرير، في مواضع عدة، وظائف اجتماعية ادتها الحروب السابقة، في الوظائف الاجتماعية التي تتعلق بالاستعدادات الحالية للحرب العالمية الثالثة.

يستعد العالم للحرب العالمية الثالثة ضمن اطار الهدف المعلن وهو العمل على تجنب الحرب، وهو وضع يتصف، على الأقل، بالتناقض. واذا ما افترضنا ان الحرب العالمية الثالثة لن تنشب أبداً، فان المنطق الذي سار عليه مؤلفو التقرير يمكن ان يكون مقبولاً، مع بعض التحفظات، وذلك لأن الاستعداد للحرب يؤدي بعض الوظائف الاجتماعية للحرب، ويتجنب المحاذير الرئيسة. أما اذا نشبت الحرب العالمية الثالثة، فهل ستثبت هذه الحرب التأكيدات المتعلقة بالوظائف الاجتماعية للحرب أم تدحضها وتلغيها؟.
وكمثل على ذلك، نتساءل عما اذا كان ممكناً ايضاً ان نعتبر ظاهرة الحرب عاملاً باعثاً على الاستقرار الاقتصادي والسياسي، او علاجاً للبطالة، أو عاملاً على اعادة التوازن السكاني، بعد تلك المئات من الملايين من الضحايا، وتلك التحولات التي ستطرأ على الكائنات الحية، والتي لا نعرف عنها شيئاً؟.

يبدو أن من الخطر أن يُستند على ما هو قائم حتى الآن، حينما يتعلق الأمر بوجود ظاهرة تخرج، فجأة، عن كل قياس مغروف.

٤ـ يشير التقرير، في مواضع عدة، إلى الفكرة التي تقول ان الحرب ضرورية لضمان الاستقرار الاجتماعي والسياسي. «إن الامكانية الدائمة للجوء إلى الحرب هي اساس استقرار الحكومات، وهي التي توفر القواعد لقبول الجميع للسلطة السياسية». غير ان مؤلفي التقرير لم يحددوا مفهوم هذا «الاستقرار» الذي اولوه اهتماماً جد كبير. فهل السبب هو النزعة إلى المحافظة على الاستقرار مهما بلغ الثمن؟. أم ان السبب يعود الى القدسية المطلقة للمؤسسات القائمة؟ أم الى اللاحركية المهدئة؟.

ومن المعروف، وهذا مؤكد، أنه حينما يصبح التهديد الخارجي بالحرب ضاغطاً، تتراجع النزاعات الداخلية إلى المقام الثاني، وتصمت، بفعل ساحر، جميع الانتقادات بمختلف انواعها، بما فيها تلك الموجهة إلى الزعماء في البلدان الديمقراطية.

ويتيح التهديد المباشر للحرب الكونية المدمرة لجميع حكومات العالم امكان استخدام سلطات دكتاتورية غير مشروطة بالنسبة للجميع، تصل إلى حد سلب حق الحياة وفرض الموت، وبذلك تضمن السلطة لنفسها الاستقرار. ونتساءل الآن، هل هذا الاستقرار مطلوب اكثر من عدم الاستقرار الذي تفرزه حالة السلم الدائم؟.

٥ـ واخيراً، فان القوة البرهانية الواسعة في التقرير تنصب كلها على التأكيد بان الحرب تقوم «بوظائف»، وأن بعض هذه الوظائف ضروري وأساسي لوجود النظام الاجتماعي الذي نعرفه اليوم. «حتى في حالتين استثنائيتين فان هذه الوظائف هي ايضاً اساسية وضرورية لأي نوع من انواع التنظيم الاجتماعي الذي يمكنه البقاء في عالم خالٍ من الحرب».

آ)من المناسب، بادىء ذي بدء، أن نلاحظ ان «مفهوم» الظواهر الاجتماعية هو مفهوم

ابعد ما يكون عن ان يقبل به دفعة واحدة[81]. فإذا كان هذا المفهوم في الرياضيات والبيولوجيا واضحاً وضوحاً كاملاً، فانه ليس كذلك في علم الاجتماع حيث يختلف تعريفه حسب اختلاف المؤلفين. فيرى «رادكليف براون» ان وظيفة كل نشاط ذي علاقة بعمل ماض، مثل العقوبة على جريمة او إقامة حفلة جنائزية، تكمن في الدور الذي تؤديه تلك الوظيفة في الحياة الاجتماعية الكلية، وفي الاسهام الذي تقوم به، بالتالي، في الحفاظ على استمرارية الهيكل القائم. . . ان وظيفة عمل اجتماعي محدد تكمن في الاسهام الذي تؤديه في الحياة الاجتماعية الكلية، أي في سير عمل النظام الاجتماعي الكلي»[82].

تضمن الكتاب الجماعي «علم الاجتماع» شرحاً لتعبير «الوظيفة» على الشكل التالي: «يقصُد تعبير الوظيفة في علم الاجتماعات، علاقات التكافل والترابط المتبادل بين المؤسسات، كما يقصد العلاقة التي تقيمها المؤسسات واجهزة النشاط والفكر مع البنية الاجتماعية بقصد الاسهام في المحافظة عليها»[83].

ويردد «هنري جان» التعريف الذي حدده «روبير كينغ ميرتون» بقوله: «انها دور كل نشاط ذي علاقة بعمل ماضٍ في الحياة الاجتماعية، دور ينظر إليه من زاوية اسهامه في وجود البُنى واستمرارها.» ويضيف هنا شرحاً هاماً بقوله: «بايجاز، ان للوظيفة هدفاً هو الحفاظ على المظهر الاجتماعي المحدد الذي يتجسد، في الحقيقة، بمجموعة

---

(81) راجع لهذا الموضوع:

آ)هنري جان، «النظام الاجتماعي- دراسة في النظرية العامة»، نشر معهد علم الاجتماع لجامعة ليبر في بروكسيل، ١٩٦٨، ص ١٠٤ وما بعدها.

ب)جيرار بيرجيرون، «سير عمل الدولة» مكتبة ارمان كولان، ١٩٦٥، ص ٨٢ وما بعدها.

ج)«علم الاجتماع»، نشر دينوئيل، ص ٢٧١ وما بعدها.

د)آ. ر. رادكليف- براون، «التنظيم والوظيفة في المجتمع البدائي» منشورات مينوي، باريز، ١٩٦٨، ص ٢٧٧ وما بعدها.

هـ)غاستون بوتول، «البُنى الاجتماعية»، الاتفاقية الاجتماعية الثانية، بايّو، باريز- ١٩٦٨، ص ٧٩.

(82) المرجع ذاته، ص ٢٨٠ وما بعدها.

(83) المرجع ذاته، ص ١٧١.

العلاقات الفردية»[٨٤].

يقترح «جيرار بيرجيرون» (بعد أن استعرض احد عشر معنى مختلفاً لكلمة الوظيفة) الصيغة التالية: «الوظيفة هي مجموعة النشاطات التي يرتبط بعضها ببعض بطريقة العمل، والتي يوحد فيها بينها اسهامها المشترك في حياة مؤسسة ما»[٨٥].

واخيراً، يرى غاستون بوتول: «أن وظيفة ظاهرة اجتماعية ما يمكن ان ينظر اليها على أنها سبب وجود تلك الظاهرة، وهنا تبرز جدوى الدور الذي تؤديه الوظيفة ضمن اطار مجموعة عضوية. ان الوظيفة هي فعل مستمر»[٨٦].

ان التعداد البسيط للتعريفات المختلفة للوظيفة التي تؤديها ظاهرة اجتماعية ما تثبت ان الأمر يتعلق بمفهوم لا بد من أن يؤخذ به بحذر. ويتم ذلك «بتحقيق» المفهوم بكل موضوعية، مع الابتعاد عن كل حكم تقييمي، والامتناع عن العمل على تطوير الوظائف تطويراً يهدف إلى اخضاعها للبرهان.

يتكون لدى المرء من قراءة التقرير شعور بان المؤلفين التجؤوا إلى الوظائف الكامنة الخفية للحرب ليؤيدوا، بأي شكل من الاشكال، نظاماً اجتماعياً تنتجه، إلى حد ما، الحروب الماضية، ويبدو أنهم لم يأخذوا في حسبانهم ان الثورة التكنيكية التي نعيشها اليوم قد غيرت ظاهرة «الحرب» في جوهرها، اذ لم يقتصر التغيير على ابعادها فحسب، وانما الأهم هو ان طبيعتها قد تغيرت، حتى انها اصبحت شيئاً آخر غير الذي نعرفه حتى اليوم. «فالآثار المحققة» التي تمكن ملاحظتها في الحروب الماضية لن تكون، بالضرورة هي ذاتها التي يمكن ان تنتج عن ظاهرة جديدة ليس معرفة دقيقة بها، وندعوها، نتيجة عدم وجود تعبير اكثر كمالاً، «الحرب» العالمية الثالثة.

يشرح «التقرير من آيرون ماونتن» الموجه أصلاً إلى الأميركيين، منافع الحرب ومنافع

---

(٨٤) المرجع ذاته، ص ٢٨.
(٨٥) المرجع ذاته، ص ٨٩.
(٨٦) المرجع ذاته، ص ٧٩.

الاستعداد لها الناجمة عن الوظائف التي تؤديها الحرب ويؤديها الاستعداد لها، وبخاصة الوظائف المتعلقة بالمجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. وبهذه الطريقة يعطي التقرير قارئه شعوراً بأنه يريد أن يُسوِّغ ويؤكد للشعب الأميركي المنفعة التي حققتها له حرب فييتام. ومن الواضح هنا، ان هذا التسويغ هو وليد منظم اليكتروني، ادعى المؤلفون انهم استخدموه بشكل واسع. واذا كان هذا التسويغ يحظى برضى الانسان الآلي، فانه يبدو غير مقبول من قبل الانسان.

حتى يتمكن علم الاجتماع من الانشغال بحدث أو ظاهرة، يجب ان يتكرر ذلك الحدث أو تلك الظاهرة، وأن يكونا قد وقعا في الماضي ايضاً، وأن تكون الاحداث أو الظواهر متشابهة فيما بينها.

واذا كانت ظاهرة الحرب تؤدي وظائف كامنة خفية تسهم في سير عمل النظام الاجتماعي الكلي، فيجب حينذاك القول ان حروب لويس الرابع عشر أو حروب نابوليون قد ادت الوظائف الكامنة الخفية ذاتها التي ادتها الحربان العالميتان.

ولكن، هل كان الأمر كذلك؟. وهل استمر النظام الاجتماعي الكلي هو ذاته طيلة القرون الاربعة الماضية؟.

أم ان الظاهرة - الحرب، بفضل تدخل غامض لقوة لم تعرف بعد، قد عملت، بصورة متوازية، على تطوير النظام الاجتماعي وعلى المحافظة عليه، تلك المحافظة التي يتوجب عليها أن تسهم فيها؟. انه ليصعب من الناحية العلمية، قبول مثل هذا التفسير.

ولنفترض الآن أننا قبلنا تأكيدات التقرير بشأن الوظائف الكامنة الخفية للحرب. وحتى لا يختل النظام الاجتماعي الكلي، فمن المناسب إذن ايجاد بدائل تحل محل الوظائف التي تؤديها الظاهرة التي يراد الغاؤها. ويعدد التقرير بدائل لذلك، ولكنه يعلن ان مؤلفيه لم يتوصلوا إلى ايجاد بديل مقبول للوظيفة «السياسية» للحرب. ومن الصحيح أن التهديد بالحرب، أي التهديد الخارجي الموجه الى مجتمع ما، يقوّي الالتحام في هذا المجتمع. وهذه ظاهرة معروفة تحت اسم تجمع الأشياء لمواجهة خطر

مشترك، وملحوظة في جميع المجتمعات. فأمام الخطر المنتظر، يحل التعاون محل الخصومات الداخلية، وتستثمر الادارة السياسية الحد الأقصى للسلطة بغية استقطاب جميع الطاقات وتعبئتها من اجل مقاومة العدو المشترك.

تجاه هذا الوضع، هل يمكن القول بان الحرب، او التهديد بها، أو الاستعداد لها، يشكل العامل الاجتماعي الوحيد للالتحام، الذي لا تستطيع السلطة السياسية، بدونه، ان تجد لها قاعدة صالحة للعمل؟. وبتعبير آخر، هل صحيح انه لا يوجد قط اي بديل مقبول للوظيفة السياسية للحرب؟.

يمكن للمرء أن يتساءل عما اذا اخذ واضعو التقرير في حسبانهم الثورة التي تتطور في الوقت الحاضر في مجال الاتصال الاجتماعي الذي يشكل اداة لا نظير لها بين يدي «الادارة» لتجعل الجماهير تقبل بالسلطة السياسية. وهذا، كما يعرف كل انسان، ينطوي على بعض الأخطار على الديموقراطية والحرية. ومن المعروف، حتى الآن، ان التلفزيون، والاذاعة، والصحافة، والسينما، قد استعملت بشكل واسع لاثارة الدوافع التخاصمية، اكثر مما استعملت من اجل الاقناع بضرورة التطور، باسرع ما يمكن، نحو اقامة نظام اجتماعي مؤسس على التعاون وليس على الخصومة بين المجتمعات. اننا نعرف آثار الدعاية للحرب.

ولكن، هل تمت، بشكل كاف، دراسة تجيب عن السؤال التالي: كيف يمكن، على المستوى العالمي، تطوير دعاية للسلم تُستخدم فيها جميع وسائل التكنيك الحديث وآخر منجزات العلوم الانسانية؟.

وحتى اذا افترضنا انه سوف ينتج عن النظام الاجتماعي الجديد المؤسس على السلم تصدع للدول، أو فوضى، على الأقل، ومهما كان حجم مثل هذا الحدث الكارثة فهل يمكن القول، بشكل جدي، بأن هذه الكارثة سوف تكون أكثر خطورة على مستقبل النوع البشري من حرب عالمية ثالثة؟.

ج) سؤال آخر نطرحه: إلى أي شيء استند واضعو التقرير ليؤكدوا انه: «حتى في حالتين استثنائيتين فان هذه الوظائف (الوظائف الكامنة الخفية للحرب) هي ايضاً اساسية

وضرورية لأي نوع من انواع التنظيم الاجتماعي الذي يمكنه البقاء في عالم خالٍ من الحرب»؟.

لنقبل، في بادىء الأمر، بان الوظائف الكامنة والخفية للحرب تسهم في الحفاظ على النظام الاجتماعي الذي نعرفه اليوم. وهذا النظام خاضع اليوم للاحظات ودراسات عديدة. ونقبل ايضاً بان الحرب تلعب في هذا النظام الاجتماعي دوراً جد هام.

إن «الآثار الملموسة» للحروب التي نشبت عبر التاريخ معروفة، ونحن نلمس أنها تسهم في سير عمل نظامنا الاجتماعي. غير اننا نلاحظ ايضاً ان الوحشية والعبودية كانتا ظاهرتين اجتماعيتين، اسهمتا، خلال عدة قرون، في الحفاظ على انظمة اجتماعية زال معظمها. فهل نتجت عن ذلك كوارث؟.

فكيف اذن يمكن، منذ الآن، التأكيد على ان ظاهرة اجتماعية، كالسلام، لا يعرف عنها شيء بعد لأنها ما تزال قيد الايجاد، نلزمها، بالضرورة، بان تؤدي في نظام اجتماعي «جديد» وفي «حالتين استثنائيتين» الوظائف التي تؤديها الحرب؟. ما هي الأسس العلمية لمثل هذا التأكيد؟.

د) وهذه ملاحظة أخيرة: ما هو المغزى الاجتماعي للمظاهر الدولية المتعددة الواضحة التي تسعى علناً إلى القضاء على الحرب؟.

ان الأمر لا يتعلق بالوقائع الاجتماعية المنفردة، او المؤقتة. بل الأمر على العكس من ذلك. فمنذ اكثر من خمسين عاماً، نصت مواثيق عصبة الأمم ومنظمة الأمم المتحدة على النضال ضد الحرب. يضاف الى ذلك، ان مجموعات اجتماعية عديدة تعمل، على الصعيد الدولي، على اقامة التعاون بين الشعوب. انها، جميعها، مظاهر تدل على معارضة الحرب، وتزداد يوماً بعد يوم.

وهكذا نلاحظ ان «النظام الاجتماعي المؤسس على الحرب» لم يعد الآن مرغوبا فيه، ولا مقبولاً، كما كان الأمر عليه قبل عام ١٩١٤. ومنذ ذلك الحين حتى الآن، اذا قُبل الرأي القائل بان الحرب تؤدي وظائف اجتماعية، فمن الضروري ان يؤخذ بالاعتبار ايضاً وجود «خلل في سير العمل»[٨٧]، هذا الخلل الذي اخذ، منذ اكثر من

---

(٨٧) انظر هنري جان، المرجع ذاته، ص ١١١ وما بعدها، حيث عرف «الخلل في سير العمل» على أنه «نشاط موجه توجيهاً سلبياً ضد وجود البُنى واستمراريتها».

خمسين عاماً، يظهر ويؤثر اكثر فأكثر.

وهكذا، فان الدوافع نحو السلام ليست ابداً ظواهر منفردة لا تعبر إلا عن نزعة سلمية خيالية. فالعالم العلمي، المدرك لعظم الكارثة التي يمكن ان تنتج عن حرب عالمية ثالثة، قد انهمك، بشكل عميق، في بحوث تهدف إلى استثمار الدوافع العميقة التي تدفع المجتمعات الانسانية إلى أن يهدم بعضها بعضاً بين فترة وأخرى. وخلال السنوات الأخيرة، تم انشاء نحو مائة معهد ومركز لبحوث الحرب والسلم في العالم. ويعكف علماء ينتمون الى مختلف العقائد على بذل الجهود للتوصل إلى القضاء على جنون تخريب الذات الذي يهدد النوع الانساني، دون أن يخضعوا في جهودهم لمبدأ الحتمية والقدرية.

لقد ادت الأوبئة ايضاً في الماضي وظائف اجتماعية. وعندما انقضى عهد اعتبار هذه الأوبئة انها تعبيراً عن ارادة الإله، تم ايجاد الادوية لها، وامكن القضاء عليها.

ان ردود الفعل الخاصة بالنزعة السلمية، والتي تزداد مظاهرها المحسوسة يوماً بعد يوم، يمكن أن تشكل «خللاً في سير عمل الحرب»، يستحق التأمل والدراسة.

ان كل ما سبق يقودنا إلى الاقتناع بان نظرية السلام المستحيل تقوم على برهان يدعي العلمية ادعاءً. وكنتيجة لذلك، فلا بد من اعتبار هذه النظرية خاطئة.

ونستطيع ان نتساءل الآن: كيف امكنت صياغة هذه النظرية، وتم نشرها، بعد حربين عالميتين ادتا إلى قتل عدة عشرات من ملايين الناس؟.

لنلاحظ، بادىء ذي بدء، ان «تقرير آيرون ماونتن» هو كتاب وضعه أميركيون للأميركيين أثناء حرب فييتنام، وأن اية حرب، طيلة القرن الأخير، لم تكتسح ارض الولايات المتحدة، ولم تعرض شعبها للابادة، فالاحتلال الاجنبي أمر لا يعرفه الأميركيون.

وخلال الحربين العالميتين، قامت الولايات المتحدة، من جهة، بتزويد الجيوش الحليفة بالأسلحة والمؤن والاعتدة، كما قامت، من جهة أخرى، بارسال قوات إلى ميادين قتال خارجية، بعد ان كانت تلك الجيوش قد تحملت، منذ فترة طويلة، الهجمات الأولى للعدو. ان اميركا لم تعرف، كما عرفت البلدان الاوروبية التي اشتركت في الحربين العالميتين، المذابح الرهيبة التي ابادت الشعوب الأوروبية.

ومهما كانت الاحصاءات الخاصة بالخسائر البشرية الناتجة عن حرب ١٩٣٩ـ ١٩٤٥ غير دقيقة، فانها تكفي للدلالة على ان الولايات المتحدة تحتل، من الناحية الواقعية، المرتبة الأخيرة في تصنيف ثلاثين دولة حسب الحجم النسبي لخسائر هذه الدول.

ـلقد فقدت الولايات المتحدة ٢,٠٪ من سكانها، بينما فقدت بولونيا ١٩,٦٪.

ـوبريطانيا العظمى ٠,٧٪.

ـوبلجيكا ١,١٪.

ـوفرنسا ١,٥٪.

ـوالمانيا ٩٪.

ـوالاتحاد السوفييتي ١٠,١٪.

وفيما يلي بيان بالخسائر العسكرية والمدنية مستقاة من اربعة مصادر مختلفة[٨٨]:

الدولة	المؤلف	الخسائر العسكرية	الخسائر المدنية	الخسائر في الارواح البشرية
الولايات المتحدة	غراندـ جان	١٨٠,٠٠٠	٧,٠٠٠	١٨٧,٠٠٠
	راينهارد وآرمنغو			٣٠٠,٠٠٠
	اوربانيس			٣٠٢,٠٠٠
	بيري			٢٣٠,٠٠٠
بريطانيا العظمى	راينهارد وآرمنغو	٢٩٨,٠٠٠	٩٥,٠٠٠	٣٩٣,٠٠٠

(٨٨) انظر:

آ) بول غراندـ جان، «حروب، وتغيرات، وغو»، نشر سيديس، باريز، ١٩٦٧، ص ٤٣ وما بعدها.

ب) مارسيل ر. راينهارد وأندريه آرمينغو «التاريخ العام لسكان العالم»، نشر مونتـ كريستيان، باريز، ١٩٦١، ص ٤٩١ وما بعدها.

ج) بوريس اوربانيس، «حروب وشعوب»، نشر دار التقدم، الاتحاد السوفييتي، موسكو ١٩٧٢ ص ٣١٨ وما بعدها.

د) جان بيري «تحولات الحرب الحديثة (١٧٩٢ـ ١٩٦٢)»، نشر بايو، باريز ١٩٦٢، ص ٣٣٣.

	اورباتيس	٢٩٠,٠٠٠	٦٠,٠٠٠	٣٥٠,٠٠٠
	بيري	٣٠٠,٠٠٠	١٠٠,٠٠٠	٤٠٠,٠٠٠
المانيا	غراند- جان	٩,٩١٠,٠٠٠	٣٧٥,٠٠٠	١٠,٢٨٥,٠٠٠
	راينهارد - وآرمنغو	٣,١٠٠,٠٠٠	٥٠٠,٠٠٠	٣,٦٠٠,٠٠٠
	اورباتيس	٤,٥٠٠,٠٠٠	٢,٠٠٠,٠٠٠	٦,٥٠٠,٠٠٠
	بيري.	٣,٧٦٠,٠٠٠	١,٦٩٠,٠٠٠	٥,٤٥٠,٠٠٠
فرانسا	غراند جان	٢٣٨,٠٠٠	٤١٥,٠٠٠	٦٥٣,٠٠٠
	راينهارد - وآرمنغو	٤٤٠,٠٠٠	١٦٠,٠٠٠	٦٠٠,٠٠٠
	اورباتيس	٢٥٠,٠٠٠	٣٥٠,٠٠٠	٦٠٠,٠٠٠
	بيري	٢٤٥,٠٠٠	٣٧٥,٠٠٠	٦٢٠,٠٠٠
الاتحاد آلسوفييتي	غراند- جان	٧,٠٠٠,٠٠٠	١٨,٣٠٠,٠٠٠	٢٥,٣٠٠,٠٠٠
	راينهارد - وآرمنغو	٩,٠٠٠,٠٠٠	١٤,٠٠٠,٠٠٠	٢٣,٠٠٠,٠٠٠
	اورباتيس	١٠,٠٠٠,٠٠٠	١٠,٠٠٠,٠٠٠	٢٠,٠٠٠,٠٠٠
	بيري	١٣,٠٠٠,٠٠٠	٧,٠٠٠,٠٠٠	٢٠,٠٠٠,٠٠٠

ان الفروق بين الخسائر المدنية والعسكرية، حسب المؤلفين المذكورين، تعود، في اغلب الأحيان، إلى عدم التأكد من عدد الضحايا العسكريين. وكمثل على ذلك، اعتبر بعض المؤلفين الانصار الروس جنوداً، بينما صنفهم آخرون بين المدنيين. ولكن المجاميع، بالرغم من الفروق التي تبلغ احياناً حداً كبيراً، تدل جيداً على الحجم النسبي للخسائر في الارواح البشرية التي حلت بالدول المذكورة في البيان. ولا بد من ان تضيف إلى ذلك، ان البلدان التي تحملت خسائر في الارواح البشرية اكثر من غيرها، تعرضت، في الوقت ذاته، إلى تدمير اوسع من غيرها ايضاً.

وفي هذا الصدد، فقد كانت الولايات المتحدة في وضع متميز، بالاضافة إلى ان

قدرتها على الانتاج استفادت استفادة كبرى من ظروف الحرب.

«ويمكن الذهاب إلى حد القول، دون خشية من المبالغة، ان الولايات المتحدة لم تنل من الحرب إلا كل نتيجة مربحة»(٨٩).

وكنتيجة لذلك، فان الأعمال والنتائج الدموية واللاانسانية للحروب العظمى للقرن العشرين لا يمكن أن تكون مرئية من قبل الأميركيين، بالطريقة ذاتها التي ينظر اليها ويراها الاوروبيون. والحرب، أو الاستعداد الكثيف لها، بالنسبة للغالبية العظمى من الأميركيين، ليس له حتى الآن معنى مباشر إلا الازدهار الاقتصادي وغياب البطالة. وضمن هذه الظروف، يصبح النجاح الذي لاقاه «التقرير من آيرون ماونتن» في الولايات المتحدة مفهوماً.

ان التقرير يمنح، بشكل ما من الاشكال، «الصقور» شعوراً مريحاً، طالما أن «رجال العلم» قالوا لمنظمي الحروب ان السلام سيكون مغامرة خطيرة كبيرة، إلى حد انها تهدد «الاستقرار» (أي انها تهدد وضع اولئك الذين يرضون عن ذلك الاستقرار)، ولا تترك مجالاً لوقف انتاج السلاح الذي يحقق النفع الكثير للاقتصاد.

لقد نسي واضع أو واضعو «التقرير من آيرون ماونتن» عنصراً رئيسياً وهو أن مائة وعشرين مليوناً من الأميركيين سيبادون خلال ساعات قليلة اذا ما نشبت الحرب العالمية الثالثة(٩٠) وفي هذه المرة، لن تكون الولايات المتحدة محمية ببعدها عن ساحة القتال، كما كان الأمر عليه في الحربين العالميتين السابقتين، بل على العكس من ذلك، اذ من المحتمل أن تكون الولايات المتحدة في الخط الأول من القتال، بالاضافة إلى الاشعاعية الناجمة عن الانفجارات الحرارية- النووية، التي يمكن أن تحدث تبدلات كارثية في جميع انواع الكائنات الحية، بما فيها النوع الانساني.

واذا كان هناك البعض، ضمن هذه الشروط، قد رأوا ضرورياً- وفي ذلك دعم كبير لمنظمي الحروب- ان يعتمدوا على براهين تدعي العلمية ادعاءً من اجل البرهنة على ان السلام اكثر خطراً من الحرب، فاننا نحملهم المسؤولية بكاملها.

---

(٨٩) غراند- جان، المرجع ذاته، ص ٢٧٩.

(٩٠) انظر لهذا الموضوع: جول موش، «مصير السلام»، نشر ميركور دوفرانس، باريز، ١٩٦٩، ص ٢٨٥.



الباب الثاني

الأوهام الكبيرة

١ـ النزعة السلمية الدينية.

٢ـ النزعة السلمية الفردية.

٣ـ الشروط الظاهرية للسلام.



الفصل الأول

النزعة السلمية الدينية

١٧ـ حتى يقوم السلام في العالم، يكفي أن يقرر كل فرد التخلي عن أي شكل من أشكال العنف.

١٨ـ نظرية الحرب العادلة.

١٩ـ الرسالة البابوية «السلام على الارض» بتاريخ ١٠ نيسان ١٩٦٣.

٢٠ـ السعادة والأمل.

٢١ـ بولس السادس.

٢٢ـ الحوار الأخوي للاب بير.

١٧ـحتى يقوم السلام في العالم، يكفي أن يقرر كل فرد التخلي عن أي شكل من اشكال العنف.

يعود أصل هذا الوهم إلى الإنجيل، ويشكل أساس النزعة السلمية الدينية. وقد أدان المسيح، في موعظته الشهيرة فوق الجبل، استعمال السلاح. فقد قال:

«لا تقتل ابداً».

«اذا ضربك احد على خدك الأيمن، فأَدِر له خدك الأيسر».

«احبوا اعداءكم، واحسنوا إلى مبغضيكم، وباركوا الذين يلعنونكم».

وتوجد هذه الوصايا في أساس النظريات التي تستند إليها بعض حركات النزعة السلمية القائمة على الفضيلة، مثل تلك الحركات التي ترتكز في أعمالها على:

ـاللاعنف.

ـالدفاع المدني.

ـالمعارضة المنبعثة عن الوجدان.

ـالحوار الأخوي.

ويعتمد بعض هذه الحركات ايضاً تعليمات تولستوي، وتستوحي انموذج غاندي، ومارتن لوثر كينغ ودول هيلدر كمارا.

ويعتقد الذين ينتسبون إلى هذه الحركات بانه يمكن القضاء على الفوضى الدولية اذا ما اراد كل منا ذلك حقاً. ومن اجل ذلك، يكفي ان نتحابَّ بدلاً من ان نتباغض، وأن نرفض التقاتل، وان لا يقاوم احدنا احتلال بلده، وانما يعمل على أن يجعل العدو يحس بخطئه، عن طريق اتخاذ موقف نبيل وبواسطة العصيان المدني، أو بمباشرة حوار أخوي يسعى فيه إلى كبت مشاعره الخاصة وفهم وجهة نظر خصمه.

تنتشر هذه الافكار بصورة رئيسية في الاوساط الكاثوليكيةوالبروتستانتية[٩١]والذين ينشرونها هم، بصورة عامة، من ذوي الايمان المطلق القوي، وبالاضافة إلى ذلك، فان بعضهم يتسمون بنزاهة ثقافية عالية.

ولكن هؤلاء، مع الاسف، مخدوعون. فقد علمنا التاريخ ان الافكار المسيحية عن الرحمة، والأخوة، واللاعنف، كانت دائماً، في الماضي، غير قادرة على السيطرة على الظاهرة الاجتماعية- الحرب.

وفي اصول المسيحية، منع آباء الكنيسة، مثل: كليمانت داليكسندري، وأوريجين، وتيرتوليان، ولاكتانس، وسان سيبريان، وسان هيبوليت، المسيحيين أن يَقْتُلوا، وعلموهم بانه لا أمر الامبراطور ولا الاكراه على القتل يمكن أن يبررا فعل القتل. ولكن المسيحيين، بعد ان اعتُرف بالمسيحية كديانة رسمية للأمبراطورية، لم يرفضوا أبداً أن يقاتلوا ليساعدوا الأمبراطور، واعلن سان اوغوستان ان «الجنود، اذ ينفذون قرارات الحرب، يخدمون قضية السلام والازدهار العام».

وبعد ذلك، جاءت الحروب الصليبية والحروب الدينية لتقدم البرهان على أن

---

(٩١) انظر لهذا الموضوع:

آ)جان تولات (قس)، «القنبلة او الحياة»، فايار، ١٩٦٩.

ب)الاب بير (جائزة نوبل للسلام)، «لنعش أو لنمت جميعاً»، المنشورات الاكاديمية الأوروبية، بروكسيل، ١٩٦٩.

ج)منشورات «سلام المسيح»

د)منشورات جمعيات مناهضي الحرب.

هـ)ج. ب. كاسيلان، «المعارضة المنبثقة عن الايمان» المنشورات الجامعية الفرنسية، ١٩٧٣.

المجازر الجماعية يمكن أن ترتكب من قبل مسيحيين بمثل ما ترتكب من قبل ملحدين (أو مسلمين). فمنذ الفي عام، وفي جميع الجيوش الغربية، بارك القساوسةُ المقاتلين واسلحتهم قبل أن يبدؤوا القتال. وفي عام ١٩١٤، كان الجنود الالمان يحملون على محازمهم شعار «الله معنا». وتضمنت الموعظة الدينية رقم ٢٥٣ الصادرة في ٢ تموز ١٩١٤ عن أبرشية باريز، ان من الجائز ان يقتل المرء قريبه اذا تطلب الدفاع عن الوطن ذلك.

ان الدخول في الديانة المسيحية، لم يكن في يوم من الأيام وسيلة فعالة لمناهضة الحرب، بل يمكن، إلى حد ما، التدليل على عكس ذلك.

وقد حاول البروتستانت، اكثر مما فعل الكاثوليك، نشر الافكار السلمية، غير أن هذه المحاولات لم تؤد إلا إلى نتائج محدودة ومخيبة للآمال. فمنذ عام ١٨١٥ أسس «الكويكرز» في الولايات المتحدة اول «جمعية للسلام»[٩٢]. وفي عامي ١٨٤٣ و١٨٤٩ انعقد مؤتمران دوليان «لجمعيات السلام» في لندن وباريز، غير أن جماهير المؤمنين لم تنصع لهذه الاتجاهات بالرغم من الجهود التي بذلها الزعماء البروتستانت. وفي عام ١٨٨٥ لاحظت «الجمعية الانكليزية للسلام» لا مبالاة الكنائس تجاه حركة السلام. وفي هذه الاثناء حاول «آلن باكر»، قبل الحرب العالمية الأولى، تحسين العلاقات بين انكلترا وألمانيا عن طريقة مضاعفة الاتصالات بين زعماء الكنيسة في البلدين. وأسس، لهذا الغرض «التحالف العالمي لتطوير الصداقة الدولية بواسطة الكنائس». ولكن هذا التحالف العالمي لم ينته إلى أية نتيجة تخدم قضية السلام. وقد اعتقد «ملك الصلب» كارينجي بان المنظمات الدينية تستطيع ان تؤسس حركة سلمية اكثر فعالية من الحركات المماثلة، ولهذا اسس عام ١٩١٤ «اتحاد سلام الكنيسة». ولكن ذلك جاء جد متأخر، فقد وضعت التعبئة العامة في المانيا وفرنسا حداً «للمؤتمر الدولي للكنائس» الذي كان بدأ أعماله في أول آب ١٩١٤. وفي عام ١٩٢٥ انعقد مؤتمر كنائسي في استوكهولم، واعترف بانه غير قادر على تسوية الخلافات الدولية، وقصر عمله على توجيه رسالة الى الكنائس يطلب فيها ان تقوم الكنائس

---

(٩٢) ب. رونوفان وج. ب. دوروسيل، «مدخل الى تاريخ العلاقات الدولية» مكتبة آ. :ولان، ١٩٧٠، ص ٢٥٠ وما بعدها.

بالتحدث عن اهوال الحرب. وفي عام ١٩٣٧، انعقد مؤتمر آخر في اوكسفورد، غاب عنه البروتستانت الألمان، ولاحظ المؤتمرون ان المسيحيين يتخذون حيال الحرب مواقف متضاربة:

«فالبعض يرون ان الحرب، اية حرب، هي ضد الأرادة الالهية، وان على المسيحيين، نتيجة لذلك، ان يرفضوا الاشتراك فيها؛ وفئة ثانية ترى أن الحرب تكون «عادلة» عندما يكون هدفها تأمين احترام القانون الدولي أو مساعدة ضحايا عدوان ليس هؤلاء مسؤولين عن إثارته، وتحيل هذه الفئة إلى ضمير كل مؤمن مسؤولية الحكم على تلك الحرب؛ أما الفئة الثالثة فانها ترفض الايمان بهذا الاختيار الحر وتؤكد، بدون تحفظ، على ضرورة طاعة الدولة (الجهاز الذي اراده الله لتجنب الفوضى)...». وقد رفضت الرسالة الختامية للمؤتمر أن تحدد «واجب المواطن المسيحي في الدولة المحاربة» كما رفضت ان تقول «ما اذا كان اللجوء الى الحرب من اجل القضاء على خرق صارخ للقانون هو عمل مشروع»[٩٣]. وبالرغم من الجهود الحميدة التي بذلها البروتستانت في نضالهم ضد الحرب، فان هذه الجهود باءت بالفشل. هذا عن البروتستانت، فماذا عن الكاثوليك؟.

كان تأثير «جوزيف دوميتر» في الاوساط الكاثوليكية، في القرن التاسع عشر، جد كبير. وكانت الحرب في نظره عملاً إلهياً خارجاً عن ارادة الانسان. وكان «لامونيه» يمجد الوطن، والدين، والأممية. وقد جاء في مطلع أحد مقاطع كتابه «كلمات مؤمن»[٩٤] ما يلي:

«أيها الفتى الجندي، إلى أين انت ذاهب؟
اني ذاهب لأقاتل في سبيل الله وكنائس الوطن.
فلتكن اسلحتك مباركة، ايها الفتى الجندي!».

ويجيب هذا الفتى الجندي، في مواضع عدة، على السؤال ذاته، بانه ذاهب ليقاتل «في سبيل العدالة»، «في سبيل القضية المقدسة للشعوب». و«في سبيل الحقوق المقدسة

---

(٩٣) رونوفان ودوروسيل، المرجع ذاته، ص ٢٥٣.

(٩٤) ذكر ذلك مارسيل ميرل في «النزعة السلمية والنزعة الأممية» من القرن السابع عشر حتى القرن العشرين، نشر آ. كولان، ١٩٦٦، ص ١٩٩.

للنوع الانساني»، و«من اجل تخليص أخوتي من الظلم»، و«ضد الطغاة، ومن اجل الحرية»، و«لتجفيف دموع الأولاد الصغار الذين يطلبون الخبز»، و«من اجل الفقير»، «حتى يكون للجميع إله في السماء ووطن على الارض»، الخ. . . ويكرر في كل مرة جملة «فلتكن اسلحتك مباركة، أيها الفتى الجندي!».

وهكذا يُلاحظ ان «الفتى الجندي» لا تنقصه الفرص والمناسبات ليذهب فيقتل نظراءه، كما يلاحظ أن النزعة السلمية لدى «لامونيه» تخفي تناقضات عجيبة.

وفي الحقيقة. فان رجل الدين، في فرنسا كما في المانيا، كان يدعم، طوعاً، المظاهر الوطنية اكثر من دعمه الافعال التي تدين الحرب. فقد كانت الوطنية العدوانية، تتغلب، في البلدين المذكورين، على العقيدة الدينية.

لقد كان عمل الكرسي البابوي في النضال ضد الحرب، وخلال فترة طويلة، جد ضعيف. وقد قدم كل من البابا بيو التاسع عام ١٨٧٠، والبابا ليون الثالث عشر عام ١٨٨٥ وساطتهما، فتوسط الأول بعد اعلان الحرب بين فرنسا وألمانيا، وتوسط الثاني في قضية «آل كارولين» بين اسبانيا والمانيا. ويمكن القول ان هذه الوساطات كانت في نزاعات ذات اهمية ثانوية.

وكان البابا بيو العاشر قد ايد الانذار الذي وجهته النمسا الى صربيا في تموز ١٩١٤، ولكنه اهمل دعم «رابطة الكاثوليك الفرنسيين من اجل السلام» التي اسسها «فاندربول».

وفي اثناء الحرب العالمية الأولى قام البابا بينوا الخامس عشر ببعض المبادرات. فقد قام بعدة وساطات منها تلك التي قدمها في مطلع شهر آب ١٩١٧. ونتساءل الآن عما اذا كانت أعماله لا يبغي فيها وجه دين المسيح. اننا نرجو ذلك، فقد انقسمت الآراء بهذا الشأن، اذ رأى بعض الكتاب ان البابا كان «يرغب على الأخص في وضع حد للخطر الذي تتعرض له الكنيسة، ويتمنى ان لا يترك للاشتراكية الدولية احتكار الأعمال الهادفة إلى تحقيق السلام. وعندما فكر، في اواخر عام ١٩١٥، في الاسهام في المؤتمر القادم للسلام، كان يأمل بلا شك، مثله في ذلك مثل البابا ليون الثالث عشر عام ١٨٩٩، في ان ينتهز هذه

المناسبة ليطرح «المسألة الرومانية». وكانت هذه التدخلات تمتزج ولا شك باهتمامات سياسية»[٩٥].

وهكذا فتح بينوا الخامس عشر طريقاً جديدة. وحينما جاء البابا بيو الحادي عشر، استنكر الوطنية غير المعتدلة، واعتبر أن تطويع الافكار للسلام يمكن ويجب أن يتم بواسطة الكنيسة الكاثوليكية. وبالرغم من هذا، فانه لم يُدن العدوان الايطالي على الحبشة عام ١٩٣٥، ولا الأعمال العدوانية التي قامت بها المانيا عام ١٩٣٨.

وعلى عكس بيو الحادي عشر، قام بيو الثاني عشر بجهود تستحق التقدير من اجل منع نشوب الحرب العالمية الثانية، وذلك عن طريق مداخلاته الدبلوماسية ونداءاته إلى الرأي العام.

ومن المؤسف أن العالم الكاثوليكي منقسم، فالوطنية أقوى من الدين بكثير.

وقبل ان نحلل اعمال البابا حنا الثالث والعشرين والبابا بولس السادس، من المناسب ان ندرس ببعض التفصيل مفهوماً ينادي به في اغلب الاحيان اصحاب النزعة السلمية من رجال الدين، وهو مفهوم «الحرب العادلة»، الذي طوره المفكرون الكاثوليك تطويراً واسعاً.

١٨ـ نظرية الحرب العادلة[٩٦]:

تعود اصول نظرية الحرب العادلة إلى عهود قديمة. فقد كان اليونانيون يرون ان الحرب ضد البرابرة (اي اولئك الذين لا ينتسبون إلى العرق اليوناني) امر مبرر دائماً. وكان الرومان يرون ان الحرب تكون عادلة اذا تم فيها تطبيق الشكليات الدينية المطلوبة. أما

(٩٥) رونوفان ودوروسيل، المرجع ذاته، ص ٢٥٦ و٢٥٧.

(٩٦) انظر لهذا الموضوع:
آ)جان تولات، المرجع ذاته، ص ٩٨.
ب)لويس ديلبيز: «مفهوم الحرب»، نشر بيدون، باريس، ١٩٥٣، ص ٦٢ وما بعدها.
ج)رينيه كوست، «مشكلة قانون الحرب في فكر بيو الثاني عشر». نشر أوبييه ١٩٦٢، ص ١٩ وما بعدها.
د)ألفريد فاندربول، «قانون الحرب في القرون الوسطى»، نشر بيدون، ١٩٢٥.

العبرانيون فكانوا يعتبرون كل حرب تنشب لصالح الأمة اليهودية حرباً عادلة. غير انه يجب الاعتراف بأن المسألة الأخلاقية للحرب لم تشغل بال الأقدمين، حتى جاءت المسيحية، فتصورت وصاغت نظرية الحرب العادلة، وذلك بعد ان ترددت في ذلك عدة مرات.

ايد بعض آباء الكنيسة تأييداً واضحاً «اللاعنف المطلق»، ومن بين هؤلاء «تيرتوليان» و«لاكتانس» و«بولان دونول»، غير انه خلال القرون الثلاثة الأولى لم يضع أي أب من آباء الكنيسة نظرية واضحة عن مشروعية الحرب. وعلى العكس من ذلك، فقد كتب سانت اوغوستان (٣٥٤ـ ٤٣٠) نصوصاً عديدة عن قانون الحرب، ورد اشهرها في كتابه: «مدينة الله». ويرى سان أوغوستان ان الحرب يمكن أن تكون ضرورية حينما ينتهك السلام انتهاكاً ظالماً: «ان ظلم العدو هو الذي يُجبر العاقل على خوض الحروب العادلة». فماذا يفهم من تعبير «الحرب العادلة»؟. انها تلك الحرب «التي تنتقم من الظلم، وذلك عندما يهمل الشعب أو الدولة التي يجب شن الحرب عليها معاقبة اشرار رعاياها، أو إعادة ما سرقته خلال الأعمال الجائرة التي قامت بها».

والحرب التي مبعثها الطمع أو الرغبة في السيطرة، يجب ان تُدان لأنها ليست سوى «لصوصية كبرى». أما الحرب الدفاعية فانها جائزة ليدافع بها المرء عن بلاده ضد هجوم غير مبرر. ويجب قبل مباشرة أي حرب، وفي وقت سابق لها، استنفاذ جميع الوسائل السلمية من اجل حل النزاع.

ويمكن أن تكون الآلام الناجمة عن الحرب عقاباً للمخطئين، أو تزكية خيرة معطاءة للابرياء من اجل سلامتهم. وعلى هذا فان هزيمة شعب كان يعتقد أنه على حق يمكن ان تعتبر ظاهرة صحية.

وقد كرر كثيرون من علماء اللاهوت، ما بين القرنين السادس والثاني عشر، بشكل ما من الاشكال، النظرية التي صاغها سانت اوغوستان.

وحوالى العام ١١٤٠، ذكر استاذ من جامعة مدينة بولونيا الايطالية هو الراهب «غراتيان» ثلاثة اسباب مشروعة للحرب: تدفق الأعداء عبر الحدود، واستعادة الأملاك،

والانتقام من المظالم. ويميز مؤلف «قرار غراتيان» الشهير تمييزاً واضحاً بين الحرب الدفاعية (التي هدفها رد الظلم) والحرب الهجومية (التي هدفها فرض العقاب).

ويلاحظ منذ نشأة نظرية الحرب العادلة أن هناك صعوبة أساسية في معرفة ما يقصد بالعدل وما يقصد بالظلم، وما هو عادل وما هو غير عادل. كما أن مسألة معرفة ما اذا كان يمكن اعتبار الحرب عادلة بالنسبة للطرفين معاً كانت موضع تأكيدات متناقضة لدى علماء اللاهوت. وهذا يبرهن على وجود الشك في نظرية الحرب العادلة.

ومع ذلك، فقد حاول «سانت توماس داكان» (١٢٢٥ـ ١٢٧٤) ان يتعمق في هذه النظرية، فقد حدد للحرب، حتى تكون عادلة، ثلاثة شروط:

١ـ«سلطة الأمير» على القرار الذي تشن بموجبه الحرب. وقد كانت هذه المسألة هامة في القرن الثالث عشر، فمن اجل وضع حد للحروب الخاصة التي كانت مصدر الداء في ذلك العصر، كان من المنطقي أن يحصر بالرؤساء الأعلين حق اتخاذ قرار الحرب، اذ كان يتوجب عليهم وحدهم، وليس على أي إنسان آخر، أن يدافعوا عن «المصلحة العامة» ضد الأعداء سواء في الداخل أو الخارج. ويقع على «الأمير»، وليس على أي شخص غيره، عبء اشاعة النظام في الداخل ومجابهة كل تهديد يأتي من الخارج.

٢ـوحتى لا تكون الحرب خطيئة، يجب ان يكون هناك سبب عادل. ويكون السبب عادلاً حينما يرتكب العدو غلطة. وهكذا، فعندما يرتكب الخصم غلطة يستحق أن يُهاجم من اجلها، يجوز حينذاك الهجوم عليه.

٣ـوحتى تكون الحرب عادلة، لا يكفي أن تباشرها السلطة المؤهلة ولا ان تكون لسبب عادل، فهناك شرط ثالث هو أنه يجب أن يكون لدى المقاتلين قصد شريف، وهو أن يعملوا على فعل الخير أو تجنب الأذى

وهكذا فان «الأمير» يملك سيفاً ليحقق به «المصلحة العامة». ولكن، اين هو الخير في هذا؟ واين هو الشر؟. (وما هو خير بالنسبة للمسلم، قد لا يكون دائماً خيراً في نظر الكاثوليكي).

وظهر في القرن السادس عشر لاهوتي آخر، هو «فرانسوا دو فيتوريا»، ذكر في

تعاليمه ان «المصلحة العامة» يجب أن تفهم على أنها «المصلحة العامة الشاملة»، و«أن الحرب تكون غير عادلة لسبب وحيد هو أنها تسبب اضراراً للمجموع وللمسيحية، بالرغم من نفعها لهذه الولاية أو تلك». ويرى فيتوريا أن الاختلاف في الدين، مثلاً، لا يبرر شن حرب استعمارية. أما إسهامه الرئيسي في نظرية الحرب العادلة فيمكن ايجازه بما يلي: «ان السبب المبرر الأوحد للحرب هو خرق القانون». ويجب، على الأخص أن يكون هناك تناسب بين خطورة الظلم الواقع وخطورة الخسائر التي ستنجم عن الحرب. وبالاضافة الى ذلك، يجب ان يكون قد تم استنفاد جميع الوسائل السلمية الممكنة لحل النزاع قبل مباشرة القتال. ولا يمكن ان تكون الحرب شرعية إلا اذا اصبحت، في نهاية الأمر، الوسيلة الوحيدة التي لا غنى عنها للدفاع او لاسترداد حق مغتصب.

وفي القرن السابع عشر اتخذ القانون العام الأوروبي منعطفاً هاماً، فلم يعد السبب العادل، منذ ذلك الحين، اخلاقياً ودينياً، وانما اصبح قانونياً. وتعتبر الحرب قانونية اذا ما كان الذي يبدؤها يملك بين يديه زمام السيادة، ويتقيد ببعض الشكليات، مثل اعلان الحرب والانذار الرسمي قبل بدء العمليات الحربية. وقد اخذ رجال القانون، منذ ذلك الحين، يعملون على جعل الحرب إنسانية اكثر مما يعملون على وضع قانون لعمل الحرب. ومنذ القرن السابع عشر حتى الحرب العالمية الأولى، اخذت شرعية سبب الحرب تشغل الاخصائيين في القانون العام الأوروبي أقل مما يشغلهم قانون فعل الحرب الذي كانت الدول ذات السيادة تتصرف به.

ويتمثل مفهوم «السيادة» من الناحية القانونية في:

ـ١) حق التوقيع على المعاهدات.

ـ٢) حق استقبال وارسال السفراء.

ـ٣) حق عمل فعل الحرب.

ومنذ ذلك الحين، يصدق ما كتبه «ألفونس ريفييه» في كتابه «مبادىء حقوق الناس» عام ١٨٩٦: «لقد اصبح التمييز بين الحرب العادلة والحرب الظالمة، من الناحية القانونية، غير ذي قيمة».

وإذا ما اصبحت نظرية الحرب العادلة، من وجهة نظر القانون، لا قيمة لها، فاننا

نتساءل اليوم عما اذا كان من الممكن اعتبار الحروب، من وجهة النظر الاخلاقية، عملاً مشروعاً، وعما اذا كانت هناك حالات تنطبق عليها معايير وشروط الحرب العادلة.

لقد كتب الكاهن «جان تولات» في كتابه «القنبلة أو الحياة» أن توفر الشروط اللازمة لتكون الحرب عادلة اصبح أمراً مستحيلاً. فكل طرف من الأطراف المتخاصمة، يقدر، في الواقع، ان السبب الذي من اجله يحارب هو سبب عادل، وانه لولاه لما عرض حياته من اجل الدفاع عنه. وفي الأعوام ١٨٧٠، و١٩١٤، و١٩٣٩، كانت غالبية الالمان، حالها في ذلك حال غالبية الفرنسيين، تعتقد انها كانت على الطريق القويم، وان كلاً من الطرفين كان يقاتل في سبيل قضية عادلة وبسبب خطأ الطرف الآخر.

(وفي عام ١٩٧٣ كانت الحالة ذاتها عند الاسرائيليين وعند العرب: فالمعتدي، والشرير هو الطرف الآخر). ان الشرط الأول للحرب العادلة هو رضى الطرفين عن الحرب، وبدون ذلك لا تقع الحرب.

وبالاضافة الى ذلك، تفرض نظرية الحرب العادلة وجوب استنفاد جميع وسائل التوفيق، قبل البدء بالقتال. غير ان هذا الشرط يرتبط، على الأقل، بأحد طرفي النزاع الذي يرى، بحق أو ببُطل، أنه تفاوض مع خصمه تفاوضاً كافياً، وانه «يريد ان ينهي التفاوض»، أو يعلن ان التفاوض اصبح «النقطة التي تجعل الكأس يفيض»، أو يقرر انه «الآن وليس بعد الآن»!. وهكذا فانه يكفي أن يقرر احد الطرفين أن يباشر العمليات العدوانية حتى تفرض الحرب نفسها على الخصم. ويعتبر غزو المانيا لبلجيكا عام ١٩١٤ وعام ١٩٤٠ مثلاً ذا دلالة على ذلك، فقد كانت وسائل التوفيق مقتصرة على ارسال انذار تلاه غزو الاراضي البلجيكية.

اما الشرط الثالث للحرب العادلة، وهو «استخدام الوسائل العادلة»، فانه يبدو، ببساطة، طوباوياً غير قابل للتحقيق. فهل هناك وسيلة للقتل اكثر عدلاً من وسيلة أخرى؟ وهل طعنة الحربة اكثر «عدلاً» من طلقة بندقية أو قنبلة نابالم؟ وهل كان قصف لندن، وهامبورغ، ودريدن، وهيروشيما، بالقنابل عملاً عادلاً، بالرغم من تحريم القصف بموجب اتفاقيات لاهاي؟.

اننا نعرف انه لا توجد قاعدة حقوقية قادرة على احتواء هيجان النزعة العدوانية الجماعية للمجموعات البشرية المنخرطة في قتال من اجل البقاء. وتقدم حروب القرن العشرين، بصورة خاصة، برهانا دموياً ساطعاً على ذلك.

وأخيراً، فاننا لا نجد حاجة لمناقشة الشرط الأخير الذي تفرضه النظرية الحالية للحرب «العادلة»، وهو «الأمل القائم على ان الحرب لا يجوز أن تسبب ويلات أدهى من الويلات التي يسببها ظلم واقع»، وذلك بعد ان شهدنا ملايين القتلى الذين ماتوا في الحربين العالميتين الأولى والثانية. يضاف إلى ذلك، ان احتمال وقوع الحرب العالمية الثالثة، التي تضع موضع التساؤل والشك مصير الانسانية، يقضي على جميع فوائد هذه النظرية والمنافع منها. ومن الغريب، ضمن هذه الشروط، انه لا يزال هناك، حتى اليوم، من ينادي بأفكار القرون الوسطى، كأفكار «سانت اوغوستان» و«سانت توماس داكان».

١٩ـ الرسالة البابوية «السلام على الارض».

تستمد الرسالة البابوية «السلام على الارض» التي اصدرها البابا حنا الثالث والعشرون بتاريخ ١٠ نيسان ١٩٦٣ أفكارها من آراء الاب اليسوعي «تاباريللي». وتلاحظ الرسالة:

١) ان الحرب ليست، من الناحية الانسانية، مقبولة لحل النزاعات.
٢) وان التكافل والتعاون الدوليين يتقدمان ويتسعان، يوماً بعد يوم، في جميع مجالات المجتمع الدولي.

وتوجد الآن «مصلحة مشتركة اصبحت شاملة» لا يمكن ان تتحقق إلا بواسطة «سلطة عامة ذات قدرة وأهلية عالمية»، تعمل على «دراسة وحل المشكلات التي تطرحها المصلحة المشتركة الشاملة في المجالات الاقتصادية او الاجتماعية أو السياسية او الثقافية».

ونتساءل الآن: هل يتحدث البابا عن دولة عالمية، أو اتحاد عالمي؟. لقد جرت مناقشة هذا السؤال. ويبدو أن البابا حنا الثالث والعشرين يرى أن السلطة العالمية التي اشار إليها لا يمكن أن تكون مجرد امتداد للدول ذاتها، وانما هي من «نوع آخر»، اذ يجب ان تتوفر ثلاثة شروط معاً حتى تمكن اقامة هذه السلطة:

١)ان تكون السلطة وليدة اتفاق جماعي وليس نتيجة فرضها بالقوة.
٢)وان تعمل قبل كل شيء، على حماية الإنسان وتحسين وضع حقوقه.
٣)وان لا تحد من العمل الذي تمارسه الدول في أقاليمها الخاصة بها، وأن لا تكون بديلاً عنها.

كتب الأستاذ «ر. بوسك» من «جمعية يسوع» يقول[٩٧]:

«... كيف ننشىء سلطة عامة، بصورة حرة و«باتفاق جماعي»، سلطة تأخذ قوتها ودستورها ووسائل عملها ابعاداً عالمية وتمارس عملها على الارض بكاملها؟ وهل ستُسَلِّم المجتمعات السياسية الضعيفة نفسها إلى «حامٍ يحميها» كما هي الحال في «ليغييثام» دوهوبس»؟ وهل ستتفق المجتمعات السياسية الأكثر تقدماً والأكثر غنى على حماية مصالحها ضد المجتمعات الفقيرة النَهِمة، وضد «أبناء آوى والثعالب الصغيرة» كما هي الحال في «دراسة عن السلطة المدنية» من تأليف «لوك»؟ أم ان المجتمعات الفقيرة، وقد تعبت من الانتظار، ستستولي على ازمَّة القيادة لتنشىء مدينة يعيش فيها الفقراء دون أن يستغلهم أحد (يا عمال العالم اتحدوا)؟ وفي جميع هذه الحالات الثلاث نجد أن هناك دعوة إلى «القوة»، واحياناً إلى العنف. وهذا هو الاسلوب الذي يتبع، في اغلب الاحيان، لاقامة السلطات الجديدة، كما تثبت وقائع التاريخ. أما القبول بتلك السلطات الجديدة فانه يأتي بعد قيامها. واذا ما كانت السلطة العالمية دولة عليا فوق الدول، اي انها ستقوم على الاسلوب ذاته في التطور الذي قامت عليه الدول الموجودة في الوقت الحاضر، فليس من المستبعد أن تلجأ إلى العنف في قيامها. ولكننا، بشكل دقيق، نسعى إلى شيء آخر. ويبقى هناك أمر لا بد من أن نعترف به، وهو أن أمامنا طريقاً طويلاً نسلكه قبل ان تتمكن «الجمعيات العليا والمؤهلة من دراسة مشكلة إقامة توازن دولي إنساني حقاً دراسة عميقة»...

ان الرسالة البابوية «السلام على الارض» بالرغم من اهميتها، ابعد من ان تحمل في طياتها حلاً لمسألة السيطرة على الظاهرة الاجتماعية- الحرب.

واذا ما كانت فكرة الدولة العالمية، بأي شكل من اشكالها، جذابة، فانها ليست

---

(٩٧) «المجتمع الدولي للكنيسة»، الجزء الثاني، ١٩٥٨- ١٩٦٨، نشر مكتبة البحث الاجتماعي، سبيس- باريس، ١٩٦٨، ص ٤٩.

اصيلة حتماً. أما بشأن الشروط الموضوعة لاقامتها، والاهداف المحددة لها، فيرى «مارسيل ميرل» أنها «مرتبطة بمفهوم مثالي عن المجتمع الدولي، ولا تترك إلا قليلاً من الحظ لتحقيق مثل هذا المشروع في وقت قريب»(٩٨).

٢٠ـ «السعادة والأمـل»:

أخذ المجمع الفاتيكاني الثاني، خلال عام ١٩٦٣، يعيد النظر في مجمل علاقات الكنيسة بالمجتمع المدني، وتبنى علماء اللاهوت، ضمن هذا الاطار، «بخوف ورعدة» نصاً اصبح فيما بعد يشكل الفصل الخامس والأخير من الميثاق (الذي سمي بالكلمات الأولى التي وردت فيه «السعادة والأمل»). وقد حمل ذلك الفصل عنوانا «انقاذ السلام الدولي وانشاء مجتمع الأمم».

حلل الأستاذ «بوش» من «جمعية يسوع» هذا النص بشجاعة واتقان. واثناء اشارته إلى الوضع الجديد الذي اتخذته الكنيسة حيال مشكلات السلام والحرب، لفت الكاتب النظر الى بعض الفروق التي لا يجوز ان تغيب عن النظر. فقد رأى أن نص «السعادة والأمل» ليس اكثر من «مخطط أولي قابل للتحسين».

ونعتقد بان الوضع الذي اتخذه المجمع الفاتيكاني الثاني جد خليق بالثناء، وبان الارادة الطيبة التي عبر عنها علماء اللاهوت هي فوق الجدل. ويواجه المرء في نص «السعادة والأمل» نوعاً جديداً من الفكر الذي يشيع في النفس السعادة. وعندما يعلن النص أن «السلام ليس غياباً صرفاً للحرب، وأنه لا يتحدد فقط بتحقيق التوازن بين القوى المتخاصمة» فان المجمع يؤكد على نقطة انطلاق تستند على احد المنجزات الأولى لعلم اجتماع الحرب مما يؤدي بنا إلى الموافقة عليها. وعندما يستذكر النص «القيمة الأبدية لحق الناس وللمبادىء الإنسانية» ويشجب «الأعمال التي ترتكب عمداً ضدهم» كجرائم، فان الكنيسة تتخذ وضعاً يقبله الجميع بكل تأكيد. كما ان المجمع يقدم الدليل على موقف صارم مبرر، حينما يعلن: «ان كل عمل حربي يهدف، بدون تفريق، إلى تخريب مدن بكاملها او مناطق واسعة بسكانها، هو جريمة ضد الله وضد الانسان نفسه، مما يستوجب

---

(٩٨) مارسيل ميرل «النزعة السلمية والنزعة الأممية»، نشر أرمان كولان، ١٩٦٦، ص ٣٤٠.

ادانته بحزم وبلا تردد». وحينما يصرح المجمع بقوله: «من الواضح أنه يتوجب علينا أن نعمل بجميع قوانا على أن نصل بموافقة جميع الأمم موافقة شاملة، الى ذلك الوقت الذي تصبح فيه الحرب محرمة تحريماً مطلقاً، مما يتطلب آنذاك، بكل تأكيد، اقامة «سلطة عامة شاملة معترف بها من قبل الجميع» ومتمتعة بقوة فعالة، وقادرة على تحقيق الأمن للجميع، واحترام العدالة وضمان الحقوق»- حينما يصرح المجمع بذلك، فانه يكون قد اخذ على عاتقه مهمة خلق سلطة عامة شاملة اقترحها البابا حنا الثالث والعشرون.

وهكذا يكون المجمع، عن طريق بيانات رسمية، قد بذل جهداً محموداً لمناهضة الحرب. غير ان الطريقة التي اتبعها في ذلك كانت، مع الاسف، سيئة وخطيرة، لأنه ادعى أنه رسم طريقاً يجب اتباعها قبل ان يمتلك معرفة دقيقة عن الظاهرة الاجتماعية التي يريد التحكم بها. وعدم فعالية هذه الطريقة معروفة. واذا كانت قد استعملت منذ عدة قرون فلأنها الأسهل والأقدر على تهدئة المخاوف الجماعية بشكل مباشر وآني. وهناك مثل على ذلك، فعندما اعتُبرت الحرب، بموجب حلف «بريان- كيللوغ» عملاً «خارجاً عن القانون»، خطا العالم المسيحي وغير المسيحي بعمله على صيانة السلم ابعد مما ذهب إليه نص «السعادة والأمل» الذي اقتصر على ادانة «كل عمل حربي يهدف، بدون تفريق، إلى تخريب مدن بكاملها أو مناطق واسعة بسكانها».

وهنا نتساءل: ألم يرتكب الكاثوليك والبروتستانت الإيرلنديون الذين لم يخربوا مدناً بكاملها ولكنهم، منذ عشرات السنين، يقتلون بعضهم بعضاً خلال معارك الشوارع، «جريمة ضد الله وضد الانسان نفسه»؟ ألا تتوجب ادانتهم؟. وهل يعني هذا انه يجوز القتل «بالمفرق» وان القتل «بالجملة» وحده هو المحرم؟. وما هو الكمُّ العددي من الضحايا الذي يصبح عنده «العمل الحربي» «جريمة ضد الله»؟.

ولكن هناك ما هو أسوأ من ذلك، فنص «السعادة والأمل» يعترف في البند ٧٩/٤ للدول «بحق الدفاع المشروع» على النحو التالي:

«... طالما ان الحرب موجودة، وانه لا توجد سلطة دولية مؤهلة وتمتلك قوات كافية، فانه لا يمكن ان ننكر على الحكومات حقها في الدفاع المشروع، بعد ان تكون قد استنفدت جميع امكانات التسوية السلمية. ويحق لرؤساء الدول ولأولئك الذين يعملون في

الشؤون العامة أن يعملوا على انقاذ شعوبهم، فذلك واجبهم الذي يفرض عليهم أن لا يستخفوا بمثل هذه القضايا الخطيرة»(99).

هل نسي واضعو هذا النص ان المعتدي، في كل نزاع مسلح، هو دائمًا «الطرف الآخر»، وان كلا من الخصمين يعتبر نفسه دائمًا في حالة دفاع مشروع؟ ويبدو أن المناقشات المستمرة حول تعريف العدوان لم توقظ انتباه اعضاء المجمع. وهل كان الرايخ الثالث، الذي اعلنت فرنسا وانكلترا الحرب عليه عام ١٩٣٩ في حالة «حق الدفاع المشروع»؟.

اننا نعلم ان «حق الدفاع الجماعي المشروع» الذي تضمنته المادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة قد اعطى تبريراً ملائمًا لميثاق منظمة حلف شمالي الأطلسي وميثاق حلف وارسو، مما سمح لأحلاف الأمن الاقليمية «أن تحتفظ لصالح اعضائها بحق اللجوء إلى استعمال القوة قبل أن يتخذ مجلس الأمن توصية بذلك»(100).

لقد اوقع الاعتراف بحق الدفاع المشروع المجمَّعَ بالاخطاء المعروفة ذاتها التي وقع بها عهد عصبة الأمم وميثاق منظمة الأمم المتحدة. ولا يسعنا إلا ان نبدي أسفنا على ذلك. (ونضرب مثلاً على ذلك، في الحروب بين الاسرائيليين والعرب. فهي امثلة نموذجية على ذلك النوع من الصراعات، حيث يعتبر كل طرف نفسه في حالة دفاع مشروع).

ويمكننا القول، باختصار، ان المجمَّع أخذ في حسبانه مجموعة من موضوعات النزعة السلمية في جانبها البلاغي الإعلاني الذي لا يمكنه قط ان يزيدنا معرفة بالحرب، ولا ان يسهم في إقامة السلام.

ولم يفت بعض الكتاب الكاثوليك، مثل «روبير بوش»، ان يكشفوا عن بعض الاخطاء التي وقع فيها نص «السعادة والأمل»، اثناء دفاعهم عنه. فكتب بوش يقول:

«إن هذا القول لا يعني أن الفصل الذي اصدره المجمع في ٧ كانون الأول ١٩٦٥ ليس كاملاً، ولكن من المؤكد أن المجمع لو استمر عاماً أو عامين آخرين في عمله لأعاد دراسة وصياغة الفصل المذكور من جديد. فقد حدث قبل خمسة عشر يوماً من الموافقة

(٩٩) بوش، المرجع ذاته، ص ٧٥ وما بعدها.

(١٠٠) مارسيل ميرل «الحياة الدولية»، نشر أرمان كولان، باريس، ١٩٧٠، ص ٣٢٤.

عليه، أن هدد الكاْردينال سبيللمان- وهو من الولايات المتحدة وغير راضٍ عن مخطط الفصل- بتعبئة خمسمائة صوت (من اصل الفين) ضد الفصل اثناء التصويت عليه. وقد تطلب الأمر استخدام المساعي الدبلوماسية لبعض زملائه لتهدئة مخاوف مطران نيويورك المتحمس»(١٠١).

ورسم «روبير بوش»، بكثير من الكفاءة، الطريق التي يجب اتباعها، فقال:

«حتى نتوصل إلى نتيجة، يجب أن يُدعم عمل رجال السياسة بطريّقتين:

١- بعمل «فوقي»، في بادىء الأمر، وذلك بالتفكير والملاحظة والبحث، فتتضافر جهود المفكرين السياسيين، وعلماء الاجتماع، ورجال القانون، من اجل استنباط وتطويق اسباب الحرب، وزرع الوسائل الوقائية ضدها، مثلهم في ذلك مثل البيولوجي الذي يتتبع الأسباب التي ما تزال مجهولة لمرض من الأمراض، ثم يأتي الطبيب المعالج فيصف الدواء المناسب حسب المعلومات التي حصل عليها. وهكذا يمكننا القول ان المجمَّع بقي مجانباً لما كان مأمولاً منه في هذا المجال.

«انه لأمر خطير اذا ما تمسك المسيحيون بالافكار غير المعمقة عن اسباب الحرب التي سُردت في هذا الفصل (الثالث والثمانين): فاسباب النزاعات ليست فقط «اخلاقية» أو «اقتصادية» كما لو كان الأمر يتعلق بتوزيع غير عادل للأملاك.

«ان هناك ميداناً واسعاً هو ميدان الأسباب الاجتماعية- النفسانية التي يرتبط بها عامل الخوف ارتباطاً وثيقاً. وقد كان هذا الميدان موضع بحوث تهدف إلى مراقبة الصدمات وانقاص تأثيراتها قدر الإمكان. واهم من ذلك ايضاً هو الأمِّيَّة السياسية، والجهل بالقواعد الأساسية لسير الحركة الكثيفة على تلك الطريق التي يسير عليها المجتمع الدولي، حيث يسبب طيش أحد السائقين، وغرور سائق آخر، مهما كانت قوة سيارتيهما صغيرة، خسائر كثيرة».

٢-ثم بعمل «تحتي»، وذلك بتثقيف الجماهير بالحقائق الجديدة للمجتمع الدولي. وقد اشار

---

(١٠١) بوش، المرجع ذاته، ص ٦٤.

المجمَّع إلى تكوين الرأي العام ومسؤوليات الصحفيين وغيرهم من الاعلاميين العاملين في وسائل الاتصال الجماهيري، كما اشار ايضاً الى مسؤوليات المعلمين والمربين.

لقد اصبح التثقيف الدولي اليوم احد الشروط اللازمة للعمل من اجل السلام. وقد يحدث احياناً، بسبب خطأ في التكوين الأساسي في العلوم السياسية، أن يتصرف أستاذ جامعي تصرف فلاح فقير أمِّي من منطقة نامية...»(١٠٢).

وهكذا، يمكننا ان نبدي الأسف لأن الموقف السلمي والداعي إلى السلام للمجمع عبر عن نفسه، بصورة خاصة، باعلانات رسمية. واذا ما اعتبر هذا الموقف تقدماً بالنسبة للماضي، فانه لم يأت بعناصر جديدة قادرة على تحقيق تقدم في مجال إقامة السلام، بل الأمر على العكس من ذلك، فهو يتضمن بعض الأفكار الخيالية عن نزع السلاح، والأخوة بين الناس، واللاعنف، ورفض المحاربة، وهي ليست سوى مهدئات خطيرة، سنتحدث عنها فيما بعد.

٢١- بولس السادس:

نصل الآن إلى البابا بولس السادس الذي يسميه المسيحيون «حاج السلام».

وكان البابا بولس السادس قد خرق التقاليد في عدة مواضع. فقد كان، من جهة، كثير الأسفار، ومن جهة ثانية كان يتوجه إلى المسيحيين وغير المسيحيين في الوقت ذاته. وكانت دعواته إلى السلام، من جهة ثالثة، مباشرة ومؤثرة. وهكذا جاءت طريقته الجديدة هذه بالغة التأثير، اكثر مما كانت عليه طريقة بيو الثاني عشر ويوحنا الثالث والعشرين. ولكنها، مع الاسف، تبقى طريقة عاطفية، وتندرج، دون ان تقصد ذلك، ضمن اطار عمل تقوده الكنيسة لتدافع عن نفسها ضد تراجع عام تواجهه المذاهب الدينية.

وحينما يناضل البابا ضد الحرب، فانه يقاتل ايضاً الإلحاد: «اننا نعلم كم هو هذا الأساس الأول للسلام الداخلي (العلاقة مع الإله)، وبالتالي، للسلام الخارجي هو موضع

---

(١٠٢) بوش، المرجع ذاته، ص ٨٥ وما بعدها.

جدل وإنكار اليوم». وإذا ما رفض الانسان «هذه العلاقة الأساسية واللازمة، اي العلاقة مع الإله» فكيف يمكنه أن يقيم علاقات سليمة وعادلة مع الآخرين؟ (١٠٣). وبتعبير آخر، يتساءل البابا كيف يمكن للملحدين ان يقيموا «علاقات سليمة وعادلة مع الآخرين» وأن يقيموا، نتيجة لذلك، السلام الخارجي. ان هذه الحالة ما تزال قابلة للنقاش.

وبغية التغلب على الخوف الذي وصفه بولس السادس، بحق، بانه سبب خطير من اسباب الحرب، قال البابا انه لتحقيق ذلك: «لن تكفي اسباب المنفعة المؤقتة ولا الحكمة الانسانية، وانما لا بد من الدوافع السامية للدين، والدين المسيحي بالذات لأنه يمتلك وحده الدواء لما يعانيه الانسان من نواقص»(١٠٤). وقد ناقش «روبير بوش» هذا النص بكفاءة. ونظراً لأنه منتسب إلى «جمعية يسوع»، فانه لا يستطيع إلا أن يتفق مع التأكيد الذي تضمنه قول البابا. ولكنه، كعالم اجتماعي، لم يكن يستطيع ان يقبل الرأي الذي ينادي بانه لا يوجد أي دواء للتغلب على الخوف إلا الدين، والدين المسيحي بشكل محدد. وقد احس بوش بهذه المفارقة في مثل هذا الاسلوب في التعبير، فكتب:

«يشعر الانسان هنا ان البرهان قاصر، وان ما يُقترح علينا هو الدواء السحري: الدين. ويتضح من النص أن الأمر لا يتعلق بمؤسسات مسيحية يجب انشاؤها لتقيم السلام بصورة آلية. كما انه ليست هناك أية ضمانة على ان نظاماً سياسياً يرتدي الزي المسيحي هو اكثر سِلميَّةً من الانظمة الأخرى»(١٠٥).

ومن بين هذه الجمل الثلاث، تبدو لنا الأولى والثالثة صحيحتين. اما الجملة الثانية فانها، مع الأسف، تحول، بطريقة جد دبلوماسية، اهتمام بولس السادس بالتبشير. فمن المؤكد، ان الحفاظ على السلام هو أمر جد هام بالنسبة للبابا، ولكن مساعدة الكنيسة على الخروج من الازمة التي تواجهها ليست أمراً اقل اهمية. ففي رسائله في اعياد الميلاد ورسالته البابوية «تقدم الشعوب» في ٢٦ آذار ١٩٦٧، بدا السلام وكأنه واجهة تسمح له، وهو

---

(١٠٣) بوش، المرجع ذاته، ص ١٥٤.

(١٠٤) الوثائق الكاثوليكية، ٥، شارع بايار، باريز ٨، ١٩٦٧، المجموعة ١١٢، ذكرها بوش، المرجع ذاته، ص ١٥٦.

(١٠٥) بوش، المرجع ذاته، ص ١٥٦.

يتوجه إلى العالم اجمع، بطرح ونشر أفكار جديدة ترغب الكنيسة في إشاعتها. وهكذا استطاع البابا أن يطور مجموعة من الأفكار الملائمة للعصر والتي يمكن للجماهير أن تقبلها بسهولة، مثل:

١) إثارة التساؤل حول بعض أشكال الملكية. فالأملاك، مثلاً يجب ان تخدم، قبل كل شيء، صالح المجتمع.

٢) وضع الاقتصاد الرأسمالي موضع الاتهام. فقد اشتط هذا الاقتصاد بعيداً في نهجه حتى ان بعض قساوسة العالم الثالث لا يتحدثون إلا عن الاشتراكية.

٣) التضامن الانساني والأخوة. وقد طرح البابا في بومبي في الهند فكرة انشاء صندوق عالمي للتضامن، يتموَّل بجزء من النفقات العسكرية لمختلف الدول، ويختص بمساعدة الشعوب الأكثر فقراً. ومن الواضح أن بولس السادس، باستعماله هذا الاسلوب في بلد يمس فيه الجوع والشقاء عشرات الملايين، بل مئات الملايين من الناس، كان واثقاً من حصوله على التأييد. ونتساءل الآن: اين هو الجزء الديماغوجي من موقف البابا؟.

٤) خرافة العالم الثالث. ان الفكرة التي طرحها بولس السادس والمجمَّع الفاتيكاني الثاني تحت شعار «التنمية هي الاسم الجديد للسلام» فكرة خاطئة، عدا عن أنها ديماغوجية، فهي تهدف إلى إرضاء قساوسة البلدان النامية الذين تسيطر عليهم مسألة وحيدة هي مسألة المساعدة التي لا يلتمسها منهم رعاياهم فحسب، وانما يطالبونهم بها بصورة تزداد إلحاحاً يوماً بعد يوم. ويضم العالم الثالث عدداً كبيراً من المسيحيين الذين يعتبرون، حينما يفقد الدين الكاثوليكي انصاره في الغرب، جيشاً احتياطياً له لا تجوز الاساءة إليه.

لقد اعلن بولس السادس: «ان ما يفيض عن حاجة الاغنياء يجب أن يُردَّ على الفقراء». غير أن البابا نسي ان يعرِّف هذا الفائض. فاذا كانت الولايات المتحدة، مثلاً، تملك في الواقع «فائضاً فانها تستطيع، بسهولة، أن تستخدمه في داخل بلادها لتخفف من ذلك الشقاء الرهيب الذي يعاني منه جزء من شعبها معاناة دائمة.

ومما لا شك فيه، ان الفائض والشقاء مفهومان نسبيان. وفي الوقت الذي يعاني

ملايين الناس من الجوع، تزداد، في كل عام، ميزانية النفقات العسكرية للدول الاعضاء في حلف شمالي الأطلسي وحلف وارسو، حتى تبلغ اكثر من ثلاثمائة مليار دولار. ان هذا ولا شك لفضيحة. ولكن الفضيحة الادهى هي أن هناك دولاً نامية تجد دائمًا بين يديها مالاً تشتري به اسلحة عوضاً عن ان تنفقه على تغذية شعوبها. ان مَثَل الحرب بين الهند والباكستان مليء بالدروس في هذا المجال.

ان شراء المواد الأولية من دول العالم الثالث باسعار جد منخفضة يعتبر شكلاً من أشكال الاستغلال يدينه العالم كله، غير ان العالم كله ايضاً، بما فيه الكاثوليك، عازم على الاستمرار في الاستفادة من هذا الاستغلال، لأن الرحمة المسيحية ليست مستعدة، حتى الآن، لقبول رفع تكاليف المعيشة من اجل اتاحة الفرصة أمام البلدان النامية لترفع مستوى معيشتها. فدفع اسعار أعلى ثمناً للنفط، او النحاس، او البوكسيت، لمساعدة التنمية في الجزائر، او ليبيا، أو الهند، أو غينيا، او زائير، يعني الهبوط بمستوى معيشة جماهير العمال للبلاد المصنعة إلى درجة أقل مما هي عليه، مع العلم ان جماهير العمال هذه منظمة تنظيمًا قوياً في إطار النقابات. فهل يعتقد البابا أن حدوث ذلك ممكن من الناحية السياسية؟. ان صمته عن هذه النقطة بليغ.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فان جعل التنمية شرطاً لازماً لاقامة السلام خطأ أساسي. فالحرب الحديثة، في الواقع، هي نوع من البذخ لا تستطيع تحمله إلا الدول الغنية والمصنعة. ومساعدة الدول النامية، حيث يتكاثر عدد السكان بشكل متزايد باستمرار، على انشاء صناعة مزدهرة تشكل خطراً حقيقياً على السلام.

إن الصراعات الأكثر دموية لا يمكن ان تشترك فيها إلا الدول الأكثر نمواً وتطوراً، ومَثَل الحربين العالميتين يبرهن على ذلك. ولذا فان فكرة «التنمية هي الاسم الجديد للسلام» خاطئة، بالاضافة إلى انها ديماغوجية وتصعب جداً مناهضتها. وفي الواقع، فليس هناك إنسان قط، جدير بهذا الاسم، يستطيع أن يبقى فاقد الحس أمام مشاهد الشقاء الانساني. فكيف يمكن، ضمن هذه الشروط، ان لا يؤيد المرء ذلك الذي يبشر بالرحمة ويدعو إليها؟.

نحن جميعنا، من الناحية العاطفية، ميالون الى مساعدة ملايين التعساء من اجل

ايجاد الوسائل اللازمة للعيش وللخروج من الشقاء الذي تعفنوا فيه. ولكن كيف نساعدهم، وإلى أي حد؟ ان المشكلة كلها هي هنا.

وفي اليوم الذي يمتلك العالم الثالث، ذو البُنى الديموغرافية الخطيرة، عنصرين معاً هما المواد الأولية والصناعات الداعمة للحرب، فان الاتجاه نحو «ارادة الأكثر» سينمو ويكبر بشكل قوي، لان رغبات الانسان وحاجاته لا تُحد. وحينما تؤكد الكنيسة الكاثوليكية أن «التنمية هي الاسم الجديد للسلام»، فانها ـ أي الكنيسة ـ تشير، دون أن تقصد ذلك، إلى طريق يؤدي، على المدى الزمني البعيد، إلى الحرب. وهاكم ما يقوله «غاستون بوتول» في كتابه الأخير («دراسات في علم الحرب»، نشر دينوويل ـ غونتييه، باريز ١٩٧٦، ص ١٤٦ وما بعدها) حينما يتحدث عن مخاطر الاكتظاظ السكاني في العالم الثالث:

«ان العالم الثالث مكتظ السكان، وهذا يعني ان السكان يتزايدون بنسب اسرع من نسبة زيادة الانتاج، وأن فقرهم سيزداد ايضاً. . . وليس أمام الشبان المثقلين بالبطالة منفذ لنزعتهم العدوانية الاصيلة المتفجرة سوى الاضطرابات الداخلية. . . إنهم يسعون إلى وضع الحواجز حول انفسهم، ليحمي كل منهم نفسه ضد الفائض البشري لجيرانه. ان انتقال العالم الثالث إلى حالة التصنيع، اذا ما قدر له أن يبلغ هذه الحالة في يوم من الأيام، سيكون، ضمن هذه الشروط، جحيمًا، فالازمات والاضطرابات التي سيعانيها ستكون اسوأ من تلك التي عانتها بلاد الغرب في مطلع الثورة الصناعية. ويرى الاخصائيون انه اذا ما استمر التكاثر في النسب ذاتها السائدة الآن، فان سكان العالم الثالث سيبلغون خمسة مليارات نسمة في العام ٢٠٠٠، وان المجاعة ستبدأ بِذَرِّ قرنها منذ الثمانينات».

وبانتظار ذلك، فان البابا ما يزال يعارض في تحديد النسل. وحينما تخلط الكنيسة، بوعي أو بدون وعي، الرحمة والتضامن الانسانيين بالمسألة الأساسية للحرب والسلام من اجل النضال ضد التراجع الذي تعانيه العقائد الدينية، فانها ترتكب خطأً مثقلاً بالنتائج.

وبين بيوس العاشر الذي ايد الانذار الذي وجهته النمسا الى صربيا، وبولس السادس الذي نادى في الأمم المتحدة «لا حرب بعد اليوم أبداً، لا حرب بعد اليوم أبداً»، يوجد فارق في الموقف يبعث في النفس السعادة. غير ان من المؤسف ان الوسائل التي أشار

ليها البابا لكي لا تكون هناك حرب أبداً. ترتكز، بصورة رئيسية على:

- رفعة الدين المسيحي وتفوقه.
- التضامن مع القريب ومحبته.
- تنمية العالم الثالث.
- مزايدة في الاشتراكية.
- الحوار «الأخوي».
- نزع السلاح.

ان نوعية هذه الوسائل عاطفية، بصورة أساسية، فهي تسمح بالحصول على النجاح بسهولة لدى المستمعين، ولكنها تتجاهل تجاهلاً كلياً المنجزات الأولية للعلوم الانسانية. انها، جميعها، غير فعالة.

٢٢ـ الحوار الأخوي للأب بير:

اسس الأب «بير»، حامل جائزة نوبل للسلام، «جامعة السلام» في مدينة «هوي» في بلجيكا. ويأتي إلى هذه الجامعة، بصورة دورية، طلاب من جميع انحاء العالم، ليعيشوا فيها معاً طيلة اسبوعين أو ثلاثة اسابيع، حيث يتناقشون فيما بينهم، ويستمعون إلى محاضرات ذات موضوعات تتعلق بمسائل الحرب والسلام.

ويرى الأب «بير» وخلفاؤه بانه تجب ازالة الخلافات الخاطئة بين الناس. وهذا أمر يمكن الوصول إليه اذا ما تبنى الانسان سلوكاً خيراً يقوم على محاولة أن يضع نفسه في موضع الانسان الآخر الذي يحاوره ليستطيع بذلك أن يتفهم جيداً وجهة نظره.

ان تبادل الأحاديث، وتطوير الصداقة على الصعيد العالمي، وانشاء جزر للسلام للاجئين التعساء، ومضاعفة انشاء جامعات لسلام، تعتبر تحركاً لصالح السلام على جميع المستويات، بدءاً من العلاقات بين الناس حتى العلاقات بين الدول. وهكذا تتجه النشاطات كلها نحو الفعل والعمل، لأن «إشعال شمعة صغيرة أجدر من التشكي من الظلام».

وقد اراد الاب «بير» ان يتجاوز مفهوم انسلام السلبي البسيط، لان غياب الحرب لا

يعني السلام: «فحينما يضاعف دعاة السلام مظاهرات احتجاجاتهم ضد الاسلحة الذرية، فانهم بذلك يناضلون ضد الحرب، ولكن يبقى عليهم ايضاً ان يفعلوا كل شيء من اجل السلام»(١٠٦). وعلى هذا، يجب الالتزام بالوجه الايجابي للسلام: «فالسلام موجود، ولكنه لا يمكن أن يقوم إلا ضمن إطار نزعة خيرة ومتبادلة تجاه «الآخر»، أي تجاه الطرف المخالف، وهو الطرف الموجود في الجانب الآخر»(١٠٧). ويرى الاب «بير» ان هذا «التعريف للسلام الايجابي... صحيح بالنسبة للسلام ما بين انسانين اثنين، بقدر ما هو صحيح بالنسبة للسلام ما بين المجموعات، والأمم، والاديان، والتكتلات، وغيرها»(١٠٨). وينتج عن ذلك كله، ان كل واحد منا يستطيع، بل يجب عليه، أن يسهم في إقامة السلام الإيجابي.

وحين يبحث الاب «بير» عن الطرق المؤدية إلى السلام، فانه يميز بين ثلاث منها:

١) **القوة**: وهي متمثلة بالحكمة التي تقول: «اذا كنت تريد السلام، فاستعد للحرب». واساس هذا الحل هو انعدام الثقة المتبادلة: «فالانسان يتسلح اكثر كلما ازداد انعدام الثقة اكثر»، وهذا يجر الانسانية إلى حلقة مفرغة «فذلك لا يعني سوى أن يترك الانسان نفسه ليدمره الخصم... وهنا يبدو ان حق الدفاع المشروع حق مقدس...».

٢) **اللاعنف**: وأساسه الثقة المفرطة. وحتى ينجح اللاعنف لا بد أن يكون الخصم مخلصاً للاعنف ايضاً.

٣) **الحوار الأخوي**: ويرى الأب «بير» ان الحوار الأخوي «يقضي على كل طرف ان يضع جانباً، بصورة مؤقتة، ذاتيته وما يفكر فيه، ليحاول ان يقيم تقييماً ايجابياً، وجهة نظر الطرف الآخر، دون ان يشاركه فيها»(١١٠)، ويعني هذا، ان عليه في بادىء الأمر أن

---

(١٠٦) دومينيك بير، حامل جائزة نوبل للسلام « لنعش او لنمت جميعاً» «المنشورات الاكاديمية الأوروبية، بروكسيل، ١٩٦٩، ص ٤٤.

(١٠٧) الاب بير، المرجع ذاته، ص ٤٣.

(١٠٨) المرجع ذاته، ص ٤٤.

(١١٠) المرجع ذاته، ص ٥٠.

يصغي الى الطرف الآخر، وان يتخلى عن الأفكار المسبقة والجاهزة. ولكن «ألا يعني القبول باستحالة إجراء بعض الحوارات القبول بأن الحرب حتمية؟»(١١١).

ويرى الأب «بير» ان الحل لاقامة السلام الايجابي يكون عن طريق الحوار الأخوي، ويضع بعض «الشروط للحوار الأخوي»(١١٢):

١) التخلي عن الشروط:

نحن جميعاً ننطلق في تفكيرنا من شروط محددة، دون أن نعي ذلك، وهذا أمر خطير. ولذا لا بد من البدء بالتخلي عن الشروط، وهي بداية صعبة.

٢) يجب أن تكون هناك لغة مشتركة:

يجب منذ البدء «توضيح معاني الكلمات المستعملة من قبل هذا الطرف أو ذاك»، اذ بدون ذلك سينتهي الأمر إلى «حوار الطرشان». فكلمات مثل «الحرية» و«الديموقراطية» و«السلام» و«العالم الحر»، وحتى كلمة «الحوار»، وكلمات أخرى ليست بقليلة، تعتبر مثلاً على التجسيد الحي لاختلاط المعاني. «واذا ما استمر حوار الطرشان، فمن المؤكد أن أي جهد يبذل من اجل السلام الايجابي سيكون غير مفيد».

٣) الاخلاص المتبادل:

حتى يتوفر حوار جيد، يجب «استبعاد الكذب بجميع اشكاله، بما في ذلك المراءاة» اذ ان «الكذب موجود حيثما يوجد عدم الاخلاص، والرياء، والنفاق، وبخاصة اللامبالاة».

٤) مكافحة عدم الثقة كأفضلية أولى.

٥) تجنب الأنانية:

«الهدف الأمثل هو تجنيب الحوار كل فكرة، اوخلفية فكرة، وحتى ملمح عن خلفية فكرة، لها علاقة بمنفعة وطنية، او سياسية، او دينية، او غير ذلك، ليكون الحوار خالياً من

(١١١) المرجع ذاته، ص ٥٢.

(١١٢) المرجع ذاته، ص ٦٤.

أية نفعية قدر المستطاع».

٦) المنطق الايجابي:

ويعني هذا ان لا يكون الانسان «ضد أحد ما، او ضد شيء ما، كأن يكون معادياً للشيوعية، او ضد الولايات المتحدة». يضاف إلى ذلك أنه يجب استبعاد الخوف من الحوار. «ان الحافز الوحيد لحوار حقيقي بين الأخوة يجب أن يكون، قدر الامكان، أشبه بالحب النزيه».

هذه هي بعض الشروط الرئيسية اللازمة لنجاح حوار مثمر، والتي عدَّدها الاب «بير» نفسه.

بعد أن اوضحنا أساس مفاهيم الاب «بير»، فاننا نشعر ببعض الحرج في نقدها. فالعمل الخيِّر والثقافي الذي قام به هذا الداعية البارز للسلام يعكس اخلاصاً مثالياً رائعاً مؤثراً وقد حاول الأب «بير»، بسخاء متلهف، وبشجاعة، ان يضع افكاره موضع التطبيق بانشاء «جزر السلام» للتخفيف من الشقاء اللامحدود الذي يعانيه الاشخاص المهجَّرون. وهكذا يبدو الأب «بير» انه انسان ليس كبقية الناس: وهذا هو، بالدقة، سبب عظمته، وفي الوقت ذاته، سبب ضعف الوسائل التي اقترحها لإقامة السلام.

ولقد اعتقد الاب «بير»، باعتباره هو نفسه ذا قيمة معنوية خاصة، بان من الممكن ان يكون الناس مخلصين، وفي الوقت ذاته، نزيهين، وواثقين، وغير خائفين، على شرط أن يريدوا، هم، ذلك حقاً. غير أن ذلك، مع الاسف، ليس أمراً واقعاً. واذا ما افترضنا أنه واقع، فهل نستطيع أن نستنتج من ذلك أن السلام يمكن أن يقوم بصورة آلية؟.

إن رؤية عالم يكون فيه جميع الناس طيبين، ومخلصين، ونزيهين، وكرماء، وعطوفين، وساعين إلى ان يفهم بعضهم بعضاً، وإلى أن لايجابه احد منهم احداً ـ لا بد من القول، ان رؤية عالم كهذا، هي حلم محض.

يضاف إلى ذلك، أن من الخطأ، علمياً، أن نعرِّف السلوك الجماعي على أنه حصيلة سلوك الأفراد. فقد اثبت علم الاجتماع، كما سنرى ذلك فيما بعد، أن كل مجموعة بشرية، حتى تلك المؤلفة من أفراد نزَّاعين الى السلام، هي مجموعة عدوانية في جوهرها،

وحينما لا تكون كذلك، فانها تختفي من الوجود، ويتفرق اعضاؤها لينتسبوا إلى مجتمعات أخرى. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد ثبت أن الناس يتجمعون، بصورة عامة، ضد شخص ما، أو شيء ما، اكثر من تجمعهم حول شخص ما، أو شيء ما.

ان إقامة السلام الايجابي بواسطة الحوار الأخوي لا تعدو أن تكون حلمًا بعيد التحقيق.

من المؤكد أن الشعور بالأخوة يوجد أحياناً بين الناس، وبخاصة في داخل مجموعة معينة. ويبرز هذا الشعور حين تكثر التهديدات القادمة من الخارج، وتعرض وجود المجموعة للخطر. ويمكن للأخوة، في اثناء الحرب، ان تدفع المرء حتى الى التضحية بحياته. والى جانب ذلك، يحدث ايضاً، في اوقات أخرى، أن تنشأ بغضاء شديدة بين اخوة اشقاء، أو بين ابناء مِلَّة واحدة.

الأخوَّة تطلُّع إنساني قديم، ولدت، بتعبير دقيق، من الحرب، وهدفها، قبل كل شيء، أن لا تدع الخصومات في داخل المجموعة البشرية تضعف هذه المجموعة، فتجذب إليها عدوان المجموعات الأخرى. ومن هنا جاءت المحرمات: «لا تقتل ابداً»، «لا تسرق ابداً»، التي ضاع اصلها في غياهب الزمان. غير أن هذه المحرمات لم تكن لتطبق على الأعداء، فأن تقتل أخاً من عرقك او عشيرتك جريمة، أما ان تقتل عدداً من الناس من مجموعة أخرى فهو عمل مجيد.

يوجد هناك دائمًا نوعان من الاخلاق: اولهما صالح للتطبيق في داخل المجموعة، وثانيهما صالح للتطبيق في خارجها. فالفعل ذاته (القتل، السرقة، الكذب) مُدان أو محمود بقدر ما يخص أعضاء المجموعة التي ننتسب اليها، أي «اخوتنا»، أو يخص اعضاء المجموعة الأخرى، أي اعداءنا أو خصومنا الذين يهدّدوننا. وبقدر ما تنمو الأخوَّة وتتطور في داخل مجموعة أو أمة، بقدر ما يقوى الالتحام بين اعضاء تلك المجموعة أو الأمة، وتنمو قوتها، ويزداد شعور المجموعات الأخرى بأنها مهددة بهذه القوة. وحتى يحمي اعضاء المجموعات او الأمم الأخرى انفسهم، فانهم يتقاربون، بعضهم الى بعض، حتى يبلغوا اقصى درجة من درجات الأخوَّة الفعالة، ليتمكنوا من تأمين دفاع جيد عن انفسهم.

الأخوّة فكرة ساحرة بالنسبة لداعية او مبشر عبقري. ولكننا لا نستطيع ان نتناسى حقيقة أساسية، هي أن الخيانة، والخوف، والجبن اخلاق موجودة. ويلقننا علم النفس أن الانسان يقول، غالباً، غير الذي يعتقد به، ويعمل غير ما يقول. والقرارات التي يجري التأكيد عليها ليست دائمًا مطبقة، والالتزامات التي يغرق اصحابها في الحديث عنها ليست دائمًا منفذة، والحب المعلن لا يعني دائمًا انه مخلص. وعلى هذا، فتأسيس البحث عن السلام بين المجموعات والأفراد على الحب، والإخلاص، والأخوة، هو وهم خطير. واذا ما كان هناك ادنى شك في ذلك، فيكفي ان نتذكر أن الأزواج يخدع بعضهم بعضاً بعد أن يقسموا على الاخلاص الابدي، وان التاريخ يحتوي على ثمانية آلاف معاهدة سلام، مُزِّق اكثرها حين رأى احد الخصمين نفسه في حالة تساعده على البدء بالعدوان مع الأمل بالنصر.

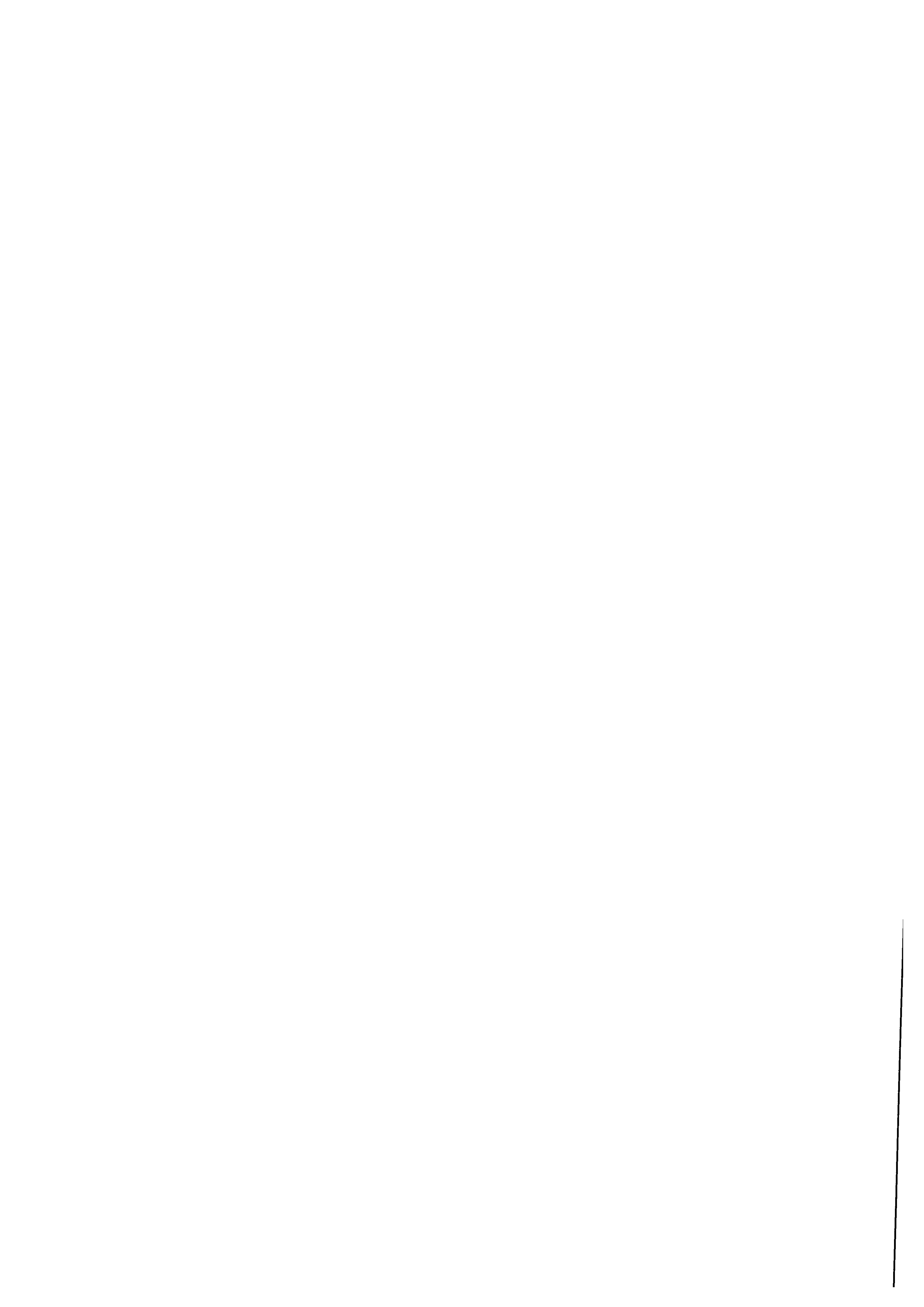
لقد عدد الاب «بير» نفسه عدة صعوبات تواجه الحوار، وقد اشرنا إلى ذلك منذ قليل. فقد الح على ضرورة «التخلي عن الشروط» قبل البدء بالحوار الأخوي، واشترط، ايضاً، وجود «لغة مشتركة» و«اخلاص متبادل»، و«غياب الانانية» و«توفر الحب النزيه»، ليتمكن الانسان من التقرب إلى محاوره. واذا ما كان بعض الناس جديرين بتحقيق هذه الشروط الخاصة بالحوار فيهم، فيجب ان يصنفوا في فئة الملائكة أو القديسين.

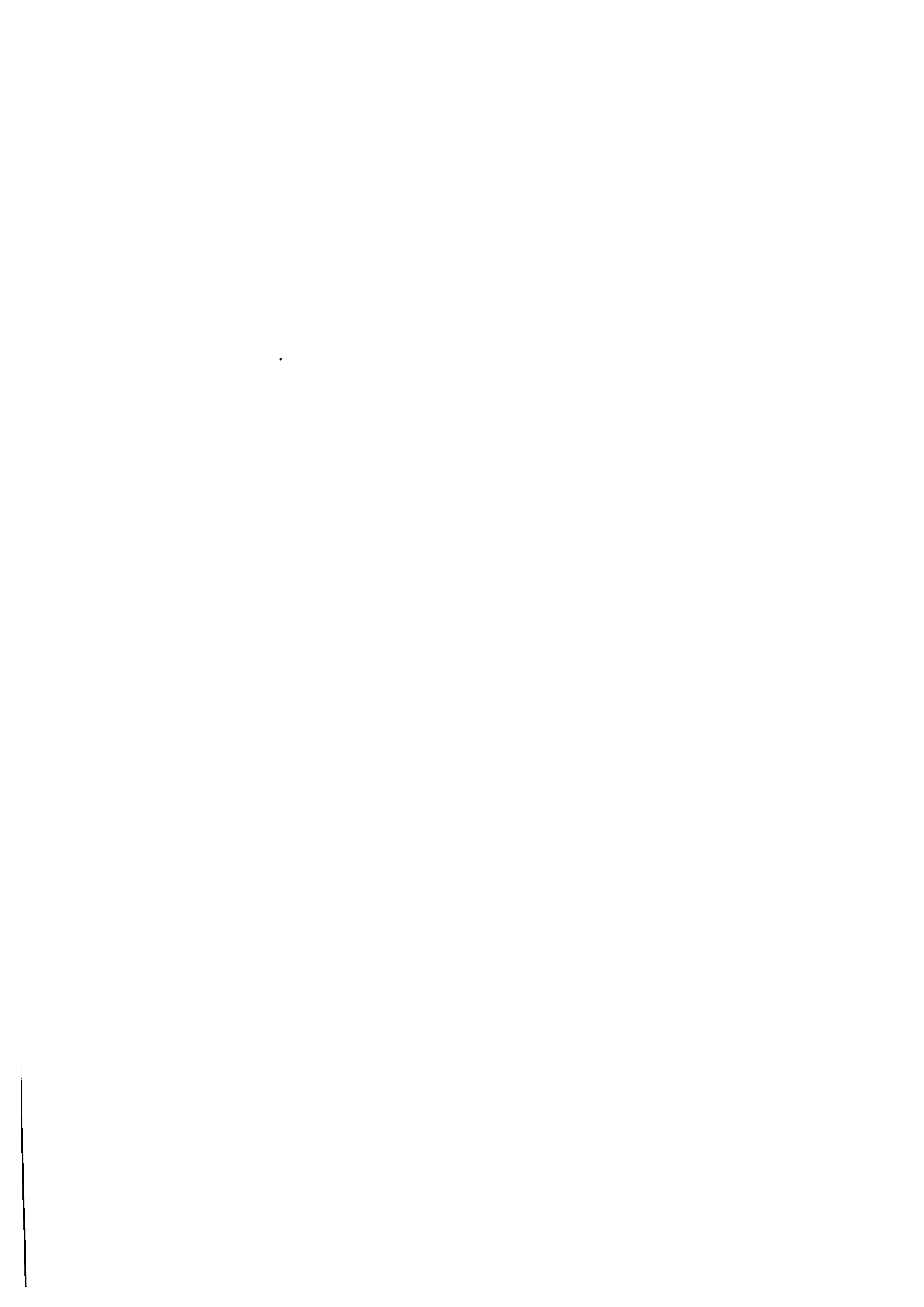
كيف يمكننا ان نتصور ان باستطاعة افراد أن يلغوا ويرفضوا، بارادتهم فقط، مجموعة الافكار المسبقة والقيم التي تتحكم، بواسطة تربيتهم وعقليتهم، باللاوعي لديهم؟. هل نسينا أن بعض الكلمات تغير معانيها حسب الزمان والمكان؟ وكل كلمة تعبر، خرفياً، عن عقلية الشخص الذي يلفظها، أو الشخص الذي يسمعها. وتولِّد الكلمات، وبخاصة تلك الكلمات المشحونة بطاقةٍ عاطفية قوية، في لا وعي كل انسان صوراً مختلفة. فالحرية، والمساواة، والأخوة، تحمل معاني تختلف فيما بينها، حسب الاشخاص الذين يلفظونها، فهي عند العامل الصيني، غيرها عند عضو رئاسة المجلس الأعلى للسوفييت، أو الصناعي الأميركي، أو رجل القانون الفرنسي. (والعدالة بالنسبة للاسرائيلي هي غيرها بالنسبة للمصري). فهل ندهش اذن للصعوبات التي يواجهها الدبلوماسيون كل يوم في الاجتماعات الدولية ليتفاهموا فيما بينهم؟.

انه لأمر يسير وممكن أن يناقش روسي، وأميركي، وصيني، وفرنسبي، بكل موضوعية، حل مسألة هندسية، حيث لا تثير الكلمات المستعملة في المناقشة أية حساسية، وحيث تمكن البرهنة على الدقة والصواب بواسطة الحساب. وعلى العكس من ذلك، فانه من الصعب العسير عليهم ان يتحدثوا في الأمن، أو الانفراج، أو نزع السلاح، اذ ان هذه التعابير تثير لدى كل واحد منهم توقعات مستقبلية مثيرة للقلق. وأن يُجرى حوار «أخوي» حول الانسحاب من الاراضي التي احتلت في حرب الايام الستة، هو أمر لا يمكن تصوره، لا بالنسبة للاسرائيليين ولا للعرب. والأمر نفسه ينطبق على الكاثوليك والبروتستانت الايرلنديين الذين يدعون، جميعهم، انهم أخوة في يسوع المسيح.

وخلال عشرات من القرون، كان الاعتدال، وحب ذوي القربى، والاخوة الانسانية، موضع الوعظ والنصح، دون أن يؤدي ذلك ابداً إلى اقامة سلام ايجابي، حتى ولا سلام سلبي يدوم بعض الوقت.

ان هذه الطريقة سيئة، لأنها تخلط قواعد علم النفس الفردي وعلم الاجتماع الخاص بالمجتمعات والفئات الصغيرة بقواعد علم النفس الجماعي وعلم الاجتماع الخاص بالمجتمعات الكبيرة. والأمر ليس كذلك، لأنه يتعلق بمجالات يتمايز بعضها عن البعض الآخر، كما ان السلوك الفردي للرجال والنساء الذين يشكلون مجموعة اجتماعية يختلف، في اغلب الاحيان، اختلافاً كبيراً عن سلوك المجموعة ذاتها. ويفسر هذا كله لماذا يغدو البحث عن إقامة السلام عن طريق الفضائل الفردية مجرد وهم.





الفصل الثاني

النزعة السلمية الفردية

٢٣- اللاعنف:

هل التبشير باللاعنف والنصح به يمكن أن يجابها الحرب مجابهة فعالة؟. وهل تطبيق الطرائق التي اوصى بها غاندي، ومارتين لوثر كينغ، ودون هيلدر كمارا يمكن أن يحول دون نشوب الحرب العالمية الثالثة، او يجعلها، على الأقل، اقل ضرراً وإيذاءً؟. هناك من يدعي ذلك بقوة، ولكنهم يخدعون انفسهم خداعاً كبيراً.

لنلاحظ، بادىء ذي بدء، فقدان الدقة في مفهوم اللاعنف. فالمعجم يعرفه على أنه «الامتناع عن كل عمل عنيف سواء في الحياة الخاصة أو الحياة العامة». ويعني هذا ان علينا، في مواجهة القوة التي تهدد سلامتنا المادية أو المعنوية، مهما كانت شدة تلك القوة أو عنفها، ان نتخلى، طوعاً وبارادتنا، عن اللجوء إلى استعمال وسيلة من نوع تلك القوة المهددة ذاتها، من اجل ان نحمي انفسنا. غير أن «اللاعنفيين» ليسوا، جميعهم، متفقين على هذه النقطة. فهناك من يريدون تطبيق كلمات المسيح تطبيقاً كاملاً:

«لقد قيل العين بالعين، والسن بالسن. أما انا فاقول لكم لا تقاوموا الأشرار: فاذا ضربك احد على خدك الأيمن، فأدر له خدك الايسر».

جهد المسيحيون الأوائل، الذين جاؤوا في إثر الحواريين، في ان يكونوا أمناء على توصيات المعلم. لكن وضعهم تغير عن ذلك منذ ان اصبحوا، هم انفسهم، اصحاب السلطة التي اضطهدتهم بسبب تحول الامبراطور قسطنطين عام ٣١٣. ثم جاء الصليبيون

بعد المسيحيين الأوائل اللاعتيفيين، وتبعتهم محاكم التفتيش، والحروب الدينية، والارهاب الايرلندي . . .

لقد عرض الاب «بير» وجهة نظرٍ أخرى إذ قال:.

«إني أكنّ احتراماً عميقاً للاعنف واللاعنيفيين الحفيقيين (أقول«الحقيقيين» لأن الأخصائيين في هذا المجال يلحون على ان الذي يرغب في اللاعنف ليس بالضرورة لا عنفياً، وأن الأمر يتطلب قوة نفس كبيرة ليكون المرء لا عنفياً، وأنه يوجد في المجال كثير من المظاهر السطحية): وإني لمتشكك في نتائج اللاعنف، لأنه يبدو لي أن اللاعنفي، لكي ينجح، يجب ان تكون له علاقة بخصم مخلص. . . وأظن أنه يجب أن نميز عن اللاعنف تلك المظاهرات البسيطة المعادية المناهضة للأسلحة النووية، وبخاصة الحركات الهادفة إلى نزع السلاح من طرف واحد. . .»[١١٣].

وهكذا يبدو أن الأب «بير» يعتقد بان الحوار الأخوي، وليس اللاعنف، هو الوسيلة الفعالة لتخليص الانسانية من الحروب، لانه لا توجد إلا قلة قليلة من الرجال تملك قوة النفس اللازمة لتطبيق اللاعنف.

وهناك فئة ثالثة من اللاعنفيين، تتألف من اولئك الذين يعتقدون بانه لا يمكن قبول اللاعنف إلا مع الاستثناءات الخاصة بالدفاع المشروع وبنجدة المضطهدين. وهذه هي وضعية المجمّع الفاتيكاني الثاني.

وقد علق «بوسك» على رسالة «السعادة والأمل» بقوله[١١٤]:

«من السهل أن يفسر سلوك الفرد الذي يلجأ إلى القوة من اجل الحصول على بعض المكاسب بأنه أنانية او طمع، أما المجتمع الذي يقاتل من اجل الحرية او العدالة فانه يدرك أنه يؤدي واجباً مقدساً لا بد من أدائه: وهذا ما يفسر لماذا لم يكن العنف الحربي أو عنف رد الفعل في التاريخ كله، بكل صفاء وبساطة، شبيهين بالقتل.

وقد بلغ الأمر حد الحديث عن «علم لاهوت الحرب» و«علم لاهوت الثورة».

---

(١١٣) الاب «بير» المرجع ذاته، ص ٤٨ و٤٩.

(١١٤) بوسك، المرجع ذاته، ص ٧١ و٧٢

ويعني هذا، ولا شك، ان العنف، وفق الفكر اللاهوتي، يمكن أن يكون مبرَّراً اذا ما استخدم لصالح قريب مضطهد أو أسيئت معاملته: وهذا ما كان عليه الأمر في تقاليد العصور الوسطى التي نظرت إلى العنف دائماً، منذ سانت اوغستان حتى علماء اللاهوت في القرن السادس عشر، ضمن اطار فضيلة الرحمة «اللاهوتية» وذلك بالاجابة عن السؤال التالي: هل الحرب هي دائماً خطيئة؟. وكان الجواب: «كلا، انها ليست دائماً كذلك، لأن حب القريب قد يتطلب مني أن اسرع إلى الدفاع عنه».

وعلى هذا، فان اللاعنف ليس ابداً غير مشروط. وهناك من يذهب إلى ابعد من ذلك، فيقول:

«اللاعنف، اذن، لا يقوم على أن لا يكون الانسان عنيفاً (وهذا هو البرهان الأول)، وانما يقوم على ان يقول لا للعنف، وان يكون هذا القول، بادىء ذي بدء، في وجه عنفنا نحن.

«... واذا ما كان علينا أن نختار بين العنيف، والكاذب، والمنافق، فاننا نفضل العنيف... وكل ظلامة، وكل إهانة للعدالة تهمني، وكل كذبة، وكل اساءة للحقيقة تهمني. واذا ما تركت ذلك يحدث، فهذا يعني اني شريك للعنفيين...»[115].

ان اقل ما يمكن قوله في هذا المجال، هو أن الافكار حول اللاعنف هي ابعد ما تكون عن الوضوح. ومع ذلك، فان الموضوع هو الشاغل الرئيسي للاوساط الكاثوليكية. وكثيراً ما يذكر النجاح الذي حققه غاندي، وينال موقف مارتين لوثر كينغ الاعجاب، ويشاد بأعمال دوم هيلوم كامارا. ولكن لنلاحظ ان في هذه الحالات الثلاث، لم يكن الأمر يتعلق بحرب عالمية، ولكن بتكتيك خاص بعصيان مدني يهدف إلى اجبار اصحاب السلطة على تغيير موقفهم. والشخص الوحيد الذي حاز على النجاح من بين هؤلاء الثلاثة المنظرين للاعنف هو غاندي: فقد استقلت الهند. ولكن لنتساءل الآن: هل كان لحملة اللاعنف التي قام بها الهنود أن تبلغ النتيجة ذاتها:

---

(١١٥) مركز دراسات الحضارة المعاصر «العنف في العالم» ديسكليه دو بروور، ١٩٦٨، ص ٢٧٦ وما بعدها، نشر دولانزاديل فاستو.

١)لو كانت مشكلة غاندي مع هتلر والنازيين عوضاً عن ان تكون مع الانكليز؟.

٢)وهل كان باستطاعة غاندي، بواسطة طرائقه في اللاعنف، والمقاطعة، والاضراب عن الطعام، أن يحصل على دعم شعب آخر ليس له، كالهنود، عقلية تربّت وعاشت على التقشف الكامل والزهد في البطولات؟.

وهل يجب أن نعيد إلى الذاكرة أن «تقسيم» الهند كلّف شعبها، في آب وايلول ١٩٤٧، حياة مائة الف شخص من مواطني غاندي، وانتزاع سبعة عشر مليون نسمة من اماكنهم، عدا عن ضحايا الاضطرابات الاقتصادية، والمجاعات، والنزاعات اللغوية والدينية؟. ان المذابح الرهيبة بين الهندوس ومعتنقي الاسلام لا تقف شاهداً لصالح طريقة المهاتما.

ليس هناك قط من يجادل في عظمة نفس هذا الرجل النادر، غاندي. ولكن الموضوعية تسوقنا إلى الاعتراف بانه، وهو يقود بلاده إلى الاستقلال لم يستطع ان يمنع المسلمين والهندوس عن الحرب. أما الحرب بين الهند وباكستان فلا داعي لأن نخوض في الحديث عنها!.

وعلى طريقة غاندي، قاد مارتين لوثر كينغ في الولايات المتحدة الأميركية، ودوم هيلدر كامارا في اميركا اللاتينية تمردات غير عنيفة.

ولا يعدو الأمر أن يكون تكتيكاً تستخدمه مجموعات ترى نفسها، في الواقع، ليست قوية إلى حد يجعلها تنتصر بالعنف. وقد كتب المطران البرازيلي دوم هيلدر كامارا:

«انا لا اعتقد بالحقد، ولا بالثورات المسلحة... فالتمرد المسلح، في الوقت الراهن، محكوم عليه بالاخفاق. فالولايات المتحدة ستتدخل فوراً في الأمر، وسيفعل الاتحاد السوفييتي مثل ذلك. وهكذا تنشأ فييتنام جديدة. يضاف إلى ذلك، أنه ليس لدى الشعب اسباب كافية للعيش حتى تتوفر له اسباب كافية للموت»(١١٦).

وهكذا يظهر اللاعنف وكأنه تكتيك ثوري يهدف إلى الحصول على بعض الحقوق، وقد يعرّض اصحابه للسجن، وليس للموت. ومن هذا التكتيك، يستنتج البعض

---

(١١٦) جان تولات، المرجع ذاته، ص ١٣٩.

وسيلتين للقضاء على الحرب:

١) رفض المحاربة.
٢) الدفاع المدني.

فلندرس هاتين الوسيلتين عن قرب.

٢٤- رفض المحاربة:

لرفض المحاربة معانٍ عديدة. ويمكن تعريفه، بصورة عامة، على أنه رفض للطاعة التي يفرضها الايمان ببعض العقائد. ويمكن القول، بشكل اكثر تحديداً، إن رافض المحاربة هو ذلك الذي يؤمن، قبل كل شيء، باحترام حياة الآخرين، ويرفض، لهذا السبب، أن يتعلم طرائق القتل، وأن يصبح جندياً.

ويمكن أن يكون رفض المحاربة مطلقاً أو جزئياً. ففي الحالة الأولى يمتد الرفض ليشمل الاشتراك في جميع الحروب، حتى تلك التي يبررها الدفاع المشروع الذي لا يقبل الجدل، مثل الدفاع الذي قامت به بلجيكا ضد غزو الجيش الالماني عامي ١٩١٤ و١٩٤٠. أما في الحالة الثانية فان الرفض لا يشمل الاشتراك في حروب محددة بذاتها، كحرب فييتنام مثلاً.

وتعترف بعض الدول لمعتنقي رفض المحاربة من مواطنيها، الذين ينطلقون في موقفهم من عقائد عميقة ومخلصة، بحق عدم الاشتراك في الدفاع عن بلادهم بواسطة حمل السلاح، شريطة ان يؤدوا، لبعض الوقت، خدمة أخرى للأمة التي ينتسبون اليها، كالعمل في الدفاع المدني، مثلاً.

ورافضو الحرب في الغرب كله، تقريباً، محميون باحكام تشريعية. ففي المانيا الاتحادية ينص الدستور الاتحادي على أنه: «لا احد مجبر على تأدية الخدمة العسكرية خلافاً لعقيدته». ويمثل هذا النص ردة فعل بلد ضد النزعة العسكرية العدوانية التي قادته إلى الكارثة مرتين خلال ثلاثين عاماً. وتعتبر المانيا الاتحادية، في الوقت الراهن، من بين الدول التي تحمي رافضي الحرب حماية جيدة.

وتنص رسالة «السعادة والأمل»، بشيء من الخجل، على أنه «يبدو، من جانب

آخر، أن من العدل أن تعالج القوانين، بروح انسانية، حالة اولئك الذين يرفضون، لأسباب عقائدية، حمل السلاح، على أن يقبلوا ان يخدموا المجتمع الانساني بشكل آخر (٣/٧٩)». ولكن الرسالة في الفقرة التالية لهذه الفقرة التي ذكرناها، تعترف اعترافاً رسمياً بحق الدفاع المشروع وبواجب رؤساء الدول أن «يؤمنوا انقاذ شعوبهم التي يتولون شؤونها». وتأتي، اخيراً، الفقرة الخامسة من الرسالة، لا لتبرر العمل العسكري فحسب، وانما لتعتبره ايضاً وسيلة للسلام: «اما اولئك الذين ينذرون انفسهم لخدمة الوطن في الحياة العسكرية، فليعتبروا خادمين لأمن الشعوب وحريتها. واذا ما ادوا واجبهم بشكل صحيح، فانهم يسهمون، حقاً، في الحفاظ على السلام (٥/٧٩)».

وفي الحقيقة، يرفض المفكرون الكاثوليك مبدأ «رفض المحاربة» المطلق. أما مبدأ «رفض المحاربة» الجزئي، فهم اذ يتفقون على أساسه، فانهم يختلفون على مشكلة الانتهازية فيه، ويعتبرون أن اي إشتراك فعال في مجرى حرب غير عادلة (أي تلك التي لا تتحقق فيها شروط الحرب العادلة التي تحدثنا عنها سابقاً) هو عمل إجرامي.

ان الصعوبة الكبرى بالنسبة للمواطنين تتمثل في معرفة نوع الحرب التي يواجهون، هل هي حرب عادلة أم غير عادلة. وحينما يواجهون هذا التساؤل:

«تكون أمامهم ثلاث حالات ممكنة: فاما أنهم لا يرون عدم العدالة في الحرب، ويقدرون، على العكس، ان الحرب التي دُعوا إليها هي جد عادلة؛ واما انهم يقدرون ان الحرب غير عادلة بشكل واضح، أو انهم يجدون انفسهم في حالة شك. ويرى علماء اللاهوت انه في الحالة الأولى لا سبيل امام المواطنين إلا الانصياع لنداء الضمير بكل هدوء، لأن ايمانهم القوي، بالاضافة إلى ثقتهم في سلطة الدولة يبرران كل التبرير اشتراكهم في تلك الحرب. أما بشأن الحالة الثانية، فان علماء اللاهوت مجمعون على منع المواطنين عن الاشتراك في حرب تأكد لهم بوضوح أنها غير عادلة. وتبقى حالة الشك، وهنا يؤكد الفكر الديني على القاعدة التي ارساها «فيتوريا» وهي ان الثقة في سلطة الدولة تسمح للمواطنين، بل تلزمهم، بالاشتراك في الحرب، اذا ما دُعوا إليها»[١١٧].

---

(١١٧) رينيه كوست: «مسألة قانون الحرب في فكر بيوس الثاني عشر»، اوبييه، ١٩٦٢ (دراسات منشورة باشراف المعهد اللاهوتي في ليون)، ص ٣٦٩.

ويمكننا القول، بتعبير آخر، إن المسيحي الذي يعتقد بان بلاده قد شنت الحرب لسبب عادل، يستطيع أن يقتل، بكل هدوء، المسيحيين الأعداء. ويمكنه ايضاً أن يفعل ذلك حتى ولو لم يكن واثقاً كل الثقة بان سبب الحرب عادل، وانما يكتفي بالشك فيه. وهذا يدعونا إلى القول إنه كان على الكاثوليك الالمان والفرنسيين في اعوام ١٨٧٠، ١٩١٤، و١٩٣٩، واجب الاشتراك في الحرب، إلا اذا كانوا يرون ان الحرب التي تخوضها بلادهم كانت حرباً غير عادلة بكل وضوح. ولكننا نعلم جميعاً ان «الحرب هي دائماً خطيئة الطرف الآخر»، وان الذي يرى ان بلاده على خطأ فيما تفعل ينظر إليه على أنه مواطن سيىء، وأن هذا المواطن نفسه يغير رأيه تغييراً جذرياً متى ما مسته طلقات نيران العدو، وأن الوطنية اقوى من العقائد الدينية.

وهكذا يتضح أن موقف الكنيسة من مسألة رفض المحاربة ابعد ما يكون عن الوضوح. وبيان جمعية كرادلة فرنسا ورؤساء اساقفتها المؤرخ في ١٤ تشرين الأول ١٩٦٠، بشأن المشكلة الجزائرية، ذو مغزى في هذا المجال. فقد جاء فيه:

«لمواجهة حالات الحيرة والاضطراب، لا يجوز اللجوء إلى العصيان العسكري او الأعمال التخريبية: فذلك لا يعني سوى التخلي عن الواجبات التي فرضها التضامن الوطني وحب الوطن، ولا يعني ايضاً سوى زرع الفوضى، وانتهاك الثقة بالقانون تلك الثقة التي تحظى بها، في الظروف المضطربة، قرارات السلطة الشرعية»[١١٨].

ويرى الكاردينال «سبيللمان» ان الأميركيين الذين كانوا يقاتلون في فيتنام كانوا «جنود المسيح».

ضمن هذه الشروط، علينا أن نلاحظ جيداً ان رافضي المحاربة لا يجدون في آراء زعماء الكنيسة سنداً مذهبياً قوياً. وفي جميع الاحوال، فهناك عدد من القساوسة أخذوا، منذ عدة سنوات، يدعمون ويشجعون اولئك الذين يرفضون الخدمة في القوات المسلحة، والاسباب التي يتذرعون بها متنوعة، تبدأ باللاعنف المطلق وتنتهي بالبحث عن السلام، مروراً بنقد المجتمع الرأسمالي، وبالعصيان المدني، وتمرد الشبيبة، وبالفوضى.

---

(١١٨) ذكر ذلك كوست، المرجع ذاته، ص ٣٧١.

والبراهين المستعملة في هذا المجال هي، بصورة عامة، من النوع الخطابي البلاغي والعاطفي، وتحملها منشورات يوزعها اعضاء الجمعيات مثل: الاتحاد الدولي لمناهضي الحرب، والحركة الدولية للتوفيق، والسلام المسيحي، والحركة المسيحية للسلام، وحركة المسيحية الاجتماعية (فرنسا)، وغيرها.

وبالرغم من الدعاية الناشطة جداً، فان عدد الرافضين للمحاربة ما يزال ضئيلاً في بعض البلدان (ففي بلجيكا، مثلاً، حيث العمل في الجيش غير محبب شعبياً، يوجد واحد رافض للمحاربة من كل الف مدعو للخدمة العسكرية)، ولكن هذا العدد يتصاعد في المانيا الغربية حيث يبلغ اكثر من ثلاثين ألفاً. أما في المانيا الشرقية فان الوضع يختلف، فالبيان الذي ادلى به م.ب.فروهليش، عضو المكتب السياسي لجمهورية ألمانيا الديموقراطية، رئيس لجنة الدفاع الوطني في مجلس الشعب (وذلك منذ عدة سنوات) لا يترك اي شك في هذا المجال، اذ قال:

«ان رافضي الحرب هم، من الناحية النظرية، ذوو نزعة سلمية. ولكنني لا اعرف حالة قط استطاع فيها اشجع الرجال من ذوي النزعة السلمية، خلال الاعوام الالفين التي مضت، ان يمنعوا حرباً من النشوب بواسطة براهينهم وادلتهم. هل منعوا الحرب العالمية الأولى من أن تقع؟. كلا. ونحن اذ نشيد بجهودهم النبيلة، فلا بد من الاعتراف بانهم غير قادرين على منع نشوب الحروب. وقد كان بين خصوم هتلر العديد من ذوي النزعة السلمية، ولكنهم فشلوا وانتهوا إلى معسكرات التجميع. فهل استطاع هؤلاء ان يمنعوا الحرب العالمية الثانية من أن تقع؟. أما بشأن المانيا الغربية، فاني اؤيد جميع الرافضين للمحاربة، لانهم يسهمون في إضعاف القوة العدوانية لحلف شمالي الاطلسي. ويجب على خصوم الخدمة العسكرية هناك أن يسهموا، بشكل فعال، في منع الانتساب إلى الجيش».

هذه هي الوقائع التي يجب اخذها في الحسبان. ولندرس الآن المسألة في جوهرها.

ان منع نشوب الحرب، او تحويل مجراها، او السيطرة عليها، بواسطة رفض المحاربة لا يعدو أن يكون وهماً من الأوهام، لأن:

١ـ رفض القتل والقتال يجب ان يحوز على نجاحات متعادلة ومتزامنة في جميع البلدان

في وقت واحد، تجعل مختلف الحكومات تشعر باد الإحجام الواسع الكثيف عن خوض الحرب يمكن أن يفسد عليها العمليات العسكرية التي تريد القيام بها. ومثل هذه الفرضية لا يمكن الاعتماد عليها اعتماداً جيداً. وكما يقول ر. بوسك(١١٩).

«ان منطق ذوي النزعة السلمية الذي يقول: «ألغوا الجيوش من الوجود، تختفِ الحرب كوسيلة لحل النزاعات» هو منطق غامض».

ويذكر بوسك جملة من رسالة «السعادة والأمل»، هي: «لم تختف الحرب بعد من افق الانسانية (٣/٧٩)»، ثم يتابع قائلاً:

«ما يزال الانسان يخاف الانسان. وهذا الخوف هو الذي اطلق وحرك اجهزة الاستعداد للدفاع، ثم صناعة الاسلحة وانشاء الجيوش... وليس الجنود هم الذين يسعون الى الحرب ويحافظون عليها، ولكن العكس هو الصحيح، اذ ان الخوف من الآخرين هو الذي يخلق الحاجة إلى الاسلحة والجنود».

وتؤكد رسالة «السعادة والأمل» في الفقرة (٥/٧٩) ان «أولئك الذين ينذرون انفسهم لخدمة الوطن في الحياة العسكرية... يسهمون، حقاً، في الحفاظ على السلام». وبذلك يستطيع المسيحيون ان يؤمنوا بان واجبهم هو ان يخدموا في الجيش، وبانهم، بهذه الطريقة «يسهمون، حقاً، في الحفاظ على السلام»، بينما يؤمن غيرهم بعكس ذلك، اذ ان ما هو صحيح وحقيقي بالنسبة للمسيحيين هو، بالاحرى، صحيح وحقيقي لمن ليسوا مسيحيين ولا يتبعون وصايا الكنيسة. وجدير بنا ان نذكر هنا أن المادة ١٣ من القانون السوفييتي بشأن المسؤولية الجزائية في المخالفات العسكرية تنص على ان: «رفض حمل السلاح يعاقب عليه بالحرمان من الحرية لمدة تتراوح بين ثلاث وسبع سنوات» وذلك في زمن السلم، أما في زمن الحرب فان من الجائز فرض عقوبة الاعدام. وبناء على هذا فان تعميم رفض المحاربة في جميع البلدان تعميماً متزامناً ومتوازياً أمر مستحيل. وهذا هو السبب الأول لعدم فعالية رفض المحاربة كوسيلة لمناهضة الحرب.

٢ـ الدولة توفر لجميع مواطنيها، دون تمييز، التعليم والضمانات الاجتماعية

(١١٩) المرجع ذاته، ص ٧٥ وما بعدها.

والأمن. ويعبر التضامن الوطني عن ذاته باسلوب الدفاع الخارجي كأقوى شكل من اشكال التعبير، وعلى جميع المواطنين ان يستعدوا من اجله. ويحقق اسلوب التجنيد المساواة بين المواطنين امام اخطر واهم التزام يفرضه المجتمع على اعضائه.

وتبدو الخدمة العسكرية في زمن السلم كآخر أثر من آثار العمل الاجباري، فالقانون الخاص بالعقوبات، والاجبار على الطاعة، والسخرات بمختلف اشكالها، تجعل من المجند المدعو للخدمة مواطناً عُلقت بعض حقوقه الاساسية تعليقاً مؤقتاً. أما في زمن الحرب، فمن واجب الجنود أن يضحوا بحياتهم اذا ما تطلبت العمليات العسكرية ذلك. وقد تشمل التعبئة النساء، كما هي الحال في بعض البلدان (وذلك عندما يكون الوطن في خطر).

ويشكل التجنيد واجباً يسمونه ضريبة الدم. ومحاولة البحث عن التهرب من القيام به باثارة مشكلة رفض المحاربة- تلك الاثارة التي قد تتم احياناً باخلاص مشكوك فيه- يمكن أن تخلق لدى بعض الأفراد شعوراً بان الواجب الوطني لا يتطلب ذلك.

وما يزال رافضو الحرب من بعض الطوائف الدينية، كمثل «رفاق يهودا»، يجدون العطف من اولئك الذين يؤدون خدمتهم العسكرية، لأنهم ينظرون إليهم، خطأً او صواباً، على انهم صوفيون زاهدون لا يمكن ان توضع عقائدهم موضع الشك. ولا ينطبق هذا دائماً على الطوائف الأخرى، اذ ان فكرة القاء عبء الدفاع على عاتق الآخرين، ومن بينهم النساء، ليست سوى الجبن بعينه.

انه لمن الصعب الاقتناع بأن الغالبية العظمى من المواطنين الذين يقبلون بتأدية التزاماتهم العسكرية ليسوا سوى قَتَلة تملأ نفوسهم الرغبة في القتل، أو معتوهين أو ضعفاء يتركون انفسهم لقيادة «السياسيين او العسكريين»، كما انه من الصعب ايضاً الاقتناع بان رافضي الحرب يبرهنون عن شجاعة مثالية باعتراضهم على آلة الحرب التي تديرها عسكرية متعطشة للدماء.

ومن الجدير أن نلاحظ أن رافضي الحرب يركِّزون دعايتهم على الرفض الفردي للخدمة العسكرية، عوضاً عن تركيزها على إلغاء هذه الخدمة الاجبارية واستبدال خدمة مدنية بها تشمل جميع المواطنين على حد سواء.

ويعتبر الرأي العام، الذي ينظر بحذر إلى رافضي الحرب، ان التخلي عن الخدمة العسكرية في زمن السلم، ورفض الدفاع عن الوطن في حالة الاعتداء عليه، ليسا سوى فرار محض وواضح، مستور بتلك الحجة الغشاشة، حجة مناهضة الحرب. ذلك ان إلقاء عبء الدفاع عن أمن الأمة على عاتق الآخرين، الذين يعرضون حياتهم للخطر، بمن فيهم من النساء، والاكتفاء بذم الحرب، ليسا سوى وسيلة سيئة للسيطرة على ظاهرة اجتماعية تميزت دائمًا بانها تخلق التضامن الكلي الشامل بين المجموعات الانسانية.

٣- ولكن، لنفترض أن جميع المواطنين في العالم كله، تذرعوا بازمة الضمير، ورفضوا تأدية الخدمة العسكرية في زمن السلم، وحمل السلاح في زمن الحرب، فهل يعني هذا أنه لن تكون هناك حروب؟. أو لم تكن هناك حروب قبل ابتداع نظام التجنيد؟.

٤- واخيراً، فلنتذكر أننا بإلغاء الجيوش لا نكون قد الغينا الحروب.

٢٥- الدفاع المدني:

للدفاع المدني لدى منظمة حلف شمالي الأطلسي معنى جد دقيق. فهو يشتمل على مجموع الاجراءات التي يجب على السلطات العامة والمواطنين والمؤسسات ان يتخذوها، حسب توجيهات تلك السلطات، من اجل المحافظة على حياة الشعب، في جميع الظروف، ومن أجل انقاص الخسائر التي تحل بالأمة، إلى ادنى حد ممكن، وزيادة القدرة على المقاومة والانتاج في حالة التهديد بالحرب، او في حالة الحرب ذاتها، وكذلك تأمين الإمداد والتموين للقوات المسلحة، في جميع الظروف.

غير أن بعض ذوي النزعة السلمية، وبصورة خاصة الكاثوليك منهم، اخذوا، منذ وقت ليس ببعيد، يعطون تعبير «الدفاع المدني» معنى مختلفاً كل الاختلاف عن هذا الذي ذكرنا، ولا يعدو أن يكون تكتيكاً جديداً مضمونه أنه لا تجوز مقاومة الجيش المعادي بوسائل عنيفة. وسنذكر فيما يلي كيف يبرر انصار هذا التكتيك وجهة نظرهم.

انه من الخطأ مقاومة غزو اراضي الوطن، ذلك ان الصعوبات الحقيقية التي تواجه الغزاة لا تبدأ إلا بعد ان يتم هؤلاء احتلال الاراضي. وعندها لا يجوز ان يقوم السكان بأي عمل سيىء، ولكنهم يستطيعون، بواسطة المقاومة السلبية، والعصيان المدني الشامل، والمناقشة الهادئة، ان يجعلوا حياة الغزاة صعبة معقدة، ويجعلوا قطعات الاحتلال

تشعر بالخطأ وتأنيب الضمير!؟. لقد عُرضت هذه النظرية على أنها نوع من رفض الحرب الجماعي لا يمكن للعدو إلا أن يتأثر بها!.

لقد قدم القبس الفرنسي «جان تولات» في كتابه «القنبلة أو الحياة»[120] عرضاً تستحق بعض مقاطعه ان نذكرها:

«ليس هناك، حتى اليوم، تصور آخر للدفاع عن تراث الأمة إلا اللجوء الى السلاح. غير ان الحرب تبدو اليوم، اكثر من اي وقت مضى، وسيلة طوباوية من اجل الانتقام للحق. فكيف نستبدل بها غيرها؟ اليس هناك من طريقة أخرى للصراع دون قتل الناس بصورة عشوائية؟ ألا يشكل اللاعنف ارضاً صالحة للتجربة؟ ان عظامنا ترتجف فوراً حين نفكر اننا سنتجنب الوسائل العسكرية.

-إن بعضنا سيقول: ان ارضنا معرضة للاحتلال.

«-او لم يتم احتلالها ثلاث مرات خلال أقل من قرن، رغم أنف جيوشنا وخطوط ماجينو؟. ولكن بما اننا قد عهدنا إلى الوسائل العسكرية حماية الأمن، فان من الطبيعي ان نشعر بان الغزو يشكل ضربة رهيبة: فهو يعني الهزيمة، وضياع القضية. والشعب الذي وهنت عزيمته، يكون اميل إلى التعاون منه إلى المقاومة. والامة التي غُلبت عسكرياً معرضة لان تُغلب نفسانياً.

«واذا ما تعرضت فرنسا، اليوم، إلى الهجوم عليها، فمن المحتمل ان تقع اراضيها تحت الاحتلال من جديد، لان الهجوم في الحرب الحديثة، هو وحده المنتصر.

أما وأن الأمر كذلك، ألا يكون من الحكمة أن تركز جهودنا، ليس على الصدام بين جيشين، وانما على المقاومة الشعبية غير العسكرية؟. أليس من الاجدى ان نقاوم الغزاة برجال احياء يعيشون في بيوت سليمة، من أن نقابلهم بمقابر قائمة بين الاطلال؟.

«ان الاحتلال ليس اسوأ الكوارث. ومن الممكن مواصلة القتال، شريطة أن لا نلجأ إلى العنف لمقاومة عدو اقوى منا، فهناك بين الارهاب والتعاون الشائن مع العدو

(١٢٠) المرجع ذاته، ص ١٤٣ وما بعدها.

مكان لموقف نبيل: هو الموقف الذي يدعو إليه انصار الدفاع المدني.

ليست الغاية من المقاومة تحطيم العدو، وانما الغاية هي أن نجعله يشعر بانه لا يطيق حالته. وليس هناك حكومة قط تستطيع ان تستمر لفترة طويلة دون ان يتعاون معها الشعب في الحد الادنى من التعاون. وهكذا يقاوم الشعب الغزاة بالسلبية، دفعة واحدة، فتتوقف المصالح العامة عن العمل، او يبطؤ سيرها. ولا يعمل انسان قط إلا بالقسر، مما يجبر الغاصبين على مضاعفة عدد عناصر الرقابة. وسيرفض الناس الوظائف المعروضة عليهم من قبل مصالح الحكومة، وسيقاطعون المباريات الرسمية.

«ويجب ان يترافق العصيان مع احترام العدو. وفي جميع الاحوال، لا يجوز ان يتعرض اي جندي من جنود الاحتلال، أو أي عميل من عملائه، إلى التحرش، او الازعاج، أو القتل. وانما على العكس من ذلك، اذ يجب انتهاز كل فرصة مناسبة للاتصال الشخصي، لنقول له: «إننا لن نسيء إليك. وستعاملك كإنسان. ولكنك لست في بلدك ولا في بيتك، لان، احتلالك ارضنا اغتصاب، ولن نقبل به ابداً.

وهكذا تتم ممارسة القتال اللاعنيف في ميدان الافكار. وهذا ما يميزه عن المقاومة المسلحة، لأن هذه تحاول ان تقضي على العدو قضاءً جسمانياً مادياً، مما يجعله خائفاً، في كل لحظة، على حياته، فيغدو وحشاً. أما القتال اللاعنيف، فانه، على العكس من ذلك، ينطلق من مبدأ اعتبار المحتلين بشراً. وهم، كجميع البشر، لهم ضمائر. فاذا ما كانت ضمائرهم غافية، أو مخدرة بالدعاية، فيجب ايقاظها، فيخمد حقدهم شيئاً فشيئاً، وبخاصة اذا ما ثبت لهم انه لا احد يريد بهم سوءاً. وهكذا، على المدى الطويل، تمكن الغلبة على الروح المعنوية للعدو.

«وإلى جانب تطوير الدفاع الوطني، يجب ايضاً تطوير الشؤون الخارجية، بشكل متوازٍ. وعلى فرنسا ان تعلن السلام على جميع البلدان، وتقود، في الطليعة، سياسة جريئة للانفراج (وقد بدأ ذلك)، ولنزع السلام، ومساعدة العالم الثالث مساعدة مجزية، وذلك مع التأكيد بأن أي معتد سيجد أمامه خمسين مليوناً من المقاومين.

واذا ما تم ذلك، فاننا نتساءل: اية حكومة ستجرؤ على مهاجمة أمة منزوعة

السلاح، يعرف العالم اجمع أنها زعيمة العدالة والسلام؟. لا شك في ان الزعماء السياسيين لن يستطيعوا أن يبرروا عدوانهم أمام شعوبهم. وليس هناك كارثة اكبر بالنسبة للروح المعنوية لجيش من الجيوش، من ان يكون لديه ضمير سيىء.

يعلن «جان تولات» أن افكاره عن الدفاع المدني مستوحاة من مؤلفات لكتاب أنكلو سكسونيين، مثل «آدم روبيرز» (استراتيجية الدفاع المدني)، و«كينغ هول» (الدفاع في العصر النووي). ومن المناسب أن نلاحظ في هذا المجال ما يلي:

١) لم يعرف الانكلوسكسونيون قط الاحتلال الأجنبي لترابهم الوطني. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فان اللاعنف الذي افقدهم اغنى مستعمرة من مستعمراتهم، جرى استعماله من قبل شعب ذي تكوين عقلي خاص، ومعتاد على الشقاء والالم الجسماني. لذا فان الهنود، باتباعهم غاندي، لم يكن لديهم ما يفقدونه. كما ان اسس نظرية الدفاع اللاعنيف عن أرض احتلتها جيوش معادية نتيجة حرب، لا تستند إلى اية تجربة من تجارب الحروب.

٢) ان كتاب «استراتيجية الدفاع المدني»[١٢١] الذي استوحى منه ألقس تولات بعض افكاره، يحتوي على بحوث عديدة لم تتفق آراء كاتبيها عليها، حتى ان بعضهم يبرهنون على عدم فاعلية الدفاع المدني. ولنأخذ دراسة المقدم «ألان غوين جونس أوبييه» الذي كان «وزير دولة للشؤون الخارجية مكلّفاً شؤون نزع السلاح»، مثلاً على ذلك. فهو يرى أن الدفاع المدني لا يمكن ان يقبل إلا حينما تكون البلاد مغلوبة عسكرياً، وتكون ارضها محتلة بقطعات كثيرة، وحينما لا تكون هناك وسائل سوى وسيلة المقاومة المدنية التي تتضمن اعمال التخريب، وهي أعمال ليست، بالضرورة، غير عنيفة. ويضيف إلى ذلك، ان العدو اذا ما اراد ان يستعمل الرعب، فان الدفاع المدني سينهار[١٢٢] ويعتبر «ألان غوين جونس» ان الرغبة في تنظيم دفاع بلد ما على اساس استخدام وسائل الدفاع المدني

(١٢١)ـ كتاب جماعي، قدمه آدم روبيرز، ونشره فايروفاير، ٢٤ ساحة روسيل، لندن ١٩٦٧.

(١٢٢) المرجع ذاته، ص ٢٥ «ان توفير قطعات مدربة بشكل ملائم، وشرطة سرية، ووسائل اتصال جيدة، وعربات مصفحة، وطائرات، يكفي لسحق دفاع مدني جيد التنظيم، يستخدم، من بين الوسائل التي يستخدمها، الارهاب والقوة العسكرية».

فقط تشكل منطقاً خاطئاً[١٢٣].

ويرى «جينيه شارب» في بحثه الذي يحمل عنوان «تكنيك اللاعنف»[١٢٤] ان اللاعنف ضد عدو يستخدم العنف، ليس سوى نوع من «المصارعة اليابانية السياسية»! . ولكي يدعم «شارب» رأيه، يعدِّد اربعاً وعشرين حالة، استعملت فيها المجموعات البشرية تكنيك اللاعنف لفرض وجهة نظرها. ولم تثبت أية حالة من هذه الحالات ان اللاعنف كان فعالاً ومؤثراً خلال العمليات الحقيقية للحرب، بل على العكس من ذلك، فقد اثبتت بعض الحالات الفشل الذريع لتكنيك اللاعنف، ويذكر «شارب»، كمثل على ذلك، العقوبات الاقتصادية التي فرضت على إيطاليا لثنيها عن الاستمرار في حربها ضد الحبشة في ١٩٣٥- ١٩٣٦ . هذا، مع العلم ان الحالات التي ذكرها «شارب» تعود في معظمها إلى نزاعات اجتماعية وسياسية، وليس إلى حروب بين الدول.

ويقدم ليدل هارت، الكاتب العسكري المشهور بكفاءته في العالم، بعض الملاحظات التي يجب ان يأخذها انصار الدفاع المدني بعين الاعتبار. ويرى هارت، أنه في حالة كون الدفاع العسكري مستحيلاً، كمثل ما كانت عليه الدانمارك قبل الحرب العالمية الثانية، فمن المهم أن نتساءل: أي نوع من المقاومة يجب تطبيقه وتنظيمه. ويجب أن نتساءل دوماً عما اذا كانت المقاومة العنيفة يمكن أن تكون مجدية في بلد محدد. فاذا لم تكن مجدية، فان هذا يعني ان المقاومة ستظل مجدية ،طالماانهاستستمر غيرعنيفة[١٢٥]وبتعبير آخر، اذا لم يكن باستطاعتنا ان ننتصر بالعنف، فليس أمامنا إلا السبيل الأسوأ، وهو اللاعنف.

ويرى ليدل هارت، وهو مصيب في رأيه، ان المقاومة اللاعنيفة التي يقوم بها اعضاء حركة دينية أو سياسية تميزت بروح التضامن والتماسك بين اعضائها، ضد حكومة ما،

---

(١٢٣) المرجع ذاته، ص ٢٩ : «لكن الاعتقاد بان الدفاع المدني. . . هو كافٍ بحد ذاته، يبدو لي انه اعتقاد خاطىء»، وص ٣٠ «بالنظر لاتساع مدى الهجمات التي يمكن أن نواجهها، يبدو من الخطأ القول بان أية وسيلة واحدة من وسائل الدفاع تعتبر، وحدها وبحد ذاتها، كافية».

(١٢٤) استراتيجية الدفاع المدني، ص ٨٧ وما بعدها.

(١٢٥) المرجع ذاته، ص ٢١٠.

هي أمر يختلف كل الاختلاف عن استخدامها من قبل أمة من الامم في نزاع بين الدول. . . ولكي يكون للمقاومة اللاعنيفة، في مثل هذه الحال، حظ جيد في النجاح، من الضروري ان يتوفر حد جد كبير من الانضباط الجماعي، ومن القوة المعنوية لا تتوفر للجيوش ذاتها. وليس الأمر كذلك فقط، اذ ان هذا الحد الكبير من الأنضباط الجماعي والقوة المعنوية يجب أن يشمل الأمة جمعاء. . . ذلك ان فعالية المقاومة اللاعنيفة ستكون ملغومة طالما أن هناك فئة صغيرة من المجتمع تعمل لصالح العدو، بسبب ضعفها، او مصالحها الشخصية أو رغبتها في قتال فئات أخرى[١٢٦] .

وفي البحث الأخير من الكتاب، يطرح توماس س. شيلينغ عدداً من الاسئلة عن الدفاع المدني[١٢٧] ، تستدعي التفكير.

ان شيلينغ لا يوافق أبداً على الرأي الذي ينادي بتأييد بلد- وبخاصة بلد يملك امكانية الدفاع عن نفسه دفاعاً عسكرياً، اي بلد اوروبي، أو من أميركا الشمالية- يستطيع، بنجاح، أن يستبدل الدفاع المدني بالدفاع العسكري ليقوم في وقت واحد بالمهمتين التاليتين معاً: أن يردع العدوان وأن يدافع عن نفسه ضد العدوان حينما يبدأ. ويضيف شيلينغ قائلاً: «ان البرهان على ذلك» صعب ولا شك، ولكن هذا الكتاب سيفعل ذلك[١٢٨]».

وهكذا يظهر أن افكار الكتاب الانكلو سكسونيين التي التمس منها جان تولات الدعم لنظرية الدفاع المدني، قد أسيء فهمها. وهذا ما يوضح لنا القيمة المهزوزة للأسس التي قامت عليها هذه النظرية. ولنتمعن الآن في تلك الأسس التي ذكرها تولات:

-يمكن الاستعاضة عن الحرب باللاعنف.

-لقد احتلت ارض فرنسا ثلاث مرات، بالرغم من الجيوش ومن خطوط ماجينو.

-اذا ما تعرضت فرنسا، اليوم، الى الهجوم، فان ارضها ستحتل مرة أخرى.

-«أما وأن الأمر كذلك، ألا يكون من الحكمة ان نذكر جهودنا، ليس على الصدام بين جيشين، وانما على المقاومة غير العسكرية للشعب؟».

---

(١٢٦) المرجع ذاته، ص ٢٠٦.

(١٢٧) المرجع ذاته، ص ٣٠٢ وما بعدها.

(١٢٨) المرجع ذاته، ص ٣٠٦.

النقطة الأولـى:

ان مثل هذه الاستراتيجية، اي استراتيجية الدفاع المدني، تستلزم، بالتأكيد، نزع السلاح الكامل من قبل طرف واحد، وإلغاء جميع القوات العسكرية للأمة. فهل سيؤدي هذا إلى ردع العدوان، أم إنه، على العكس، سيغريه؟.

النقطة الثانيـة:

لا تعتبر النظرية سلامة الاراضي عاملاً اساسياً. بل على العكس من ذلك، فالغزو لا يُشعر به على أنه ضربة رهيبة إلا حينما يعهد بالأمن الى الوسائل العسكرية.

ولقد ثبت ان الدور الذي «يلعبه التراب الوطني في حياة المجموعات البشرية والأفراد هو دور مسلم به ولا جدال فيه».

لقد نشر، مؤخراً، بعض المختصين بعلم الأخلاق، نتائج بحوثهم[(١٢٩)]. وقد شدهوا، جميعهم، بحقيقة ثبتت لهم، وهي أن الحيوان يدافع عن نفسه بعنف اشد، وشجاعة دفاعية اقوى، كلما كان اكثر قرباً من مركز البقعة التي يقيم فيها. وليس الأمر سوى ردة فعل، شبه شاملة، تلاحظ ايضاً عند الانسان. ويرى البعض أن الدافع الذي يدفع المجموعات الحيوانية إلى الدفاع عن المكان الارضي، او البحري، أو الجوي، ضد الخطر على حياتها، انما هو دافع غريزي، بينما يراه آخرون دافعاً مكتسباً. غير أن الواقع الذي لا جدال فيه، والذي ارتضاه الجميع، هو ان كل مجموعة من الكائنات الحية تدافع عن ارضها بشراسة يمكن أن تبلغ حد التضحية بحياتها.

---

(١٢٩) راجع بصورة خاصة:

آ)كونراد لورينز «العدوان»، التاريخ الطبيعي للشر، نشر فلاماريون، ١٩٦٩.

ب)كونراد لورينز «دراسات في السلوك الحيواني والانساني»، نشر سويل، ١٩٧٠.

ج)ديسموند موريس «صديقة الحيوانات البشرية»، غراسيه، ١٩٧٠

د)ديسموند موريس «القرد العاري»، غراسيه ١٩٦٧.

هـ)روبير آردري «الارض»، ستوك، ١٩٦٦.

و)روبير آردري «القانون الطبيعي»، ستوك، ١٩٦٦.

ز)مجلة «لوكوريه» التي يصدرها اليونسكو، عدد آب- ايلول، ١٩٧٠، «الانسان، قاتل الطبيعة، وليس المقتول من قبل الطبيعة».

ازاء هذه الظروف، هل يمكن ان نتصور بجد، أن يبقى ملايين المواطنين لبلد ما من البلدان، دون ردة فعل عنيفة ضد غزو أراضيهم، وضد تهجير افراد اسرهم أو اسر اصدقائهم، وضد التعذيب والاضطهاد، والمصادرة والاستيلاء، أي ضد النهب المنظم، والتنكيل بمختلف انواعه، والفاقة وشظف العيش، والحرمان من الحريات؟. إن منظري تكتيك الدفاع المدني يرون أن أية ردة فعل عنيفة ستكون غير مجدية، لأن المحتل سيلجأ إلى الانتقام والثأر. تُرى، لو ان الأمر اقتصر على رفض التعاون مع المحتل، فهل سيتخلى المحتل عن الانتقام والثأر!؟.

النقطة الثالثة:

إن الدفاع المدني، بالاضافة إلى خنق ردود الفعل البيولوجية البحتة لملايين الأفراد، ينافح عن تشارك الأفكار، والتضامن المتين، والإجماع. ويظهر ذلك كله، من اول وهلة، على أنه خيالي. فهل يمكن ان يُنسى ملايين «المتعاونين مع العدو» في الحرب العالمية الثانية؟. وهل يجوز أن لا تؤخذ في الحسبان اختلافات الرأي البسيطة بين المجموعات التي تتشكل منها الأمة؟. واذا ما غزا الروس أوروبا الغربية- وليكن ذلك من قبيل المثل- فلماذا يرفض الشيوعيون التعاون معهم؟. واذا ما ادعى احد ان «كل مواطن سيقاوم الغزاة بسلبية... وان عروض التوظيف والاستخدام سترفض...» فوراً ودفعة واحدة، فان هذا الادعاء يظهر في نظر اولئك الذين عرفوا الحرب العالمية الثانية تأكيداً لا برهان عليه ولا سند له.

اننا نعرف أن الطمع، والمنفعة، والوصولية، غالباً ما تدفع الافراد الى التماس الوظائف العامة عوضاً عن رفضها. وتبدو جميع التبريرات من اجل الوصول الى هذه الغاية مقبولة من اجل ان يضع المتعاونون انفسهم في خدمة العدو. فكيف يمكن لنا ان نأمل في الحصول على تأييد ملايين الافراد لسلوك لا يستطيع إلا بعض المثاليين وحدهم فرضه على أنفسهم؟.

النقطة الرابعة:

يجب ان يترافق العصيان مع احترام العدو... الذي يجب أن نقوله له: «اننا لن

نسيء إليك، وسنعاملك كإنسان. ولكنك لست في بلدك ولا في بيتك، لان احتلالك ارضنا اغتصاب، ولن نقبل به أبداً».

هل كان يمكن ان نحصل، بمثل هذه الكلمات، على تأثير سحري في قطعات الرايخ الثالث؟. وهل كان النازيون سيركعون على ركبهم، وهم يلطمون صدورهم، ليطلبوا العفو من الفرنسيين، والبلجيكيين، والهولنديين، والبولونيين، والروس، وغيرهم، على الاذى الذي انزلوه بهم؟. أم إن التأثير سيكون معكوساً، اي سيتمثل بتطبيق مجموعة من التدابير القاسية التي تؤدي إلى فرض إرهاب يبدأ بالتوقيف العشوائي وينتهي بالابادة المنظمة، مروراً بالتهجير، والتطهير، والاستعباد، ومحارق الجثث؟.

لم تلق نظرية الدفاع المدني سوى نجاحات جد محدودة. ومن المؤسف ان نلاحظ، فيما يتعلق بظاهرة الحرب، ان النظريات التي تكون اسسها القائمة عليها اقل من غيرها علمية وموضوعية تجد دائماً لها انصاراً، بقدر ما تكون مهدِّئة وباعثة على الارتياح وغوغائية.



الفصل الثالث

الشروط الوهمية للسلام

٢٦- نزع السلاح.
٢٧- الدولة الوحيدة.
٢٨- المعاهدات.
٢٩- استنتاجات.

٢٦- نزع السلاح:

لم يعد هناك حدود للقوة، ولا لمدى الأسلحة، فتأثيراتها المباشرة، كارثية، وتأثيراتها غير المباشرة تخلق خوفاً من المجهول، اذ انه خلال بضع ساعات، تمكن ابادة مئات من ملايين البشر يسكنون في اقصى الطرف الآخر من الكرة الارضية. ويبدو مثل هذا الاحتمال، من الناحية الانسانية، أمراً غير مقبول: ومن هنا نشأت فكرة ازالة الاسلحة من الوجود لمنع المجموعات البشرية من أن يهدم بعضها بعضاً. وخلال القرن الأخير، بذلت مؤتمرات دولية كثيرة جهوداً لتحقيق هذه الفكرة، غير ان اكثر المحاولات اهمية في هذا المجال ظهرت بعد الحربين العالميتين[١٣٠].

ولا بد لنا من ان نلاحظ، مع الأسف، ان جهود الحكومات لازالة الاسلحة لم تحقق الغاية المطلوبة بعد، بل على العكس من ذلك، أذ يوجد في العالم، اليوم، كمية من المتفجرات قدرت بانها تعادل ١٥ طناً من مادة (ت.ن.ت) لكل ساكن من سكان الكرة

---

(١٣٠)- راجع:

١- رونوفان ودوروسيل، المرجع ذاته، ص ٢٤٧، ٢٧٨ وما بعدها.

٢- «الحروب والسلام» مجلة فصلية يصدرها المعهد الفرنسي لعلم الحرب، ١٩٦٦/٢، ص ٧٤ وما بعدها، و١٩٦٧/١ ص ٧٣ وما بعدها.

٣- دوروسيل، المرجع ذاته؛ حتى ص ١٨٨.

٤- كوينسي رايت، المرجع ذاته، ص ٨٠٣، وما بعدها.

الارضية[131]وهناك مفاوضات جديدة مستمرة منذ بعض الوقت تهدف إلى وقف سباق التسلح، ذلك السباق الذي يكلف غالياً، والذي اصبح غير مفيد أبداً، طالما ان الخصمين اللذين يحاول كل منهما ان يسبق الآخر، يملكان، في الوقت الحاضر، وسائل كافية لكي يبيد كل منهما الآخر عدة مرات. وهذه المفاوضات المعروفة باسم سالت (مفاوضات الحد من الاسلحة الاستراتيجية) لم تنته، حتى الآن، إلى أية نتيجة ملموسة حاسمة، وإن كانت تسير نحو تلك النتيجة على درجات متتالية، ولم يتردد الجنرال بوفر عن ان يقول: «في هذه الحالة، تبدو الشروط التكنيكية التي تحكم مفاوضات نزع السلاح، وكأنها تقود إلى طريق مسدود، بالرغم من وجود أسباب مختلفة لعقد اتفاق بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي... ان الاتفاق حول الحد من الاسلحة النووية غير منتظر غداً»[132].

ويجب علينا ان نلاحظ واقعة، هي أنه منذ اكثر من نصف قرن من المناقشات، لم تتوصل القوى الكبرى إلى الاتفاق فيما بينها لتخفيض تسليحها تخفيفاً طوعياً.

فما هي اذن اسباب هذه الاخفاقات المتكررة؟.

١ـ في بادىء الأمر، لا بد من القول إنه غاب عن بصرنا حقيقة اولية كان غاستون بوتول طوّرها في مجموعة من مؤلفاته [133] ،- واوجزها في جملة واحدة: «الانسان هو الذي يَقْتُل، وليس السيف، او المدفع».

وقد عبر الأب بير عن الفكرة ذاتها، بشكل غير مباشر، حين اجرى المقارنة التالية: «لنفترض أن هناك اسرة تمزق الخلافات أفرادها، وان هناك اصدقاء مخلصين لهذه الاسرة يعرفون انه يوجد مسدس خطر في درج معين في البيت. وقد امتدت يد صديقة إلى هذا المسدس وأخذته. فهل يمكن القول ان هذه الاسرة الممزقة والمنزوعة السلاح قد اصبحت «في سلام»؟. ان كل انسان يشعر بان نزع السلاح من الايدي ليس هو الذي يجب أن

---

(١٣١) راجع معهد استوكهولم لبحوث السلام الدولي، الكتاب السنوي عن التسليح ونزع السلاح، ١٩٦٩/١٩٧٠، نشر جيرالد دوكودرث وشركاه، لندن.

(١٣٢) انظر «مجلة الاستراتيجية». العدد ٢٥ (كانون الثاني، شباط، آذار، ١٩٧١)، ص ٤٩.

(١٣٣) انظر، بصورة خاصة «الحصول على السلام»، غراسيه، ١٩٦٧، ص ٨٧ وما بعدها، وكذلك «دراسات في علم الحرب»، نشر دينوئيل/غونتييه، باريز، ١٩٧٦، ص ٢٥ وما بعدها.

يؤخذ بعين الاعتبار، وانما نزع السلاح من الأفكار والقلوب[١٣٤].

لا شك في ان الانسان المسالم يستطيع، دون ان يخشاه أحد، ان يقوم بجمع الاسلحة الاكثر فتكاً دون ان يرتكب بهذه الاسلحة أية عملية قتل. أما الانسان القاتل فانه سيجد دائماً الوسيلة التي يقتل بها غريمه، حتى لو لم يكن لديه سلاح. والأمم، في هذه الحال، كالأفراد. فالولايات المتحدة كانت طيلة عدة سنوات بعد الحرب العالمية الثانية، تنفرد بين دول العالم بامتلاك اسلحة التدمير الكثيف الشامل. وكان باستطاعتها، آنذاك، ان تستثمر الفرصة وتتخلص من الاتحاد السوفييتي. واذا لم تكن الولايات المتحدة قد فعلت ذلك، فلان المجتمع الأميركي لم يكن مستعداً للقبول بالحرب ضد روسيا، وهذا يعني ان البُنى، السكانية، والاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية لهذا المجتمع لم تكن قد هُيِّئت وأُعِدَّت للحرب من جديد مع العلم بان الاسلحة كانت جاهزة لشن هجوم على الاتحاد السوفييتي، يحظى بقدر كبير من الحظ في النجاح. غير أن الدافع إلى الحرب كان معدوماً. وهذا يثبت ان العدوانية ليست في الاسلحة، وانما في الانسان.

٢ـ بالرغم من التصريحات المتكررة التي يدلي بها الزعماء السياسيون، فان الرغبة في نزع السلاح هي ما ابعد ما تكون عن الاخلاص. فالريبة تسيطر على جميع مفاوضات نزع السلاح. وكل طرف يتهم الطرف الآخر بانه يريد أن يخدعه. وهكذا يمنع الخوف المتبادل كل اتفاق.

٣ـ لقد استعملت كلمة «نزع السلاح»، منذ زمن طويل، في مجال الدعاية السياسية: فهي تهدِّىء القلق والمخاوف الجماعية. غير أن مفهوم نزع السلاح هو أبعد ما يكون عن البساطة. فما هو المقصود من نزع السلاح حينما يجري الحديث عنه؟ هل المقصود هو ازالة جميع الاسلحة، أم فقط ازالة تلك الاسلحة التي تؤدي إلى قتل اكبر عدد ممكن من الناس في وقت جد قصير؟. واذا ما تم تدمير جميع الاسلحة النووية، فهل سيكون هذا كافياً؟. ان ذلك يعني اننا نسينا انه في ثلاث ايام من قذف مدينة دريدن الالمانية، بقذائف جوية تقليدية (عادية)، وقعت ضحايا اكثر عدداً من ضحايا القنبلة الذرية التي القيت على

---

(١٣٤) المرجع ذاته، ص ٤٣.

هيروشيما. وسواء كان قتل مائة وخمسين الف انسان يتطلب ثلاثة أيام أم ثلاث ثوانٍ، فهل فرق الزمن هذا يبرر دعم وسيلة للقتل اكثر من وسيلة اخرى؟. وهل مفهوم نزع السلاح يشمل الاسلحة الكيميائية والبيولوجية؟ وهل يمتد ايضاً إلى مختبرات البحوث؟. وهل فكرنا في اشعة لازر وتطبيقاتها في مجال الاسلحة، وكذلك في الأقمار الصناعية؟.

يمكننا القول، باختصار، إن نزع السلاح النوعي لا يعالج، بصورة عامة، إلا نوعاً معيناً من الاسلحة، وهي تلك الاسلحة الأكثر إرعاباً. أما بقية انواع الاسلحة، فانه يدعها في الظل، كما لو انها كانت مقبولة. ولعلنا نتساءل الآن: أي نوع من الموت احلى على النفس، هل الموت بعاصفة من النار كتلك التي حدثت في هامبورغ، أو الموت في اتون انفجار ذري؟.

هذا عن نزع السلاح في جانبه النوعي. اما عن جانبه الكمي، فيمكن القول، بصورة عامة، انه ما زال غير واضح في المستوى السياسي، ويصطدم بعقبات تكنيكية. فدبابة روسية، مثلاً، لا تعادل في مجمل مواصفاتها دبابة اميركية مماثلة ١٠٠٪. ولذا فان الاتفاق على تخفيف متوازٍ للاسلحة وفق نسب مئوية محددة ليس عملية بسيطة. كما ان تخفيض ملاكات القوات المسلحة والميزانيات العسكرية وفق نسب محددة يؤدي إلى نتائج هي حصيلة عوامل عدة، من بينها ارقام سكان الدول التي يتناولها التخفيض ومستوى معيشتهم.

وحينما يتحدث السياسيون عن نزع السلاح، تصطدم هيئات الاركان، فوراً، بمجموعة من المشكلات التي تبدو مستحيلة الحل تقريباً، لأن أمن بلادها مهدد بصورة دائمة بسبب احتمال تفوق اسلحة الخصم.

٤ـ كثيراً ما يحدث أن ننسى ان الاسلحة تشكل الحماية للمجموعات البشرية الأكثر ضعفاً. ويعيد بوتول الى الذاكرة ان الاسلحة النارية هي التي وضعت حداً للغزوات البربرية[١٣٥] واذا ماافترضنا ـ وهذا من المستحيل ـ انه امكن تدمير جميع الاسلحة في

---

(١٣٥) «القتل المؤجل»، هاشيت، ١٩٧٠، ص ٢٢٦.

العالم، فانه ليس على الصينيين ما يفعلونه سوى أن يسيروا على أقدامهم، مجتمعين، لينتصروا على الروس، طالما ان القتال سينشب بين كل اربعة صينيين من جهة، وروسي واحد من جهة أخرى. (وماذا سيحدث لليهود. في النزاع بين اسرائيل والدول العربية، اذا لم يكن لديهم تسليح حديث؟).

٥- سؤال آخر يرد الى الذهن: طالما ان الدول مهددة بالفناء، فلماذا لا تلجأ، بشجاعة، إلى نزع السلاح من طرف واحد؟. واذا ما اعطت دولة ما المثل على ذلك، فانها ستفرض احترامها على جميع الدول، ولن يجرؤ أحد على مهاجمتها. هذا هو، بالتحليل، وضع بعض اصحاب النزعة السلمية.

وقدناهض ريموند آرون فكرة نزع السلاح من طرف واحد مناهضة شديدة. فكتب يقول:

«لا يزال المستقبل غير واضح، اما الحاضر فواضح. واذا ما اعترض احد القراء بقوله ان الدول الأخرى ستحترم تلك الدولة التي تترك أمورها لغيرها، فان على هذا القارىء ان يبرهن على ان الدول ستغير من نفسها وافكارها في اليوم الذي تقدم احدى الدول المثل على الاستسلام، وترى بقية الدول في هذا الاستسلام عملاً لا يدعو إلى الاحتقار، وانما هو عمل عظيم. وليست هناك حاجة لان نفتح أمام الدول سبيلاً لتجربة خاصة، اذ يكفي أن نفترض انها باقية على ما كانت عليه طيلة تاريخها. وشعب الولايات المتحدة لن يكون، اذا ما نزع سلاحه، آمناً على ارضه التي زرعها، ولا مدنه التي بناها، ولا ثرواته التي يتمتع بها... ان الضمانة الوحيدة التي يجلبها نزع السلاح من طرف واحد، هي ضمانة فقدان القوة. وفقدان القوة في مجتمع ما لا يعني سوى اقصى حالة من حالات الريبة وفقدان الثقة. والعبد الذي يرتبط بنزوات سيده يفقد الأمن. والدولة دون سلاح والمرتبطة برحمة دولة مسلحة تفقد الأمن ايضاً».

ويضيف ريموند آرون قائلاً:

«أن نزع السلاح من طرف واحد يعادل الاستسلام. والانسان الذي يفترض بان جميع الدول ستتبع المثل الذي تعطيه أول دولة عظمى في نزع سلاحها، هو انسان غبي، ولا يستحق ان يتناقش المرء معه مناقشة جدية»[١٣٦].

---

(١٣٦) «السلام والحرب بين الأمم»، كالمان- ليفي، باريز، ١٩٦٢، ١٩٦٩.

٦ـ٠ان الشكل الوحيد من نزع السلاح الذي امكن تحقيقه في الماضي، كان ذلك الشكل الذي فرضه الغالب على المغلوب، مثل ما جرى في المانيا بعد الحرب العالمية الأولى. ومنذ ١٩٣٩ ثبت ـ وقد دفعنا ثمن ذلك ـ ان الرايخ الثالث استطاع، بواسطة هذا التدبير الذي كنا فرضناه على المانيا، ان ينشىء جيشاً ذا قيمة عظيمة، أحسن تدريباً من جيوش جيرانه، ومجهزاً باعتدة عسكرية احدث من اعتدة تلك الجيوش.

وبعد الحرب العالمية الثانية، منع الحلفاء على جمهورية المانيا الاتحادية أن تصنع القنابل الذرية. غير ان المانيا، مثلها في ذلك مثل بقية البلدان الاعضاء في منظمة حلف شمالي الاطلسي، تحتوي في أرضها على قنابل ذرية من عيارات مختلفة، لا تستطيع استخدامها في حالة الاعتداء عليها إلا بعد ان تتلقى موافقة الأميركيين على ذلك. يضاف إلى ذلك، ان المانيا الاتحادية انشأت لنفسها قوات مسلحة برية وبحرية وجوية تضاهي قوات فرنسا او بريطانيا. وهكذا يبدو واضحاً، ضمن هذه الشروط والظروف، ان نزع السلاح المفروض على المغلوب ليس بذي فعالية.

ان الخطأ الأساسي في البحث عن السلام عن طريق نزع السلاح هو الخلط بين السبب والتأثير الخاصين بالحرب باعتبارها ظاهرة اجتماعية. فنزع السلاح ليس شرطاً للسلام، ولكنه نتيجة له، فالقنبلة الأكثر ارعاباً ليست سوى سلاح غير هجومي، اذا لم يقرر أحد ان يأخذها ويلقي بها فوق هدف من الاهداف. وقد كان الأستاذ بوتول محقاً حين يذكّرنا بان اكبر المذابح في التاريخ تم تنفيذها باسلحة بدائية، او بدون اسلحة على الاطلاق، كما حدث في معسكرات التجميع النازية. ونستنتج من ذلك أن نزع السلاح ليس ضمانة للسلام بين الناس، وأن هناك، منذ اكثر من خمسة وعشرين عاماً، من ينادي بعكس ذلك. واننا نعتقد، بعد أن برهنا على ذلك، بان هذا الوضع خاطىء: فالسلام القائم على الرعب قابل للانهيار، مثله في ذلك مثل السلام القائم على نزع السلاح.

٢٧ـ الدولة الوحيدة

يمكن تعريف الدولة ذات السيادة بأنها مجموعة من بني الانسان منظمين سياسياً على شكل حاكمين ومحكومين، وتقوم هذه الدولة على ارض محددة، وتمارس الحقوق التالية:

آ)حق إقامة علاقات رسمية مع دول أخرى (ارسال واستقبال السفراء).

ب)حق التفاوض وعقد المعاهدات.

ج)اعلان الحرب والقيام بأعمالها.

ويتألف العالم المعاصر من تجمع دول ذات سيادة. ولا توجد هناك أية سلطة قانونية لها حق اعلى وأقوى من حق الدول، إلا بمقدار ما تتنازل هذه الدول، تنازلاً طوعياً، عن جزء من صلاحياتها تضعه تحت تصرف المنظمات الدولية التي تنتسب إلى عضويتها. وتستطيع هذه المنظمات حينذاك ان تمارس حيال الدول المذكورة بعض الجبر القانوني. ولكن هذا لا يعني ان الدولة الموجه إليها الاتهام ستنحني أمام تلك المنظمات، اذ لا بد لنا من ان نلاحظ ان المجتمع الدولي ما يزال، نسبياً، فوضوياً، وان العلاقات بين اعضائه هي، قبل كل شيء، علاقات تسيطر عليها موازين القوى.

ويبدو التنظيم السياسي للعالم، حيث يضع الاتصال الاجتماعي فيه الناس في احتكاك واتصال مستمرين، بعضهم ببعض- يبدو هذا التنظيم وكأنه غير قابل للتكيف مع متطلبات العصر. وقد كتب الأستاذ رولينغ يقول:

«هذا هو تنظيم الدول الوطنية ذات السيادة، حيث تقبل المصالح والقيم وتصاغ ضمن وجهة النظر الوطنية. ويتوجب على الدولة- الأمة أن تدافع عن هذه المصالح والقيم وتنفذ السياسات التي تحققها. وعندما تمارس الدولة- الأمة هذا الواجب على المسرح الدولي، فانها تصطدم بدول وطنية أخرى ذات سيادة، تريد ايضاً ان تدافع عن مصالحها وقيمها الخاصة بها، وتنفذ السياسات التي تحققها. وقد ظهر، في كثير من الحالات، ان هذه القيم والمصالح تتعارض أو تتناقض فيما بينها، ولا يمكن أن ينتج عن ذلك إلا المجابهة... وهنا يكون ثمن السيادة الوطنية هو الحروب الدورية»[١٣٧].

ومن هنا انبثقت فكرة ازالة الكيانات السياسية ذات السيادة من الوجود، بغية تجنب التهديدات الدائمة المتبادلة، وسباق التسلح، والحرب في نهاية الأمر.

وتبدو وحدة العالم التي تتأكد يوماً بعد يوم، ووحدة المصالح وبني الانسان، وضرورة وضع حد لانهاء اعمال الابادة التي تحدث بين وقت وآخر بصورة خاصة- يبدو ذلك كله للبعض على أنه براهين وحجج لا تقبل الجدال لصالح انشاء دولة عالمية تأخذ، بصورة عامة، شكل اتحاد عالمي (فيدرالية عالمية).

---

(١٣٧) «السلام بالردع». في «السلام عن طريق البحث العلمي»، نشر معهد علم الاجتماع، جامعة ليبر في بروكسيل، ١٩٧٠ ص ٢٢٥ وما بعدها.

ولقد اهتم مفكرون سياسيون في القرن الماضي، مثل سان سيمون، وكونت، وبرودون، وريان، باعادة تنظيم المجتمع الأوروبي على اساس اتحادي (فيدرالي). واعتقدوا بان إقامة مؤسسات مشتركة في اوروبا، وان تنظيم شعوبها ضمن اتحاد يمكنهما أن يمنعا استخدام القوة لتسوية الخلافات بين الدول.

وقد دعم فيكتور هوغو دعماً عاطفياً ووجدانياً دعاة الاتحاد في عصره. فقد قال في خطابه الذي القاه في افتتاح مؤتمر السلام عام ١٨٦٩:

«سيأتي يوم تسقط فيه الاسلحة من ايديكم انتم ايضاً!، سيأتي يوم تظهر فيه الحرب عملاً سخيفاً، وأمراً يستحيل وقوعه بين باريز ولندن، وبين بيتيرسبورغ وبرلين، وبين فيينا وتورين، بقدر ما تبدو اليوم سخيفة ومستحيلة بين رووان وأميانس، وبين بوسطن وفيلادلفيا. سيأتي يوم عليك يا فرانسا، ويا إيطاليا، ويا انكلترا، ويا ألمانيا، ويا جميع أمم القارة، تنصهرون فيه ضمن وحدة كبرى، دون ان تفقدوا صفاتكم التي تميزكم، وفرديتكم المجيدة، وستؤسسون الأخوة الاوروبية، تماماً كما هي الحال في النورماندي، وبريتاني، وبورغوني، واللورين، والالزاس، وجميع مقاطعاتنا في فرنسا...

«سيأتي يوم تستبدل فيه بطلقات الرصاص والقنابل اصوات الانتخابات، والاستفتاء الشامل للشعوب، والقرار المحترم للمجلس العظيم ذي السيادة، الذي سيكون لاوروبا مثل ما هو البرلمان بالنسبة لأنكلترا، والدييت بالنسبة لألمانيا، والجمعية التشريعية بالنسبة لفرنسا!.

«سيأتي يوم يعرض فيه المدفع في المتاحف، كما تعرض اليوم آلة من آلات التعذيب، وسيندهش المشاهد اذ يتساءل عما اذا كان مثل هذا يمكن أن يكون قد وُجد في الماضي!...»[١٣٨].

ولكن الحرب الفرنسية- الالمانية، وضياع الألزاس واللورين، مع الأسف، أثارا في نفس الشاعر وطنية موحية. وبعد عام ١٨٧٠، اخذ فيكتور هوغو يتمنى دائماً إقامة الولايات المتحدة الأوروبية، ولكنه كان يطالب ان تعود إلى فرنسا حقوقها العادلة، قبل كل شيء.

---

(١٣٨) ذكره ميرل «النزعة السلمية والنزعة الدولية» المرجع ذاته، ص ٢٢٧ و٢٢٨.

«لا يمكن للعالم أن يقبل بتصغير فرنسا. وتضامن الشعوب الذي صنع السلام، سيصنع الحرب. ان فرنسا نوع من الملكية الانسانية...

«بعد المليارات الخمسة المدفوعة، لم تصبح برلين هي الأغنى، ولا غدت باريز هي الأفقر. لماذا؟ لأن باريز ضرورية للعالم، أما برلين فليست كذلك ان الذي ينفع هووحده الغني الحقيقي. واني اذ اكتب هذا، فاني لا أشعر باني فرنسي، وانما احس بأني انسان... وعندما تُجرح فرنسا، فان الحضارة تنزف. وعندما تصغر فرنسا، فان النور ينحسر...»[١٣٩].

منذ اكثر من قرن، اعتبر كثيرون من المفكرين السياسيين أن الحرب هي النتيجة الطبيعية لسيادة الدول. وكانوا يفضحون، ما بين وقت وآخر، اضرار النزعة الوطنية ومساوئها، وكان الدواء في نظرهم بسيطاً: ان تنزع من الدولة السلطة ووسائل القتال. واذا ما قامت دولة واحدة، تمسك وحدها بزمام السلطة والقوة، وتستوي فوق الدول الأمم المنزوعة السلاح، فان السلام سيعم في العالم، كما يعم الآن داخل الدول.

وقد دافع عن هذه الفكرة، بشدة، عدد من الكتاب بعد الحرب العالمية الثانية، وبخاصة ايميري ريفيس، الذي يرى ان الحقيقة التالية لا يدانيها شك او جدال: «تقوم الحرب حينما وحيثما تدخل وحدات اجتماعية متساوية السيادة في احتكاك فيما بينها»[١٤٠] وحين تقوم سلطة عليا فوق السيادات المحلية، تفرض سلطتها، فان الحرب بين هذه الوحدات الاجتماعية المحلية تصبح مستحيلة. وحينذاك، يصبح القانون، والقانون وحده، وليس الحرب، هو الذي ينظم العلاقات بين المجموعات. ولهذا، فان الهدف يجب أن يكون:
«دمج السيادات الوطنية المتفرقة والمتعارضة في سيادة عليا، قادرة على انشاء نظام قانوني تتمتع في ظله جميع الشعوب بأمن متكافىء، وبالتزامات وحقوق متساوية في ظل القانون»[١٤١].

---

(١٣٩) ذكره ميرل «النزعة السلمية والنزعة الدولية»، المرجع ذاته، ص ٢٢٨ و٢٢٩.

(١٤٠) «تحليل السلام»، نشر تالانديه، باريز ١٩٤٦، ص ١٣٤.

(١٤١) ريفيس، المرجع ذاته، ص ١٣٨.

ويرى ريفيس «أن المشكلة الأساسية للسلام هي مشكلة السيادة».

لم تعد السيادة الوطنية نافعة في الوقت الحاضر. فبفضل التكنيك، الذي يمر في مرحلة ثورة كاملة، اصبح التصنيع والوطنية القوتين اللتين تتجابهان مجابهة خطرة. وتنبعث الفوضى من البنية السياسية للعالم، حيث توجد مصادر مختلفة للقانون بقدر ما توجد سيادات مختلفة.

لقد اصبح نشر القانون والنظام على العالم اجمع ضرورة حيوية. كما اصبح من الواجب ايضاً اعداد قانون دستوري عالمي يصدره جهاز تشريعي منتخب حتماً.

«ان المشكلة الحالية للسلام تكمن في اقامة نظام تشريعي يعمل على تنظيم وتسوية العلاقات بين الناس عبر الدول ـ الأمم ومن فوقها. ويؤدي هذا إلى نقل السلطة السيادية للمؤسسات الوطنية للحرب الى المؤسسات العالمية المؤهلة لاعداد القانون والنظام في العلاقات الانسانية عبر الدول ـ الأمم ومن فوقها»(١٤٢).

غير أن ريفيس مقتنع حقاً بان يقيم نظريته على أسس متينة، ولهذا فانه لم يتردد في القول:

«اذ لم نستطع ان نتوصل إلى العالمية، ولا إلى انشاء الاتحاد بالرضى المشترك وبالطرائق الديموقراطية النابعة من تفكير منطقي، وحتى لا نؤخر سير الاحداث، فلنسرع بالتوحيد بواسطة الغزو... والاحسن ان نتم هذا العمل باسرع وقت ممكن... فعصر الحروب الدولية سيبلغ نهايته، حاله في ذلك حال كل شيء على هذه الارض. وسيبلغ هذه النهاية عند اقامة القانون العالمي الذي ينظم العلاقات بين الناس ويحكمها، سواء اقيم هذا القانون بالاتحاد أو... بالغزو»(١٤٣).

وهكذا، فان المدافع الأكثر شهرة عن نظرية السلام باقامة الدولة العالمية، يواجه امكانية القيام «بغزو»، وهذا يعني الحرب، وذلك لكي يتمكن من اقامة الدولة الوحيدة التي تنشر لواء السلام في العالم. وهكذا يولد من الحرب السلام الذي يفرضه المنتصر.

---

(١٤٢) ريفيس، المرجع ذاته، ص ٢٧٦.

(١٤٣) ريفيس، المرجع ذاته، ص ٢٩٠ و٢٩١.

لقد برهن غاستوف بوتول في الكثير من كتبه [١٤٤] على أن العمل على ازالة الحرب بتطبيق صيغة سياسية مثل إقامة الدولة العالمية ليس سوى وهم من الأوهام. واعاد الى الذاكرة ان «السلام الروماني» و«السلام الصيني» كانا ابعد ما يكونان عن فترة الراحة، طالما ان الحروب الأهلية حلت محل الحروب ما بين المدن. وعندما يذكر ريفيس، في كثير من الاحيان، الولايات المتحدة الأميركية، كمثل ليبرهن على ان الاتحادية (الفيدرالية)، اذ تقيم سلطة اعلى من سلطات الدول، جديرة بازالة الحرب فيما بين هذه الدول، فانه ينسى أن يتحدث عن حرب الانفصال التي كانت اكثر الحروب في القرن التاسع عشر ضحايا (٦١٧٠٠٠ قتيل). ويمكن أن تنشب داخل الدولة الواحدة حرب أهلية، ولا تقل خسائرها واضرارها كارثيةً عن خسائر واضرار حرب دولية (الحرب الاهلية الاسبانية: ١٠٠٠٠٠٠ قتيل)؛ وهل يعتقد ملايين المواطنين السود في الولايات المتحدة الأميركية ان الاتحاد الأميركي هو انجاز عظيم يجب تطبيقه في العالم اجمع؟.

ومن هنا ينبثق السؤال الأول: اذا افترضنا ان اتحاداً عالمياً تم انشاؤه، اليس من الضروري ان نخشى أن تحل الحرب الاهلية، بالتدريج، محل الحرب الدولية؟.

ان فكرة «القانون العالمي»، الذي نفترض انه يحظى باحترام الجميع، فكرة جذابة. ولكن ريفيس ينسى، مع الاسف، ان القانون؛ أي قانون، لا يمكن ان تكون له قوة إلا بقدر ما يستجيب لحقائق علم الاجتماع.

يجب، في بادىء الأمر، أن تتوفر ارادة عالمية لدى كل دولة من الدول على الاندماج في مجتمع عالمي، والخضوع لسيادة اعلى من السيادة القائمة فعلاً منذ زمن طويل على ارض محددة تابعة لتلك الدولة. ويجب ان تتوفر هذه الارادة قبل ان تكون سلطة القانون العالمي قد قبلت من جميع الدول. ويجب أن لا ننسى ان النزعات الوطنية، وتجمّع المعارضين في تكتل مشترك، والارتباط بالارض، تشكل قوى قادرة ما يزال علم النفس الجماعي،

---

(١٤٤) بوتول:

١) «الحروب»، بايو، باريز ١٩٥١، ص ٤٦١ وما بعدها.

٢) «٨٠٠٠ معاهدة سلام» جوليار، باريز ١٩٤٨، ص ٣٠ وما بعدها.

٣) «امتلاك السلام»، غراسيه، باريز، ١٩٦٧، ص ٦١ وما بعدها.

وعلم الاجتماع، والبيولوجيا، تحاول ان تفهمها، دون أن تتمكن، حتى الآن، من السيطرة عليها. غير أنه من الممكن أن نكون واثقين بان أي دستور عالمي لا يمكن أن يكون مقبولاً من الجميع، طالما ان الفوارق والخلافات الاقتصادية، والاجتماعية، والدينية، واللغوية، وبخاصة الفوارق بين العقليات، ستبقى على ما هي عليه الآن.

وكيف يمكن لنا أن نأمل في سن قوانين تصلح، على السواء، لأميركيين يعيشون في بحبوحة ووفرة، ولباكستانيين يموتون من الجوع، ولصينيين يعيشون في شروط سياسية معينة، ولفرنسيين يعشقون الحرية، ولإسرائيليين يعتبرون انفسهم انهم شعب الله المختار، (ولعرب تقبل ديانتهم بالحرب المقدسة)؟. وهل يجب ان نتحدث عن كلمات تتبدل معانيها، ليس فقط حسب اللغة التي تلفظ بها تلك الكلمات، وانما في الزمان والمكان ايضاً؟. فكل كلمة- بعد ان تكون قد صاغتها عقليات مختلفة- لها اصداء مختلفة حسب الشخص الذي يستعملها والشخص الذي يلتقطها. وحينما يتحدث استاذ للفلسفة في السوربون لتلاميذه عن الحرية، فان ذلك يختلف كل الاختلاف عن الحرية التي يعد بها مرشح منتخبيه في الانتخابات الباريزية. ويؤكد الروسي، والصيني، والأميركي، بإيمان راسخ متساوٍ فيما بينهم، ان الحرية تسود بلادهم، ولكن كلا منهم يصدر عن مفهوم مختلف للحرية عن المفهومين الآخرين.

فكيف يمكن، ضمن هذه الشروط، ان نأمل في الحصول على اتفاق على دستور اتحادي عالمي دون اللجوء الى القوة؟. واستعمال القوة، أو كما قال ريفيس «لنُقِم الاتحاد بالغزو» هو، بالضبط، ما يجب تجنبه. فقد كان ذلك حلّاً قديماً لازم الغزاة الذين كان نابوليون وهتلر آخر من مثّلوهم حتى ان هتلر قطع على نفسه وعداً بان يكون «السلام لألف عام»، ولكنه وفى بوعده لثمانية وثلاثين مليون إنسان بأن جلب لهم سلام القبور!.

لقد انتشرت افكار ريفيس انتشاراً واسعاً، ووجدت صدى ملائمًا في بعض اوساط المثقفين. وقد اقتبست الرسالة البابوية «السلام على الارض» في جزئها الرابع، فكرة تنظيم المجتمع الدولي.

وقد لاحظ البابا يوحنا الثالث والعشرون ان الدول اخذت تضاعف عقد المؤتمرات الهادفة إلى حل المشكلات الرئيسية للعلاقات الدولية، ولاحظ ايضاً انها لن تتوصل ابداً إلى

حل هذه المشكلات، لأن السلطة التي تمارسها ليست كافية. ولهذا يجب انشاء «سلطة عامة ذات صلاحيات عالمية» تعمل على حل «المشكلات التي يطرحها الصالح المشترك العالمي في المجالات الاقتصادية، او الاجتماعية، او السياسية، او الثقافية».

ويقول البابا يوحنا الثالث والعشرون ايضاً في رسالة «السلام على الارض»:

«لا يمكن حل المشكلات ذات الابعاد العالمية إلا من قبل سلطة عامة لديها القوة، والدستور، ووسائل العمل التي تأخذ، هي ذاتها ايضاً، ابعاداً عالمية... ان النظام الاخلاقي نفسه يتطلب إقامة سلطة عامة ذات صلاحيات عالمية».

ليس بين فكرة ايمري ريفيس وفكرة يوحنا الثالث والعشرين فرق اساسي، سوى ان البابا لا يوصي بانشاء السلطة العالمية، حين الضرورة، «بالغزو».

وقد جاء فرانسيس جيرالد[145] فأخذ بافكار ريفيس ويوحنا الثالث والعشرين وطورها. وهذه الافكار، بحد ذاتها، بسيطة ومنطقية.

وفي الواقع، فانه في مجتمع دولي، مؤلف من دول استقلالها مطلق، وسيادتها كلية، ولا توجد سلطة اعلى من سلطة الدول مختصة بقول كلمة القانون، لا يمكن حل نزاع ما إلا بواسطة الحرب. ومن هنا، فانه يكفي انشاء هذه السلطة العليا لمنع الحرب. وهذا ما جرى في الماضي حيث انشئت منظمة الأمم المتحدة.

ومن المؤسف أن حياة المجموعات البشرية قليلاً ما تتطابق مع المنطق.

فالاتحاد الدولي ليس سوى ضمانة وهمية للسلام، وذلك للأسباب التالية:

١ـ في الماضي، نشأت الدول القومية بان قامت وحدة سياسية قوية بضم وحدة سياسية ضعيفة اليها. وكأمثلة على ذلك: تاريخ الوحدة الألمانية، او تاريخ الوحدة الايطالية، أو تاريخ فرنسا أو انكلترا.

ونادراً ما كان توحيد القومية سلمياً. ومنذ ذلك الحين، لم يقدم التاريخ دليلاً يسمح بالاعتقاد بامكان انشاء دولة عالمية بوسائل أخرى غير وسيلة الحرب.

---

(١٤٥) فرانسيس جيرالد «نحو الوحدة الفيدرالية للعالم»، نشر دينوئيل، باريز، ١٩٧١.

٢ـ الإتحادان الأكثر قوة في العالم، اي الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفييتي، لم يكن انشاؤهما ممكناً إلا بفضل حرب اهلية وثورة اتصفتا، بصورة خاصة، بانهما كانتا دمويتين.

٣ـ هل توجد ارادة جماعية للخضوع «لسلطة عامة ذات صلاحيات عالمية»؟. وبتعبير آخر، هل الإتحاد السوفييتي، والولايات المتحدة، والصين، وفرنسا، وغيرها مستعدة لأن تنقل جزءاً من سيادتها إلى سلطة اعلى من سلطاتها، وان تمتثل لقراراتها، حتى لو اعتبرتها، خطأً او صواباً، إنها ضد مصالحها؟. ان المخاض العسير لأوروبا يولد في فكرنا الشك.

٤ـ واذا ما افترضنا الآن أنه يمكن إقامة «سلطة عامة ذات صلاحيات عالمية»، ألا يُخشى ان تقع هذه السلطة تحت إغراء شهوة التفرد والتسلط والتحكم؟.

٥ـ ان نزع سلاح الدول ـ الأمم، وإنشاء «قوة شرطة» اتحادية (كم مليوناً من الرجال سيكون عدد افراد هذه القوة؟) لفرض احترام «القانون العالمي» وللحفاظ على النظام في العالم، امران ضروريان «للسلطة العامة ذات الصلاحيات العالمية». فكيف ستشكل هذه القوة؟ وهل ستشكل من البيض، أم السود، أم الصفر؟. وهل سيرسل برازيليون «اتحاديون» للحفاظ على النظام في فييتنام، وصينيون إلى ايرلندا، وزائيريون الى قناة السويس؟. وأي نظام سيحافظون عليه؟ هل الوضع الراهن؟. وهل نسينا أن هناك اسلحة كيميائية وبيولوجية يمكن صنعها بأثمان زهيدة وبصورة سرية.

٦ـ يرى البابا يوحنا الثالث والعشرون ضرورة توفر اتفاق جماعي (إلا اذا قُبل حل «الغزو» الذي اقترحه ريفيس) من أجل إقامة «السلطة العامة ذات الصلاحيات العالمية». ومن الجدير بالملاحظة ان الحصول على اتفاق جماعي يعبر عنه العالم أجمع أمر لا يمكن إدراكه وقبوله بسهولة. ولكن، لنفترض أن مثل هذا الأمر قد حدث، فهل سيستمر هذا الاتفاق الجماعي؟. ألا يخشى أن تقوم الحركات الانفصالية في الدول ـ الأمم القديمة فتأخذ شكل «ثورات قومية» تقاوم قرارات «السلطة العامة ذات الصلاحيات العالمية»؟. ان الاستخدام المستمر «لقوة الشرطة» الاتحادية قد يصبح الوسيلة الدائمة للحكومة، مما يؤدي، حتماً، إلى إثارة ردود فعل عنيفة.

٧ـ يجب ان يفرض تطبيق مبادىء حقوق الانسان، في كل مكان، وفي جميع الأحوال. ولكن، ماذا سيحدث لو أن حالة الزنوج الأميركيين بقيت على ما هي عليه بدون تغيير، وأن المواطنين الروس الذين ينتقدون حكومتهم ما زالوا محجورين في المصحات النفسية، وان صينيين من بكين لا يمكنهم ان يصلوا إلى فورموزا الا اذا خاطروا بحياتهم؟. كيف يمكن ان نفرض على مجموعات من مئات الملايين من الناس تطبيق هذه المبادىء بوسيلة غير وسيلة القوة؟.

٨ـ كيف سيتم تعيين الرجال الذين سيشكلون هذه «السلطة العامة ذات الصلاحيات العالمية»؟ هل عن طريق الانتخاب العالمي؟ وماذا لو كان معظم هؤلاء الذين تم انتخابهم سوداً أو صفراً، وماذا سيفعل البيض آنذاك؟.

لهذه الاسباب جميعها، تعتبر فكرة السلام باقامة دولة عالمية وهماً سياسياً كلياً. ومهما تكن السيادة الوطنية فوضوية وخطرة على السلام، فانها واقع سياسي، جذوره الاجتماعية والنفسية والبيولوجية عميقة. ومن العبث ان يسعى الانسان إلى إقامة مؤسسات سياسية ـ قضائية خارج حدود الحقائق الانسانية. فطالما ان الناس هم كما يريدون أن يكونوا، فلا القانون العالمي، ولا الدستور الاتحادي، يمكنهما أن يمنعوهم من ان يبيد بعضهم بعضاً، ما بين وقت وآخر.

٢٨ـ المعاهدات:

في كتاب [١٤٦] نشره نوفيكوف عام ١٨٩٤، نقرأ مقطعين يسترعيان الانتباه:

اولهما مأخوذ من «جريدة موسكو»:

«بين عام ١٤٩٦ قبل بدء تاريخ عصرنا (أي قبل الميلاد)، وعام ١٨٦١، أي خلال ٣٣٥٧ عاماً، كان هناك ٢٢٧ عاماً انتشر فيها السلام، و٣١٣٠ عاماً وقعت فيها الحروب، وهذا يعني أنه كان هناك عام واحد للسلام مقابل ١٣ عاماً للحرب. وخلال القرون الثلاثة الاخيرة، وقعت في اوروبا ٢٨٦ حرباً».

---

(١٤٦) «الحرب وشرورها»، باريز، ١٨٩٤، نشر أرمان كولان وشركاه، ص ٢٤ و٢٥.

اما المقطع الثاني فانه مأخوذ من نص ظهر في «مجلة العالمين» (٣٠-٣١ آذار ١٨٩٤، ص ٦٩٢) بتوقيع م. فالبير:

«من عام ١٥٠٠ قبل السيد المسيح حتى عام ١٨٦٠، تم عقد ثمانية آلاف معاهدة سلام نصت على ان السلام سيكون ازلياً، غير أن العمر الوسطي لكل معاهدة لم يكن يتجاوز السنتين».

وقد تساءل نوفيكوف آنذاك عما اذا كانت المعاهدة الأولى بعد الآلاف الثمانية ستكون فعالة اكثر من سابقاتها. وكذلك فعل ايميري ريفيس، اذ عبر، بشدة، عن شكه وعدم ثقته بالمعاهدات، فكتب يقول: «لقد اعطى الانسان للمعاهدات المعقودة بين قوى ذات سيادة، خلال آلاف السنين، عدداً لا يحصى من الفرص لتبرهن على أنها قادرة على منع الحرب من الحدوث. وأمام وجود احتمال حرب ذرية، فاننا لا نستطيع ان نضع ثقتنا في طريقة لقيت، على نحو يُرثى له، الفشل مئات المرات، ولم تستطع أبداً ان تثبت نجاحها ونجاعتها ولا مرة واحدة»[١٤٧].

واخيراً، فقد انتقى غاستون بوتول عنواناً لأحد كتبه «ثمانية آلاف معاهدة سلام»[١٤٨]، بدأه بنص معاهدة موقع عليها من قبل رمسيس الثاني وهاتوسيليس الثالث عام ١٢٧٨ قبل الميلاد. ويجد الانسان في هذه المعاهدة مواد يلقاها في كثير من معاهدات السلام، تحت صيغ مختلفة، مثل:

- اعلان أخوة.
- ضمان سلام دائم.
- عدم انتهاك للاراضي، بصورة متبادلة.
- تعاون متبادل لمقاتلة عدو مشترك أو ضد الثوار.
- تسليم الجنود الفارين والسياسيين اللاجئين.
- وعد بالتزاوج بين ابناء الموقعين على المعاهدة.

---

(١٤٧) ايميري ريفيس، المرجع ذاته، ص ٣٠٢.
(١٤٨) نشر جوليار، باريز، ١٩٤٨.

وهكذا تكرر هذا الخطأ، بدون لأي- آلاف المرات، في الزمان والمكان. فقد تبادل الناس الوعود والعهود، بموجب التزامات رسمية معلنة، على أن لا يتقاتلوا، بل على العكس، اتفقوا على أن يعيشوا «باخوّة»، بينما إخذوا، في الوقت ذاته، باعداد اسلحتهم، والتهيؤ للقتل.

ان هذه الملاحظة الواقعية العادية لم تثبط عزم الدبلوماسيين، ولا همة الاخصائيين في القانون الدولي. فمعاهدة فرساي التي انهت الحرب العالمية الأولى، كانت، في الواقع، علامة البدء للحرب العالمية الثانية. وحلف بriاند- كيلّوغ، الذي وضعت فيه ستون امة الحرب «خارج القانون» لم يستطع أن يمنع قتل ثمانية وثلاثين مليون انسان.

وهكذا يبدو أن الانسان لم يتعلم بعد شيئاً، بالرغم من الاخفاقات الدموية التي تتكرر بصورة دائمة منذ الازل.

وإذ تجري الاستعدادات للحرب الفضائية بشكل واسع، تطلع علينا الأمم المتحدة بـ«معاهدة المبادىء المنظمة لنشاطات الدول في ميدان استكشاف واستخدام الفضاء الخارجي، بما في ذلك القمر والاجرام السماوية الأخرى». وقد ايدت الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك هذه المعاهدة بالإجماع يوم ١٩ كانون الأول ١٩٦٦. وقد وقع عليها مندوبو ثمان وسبعين دولة، من بينهم مندوبو الاتحاد السوفييتي، وانكلترا، والولايات المتحدة[١٤٩]. فعلامَ تعاهد هؤلاء المندوبون؟.

تنص المادة الرابعة للمعاهدة على ما يلي:

«تتعهد الدول الأطراف في المعاهدة بعدم وضع أية أجسام، تحمل اية اسلحة نووية أو أي نوع آخر من اسلحة التدمير الشامل، في أي مدار حول الارض، أو وضع مثل هذه الاسلحة على أية اجرام سماوية أو في الفضاء الخارجي بأية طريقة أخرى.

«وتراعي جميع الدول الأطراف في المعاهدة قصر استخدامها للقمر والاجرام السماوية الأخرى على الأغراض السلمية. ويحظر إنشاء أية قواعد أو منشآت او تحصينات

---

(١٤٩) انظر جمعية منظمة الوحدة الأوروبية- الوثائق الرسمية، الدورة العادية الثالثة عشرة: الجزء الأول، حزيران ١٩٦٧، وثائق الجلسات، ص ١٢ وما بعدها.

عسكرية وتجريب أي نوع من الأسلحة وإجراء أية مناورات عسكرية في الاجرام السماوية. ولا يحظر استخدام الملاكات العسكرية لأغراض البحث العلمي أو لأية أغراض سلمية أخرى. وكذلك لا يحظر استخدام أية معدات أو مرافق تكون لازمة للاستكشاف السلمي للقمر وللاجرام السماوية الأخرى».

أية ضمانات تقدمها هذه الالتزامات؟

لنتذكر، في بادىء الأمر، ان المادتين ٢٥ و٢٨ من معاهدة لاهاي تمنع قصف المدن بالقنابل. غير أن مئات الآلاف من الضحايا الذين قتلوا في كوفنتري، ولندن، وهامبورغ، ودريدن، وناكازاكي، وهيروشيما، تقدم الدليل المأساوي على عدم فعالية هذه النصوص بصورة كلية.

لهذه الاسباب، هل يجوز لنا أن نثق في التواقيع الواردة في نهاية معاهدة الاستخدام السلمي للفضاء، اكثر من ثقتنا بتلك التواقيع التي مهرت معاهدات لاهاي، ومعاهدة لوكارنو، وحلف بريانذ- كيلوغ؟.

هناك اكثر من ذلك. فالخداع والغش، منذ ذلك الحين حتى اليوم، امران ممكنان، والموقعون على المعاهدة يدركون ذلك كل الادراك، وبخاصة انه ليست هناك أية رقابة على محتوى التوابع التي تدور حول الارض. وضمن هذه الشروط والظروف، من يجرؤ على ان يضمن انه لا توجد، حالياً، اسلحة تدمير شاملة مخبأة في اقمار- جواسيس أو في اقمار «سويوز» تسبح في مدار الارض؟.

يضاف إلى ذلك، ان المادة الرابعة التي اشرنا إليها، تسمح باستخدام افراد عسكريين «لغايات البحث العلمي، أو لأية اغراض سلمية أخرى». والغرض من هذا جد واضح. فاذا كانت «البحوث العلمية» سيعهد بها إلى عسكريين، فما هي الفائدة من العلماء اذن؟ هل للقيام بالحرب؟ إلا اذا كان الأمر يتعلق ببحوث علمية من نوع خاص ولها هدف عسكري جد هام تقدر الحكومات انه من اجل الدفاع (او الهجوم) يجب حصر هذه البحوث في ضباط ذوي مرتبة عالية باعتبارهم يمثلون الضمانات المطلوبة للحفاظ على سرية البحوث والمكتشفات.

تحتل المعاهدات مكاناً هاماً ضمن الضمانات الوهمية للسلام، فهي أشبه ما تكون بعقود بين اشخاص خاصين. ويظهر ان التعهد الرسمي المكتوب هو بحد ذاته ضمانة للتنفيذ. غير ان الأمور التالية يتم، مع الاسف، نسيانها:

١) فالمحاكم والدوائر القضائية تستطيع أن تنقض عقداً تم التوقيع عليه، إلا أن هذا لا ينطبق على المعاهدات التي توقع الدول عليها.

٢) ان علم النفس والروح المعنوية الخاصين بالافراد يختلفان كل الاختلاف عن علم النفس الجماعي والروح المعنوي للأمم.

٣) ان الناس، بسبب الخوف أو من اجل المنفعة، يحاولون خداع بعضهم بعضاً.

٤) ان التعهدات الرسمية العلنية، حتى تلك التعهدات المبنية على الحب، وليس على الخوف، او التهديد، أو الكره، كثيراً ما تتعرض للانتهاك. فالزواج وأيمان الوفاء التي يتبادلها الزوجان ملأى بالدروس.

وهكذا يبدو واضحاً، ضمن هذه الشروط والظروف، ان المعاهدات ليست هي التي تجعل السيطرة على الظاهرة الاجتماعية ـ الحرب، او تحويلها عن مجراها، أمراً ممكناً.

٢٩ـ استنتاجات:

الحرب كالحب، تثير عند الأفراد المنعزلين من جهة، والمجتمعين في مجموعات، من جهة أخرى، مخاوف تتطلب مهدئات قوية. واحسن هذه المهدئات تلك التي تنفي وتدحض التهديد بشكل قاطع. واذ تؤكد بعض الديانات، كالديانة المسيحية مثلاً، ان الموت ليس سوى بدء حياة جديدة ازلية وملأى بالسعادة، فانها تشكل، بذلك، دواءً ناجعاً ضد الصدمة العاطفية التي يثيرها موت أهلنا أو أصدقائنا، او خوفنا من اقتراب الموت منا. ويمكن التغلب على الحزن والقلق بان نقنع انفسنا بان مرورنا عبر الموت ليس أمراً سيئاً، ولكنه، على العكس، دليل على نهاية شقائنا، وبداية سعادة فائقة.

واذا ما سيطر المنطق على حياة الأفراد، فيتوجب على المسيحيين ان يتمنوا بلوغ الموت، ليس فقط موت اولئك الذين يحبونهم، وانما موتهم، هم انفسهم. ولكن الأمر ليس كذلك. وفي جميع الاحوال، فان الايمان بالحياة الأخرى يشكل نعمة وهمية تهدىء القلق

الذي يثيره تهديد الموت: انه وهم نافع لا يقدم أو يؤخر مقدار ثانية واحدة الانتقال من الحياة إلى الموت، ولكنه يساعد الأحياء على تحمل الصدمة. وليس هناك أي نفع او مصلحة في مقاومة هذا الوهم، بل العكس هو الصحيح.

لكن الحرب، التي تزيد احتمال موت الأفراد، تثير مخاوف تتطلب مهدئات أخرى. وهكذا راح بعض الكتاب يبرهنون، بقوة، على ان الحرب، اذ هي أبعد من أن تكون شراً، هي خير، سواء بالنسبة للافراد، أو بالنسبة للانسانية. فالحرب «عمل مشرّف». وهي مصدر التقدم والفضائل. وكما قال هيغل «السلام الدائم، ولنقل السلام الازلي، يُفسد الأمم». اما مؤلفو كتاب «السلام غير المرغوب»، الذي كنا اشرنا إليه، فيرون ان الحرب مفضلة على المجهول الخطر الذي يتضمنه السلام.

وهناك كتاب آخرون، على عكس الذين اشرنا إليهم، مؤمنون بان الحرب شر، ويمكن تحييدها بسهولة اذا ما اردنا، نحن جميعاً، ذلك. ومن اجل ذلك، يكفي ان نتبنى الحلول التي يقترحونها، مثل:

- تجريد الأمم من السلاح.
- انشاء دولة اتحادية عالمية.
- تحديث القانون الدولي.
- استبدال الدفاع المدني بالدفاع العسكري.
- إلغاء الجيوش.
- الحوار الأخوي، الخ...

لقد اثبتنا أن اي حل من هذه الحلول لا يمكن ان يقودنا الى السلام. وعوضاً عن أن تكون هذه الحلول مفيدة، فان الأوهام التي تخلقها خطيرة، لانها تمنع الانقضاض على الشر في جذوره. وهذا هو أول منجز جد هام من منجزات علم اجتماع الحرب.

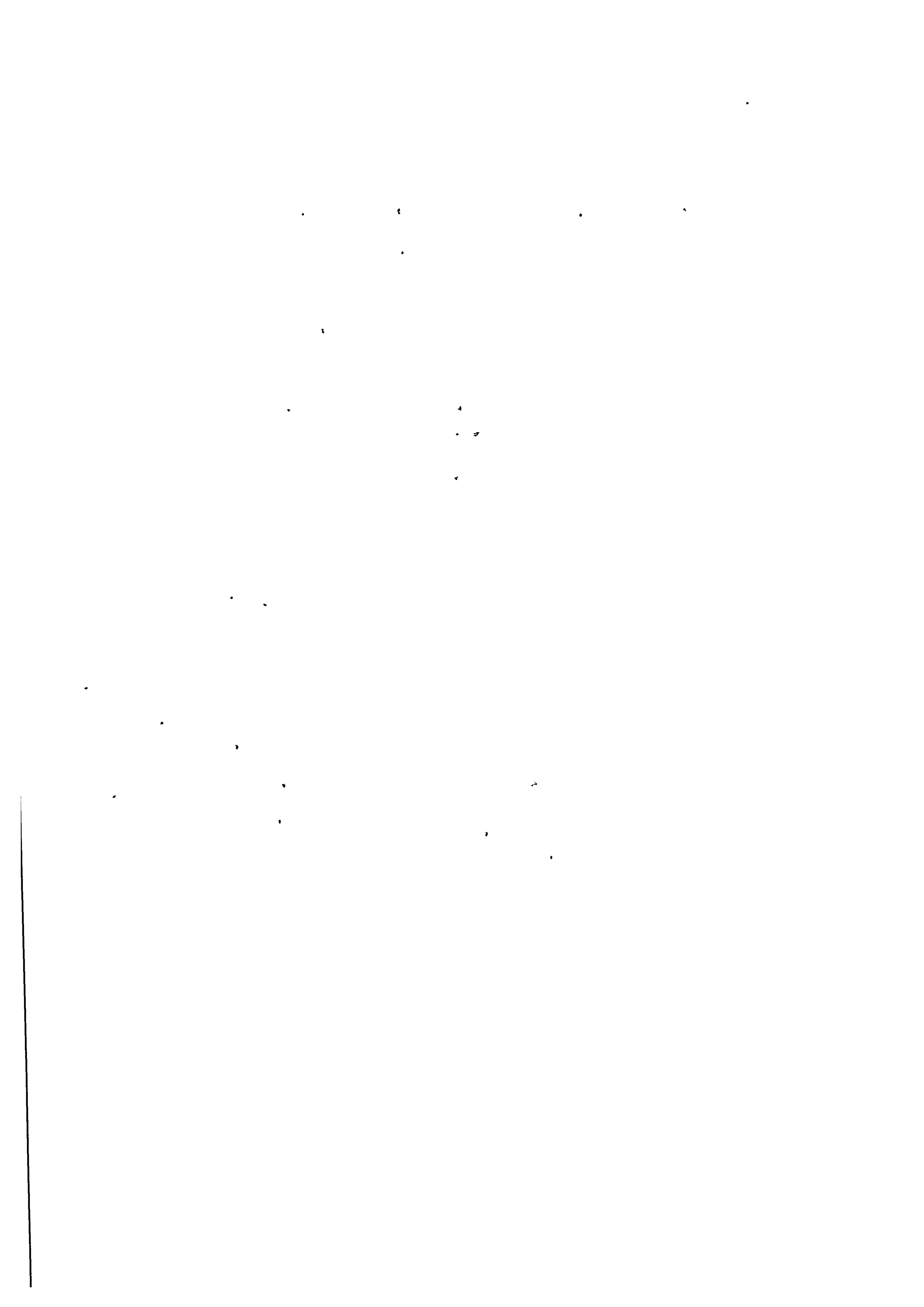
ان الحفاظ على هذه الأوهام يمكن أن يقدم خدمة إلى اولئك الديماغوجيين الذين يسعون، بصورة خاصة، إلى الحصول على نجاح سهل لدى المستمعين إليهم. أما اولئك الذين يدركون خطورة التهديد الذي يثقل كاهل الانسانية، ويبذلون الجهد ليتفهموا

ظاهرة الحرب من اجل السيطرة عليها، فمن واجبهم ان يفضحوا الحلول الوهمية التي سمحت، منذ قرون، بتجدد الجرائم الجماعية.

اننا نعتقد بأنه آن الأوان للبدء باكتشاف الاسباب العميقة للحرب. وليس هناك سوى وسيلة واحدة تحقق لنا ذلك: وهي دراسة هذه الظاهرة الاجتماعية دراسة علمية، بغية فهم آليتها، مما يساعدنا على تغيير مجراها، ان لم نستطع السيطرة عليها. فالطب لم يبدأ بالتقدم إلا حين قام رجال شجعان بتشريح الجثث من اجل دراسة علم التشريح. وعندما تخلى الانسان عن السحر، والصلوات، والابتهالات، استطاع ان يتغلب على الأوبئة. وليس هناك انسان قط لديه معرفة حدسية بالظواهر الطبيعية والاجتماعية. ولكي نفهم هذه الظواهر، لا بد من دراستها في بادىء الأمر.

وكما أنه لا يوجد انسان يعرف ماهية الحياة، لسبب بسيط هو أنه ما يزال حياً، كذلك لا يوجد انسان يعرف ماهية الحرب، حتى لو كان قد اشترك فيها، أو عانى منها.

ان الفضل الكبير للأستاذ غاستون بوتول، هو أنه أسّس علم اجتماع الحرب، وهو فرع جديد من علم الاجتماع، اختصاصه «دراسة الحروب دراسة موضوعية وعلمية، على اعتبارها ظاهرة إجتماعية قابلة للملاحظة كبقية الظواهر...». وتشكل مؤلفاته ودراساته، حسب رأينا، قاعدة صلبة للبحوث العلمية ذات المجالات المتعددة، التي تستطيع وحدها أن تقودنا الى المعرفة المعمقة بالظاهرة التي تهدد بقاء النوع البشري. وقد استطاعت مؤلفات بوتول ان تخلق في اوروبا حركة بحوث هامة يمكن، في رأينا، أن تقدم للانسانية آمالاً صادقة.



الباب الثالث

الآمال الصادقة

١ـ الجذور البيولوجية للحرب.

٢ـالعدوانية والحرب.

٣ـالعدوانية الجماعية والحرب.

الفصل الأول

الجذور البيولوجية للحرب.

٣٠- الصراع بين الحيوانات:

يقتصر الصراع بين الحيوانات، بصورة عامة، على قتال فردي. وهنا يجب التفريق بين الصيد (وهو صراع بين حيوانات من انواع مختلفة، وينتهي بأن تتغذّى بعض الانواع بالانواع الأخرى)، والقتال بين حيوانين من نوع واحد (كأن يتخاصم ذكران على مكان) والصراع الجماعي بين حيوانات من نوع واحد، وهو اشبه ما يكون بالحرب التي تقع بين بني البشر.

وفي الصيد، لا تُظهر الحيوانات أية علامة من علامات الغضب، حالها في ذلك حال الصياد الذي يطلق النار على ارنب، وذلك لأن عدوانيتها ليست عداوة. وقد وصف كونراد لورينز بعض الصور التي التقطت في اللحظة الحاسمة التي انقضت فيها اسود على فرائسها:

«في الصيد، لا تزمجر الحيوانات أمام فرائسها، ولا تخفض آذانها (أي إنها لا تقوم بالحركات العدوانية التي تميز السلوك المقاتل، وهذا يعني انها صممت مسبقاً على ان لا تفعل ذلك) إلا اذا كانت جد خائفة من ان فريستها قادرة على الدفاع عن نفسها»[١٥٠].

ولنؤجل الآن البحث في الخوف، لأننا سنعود اليه فيما بعد.

---

(١٥٠) كونراد لورينز «العدوان- التاريخ الطبيعي للشر»، نشر فلاماريون، ١٩٦٩، ص ٣٥.

تتصارع الحيوانات من النوع الواحد، بصورة عامة، من اجل[١٥١]:

- تثبيت سلطتها في مرتبة اجتماعية.
- تأمين حقوقها الاقليمية في منطقة معيّنة.

يمكن ان يكون هناك نوع من الحيوانات ذو مراتب اجتماعية ولا يملك إقليمًا محدداً، ونوع آخر يتمسك باقليم ولا يعرف المراتب الاجتماعية، ونوع ثالث يتمسك باقليم وذو مراتب اجتماعية في اقليمه. وإلى هذا النوع الأخير تنتسب الحيوانات الثديية. ويتبين من هذا أن هناك أساسين لعدوانية الحيوانات:

- الترتيب الاجتماعي (السيطرة).
- الاقليم.

ويوجد الترتيب الاجتماعي الدقيق عند معظم القرود والغوريلا، إذ يستطيع الذكر القوي أن يقود المجموعة، وتأتي بعده سلسلة من الدرجات التابعة. وعندما يصبح طاعناً في السن او جد ضعيف، يحل محله ذكر اصغر منه سناً وأقوى بنية. ويكون هذا الزعيم طاغية أو رؤوفاً، وذلك حسب طبيعة أخلاقه، ولكنه يظهر دائمًا سلطته حينما تدب الفوضى التي تشق صفوف الضعفاء في المجموعة.

وقد اكتشف العالم النرويجي ت. شيلديروب- إيبيه أنه يوجد في المدجنة بين الدجاج ترتيب محدد اسماه «ترتيب ضربات المنقار».

«يوجد بين مجموعة الدجاج ترتيب له بداية ونهاية. فكل دجاجة لها الحق بأن تنقر الدجاجات التي هي دونها في المرتبة، وليس لهذه أن ترد على النقرة بنقرة مماثلة. وينتج عن ذلك أن الدجاجة الأعلى في سلم الترتيب لها الحق في ان تنقر جميع الدجاجات، وليس لأية دجاجة أن تزد عليها بالمثل. اما الدجاجة الأخيرة في سلم الترتيب فان عليها أن تتحمل نقرات جميع الدجاجات، دون أن تستطيع نقر أية دجاجة منها»[١٥٢].

وكما يوجد ترتيب للنقر عند الدجاج، يوجد ايضاً ترتيب للنطح عند البقر في القطيع

---

(١٥١) «القرد العاري»، المرجع ذاته، ص ١٦٣ وما بعدها.

(١٥٢) روبير آردري «القانون الطبيعي» نشر ستوك، ١٩٧١، ص ١٢٨ وما بعدها.

الواحد. وتبدأ المعركة حينما يثور احد أفراد القطيع ويحاول تحسين وضعه في سلم الترتيب. ويحدث الشيء ذاته حينما تجازف بعض الثيران فتدخل ارضاً لا تخصها.

ماذا يحدث حينما يتلاقى الخصوم من الحيوانات؟ لا شك في ان عدوانية هذه الحيوانات، الممتزجة بالشعور بالعداوة، تستيقظ «وتحدث بعض التغيرات النفسانية الأساسية في داخل اجسامها. وتستعد الآلة بجميع اجهزتها للعمل بواسطة الجهاز العصبي المستقل. ويتضمن هذا جهازين فرعيين متقابلين ويوازن احدهما الآخر، وهما: العصب الودي، والعصب نظير الودي. ويختص الأول باعداد الجسم للفعل العنيف. ويختص الثاني بالحفاظ على احتياطيات الجسم وتجديدها. يقول الأول: «انت جاهز للعمل، ابداً». ويقول الثاني: «اعمل بهدوء، أرِحْ نفسك، واقتصد بقواك». ويستمع الجسم، في الاحوال العادية، الى هذين الصوتين، ويحتفظ بينهما بتوازن سعيد. ولكن عندما يستيقظ شعور عنيف بالعدوانية، فان الجسم لا يصغي إلا للعصب الودي، الذي ما إن يتحرك، حتى تأخذ مادة الكُظرين (ادرينالين) بالتدفق إلى الدم، فتتأثر الدورة الدموية بذلك تأثراً عميقاً، ويأخذ القلب بالخفقان بسرعة شديدة، وينتقل الدم من الجلد والأحشاء إلى العضلات والدماغ، ويحدث ارتفاع في ضغط الدم، ويزداد تواتر انتاج الكريات الحمراء، وتنشط الحركة التنفسية، ويزداد الزفير سرعة وعمقاً، وينتفش الوبر ويغزر العرق.

ان جميع هذه التغيرات تساعد الحيوان على الاستعداد للمعركة. وبفعل ساحر، يختفي التعب فوراً، وتتجمع كميات هائلة من الطاقة لتوظف من اجل القتال المنتظر سعياً وراء الحفاظ على البقاء...»[١٥٣].

وحينما يصبح الحيوان جاهزاً للقتال، تتجاذبه قوتان هما: الخوف والعدوانية. وتقوم بين هاتين القوتين علاقات جد وثيقة، اذ انهما متفرعتان من غريزة القتال[١٥٤].

وقبل ان يبدأ الحيوان بالهجوم، يسعى إلى أن يكبح ردود الفعل الدفاعي عند خصمه، بان يتخذ وضعية مرعبة. فالقطة التي تفاجأ بكلب، تنفش شعرها، وتنخر،

---

(١٥٣) «القرد العاري»، المرجع ذاته، ص ١٦٦ وما بعدها.

(١٥٤) انظر دراستنا عن «القلق، والخوف، والحرب» في «السلام بواسطة البحث العلمي».

وتكشر عن انيابها. وتلاحظ المظاهر نفسها عند الكلب.

وهكذا نجد انفسنا أمام ظاهرة تكيف شبه عام، فهناك قليل من الحيوانات لا يتبدل مظهرها الخارجي ولا وضعيتها بسبب الخوف. والحيوان المهدَّد إما أن يتخذ وضعية تسمح له بالاختفاء عن نظر عدوه، كأن يحافظ على سكون كلي، وإما ان يتخذ وضعية مرعبة تثبط عزيمة العدو. فالحالة الأولى تسمى تكيفاً دفاعياً، والثانية تكيفاً إرعابياً.

وكثيراً ما يحدث ان يكون التهديد والتهديد المضاد كافيين ليدفعا بالخصوم إلى الذهاب كل في حال سبيله. ولكن الامور لا تجري دائماً بهذا الشكل، اذ يحدث ان يقع الخصمان تحت تأثير قوة التهديد والارعاب المتبادلة، فيهجم احدهما على الآخر، ويبدأ القتال. ويمكننا القول، بتعبير آخر، ان ردع الهجوم يفشل (وهذا درس يجب ان نحفظه).

واذا ما تقاتلت حيوانات من نوع واحد، فنادراً ما يقتل بعضها بعضاً. ولا تسعى الحيوانات إلى قتل خصومها، وانما تسعى الى إخضاعها. وحتى تلك الحيوانات التي تملك اسلحة طبيعية وقوية، والتي تعتبر، الى حد ما، تكنيكيةً في القتل، تمسك نفسها اثناء القتال مع حيوانات من بني جنسها، وذلك بفضل «ميكانيكية جسمانية خاصة بالسلوك، مهمتها كبح الحركة العدوانية المدمرة»[١٥٥].

ويرى كونراد لورينز ان الحيوانات الأكثر دموية، كالثعلب مثلاً، هي بالضبط «تلك الحيوانات المزودة بمكابح مضادة للقتل، لا مثيل لدقتها في العالم»[١٥٦]. وبالاضافة إلى المكابح المضادة للقتل، تقوم الحيوانات المقاتلة باداء بعض الحركات او الاشارات التي تشير بها الى خصومها بانها لم تعد ترغب في متابعة القتال. وهذه الحركات الدالة على الخضوع او التهدئة تسمح بالتعبير عن أن المغلوب قبل الهزيمة، مما يؤثر على تهدئة عدوانية الغالب، لان خصمه لم يعد قط يشكل عليه خطراً.

وتظهر حركات التهدئة بشكلين، فاما ان يكتفي الحيوان بالجمود والسكون الكاملين، واما أن يتخذ وضعية معاكسة للوضعية الدالة على الاستعداد للهجوم، أو أن

(١٥٥) انظر لورينز، «العدوان»، المرجع ذاته، ص ١٢٧، موريس، «القرد العاري»، المرجع ذاته، ص ١٧٤.

(١٥٦) «العدوان»، المرجع ذاته، ص ١٤٣.

يعرض، إلى جانب ذلك، جزءاً ضعيفاً من جسمه للخطر. فالشمبانزي، مثلاً «يمد يده بحركة خضوع، معرِّضاً اياها بذلك إلى العضّ»[١٥٧]. أما الذئب فانه يدير رأسه، أي إنه يدير سلاحه، وبهذه الطريقة، يعرِّض لخصمه المكان المنتفخ الأكثر ضعفاً في عنقه. وهكذا يقبل المنتصر حركة انقاذ خصمه من الموت، بعد أنْ وجَّه إليه ضربة غلبته معنوياً «بفم مغلق، دون أن يعضّه»[١٥٨].

ان سلوك الحيوان الخاسر لا يشبه مطلقاً سلوك الانسان الذي يغلبه إنسانٌ آخر. فالحيوان، بعد أن يُغلب، يتقبل الهزيمة، ويعبر عن ذلك للمنتصر، ولا يفكر في الثأر. وحينذاك يهمل الغالبُ المغلوبَ، ولا يعيره اهتماماً.

ولا يحدث القتل العنيف بين الحيوانات، إلا بين حيوانات من انواع مختلفة، وإلا لكانت الانواع الحيوانية الاكثر عداوة، والتي تملك اسلحة طبيعية اقوى من اسلحة الانواع الحيوانية الاخرى، قد تعرضت إلى أن تقضي على نفسها منذ زمن بعيد.

والدافع الذي يكمن وراء السلوك العنيف لحيوان ما حيال بني جنسه، غالباً ما يكون قضاء حاجة اساسية، مثل: الحصول على الغذاء، أو الحاجة الجنسية، أو الحماية الفردية، أو حماية الاقليم. والصراع دائماً صراع فردي، أي بين أفراد من الجنس الواحد، وليس بين مجموعة ومجموعة أخرى. أما الحرب على شاكلة ما يفعله الناس، فلا توجد، من الناحية العملية، إلا عند الحشرات الاجتماعية (النمل، النحل، دود الخشب).

وقد ذكر لوتورنو، بالاستناد إلى مؤلفات هوبر[١٥٩]، ان النمل تتقاتل فيما بينها على أساس مجموعة ضد مجموعة أو مجموعات أخرى، وانها تنظم الكمائن، وترسل الطلائع لتبدأ القتال، وتبعث هذه الطلائع الرسل إلى بني قومها حاملة المعلومات وطالبة النجدات. وبعد ذلك تصبح المعركة عامة شاملة. وتخلي المجموعة المُحاصَرَة ما لديها من احتياطي التموين ومن صغار المواليد، ويعني هذا الأمل في بقاء الجنس. وحينما يدخل

---

(١٥٧) «القرد العاري»، المرجع ذاته، ص ١٧٥.

(١٥٨) «العدوان»، المرجع ذاته، ص ١٤٧.

(١٥٩) ب. هوبر «النمل المحلي».

المهاجمون مدينة خصومهم، ينتشر الذعر لفترة وجيزة، ثم تنهار المقاومة فجأة. وتناضل بعض نملات المجموعة المحاصَرَة قتالاً بطولياً وتضحي بحياتها من اجل أن توفر الفرصة لمجموعتها لانقاذ صغارها. ويبدأ بعد ذلك النهب والسلب. وكثيراً ما ينام المنتصرون في المدينة التي احتلوها حتى يتمكنوا من جمع ما فيها من مؤن غذائية.

ويحدث مشهد مماثل عند النحل أو عند دود الخشب.

وقد ابدى غاستون بوتول[١٦٠] بهذا الشأن بضع ملاحظات تبدو لنا هامة:

أ)-الحشرات الاجتماعية هي الحيوانات الوحيدة التي تقوم بنشاط اقتصادي جدير بهذا الاسم. فاعضاء المجتمع في هذا النوع تمارس «تقسيم العمل»، وتجمع المواد الأولية، وتنقلها من مكان الى آخر، ولديها منابت للفطر، وتعرف تكنيك التخمير. وبينما لا تملك الحيوانات الأخرى سوى لحمها الخاص لتقدمه، تملك الحشرات الاجتماعية من الاحتياطيات الغذائية، ملكية جماعية.

ب)-إن الاشتباكات بين الحشرات الاجتماعية هي معارك حقيقية، مخطط لها، تتضمن عمليات استطلاع، وتجسس، وهجوممفاجىء. ولأن هذه العمليات مخططة، فانها، حكماً، منسقة. وهذا يعني وجود سلسلة من القيادات ذات سلم بالمراتب والانساق المتتابعة، مقبولة من قبل الجميع.

والخلاصة التي تستنتج من ذلك كله جد هامة وهي: أن الحرب عند الحيوانات لا توجد إلا حيث تلتقي معاً، وفي وقت واحد، الظواهر الثلاث التالية:

١) سلم للمراتب.
٢) العمل المنظم.
٣) المُلْكية.

وهناك نقطة تستحق الاشارة إليها، وهي: ان الغريب بالنسبة للحيوانات، أي ذلك الفرد الذي ينتسب إلى النوع نفسه ولكنه ليس عضواً في مجموعة معينة، يعتبر عدواً يجب القضاء عليه. ويضرب كونراد لورينز مثلاً على ذلك بالفئران. فالرائحة هي الوسيلة

---

(١٦٠) «الحروب»، المرجع ذاته، ص ١١٦ وما بعدها.

التي تستطيع بواسطتها الفئران والجرذان بمختلف انواعها، وكذلك الحشرات الاجتماعية، ان يتعرف بعضها على بعض.

«يختصم افراد الاسرة الراقية من الحيوانات اختصاماً جدياً في حالة واحدة، وهي حالة هامة وذات مغزى من نواح عدة، ويكون ذلك حين يدخل فأر غريب على الاسرة، فتثور عدوانية خاصة داخل الأسرة. ان ما تفعله الفئران عندما يضل فأر من اسرة أخرى طريقه ويدخل في حقلها- أو حينما يضعه فيه الانسان الذي يقوم بتجربة- يتجاوز في الرعب كل ما يمكن تصوره، لأنه اكثر الاشياء التي يمكن ملاحظتها عند الحيوان كرهاً واشمئزازاً. ويصدف احياناً ان يقوم الفأر الغريب بنزهة لعدة دقائق أو اكثر دون أن يرتاب في المصير الاسود الذي يُعدُّ له. فالفئران المقيمة في الجحر تستمر في اعمالها العادية حتى اذا اقترب الفأر الغريب من احدها اقتراباً كافياً ليشم رائحته، سرت في ذلك الفأر هزة كهربائية، انتقلت بطريقة اتصال خاصة إلى جميع فئران الجحر، وانذرتها، ويتم ذلك عند الجرذان بواسطة حركات تعبيرية، أما فأر المدينة فانه يصرخ بنغمة ثاقبة شيطانية، ترددها فئران القبيلة التي تسمعه. وحينذاك، تجحظ العيون من التهيج حتى تكاد تخرج من محاجرها، وينتفش الوبر، وتبدأ الفئران بمطاردة بعضها بعضاً. انه لمنظر مرعب حينما يتلاقى فأران فيعض احدهما الآخر عضاً شديداً لا رحمة فيه. وتستمر الفئران في التقاتل مدة تتراوح بين ٣ و٥ ثوانٍ، ثم يأخذ بعضها يشم بعضها الآخر بعمق، وقد مدت اعناقها، ثم تفترق بسلام. وتكون جميع فئران المجموعة، يوم مطاردة الفئران الاجنبية في حالة تهيج واضح، وقد فقد كل منها الثقة في الآخر.

«وما يمكن ان يحدث ايضاً (لفأر اجنبي عن القبيلة) هو أن يموت من صدمة الخوف، وقد لاحظ ذلك س.آ. بارنيت في بعض الحالات. واذا لم يمت من ذلك فان بني جنسه سيمزقونه بهدوء.

«من النادر ان يُقرأ التعبير الواضح لدى الحيوان عن اليأس، والخوف الصاعق، والتأكد من الموت المرعب والحتمي، في الوقت ذاته، بمثل ما يُقرأ عند فأر حكمت عليه الفئران الأخرى بالموت، اذ يبلغ به الأمر حد عدم دفاعه عن نفسه. وسلوكه هذا يختلف كل الاختلاف عن سلوكه الذي يظهره أمام تهديد وحش مفترس يحشره في زاوية لا مفر له

منها، اذ انه يدافع عن نفسه حينذاك ضد العدو المفترس، مستخدماً أحسن طريقة للدفاع، وهي الهجوم. . . »[١٦١].

يمكننا أن نستخلص مما ذكرناه: إن الغريب، لدى بعض الحيوانات التي تعيش ضمن مجتمعات، يعتبر عدواً، ويُقاتلُ بشراسة، فور أن يثبت لدى تلك الحيوانات انه غريب.

وخلال السنوات العشر الماضية، لفت بعض الباحثين[١٦٢]، في مطبوعات مختلفة واسعة الانتشار، الانظار إلى اهمية «مفهوم الإقليم» بالنسبة للحيوانات. وقد شُده جميعهم بحقيقة أن الحيوان يدافع بشجاعة وفعالية اكثر كلما ازداد قربه من مركز المكان الذي يقيم فيه[١٦٣]. ويرتبط ذلك بردة فعل حيوانية شبه شاملة وملحوظة لدى جميع الانواع الحية. والواقع الذي يثبت أن ملكية المكان تعيد إلى مالكها الحيوية هو واقع ملحوظ ولا يمكن دحضه. والنزعة التي تدفع الحيوانات الى امتلاك بقعة برية، أو مائية، او جوية، هي، كما يقول آردري، نزعة غريزية. وهناك حيوانات كثيرة تحدد بقعتها بعلامات مادية. فالحيوانات الثديية تستعمل، غالباً، الغائط أو البول، لتحدد برائحته الحدود التي لا يجوز للغير أن يتجاوزها. وما يقوم به فرس النهر حين يبعثر روثه على نحو عشرة أمتار مربعة من الشاطىء بتحريك ذنبه أثناء التغوط، معروف[١٦٤].

وللطيور والأسماك ايضاً أقاليمها، وتطرد منها الغرباء عنها اذا كان هؤلاء من بني جنسها، بينما يحدث احياناً ان تقبل غرباء من غير هؤلاء، وبخاصة اذا كانوا لا يمثلون خطراً في المنافسة، كأن يكون غذاؤهم مختلفاً عن غذائها.

ويرى آردري[١٦٥] ان هناك ثلاث ضرورات نفسانية للحياة هي اساس السلوك

---

(١٦١) «العدوان»، المرجع ذاته، ص ١٧٧ وما بعدها.

(١٦٢) روبير آردري، «الاقليم»، منشورات ستوك، ١٩٦٦، وفيه اورد آردري تحليلاً مفصلاً لمفهوم الاقليم.

(١٦٣) انظر مجلة «بريد اليونسكو»، عدد آب- ايلول ١٩٧٠، «الانسان قاتل للطبيعة، وليس قاتلاً بالطبيعة» مقالة للاستاذ الالماني بول ليهاوزن «النتائج الحتمية لتضخم السكان».

(١٦٤) آردري، «الاقليم»، المرجع ذاته، ص ١٣٦.

(١٦٥) «الاقليم»، ص ٢٦٤ وما بعدها.

الحيواني والانساني، وهي:

١)-الحاجة إلى تحديد الذات (ضد المجهول).

٢)-الحاجة إلى التحريض (ضد العدو).

٣)-الحاجة إلى الأمن (ضد الخوف).

وتختلف القوة النسبية لهذه الحاجات الأساسية ما بين نوع وآخر من الكائنات الحية. فحاجة الفريسة، او الانثى، أو المجتمع غير المستقر، إلى الأمن، اشد من حاجة الصياد، أو الذكر أو المجتمع المستقر، إليه. وفي جميع الأحوال، فان الأمر يتعلق بحاجة غريزية قليلاً ما تُشبع.

ويوجد بين هذه الضرورات الأساسية الثلاث ترتيب بين قيمها. فالحاجة إلى تحديد الذات لدى بعض الانواع اشد من الحاجة إلى التحريض، بينما يُضحي، بصورة عامة، بالحاجة إلى الأمن في سبيل الحاجتين الأخريين. فالسعادين، مثلاً، تُشبع حاجاتها الغريزية إلى تحديد الذات، والتحريض، والأمن، بواسطة سلوكها إزاء الخطر.

«لا يمكن الشعور بالتهديد إلا لفترة وجيزة يتم خلالها تحديد هوية الغريب، ولا يمكن الشعور بالخوف ايضاً طالما ان مسؤولية مواجهة الخطر تقع على عاتق كل واحد بمثل ما تقع على عاتق الجميع...»[١٦٦].

ووسائل تلبية حاجة تحديد الذات متنوعة، فسُلَّم المراتب المحدد بوضوح يكفي لتلبية هذه الحاجة: فالدجاجة تعرف لمن توجه نقراتها، وممن تتلقى النقرات. وسلم المراتب ذاته يقدم وسائل جيدة لتحديد الذات، فكل نسق فيه يعني مكاناً محدداً لطبقة او لفئة محددة. ومع ذلك، فهناك وسائل عديدة أخرى للحصول على تحديد للذات.

وتوجد هناك علاقة بين النوع وبين الحيوانات، تؤدي إلى نتائج خطيرة في حال تزايد عدد الحيوانات. فالاقليم الذي يشغله نوع حيواني معين، لا يمكن ان يستوعب إلا عدداً محدداً من أفراد ذلك النوع. فاذا ما تجاوز العدو ذلك الحد، يلاحظ ان أحداث فوضى

---

(١٦٦) اردري، «القانون الطبيعي»، المرجع ذاته، ص ١٩٥.

عنيفة تقع في المجموعة. ومن المؤكد ايضاً أن بعض الانواع تملك جهازية (ميكانيزم) للتحكم بالولادات، اذ تضعف الخصوبة أو تختفي لدى بعض الحيوانات عندما يصبح الاقليم الذي تشغله غير كافٍ بمساحته، أو لا تعود المواد الغذائية فيه كافية، اي عندما تُجبر الأقاليم الجيدة سكانها الذين فاض عددهم عن الحد المطلوب على الاقتناع وقبول أقاليم «غير مكتملة» الشروط[١٦٧].

وحالة حيوان اللاموس (وهو من فصيلة الفأريات) معروفة، وان لم تكن مفسَّرة حتى الآن. اذ ان هذا الحيوان يبلغ، ما بين فترة وأخرى، حداً من الكثافة السكانية جد مرتفع، إذ أنه كثير التناسل. ويحدث أن تجتمع عناصر هذا الحيوان، وتسير على شكل ارتال متراصة، لا تقف في وجهها عقبة، وتتجه نحو البحر لتغرق نفسها فيه. والعناصر القليلة التي تبقى بعد هذه الهجرات المميتة، تقيم على البر من جديد، وتبقى مذعورة، فتتوالد، حتى اذا تكاثرت تجمعت من جديد وسارت نحو الموت.

وتوجد عند القواضم الصغيرة (كالجرذان والفئران) جهازيات جسمانية تنظم شؤون التوالد والتكاثر. فعندما يكوّم بعض هذه الحيوانات في الاقفاص، يلاحظ عليها ظهور آثار جسمانية جديدة، وبخاصة ضمور الاعضاء التناسلية للذكور والإناث[١٦٨]. ويزداد عدد الاجهاضات، وينقص عدد الحاملات، ويموت الصغار في سن مبكرة. وحينما يكثر عدد الحيوانات، تزداد الصراعات بين الذكور.

ويقدم آردري في كتابه «القانون الطبيعي» تقريراً عن تجربة اجراها كالهون في معهد الصحة العقلية في واشنطن، جاء فيه:

«اقام كالهون اربعة حواجز متصل بعضها ببعض. ولم يكن للحاجزين الأول والأخير سوى مدخل واحد تمكن حراسته من قبل فأر ذكر. أما الحاجزان الأوسطان فقد زود كل منهما بمخرجين لا تمكن حراستهما، وبذلك اصبح الحاجزان الأوسطان مرتعاً لنشاط اجتماعي حر. وكلما زاد عدد الفئران الموجودة داخل الحاجزين، كلما اصبح هذا النشاط جد محموم.

---

(١٦٧) انظر «البيولوجيا» المجلد الثاني، قواميس المعرفة الحديثة، نشر دينوئيل، باريز ١٩٧٠، ص ٤١٢ وما بعدها.
(١٦٨) انظر «البيولوجيا»، المجلد الثاني، المرجع ذاته، ص ٤١٣.

وكان كل حاجز مزوداً بالمواد الغذائية الكافية، والماء، والمواد اللازمة لبناء الأعشاش والأوكار الصناعية لاستقبال الفأرات الحاملات. وكان كل حاجز واسعاً بشكل يحقق الراحة لمجموعة مؤلفة من اثني عشر فأراً، وهو العدد العادي لمجموعة سكانية طبيعية. وعندما يبدأ عدد الفئران بالتضاعف، فان كل ما كان من قبل يبدو عادياً ومألوفاً يختفي.

في بدء التجربة، تأخذ الفئران الذكور، كالعادة، بالتقاتل فيما بينها، ليثبت كل منها وجوده. والذكران الأقوى من الجميع يمتلك كل منهما حاجزاً من الحاجزين ذوي المدخل الواحد، ويقيم جانب المدخل ليسيطر على النظام داخل حاجزه. أما الفئران الاناث في الحاجزين فتقيم أعشاشها دون أن يزعجها شيء. أما الزعيمان فيناماني قرب المدخل، ولا يعيران أي اهتمام لذهاب وإياب اناثهما، غير انه اذا ظهر فأر ذكر، فانهما يتوثقان من هويته، ولا يسمحان له بالدخول إلا اذا قبل الخضوع. وغالباً ما تنام الذكور الادنى مرتبة في حاجزي الزعيمين، ولكنها لا تُشغل بالاناث ولا تحاول الزواج بها. وبصورة عامة، تقوم الأناث الأمهات بدورها. وإذا كان النظام سائداً في الحاجزين الأوسطين، فان فوضى حقيقية تدب في الحاجزين الآخرين. اذ توجد طبقة من الذكور المسيطرة دون أن يكون لها اقليم، لذا فكثيراً ما كانت المعارك تنشب بينها، ويتغير سلم المراتب حسب الانتصارات والهزائم. وإلى جانب ذلك توجد ايضاً طبقة متوسطة، تكون غالباً موضع هجوم الذكور المسيطرة، ولكنها نادراً ما تكون راغبة في الثأر والانتقام. وللذكور نشاط جنسي، ولكن يبدو انها لا تستطيع التمييز بين الأنثى القابلة والانثى الرافضة، بل بين الانثى الصغيرة والانثى الناضجة. وهناك، أخيراً، طبقة الفئران الذيلية، وتتألف، كما يقول كالهون، من تلك الفئران «التي تسير في نومها»، فهي لا تعرف الآخرين، ويجهلها الجميع. وغالباً ما تكون فئران هذه الطبقة الأكثر سمناً، والأحلى وبراً. وهي لا تشترك في المعارك. انها تبقى خارج المجموعة، فهي من سقط متاعها.

وحتى الآن، يبدو أن مثل هذه البنية المراتبية في مجموعة سكانية أمر عادي. ولكن عندما يزداد عدد أفراد المجموعة، تبرز الى الوجود طبقة جديدة، فئرانها كانت تابعة ولكنها كانت نشيطة. واصبحت تشكل مجموعة تتميز بأنها «اجرامية». وغالباً ما تتحرك على شكل عصابات. واذا ما هاجمها من هو اعلى منها مرتبة، فانها لا تقاومه، ولكنها لا تستسلم أبداً.

وهي لا تشترك في معارك إثبات الوجود، ولكنها تمثل الذكور الأكثر نشاطاً في المستعمرة. ولها نشاط جنيسي قوي، وتتعاطى ايضاً الشذوذ الجنسي، وهي جد متوحشة. ومما يدعو إلى الدهشة، هو خضوعها للاغتصاب، والفأر العادي، مثله في ذلك مثل السمك ذي الشوك، ذو طقوس محددة في الحب، فاذا ما تبع ذكر أنثى حتى جحرها، فانه ينتظرها عند المدخل، حتى تخرج وتقبل دخوله، دون أن تصبح بذلك ملكاً له. أما الفئران التي نتحدث عنها، فانها تحتقر تلك الطقوس، وتدخل الجحور عنوة، وتدوس الصغار بأقدامها وتقتلها، وتأكل لحمها احياناً بعد ان تكون اشبعت شهوتها الجنسية.

وتقلب هذه الفوضى في الحاجزين الاوسطين حياة الأناث اكثر من حياة الذكور. اذ تتخلى الفئران الاناث عن إعداد الأعشاش، وتصبح الصغار بلا راعٍ وعرضة للافتراس. وتبلغ نسبة الوفيات بين الصغار في الحواجز المحمية ٥٠٪، بينما ترتفع في الحواجز الأخرى إلى ٩٦٪. وتموت نصف الاناث بسبب الحمل او بعد اعتداءات جنسية عليها.

وتثير تجربة كالهون، بكل ما فيها من رعب من وجهة النظر الانسانية، تعليقات عديدة. وأحد المظاهر ذات المغزى الذي يكاد لا يبين، هو ان الفئران كانت تحب الفوضى في الحاجزين الأوسطين، وأن الاناث بدت وكأنها غير قادرة على مقاومة التحريض الاجتماعي الذي كان يسيطر عليها. وكانت اناث الحريم المحميات، اذا ما تحركت فيها الغريزة الجنسية، تلجأ الى أمكنة الدعارة، دون أن يمنعها حكامها وسادتها عن ذلك. ولم يكن سلوكها هذا يختلف عن سلوك الفئران الاناث الأخرى. وكان السلم والنظام في الحاجزين المحميين يوفران الأمن لصغارها. اما اذا رفض الفئران الزعماء ان يتركوا الاناث تفعل ذلك، فان ٣٠٪ فقط من الاناث تقاوم فتنة المجموع»[١٦٩].

ويتضمن وصف تجربة كالهون، التي عرضها آردري، مجموعة من الدروس. ولا نريد الآن أن نخلص إلى نتائج، سوى أننا نود ان نشير إلى ان هذه التجربة تجسد ما كان غاستون بوتول دعاه «مُركَّب الزحمة»[١٧٠].

---

(١٦٩) «القانون الطبيعي»، المرجع ذاته، ص ٢٥٠ وما بعدها.

(١٧٠) «قتل الأطفال المتنوع»، المرجع ذاته، ص ١٠٧ وما بعدها.

واذا ما اردنا ان نلخص ما ذكرناه، فاننا نستطيع ان نقول إن اسس العدوانية الحيوانية (تؤخذ هذه الكلمات على أن معناها العداوة) ذات انواع متعددة:

- الدفاع عن اقليم.
- الدفاع عن وضعية مراتبية، أو احتلال تلك الوضعية.
- كره الاجنبي.

وتسعى الحيوانات، بصورة عامة، إلى أن تسيطر على عدوها أكثر مما تسعى إلى موته. وتبذل جهدها، بواسطة غريزتها في التكيف الدفاعي أو الإرعابي، من اجل ردع خصمها عن الهجوم. ويبقى القتال محصوراً في المكان، وتحاول حركات التهدئة والخضوع ان تجنب الخصمين التقاتل حتى الموت. ولا يسعى الحيوان الخاسر إلى الثأر، بل على العكس من ذلك، يقبل بالهزيمة.

وتوجد الحرب عند الحشرات الاجتماعية، حيث يقوم سلم مراتبي اجتماعي ثابت بوضوح، وحيث يوجد عمل منظم ورأسمال جماعي، أما عند الحيوانات التي ليس لديها ما تقدمه سوى لحمها الخاص، فان الحرب غير موجودة.

هناك ثلاث ضرورات نفسانية للحياة هي أساس السلوك الحيواني، وهي:

- الحاجة إلى تحديد الذات.
- الحاجة إلى التحريض.
- الحاجة إلى الأمن.

وغالباً ما يضحى بالحاجة إلى الأمن في سبيل الحاجة الى تحديد الذات والحاجة إلى التحريض.

واخيراً، فان فيض السكان يؤدي الى الفوضى والعنف، غير أنه توجد جهازيات (ميكانيزم) منظمة للتكاثر. وتثبت تجربة كالهون أن الفئران، وبخاصة الاناث منها، تحب التهيج الاجتماعي، العنف، والفوضى، التي تنتج عن فيض السكان.

٣١- الحرب عند الشعوب البدائية:

لا يفرِّق الرجل البدائي بين الصيد والحرب، فهو يستعمل في كليهما الاسلحة ذاتها،

والتكتيكات نفسها، وحينما يكون اللحم الحيواني قليلاً، في بعض الحالات، فانه يأكل لحم ضحاياه. وكان أكل اللحم البشري، في المراحل المتقدمة من تطور الانسانية، سبباً للحرب ونتيجة لها[171]، في الوقت ذاته. فقد كان سبباً للحرب، لأن الجوع، او مجرد تذوق اللحم الانساني، يدفع جماعة معينة إلى ذبح جماعة أخرى لالتهام اعضائها. وقبل أن يبلغ التطور الاجتماعي حد استخدام الأسرى كمنتجين للمواد الغذائية، كان هؤلاء يُقتلون او يستعملون كمواد غذائية. وكان الجوع وعدم وجود تنظيم اجتماعي متقدم يجمع الأسرى ويُشَغِّلهم قد جعلا اكل اللحم البشري سبباً للحرب.

وينتج عن الحرب التي تنشب لأسباب أخرى غير سبب الجوع، ان يقدم المنتصرون على اكل الجرحى والقتلى والأسرى ايضاً، وذلك لأنه في مناخ تندر فيه المؤن، لا يستطيع المنتصر، بعد قتال، ان يفلت من يده فرصة اكل لحم طيب. حتى ان الأسرى كانوا يُسَمَّنون ليكونوا غذاءً دسماً فيما بعد.

لكن هناك عدة انواع من أكل اللحم البشري، عدد لوتورنو[172] اهمها:

«أكل اللحم البشري للحاجة، الأكل التذوقي، الأكل الديني. الأكل الأبوي (بدافع الشفقة على المولود أو المولودة)، وأخيراً الأكل القضائي، وهو أرقاها شكلاً...».

ويدعونا هذا التعداد إلى ابداء ملاحظة هامة وهي: ان الانسان لا يشعر بالسعادة في القتل من اجل الأكل، وان هناك عقائد دينية، أو سحرية، او قضائية، تؤثر في مغزى أعماله. وكما لاحظ إيريش فروم («الميل إلى التخريب- تشريح التخريبية الانسانية»، نشر روبير لافون. باريز ١٩٧٥، ص ٢٦):

«يختلف الانسان عن الحيوان بحقيقة أنه قاتل. فالانسان هو الوحيد في فصيلة الثدييات، الذي يقتل ويعذب ابناء جلدته دون اي سبب بيولوجي او اقتصادي، ويشعر بالرضى حين يفعل ذلك».

---

(١٧١) موريس دافي «الحرب في المجتمعات البدائية، دورها وتطورها»، بايو، باريز، ١٩٣١، ص ١٠٤ وما بعدها.

(١٧٢) انظر كتابه «علم الاجتماع حسب علم الأعراف»، نشر س، راينخالد، باريز، ١٨٨٤، ص ٢٠١.

وقد اعطت الذيانة والأخلاق، لدى بعض القبائل، أكل اللحم البشري صفة التقديس، بالاضافة إلى التبرير:

«هذه العادة المرعبة في نظر الأوروبيين الحديثين، كانت تبدو جد بسيطة في نظر النيوزيلانديين. فهم يرون أن اكلهم لحم اعدائهم القتلى الذين سيفعلون الشيء ذاته بهم- اي بالنيوزيلانديين- اذا كانوا منتصرين، هو أمر مشروع. وتختلط في هذا النوع من أكل اللحم البشري قواعد حقوقية وافكار دينيّة. واذا ما قتل احد رؤسائهم، فان الحق يوجب ان تقاسمه زوجته مصيره، فيسلمونها إلى المنتصرين الذين يقضون عليها. أما الجثث فقد تشوى على النار، ثم تُؤكل بخشوع، تحت رعاية وإشراف الكهنة ورجال الدين، الذين يبدأون حفلة الأكل بتذوق بعض قطع لحم الضحايا. وتلتهم، اول ما يلتهم، العين اليسرى للعدو المغلوب، لأن روح المتوفى تكمن في هذه العين. والذي يأكل هذه العين يتضاعف عمره. وقد قدست الديانة في نيوزيلاندا اكل اللحم البشري، كما قدست دائمًا النّزاعين إلى السيطرة من مختلف الأعراق. غير أن أكل اللحم البشري عند النيوزيلانديين، هو في الأساس حاجة إلى أكل اللحم...»(173).

وإلى جانب الأفكار الدينية، والاخلاقية، والقانونية التي تبرر وتقدس فعل أكل لحم العدو، يجدر أن نشير إلى الدور الذي يلعبه الحقد، أو الانتقام، أو الغرور في أكل اللحم البشري بعد قتال. اذ لا يكفي ان يغلب المقاتل عدوه حتى يتمتع بالنصر، وانما عليه أن يدمره تدميراً كاملاً في جسمه وروحه، وهذا افظع ما يمكن أن يحل بالمغلوب، وارفع مراتب الانتقام بالنسبة للغالب. وأكل لحم العدو هو إهانة له، وقضاء على روحه التي تسكن في زاوية من زوايا جسمه. وقد وَقر في ذهن الشعوب المجردة من المدنية، أن اكل اللحم البشري يدمر، في وقت واحد، الجسم والروح. ولهذا فان هذا الفعل يجعل النصر كلياً لأنه يدمر العدو تدميراً كلياً. ولنلاحظ عند هذه النقطة الدقيقة الفرق بين الانسان البدائي والحيوان، اذ ان الحيوان يكتفي بمجرد خضوع خصمه له.

وقد مضى وقت حتى اصبح الانسان ينتج غذاءه بنفسه، وذلك بفضل الزراعة

---

(173) لوتورنو، «علم الاجتماع»، المرجع ذاته، ص ٢٠٦ وما بعدها.

وتربية المواشي، واصبح بذلك اكل اللحم البشري بعد قتال يزداد ندرة شيئاً فشيئاً، ليفسح المجال للرق كطريقة اقتصادية لاستخدام اسرى الحرب.

وفي التحليل الأخير، تبرز الارض كمصدر منتج للأغذية الضرورية للحياة. وامتلاك ارض خصبة هو الشرط الأول لبقاء الجماعة. ولهذا كان الصراع حول الارض احد الأسباب الأساسية للحروب. وقد شاهدناه عند الحيوانات، ونشاهده عبر تاريخ الانسانية كله، وقد عاد للظهور في عصر الحروب الاستعمارية على شكل السعي لامتلاك المواد الأولية، كما ظهر ثانية ايضاً في نظرية «المجال الحيوي». وقد عرفت جميع الأقوام النزاعات بشأن الحدود، والمعارك من اجل الحصول على اراضٍ جديدة للصيد. «فقد انهمك سكان كاليفورنيا المنخفضة في حروب دموية بشأن الحدود المتنازع عليها. وكانت هذه الحروب تقع، بصورة عامة، في فصل الثمار والبذار. وكانت الحروب تنشب بين هنود الجنوب الغربي نتيجة النزاع على الملكية وحق استعمال المياه»[١٧٤].

ولكن الارض لا تعطي من ذاتها ما يريده الانسان منها، اذ يجب عليه أن يعمل فيها ويحصد ما تنتجه. ولا تُستهلك المواد التي تنتجها الارض فوراً، وانما تحفظ وتشكل رأسمال يغري بالعدوان عليه، حاله في ذلك حال رأس المال الموجود لدى الحشرات الاجتماعية. واذا ما ارادت جماعة بشرية ان تبقى على قيد الحياة، فيجب ان تكون قادرة على ان تفرض بالقوة احترام حقها في الملكية على الارض ومنتوجاتها، كما تفعل النحل والنمل تماماً. ومن المؤكد ان نهب احتياطي الأغذية اسهل واحب إلى النفس من نزع الاغذية من الارض عن طريق عمل صابر ومثابر، ومن هنا تأتي الرغبة في السرقة. والنهب بعد قتال موجود دائماً منذ زمن بعيد، ولكن قبائل كثيرة جعلت منه سبباً للحرب.

«. . . هناك حيث توجد الثروة، وبخاصة على شكل أملاك منقولة، يغتني المنتصر باستغلالها، وباستعباد المغلوبين، حتى ان كثيراً من القبائل تعيش، بكاملها، على هذه الطريقة. ولقد أصبح ينظر إلى النهب لصالح «جماعة خارجية» على أنه مصدر عادي تماماً لوسائل العيش، وهو مشروع حاله الزراعة وأي شكل آخر من أشكال

---

(١٧٤) دافي، المرجع ذاته، ص ١٢٦.

المعيشة . . . ويمارس هذا النوع من الحياة في البحر- القرصنة- بمثل ما يمارس على البر» .

«ان مفاهيم الغنم والانتقام من النهب هي من بين الاسباب الرئيسية التي دفعت بالناس إلى التقاتل. وهذا النوع من الحرب هو، من الناحية الواقعية، عالمي، شامل . . . »[١٧٥] .

ويتضمن العهد القديم مقاطع جد كثيرة تجسد ما ذكرناه . ولنذكر بعضها على سبيل المثال :

«نهب المنتصرون جميع ثروات سيدوم وجميع ما فيها من مؤن، ورحلوا . وخطفوا لوط، ابن اخ ابراهيم، وما له من املاك، وذهبوا»[١٧٦] .

«اسر ابناء اسرائيل نساء المديانيين واولادهم الصغار، وسرقوا ماشيتهم وجميع قطعانهم وثرواتهم، وحرقوا جميع المدن التي كانوا يسكنونها وجميع حظائرهم . واخذوا المواشي والغنائم والاشخاص والانعام . . . »[١٧٧] .

«وفي هذا الوقت نفسه، استولينا على جميع مدنها، وهدمنا كل مدينة، وجميع الرجال والنساء والأولاد الصغار . لم نترك حياً قط . ولم نأخذ لانفسنا كغنائم سوى الحيوانات الاهلية ومواشي المدن التي استولينا عليها»[١٧٨] .

اننا نجد هنا علاقة متبادلة تستحق أن ندرسها بعمق، وهي : العلاقات الموجودة بين الارض، ورأس المال، والعمل، والملكية، والنهب، والحرب . ولنقتصر الآن على ملاحظة أن القوى التي تدفع النمل والنحل إلى تنظيم حملات نهب، بصورة دورية، هي ذاتها التي تؤثر ايضاً في الجماعات البشرية البدائية . وهذه القوى، سواء كانت غريزية أو مكتسبة، أو بنت العادة، سوروثة أو مُلَقَّنة، هي، بالتأكيد، رأسية بشكل عميق في اللاشعور الفردي والجماعي .

ويمكننا القول، ان الجماعات البدائية، حالها في ذلك حال الحيوانات، سعت إلى

---

(١٧٥) دافي، المرجع ذاته، ص ١٢٩ وما بعدها.

(١٧٦) العهد القديم، الفصل ٢/١٤ .

(١٧٧) العهد القديم، الفصل ٣١/٩، ١٠، ١١ .

(١٧٨) الفصل ٣٤/٢، ٣٥ .

اشباع حاجتها إلى الأمن عن طريق امتلاكها ارضاً استثمرت خيراتها، سواء بالصيد فيها أو بجني ثمارها، أو بتربية الماشية فيها، أو بزراعتها. وكان تقسيم العمل بين الجنسين موجوداً، بالرغم من بدائيته: فالصيد والدفاع عن الارض كانا من اختصاص الرجل، والزراعة من شؤون المرأة. وبفضل العمل، أمكن تخزين احتياطي من المؤن، يشكل رأس مال يؤكد المنتجون بواسطته حقهم في الملكية، ويؤمن للجماعة امكان التمتع بالغذاء بشكل كاف يستطيعون بواسطته متابعة العيش وبخاصة اثناء الموسم السيىء. ومما لا شك فيه، أن العمل لانتاج المؤن هو أكثر مشقة من سرقة المؤن وأسر الرجال والنساء الذين، بسبب استرقاقهم، نقص عددهم من الجماعة وراحوا يعملون لحساب المنتصرين. وقد ذكر دافي مثلاً جيداً على الرق الجماعي، فقال:

«وضع الماسائيون (وهم محاربون حقيقيون ومخربون) يدهم على قبيلة خضعت لهم، واستخدموها لمصلحتهم ولسخرات الصيد والزراعة»[179].

ان السرقة بجميع أشكالها: مصادرة الماشية، أو خطف النساء، أو الرق، او سرقة الصيد، او نهب احتياطي التموين، هي أحد أسباب الحرب الأكثر تأثيراً وفعالية، تشاهد آثارها ومظاهرها المذهلة في شكلها البدائي عند الحشرات، وفي شكلها المتطور في الاحتلال النازي مروراً بالحروب البدائية، وبالحملات الاستعمارية، وغزوات الرق.

تسيطر الحاجة الاساسية للتحريض، حالها في ذلك حال الحاجة إلى الهوية، على الحاجة إلى الأمن، سواء لدى الحيوان او لدى الأنسان. كما ان التحرر من القلق الذي هو انفعال ذو حدّين[180]، كما هو معروف، يسبب ضيقاً لا يحتمل، حتى أن الحيوانات، من أجل مقاومة الضيق، تسعى الى أن تحرض نفسها، كأن تلقي بنفسها في الفضاء وراء فريسة ميتة، وكأنها ما تزال حية. والكلب الذي يضع بين قدمي صاحبه كرة أو عصا «ينتظر، بصبر، ان يُلقى بالشيء في الفضاء. وفي اللحظة التي يطير فيها الشيء إلى الفضاء، أو يستقر على الارض، يصبح «فريسة» تصلح للصيد، والالتقاط، و«القتل»،

---

(١٧٩) دافي، المرجع ذاته، ص ١٤٠.

(١٨٠) راجع دراستنا عن «القلق، والخوف، والحرب» في «السلام عن طريق البحث العلمي»، المرجع ذاته، ص ٢٩.

واعادة المشهد ثانية. والكلب الداجن هذا، قد لا يكون جائعاً، ولكنه يمارس التحريض»[181]

والانسان كذلك، فلكي يقاتل الضيق والضجر، يستعمل وسائل عدة، وبخاصة العنف. والعنف يحرِّض، في الوقت ذاته، ذلك الذي يمارسه، وذلك الذي يُمارس عليه، ويوقظ لدى الأول «حقداً يبعث على السعادة» ولدى الثاني «غضباً شديداً جَزعاً».

«ان فتنة واحدة تجري في شيكاغو، تعادل جميع ألعاب السيرك التي كان يشهدها اباطرة الزمن الماضي. والعنف، حاله في ذلك حال جميع اللذات الحسية، يسعى دائماً إلى التمثل بأشكال تعبيرية جد قوية وجديدة، لكي يتمكن من المحافظة على قدرة التحريض... إننا نخضع للتحريض تجاه عدو هو نفسه مُحرِّض بالحاجة الى الأمن وبضياع هويته. وإذا كانت الاحساسات الجديدة ترضي حاجتنا إلى التحريض، فإن العنف يهدف إلى ارضاء الحاجة ذاتها بالاضافة إلى الحاجة إلى الهوية... والرجال العنيفون هم موضع التحية والتصفيق، وذلك تعبير عن حماسة اعوانهم أو ادانة اعدائهم. انهم بذلك يصبحون معروفين، اصحاب هوية، لا يطويهم الجهل بهم»[182].

وهذا ما يفسر لماذا يحب الناس الحرب، لأنها تُلْهي عن الضجر وتُفَرِّج الضيق. فالصيد، وتربية المواشي، والحرب، تُثير الانسان البدائي. وهذه المحرضات تساعده على الكفاح ضد الرتابة الكئيبة لحياته، وبخاصة بعد أن وفرت له المؤن الاحتياطية ووسائل الحصول عليها الأمن، وحررته من الخوف من الجوع.

واذا كانت الحرب صراعاً ضد عدم الشهرة وسعياً وراء الحصول على هوية، فانها، فوق ذلك، تشكل طريقة تسمح، بشكل فوري، بالصعود إلى قمة سلم المراتب الاجتماعي، والتعويض بذلك عن كل شعور بالدونية. فالفتى المحارب الذي يلمع نجمه في القتال، لا يصبح فقط محط مديح جميع ابناء قبيلته، واعجابهم، واحترامهم، وانما يغدو المفضل عند النساء ايضاً.

وهكذا يشكل العنف الحربي التحريض الأكثر جاذبية، سواء لدى الذي يمارسه أو

---

(181) ديسموند موريس «حديقة الحيوان الانسانية»، المرجع ذاته، ص 211.

(182) «القانون الطبيعي»، المرجع ذاته، ص 333 وما بعدها.

لدى الذي يعانيه. انه يجعل الانسان يشعر بأنه يعيش، عوضاً عن شعوره بانه يُستهلك في الضجر الكئيب.

ويجد المُعتدي وضحيته في الحرب مناسبة ليخرجا فيها من عالم الجهل بهما، ولتولي مرتبة عالية في سلم المراتب، والتعويض عن كل شعور بالدونية، ولتلبية الرغبات الجنسية. يضاف الى ذلك كله، أن الحرب تحقق الأمن، عن طريق نهب المؤن، والماشية، واحتلال الاراضي، واسر الرجال واسترقاقهم. وبكلمة واحدة، ان الحرب تلبي، في وقت واحد، الحاجات الثلاث النفسانية الأساسية للرجل.

غير ان القتال أمر خطير. ولهذا يجب ايجاد وسيلة لتبلغ بالتهيج اقصى حدوده، مع تجنب التعرض لمخاطر كبيرة. وتوجد لدى بعض الشعوب البدائية حروب «ليست جدية ولا خطيرة»، وهي أقرب ما تكون إلى الرياضة أو الرقص منها إلى الصراع الحقيقي. وذلك لأن العنف الحربي سلاح ذو حدين. والانسان يسعى إلى الحرب، ولكنه يخافها، كما يخاف القلق والموت. وهو يريد القتال، ولكنه يخشى أن يموت. ولهذا راح الانسان يخترع جميع انواع الوسائل «للحد من الخسائر». ويذكر دافي عدة أمثلة على هذه «الحرب المُلَطَّفة» بين البدائيين:

«ليست الحروب في إفريقيا دموية دائمًا. في الشمال الشرقي من القارة، مثلاً، تكون الخسائر، نسبياً، قليلة، اذ عندما يقع عدد ضئيل فقط قتلى أو جرحى، يطلق الآخرون سيقانهم للريح».

ولا تعرف قبائل «باهيماس» كيف تنظم صفوفها في المعركة:

«يتراصُّ الرجال، بعضهم إلى جانب بعض، في كتلة غير منتظمة. ومن حين لآخر، يخرج رجل مسرع من الكتلة، ليطلق سهمًا أو يصوب حربة، ثم يختفي فجأة بين قومه. واذا ما قررت القيادة الهجوم، فان الكتلة باجمعها تقوم بذلك. واذا ما نجح الهجوم، فقد تكون معركة واحدة كافية لحسم الحرب. اما اذا قاوم العدو، فان الكتلة تنسحب، وتعاود الكرَّة. وتكون الخسائر في الارواح في مثل هذا النوع من القتال، قليلة:

عشرة رجال أو اثني عشر رجلاً. ويعتبر ذلك في نظر المتحاربين خسارة كبيرة»[١٨٣].

وكتب كلينيبيرغ يقول:

«لا بد من الاشارة إلى انه حينما تتقاتل الشعوب البدائية، فانها لا تظهر ميولاً عدوانية فورية وغير مقيدة، وانما تتبع سلوكاً مضبوطاً ومرتبطاً بالغقود الاجتماعية. والحرب البدائية، بصورة عامة، لا تهلك ارواحاً بشرية كثيرة، والخسائر فيها قليلة. وحينما تتقاتل جماعتان من الاوستراليين الاصليين، فان المعركة تنتهي فور ان يقع قتيل في كل جانب. وفي بعض الأحيان، ينفضّ القتال لدى سقوط أول جريح»[١٨٤].

وكانت قبائل بدائية كثيرة تقتل الغريب فور أسره. وكان الاوستراليون يذبحون كل غريب تطاله يدهم. أما في افريقيا فغالباً ما يُؤكل الغريب أو يستَرَق. وكانت العداوة ضد الاجنبي، في قديم الزمان، هي القاعدة. وقد ادى ذلك إلى نشوء العزلة بين الجماعات البشرية، حتى اخذت هذه العزلة تشتد بمرور الزمن، وازدادت خطورتها بتعدد اللغات، والعادات، والاديان. وقد جعلت هذه العزلة كل اجنبي يزداد، مع ابناء قبيلته، اختلافاً عن اعضاء القبائل الأخرى، التي لا يفهم لغتها، والتي تعيش وفق قواعد يرعاها الجميع، ولا يعرفها، وتؤمن بعقائد واحدة. ويمثل الغريب، بهذا الشكل، «المجهول»، وهذا يعني انه يشكل تهديداً. وبذلك تولد العداوة بين «داخل القبيلة» وبين «خارج القبيلة» من العزلة ونمو الاختلافات في السلوك. وتُقوِّي هذه العداوةُ، بشكل شبه آلي، التضامنَ في داخل الجماعات. ولا يعني هذا سوى مظاهرة لتجمع النظراء في مقاومة مشتركة. فمتطلبات الحرب، وضرورة الدفاع عن النفس ضد «الآخرين»، وضد «الغرباء» هي القوة التي تفرض السلام، والنظام، والطاعة داخل الجماعة بين اولئك الذين تربط بينهم رابطة الدم. واذا ما حدثت نزاعات في داخل الجماعة، فان الالتحام يتعرض للتفكك، والقدرة على الدفاع تضعف. وهذا أمر لا يسمح به، لأن الهدف الأول لكل جماعة هو ارادة البقاء. ونستطيع أن نستخلص من كل ما سبق عدة نتائج:

---

(١٨٣) دافي، المرجع ذاته، ص ٣٦٧ وما بعدها.

(١٨٤) «علم النفس الاجتماعي»، ص ١٠٤.

١)-تخلق رابطة الدم التي تربط ما بين أعضاء القبيلة الواحدة المسؤولية الجماعية، والقاعدة التي تقول: «الجميع من اجل الفرد، والفرد من اجل الجميع» تلزم كل فرد بأن يجعل نزاعات اخوته ومشاكلهم نزاعاته ومشاكله الشخصية، وتجعل القبيلة كلها مسؤولة عن اعمال كل عضو من اعضائها. وتشترك رابطة الدم، ومسؤولية الجماعة، والعقائد الدينية في استمرار نزاعات لا تنتهي بين القبائل. وكانت الانتقامات، واعمال الأخذ بالثأر المتتالية، بمختلف اشكالها، ممارسات تطبيقية بين الشعوب البدائية، لفترة طويلة من الزمن.

٢)-هناك قاعدتان اخلاقيتان: الأولى تخص العلاقات بين اعضاء الجماعة الواحدة، والثانية تحكم العلاقات بين اعضاء جماعة ما واعضاء الجماعات الأخرى. فالحرامان «لا تقتل ابداً» و«لا تسرق ابداً» لا ينطبقان إلا على اعضاء الجماعة الواحدة، وليس على الغرباء ابداً. فالجماعة المذكورة يجب أن تكون متحدة قدر المستطاع، لتكون في اقصى قوة ممكنة، بغية القدرة على مقاومة التهديدات الآتية من «الخارج». وضمن اطار الحرامين المذكورين، وما يرافقهما من قوانين، تسن الجماعة القواعد التي يجب على الجميع احترامها، حتى تمنع على النزاعات الداخلية ان تضعف قدرتها الهجومية او الدفاعية.

ويمكننا القول ان حقوق والتزامات الناس الذين يعيشون في جماعات، قد ولدت من ضرورة كونهم مستعدين، في كل حين، للدفاع عن الجماعة ضد الاعداء، وضد الغرباء، وضد اولئك الذين ينتسبون الى جماعة أخرى.

وإذا ما مُنع عن الانسان ان يقتل اخوته ابناء جلدته، فقد طلب منه ان يقتل اعداء الجماعة التي ينتسب إليها. وقد صاغت القبيلة قانونها بغية الحفاظ على كيانها الخاص. ويتعلق وجودها بمعرفة ما اذا كانت قادرة على مقاومة القبائل الأخرى أم غير قادرة. وينتج عن ذلك، أن كل ما يمكن أن يؤدي إلى إضعاف هذه القبائل هو عمل مسموح به، وأن كل ما يؤدي إلى تقوية النظام والتلاحم داخل القبيلة يجب أن يفرض.

٣)-تسعى كل قبيلة، وكل جماعة، إلى ان تتبوأ قمة سلم المراتب. وتعتبر كل جماعة نفسها اعلى من الجماعات الأخرى وفوقها، وتمجد تقاليدها وعقائدها الخاصة، وتحتقر تقاليد

وعقائد الآخرين، وتنطلق في ذلك كله من ايمانها بتفوقها العرقي. ويهدف التفوق العرقي هذا، بكل تأكيد، إلى اشباع حاجة الانسان الأساسية الأولى، وهي الحاجة إلى الهوية. وهو أساس الوطنية التي تعتبر سبباً هاماً من اسباب الحرب، وسنرى ذلك فيما بعد.

٤) -تدعم الديانة أو أية عقيدة سائدة بين أعضاء الجماعة، التفوق العرقي دائماً. وهؤلاء الذين يلتقون حول عقيدة واحدة، أو يؤمنون بأن إلههم فوق جميع الآلهة يتخذون مواقف عدائية حيال الغرباء: فهناك تجمع للنظراء المتماثلين، واستبعاد للمتباينين.

تشجع ديانة البدائيين على الحرب، وتشيد بالفضائل العسكرية. وفي الواقع، يعتقد الكثيرون بان الانسان حتى يتمتع بحياة أخرى يجب أن يكون محارباً عظيماً على الارض. وبما ان الجبناء محتقرون على الأرض، فسيكونون كذلك في العالم الآخر. ويكفي أن يكون المرء شجاعاً ومقاتلاً. وسنذكر فيما يلي ما تعتقد به قبائل «تاتنغكول» و«أنغاميس» و«لوهوباس». فللأنغاميس، مثلاً «عالم آخر، اذا ما دخلوا إليه، استقبلهم حارس، فاذا كانت الروح الداخلة روح انسان كان محارباً عظيماً، وصياداً ماهراً، وقاتل أفاعٍ كبيراً، استقبلت بالترحاب، اما اذا لم تكن كذلك، فلن يؤبه بها»[١٨٥].

ويأتي لوتورنو على ذكر مثل قبائل «بابو» حيث السحرة الكهنة:

«يشجعون المحارب القاتل اذ يلقنونه بان الآلهة، وهم- أي السحرة- وزراءهم، قتلةٌ عظام، وشاربو دماءٍ حقيقيون... وهكذا نجد انفسنا بعيدين جداً عن حرب الذات الالهية التي يحتفل بها المناضلون الثملون بالديانة أو بما وراء الطبيعة»[١٨٦].

ولا تصبح الخلافات الدينية بين القبائل سبباً للحرب إلا حينما يقتبس البدائيون تقاليد الحضريين. والاسباب الدينية التي تدفع البدائيين إلى التقاتل هي الثأر من اجل دم مسفوك، والتضحية الانسانية، وصيد الانسان للانسان[١٨٧].

---

(١٨٥) دافي، المرجع ذاته، ص ١٦٨.
(١٨٦) «الحروب»، المرجع ذاته، ص ٥٢ وما بعدها.
(١٨٧) دافي، المرجع ذاته، ص ١٨٧.

وهناك واقع يجب أن يجلب انتباهنا وهو أن هناك شعوباً بدائية لم تمارس الحرب ابداً. فقد اشار كلينيبيرغ[188]، إلى أن هوبلوز ذكر انه كانت توجد عشر قبائل، على الأقل، لم تقم بأية حرب ابداً». كما اشار كلينيبيرغ ايضاً إلى ان فان ديربيج «يعتقد ايضاً بان الشعوب البسيطة جداً والقبائل المغرقة في بدائيتها لم تكن محارِبة». ولم تظهر الحرب إلا في عصر «الثقافات المتطورة» وحينما اصبحت الجماعات جد متعددة.

وفي هذا المجال، تبدو الحقائق المثبتة جد قليلة. ومن المناسب اعتماد الحذر والحيطة فيما ننتهي إليه من استنتاجات. ونعتقد بأنه توجد الآن عناصر كافية لطرح سؤال، ولكن لا تتوفر عناصر كافية للاجابة عنه. وهذا السؤال هو: أين يجب البحث عن اسباب ظاهرة الحرب، هل في المجتمع أم في الطبيعة الانسانية؟. ويجيب كلينيبيرغ عن هذا السؤال مؤكداً بانه يجب البحث عن اسباب الحرب في المجتمع[189]. ونعتقد بان الجواب عن هذا السؤال يجب أن يتناول الموضوع من جوانبه العديدة المختلفة، وسنعود إلى ذلك فيما بعد.

ولنوجز الآن ما فصلناه. ونلاحظ فيما يتعلق بالحرب، ان سلوك الشعوب البدائية جد قريب من سلوك بعض الحيوانات في المجالات التالية:

١) النضال من اجل الارض.
٢) الدفاع عن وضعية مراتبية، او احتلال تلك الوضعية.
٣) كره الأجنبي.
٤) التكيف المرعب لردع العدوان وكبح ردة فعل الدفاع عند الخصم، (استعمال الاقنعة، والادهان، والريش، وغيرها).
٥) إخضاع بعض انواع القتال للطقوس الدينية.
٦) وجود علاقات بين الأرض، والعمل، ورأس المال، والملكية، والحرب. وبكلمة واحدة، الحرب هي النهب.
٧) تحقيق الضرورات النفسانية للحياة (الحاجة إلى تحديد الذات، والحاجة إلى التحريض، والحاجة إلى الأمن).

---

(١٨٨) كلينيبيرغ «علم النفس الاجتماعي» ص ١٠١، المنشورات الجامعية الفرنسية، ١٩٦٧.
(١٨٩) «علم النفس الاجتماعي» ص ١٠٨.

٨)العنف، ولو كان متبادلاً، هدف يسعى إليه الحيوان والانسان البدائي، لأنه يستجيب للضرورات النفسانية للحياة استجابة كاملة.

وعلى العكس من ذلك، فان البدائيين من البشر:

)عرفوا أكل لحم البشر كسبب للحرب، وكنتيجة لها، اكثر مما عرفه الحيوان.

٢)حوّلوا المغزى الموضوعي لأعمالهم بسبب عقائدهم الدينية، أو السحرية، أو القانونية، وقد دفعهم ذلك، غالباً، إلى القتل.

٣)لم يكتفوا بخضوع خصمهم لارادتهم، بل على العكس من ذلك، كانوا يريدون تدميره تدميراً كاملاً، أو إخضاعه بشكل كامل ودائم حينما يكون تنظيمهم الاجتماعي قادراً على استرقاقه.

٤)شنوا الحرب بسبب الحقد، والانتقام، والغرور.

٥)عرفوا بأن الحرب وسيلة سريعة لتبوؤ مرتبة اجتماعية عالية، وهذا ما تسعى إليه كل جماعة وكل فرد، على حد سواء.

٦)ارتبطوا فيما بينهم برابطة الدم، فاصبحوا بذلك مسؤولين، جماعياً، عن أفعال كل عضو من قبيلتهم.

٧)عرفوا قاعدتين اخلاقيتين: احداهما للتطبيق على «داخل الجماعة»، والثانية للتطبيق على «خارج الجماعة». وقد سنوا المحرمات، التي أصبحت قوانين فيما بعد، لتكريس مبادىء هاتين القاعدتين.

٨)دعموا التفوق العرقي دعماً خطيراً، منطلقين في ذلك من عقائدهم الدينية.

لم تعرف بعض القبائل الحرب. فما هي الأسباب يا تُرى؟ ان ذلك يثير التساؤل التالي: هل يجب البحث عن اسباب الجرب في المجتمع أم في الطبيعة الانسانية؟.

٣٢ـ الحرب والنساء:

تُعدّ النساء نصف الانسانية، على الأقل. وهن لا يتولّين في الجماعات البشرية التي ينتسبن إليها مناصب قيادية بالنسبة لعددهن. ويُشغل الرجال، في الحكومات الوطنية والمنظمات الدولية جميع وظائف القيادة والتوجيه تقريباً. ومنذ قديم الزمان، يتولى الرجال اتخاذ قرار الحرب، وعقد الصلح.

وهنا نتساءل: ما هي المنعكسات على ظاهرتي الحرب والسلم فيما اذا اشتركت نساء أكثر في القيادة السياسية؟.

هناك وقائع ثلاث، من بين وقائع عدة، تؤيد فكرة سحب احتكار الرجال للحكم في المجتمعات البشرية. واولى هذه الوقائع، التي يبدو حتى الآن أن اهميتها الاجتماعية لم تحظ بالعناية التي تستحقها، هي تحرير المرأة، الذي تتسارع حركته أكثر فأكثر.

والواقعة الثانية هي تراجع الدور الذي تلعبه القوة الجسمانية في الحياة. وتسهم هذه الواقعة الجديدة، بشكل قوي، في رفع مستوى وضع المرأة في المجتمع.

والواقعة الثالثة هي اشتراك المرأة في الحرب اشتراكاً مباشراً. اذ بسبب الثورة التكنيكية، اصبحت النساء محاربات، مثلهن في ذلك مثل الرجال. وغدت حياتهن، بالاضافة الى ذلك في الوقت الحاضر، معرضة بشكل مباشر لتهديد العدو، لا فرق في ذلك بينهن وبين المقاتلين في الخط الأول، وهذا أمر لم يحدث سابقاً في الماضي.

١ـ تحرير النساء وتراجع أهمية القوة الجسمانية:

يشبه تقدم المرأة في المجتمع تحولاً بيولوجياً يجري تحت انظارنا[١٩٠]. إذ كانت المرأة، خلال آلاف من الاعوام، تعتبر نوعاً بشرياً متخلفاً. وفي الأساس، كانت القدرة الجسمانية هي التي كانت تساعد الرجل على أن يسيطر على أمثاله، سواء كانوا ذكوراً أم إناثاً. كما كانت تمنحه، طيلة زمن طويل، إمكانية قتل اعدائه، واقتناص الصيد، وسوق الماشية. وبفضل هذه القدرة الجسمانية استطاع الرجل ايضاً أن يصون حياة زوجته، او زوجاته، وأولاده. وكانت القوة والجرأة عاملين لا غنى عنهما لكي يستطيع الانسان الغزو بعيداً عن ارضه، والإبحار والسيطرة على الجو الذي حوله.

ولأن المرأة معاقة بيولوجياً بالحمل وتوابعه، ولأنها جسمانياً اضعف من الرجل ومكبلة، بصورة طبيعية، بالأولاد الذين تضعهم في العالم، وبسبب طبيعة الأشياء وقوتها، فقد اصبحت محكومة بان تكون في وضعية تابعة في المجتمع. وخلال قرون طويلة، كان

---

(١٩٠) غاستون بوتول، «الحصول على السلام»، المرجع ذاته، ص ١٥٢.

الرجل هو رئيس مجموعة مؤلفة منه نفسه ومن عائلته التي يوفر لها العيش والحماية.

وإذ تمت السيطرة على المرأة جسمانياً، فقد قبلت الخضوع للرجل، كبديل عن الأمن الذي وفّره لها. وغدت، دون أن تشعر بذلك، معجبة بالقوة الجسمانية. واصبح الرجل العنيف العدواني يسحر المرأة.

ولكن عندما ظهرت الآلة، بدأ تطور جديد بالظهور ايضاً. فقد اتاحت السكة الحديدية، والسفينة البخارية للنساء والرجال معاً، السفر دون أن يتحملوا العناء ولا مخاطر ركوب الخيل. وبفضل الآلة، اصبحت النساء تعملن في المصانع. وعوضاً عن أن ينهمكن في اعمال الحقول، غدون عاملات في المصانع حيث يقمن بأعمالهن ضمن مجموعة، مع كل ما ينتج عن ذلك من منعكسات اجتماعية. وهكذا شهدنا في بريطانيا ظهور الحركة الدستورية ما بين ١٨٣٧ و١٨٤٨، التي طالبت بالانتخاب العام، أي بحق الانتخاب للعمال، ذكورهم واناثهم. وشهدنا ايضاً في فرنسا، في الوقت ذاته تقريباً، السان سيمونيين يعلنون، لأول مرة، مذهباً متكاملاً لتحسين وضع المرأة. وفي عام ١٨٦٥، ادى دخول جون ستيوارت ميل إلى البرلمان البريطاني إلى نشوء حركة تدعو الى اشتراك المرأة في الانتخاب. وقد استطاعت هذه الحركة عام ١٩٠٣ بالتعاون مع السيدة بانكهورست أن تأخذ شكلاً نضالياً. أما الحربان العالميتان (كما سنرى ذلك فيما بعد) فقد اسرعتا في تحرير المرأة سياسياً واجتماعياً واقتصادياً.

وقد ادى تحسن الآلة وتقدمها إلى سرعة تنقل المرأة، وإلى ممارستها نشاطات متنوعة. فقد استطاعت المرأة، بمساعدة الآلة، أن ترفع اثقالاً بسهولة مماثلة للسهولة التي يرفع بها الرجل تلك الاثقال، وهذا يعني ان القوة الجسمانية فقدت امتيازها.

واذا ما حدث نقص خطير في اليد العاملة في اوروبا الغربية أو أميركا الشمالية، فليس من المستحيل، في يوم من الأيام، ان نشاهد نساء يشتركن في بناء العمارات التي تنقل موادها الثقيلة آلات ميكانيكية قوية تديرها ايدي الانسان.

أما فيما يتعلق بالتنقل من مكان إلى آخر، فقد اصبح شيئاً عادياً أن تقطع المرأة مئات الكيلومترات بالسيارة، أو آلاف الكيلومترات بالطائرة، بينما كانت المرأة المتزوجة قبل الحرب العالمية الثانية، قليلة الأسفار، وكانت، دائماً تقريباً، تسافر بصحبة زوجها.

ولم يعد الرجل يحتكر وحده المغامرة واكتشاف العالم. فقد ظهرت المرأة بين رجال الفضاء، وقفزت نساء كثيرات بالمظلات، وقدن الطائرات.

لقد اسهمت الثورات الصناعية، والحروب العالمية، وتجمع العاملات في المصانع والمدن، وتناقص اهمية القوة الجسمانية في العمل والقتال، في تحرر المرأة، إن لم نقل إنها قد سبّبته.

ولكن حركة التحرر هذه لم تتوقف، اذ أن المرأة تطالب مطالبة عادلة، بمساواتها الكاملة بالرجل. فهي تمارس مهناً عديدة، وتسهم، بشكل مباشر، في توفير الموارد الضرورية لحياة ورفاه اسرتها. واليوم تسعى المرأة في كل مكان إلى أن تبلغ هذه الدرجة من المساواة التي ما تزال بعيدة عن الواقع والتطبيق، بالرغم من اعتراف القانون بها أحياناً. وتعيد المرأة إلى الذاكرة انها كانت تعتبر في القانون المدني، لمدة طويلة من الزمن، غير جديرة بالمساواة، بالرغم من ان قانون العقوبات كان يبدو اكثر قساوة عليها مما هو على الرجل، وبخاصة فيما يتعلق بالزنا.

وقد ظهرت مخترعات جديدة ساعدت المرأة على ان لا تتحمل أعباء الأمومة التي لا تتمناها. فقد أمكن «الحد من النسل» بفضل التطور الفكري وتطور بعض الديانات، مع ظهور مجموعة من موانع الحمل الفعالة. وقد اصبحت المرأة، الآن، قادرة على أن لا تقبل من الأولاد إلا الذين تريدهم. وحينما حصلت على استقلالها الاقتصادي، بفضل عملها الشخصي، حصلت أيضاً على استقلالها الجنسي.

إن تحرر المرأة يتسارع يوماً بعد يوم. وتجري هذه الظاهرة تحت انظارنا، ويصعب التنبؤ بجميع نتائجها.

٢ـ اشتراك المرأة المباشر في الحرب:

اننا نعرف أن الحرب تمر الآن في مرحلة تحول كامل شامل. فالثورة التكنيكية التي شملت جميع القطاعات هي أكثر الظواهر بروزاً في مجال الأسلحة. ففي خلال ثلاثين

عاماً، تضاعفت قوة القنابل بمقدار مليون مرة، واصبح مداها غير محدود. وقد ادى ذلك بشكل مباشر، إلى إمكان أن يصبح الجنود أقل تعرضاً للتهديد من السكان المدنيين، فقد اصبح كل إنسان، كائناً ما كان عمره، او ثروته، أو جنسه، معرضاً، بشكل مباشر، إلى ضربات العدو في الحرب العالمية القادمة.

وقد انشئت الجيوش في الماضي لحماية هؤلاء المدنيين، وذلك بإيقاف العدو عند الحدود. اما اليوم، فلم يعد هذا ممكناً، لأنه لا توجد، حتى الآن، وسائل مجدية لمواجهة استراتيجية الهجوم على المدن أو تسميم الجو بالغيوم المشبعة.

وفي حرب شاملة، يمكن أن تقتل القنابل النووية ـ الحرارية من النساء اكثر مما تقتل من الرجال. وهذه هي حقيقة جديدة يجب أخذها بعين الاعتبار. وذلك لأن النساء يشتركن، بشكل مباشر وغير مباشر، في آن واحد، في الاعداد للحرب. فهن، من جهة، يسهمن في نفقات التسلح وإدامة القوات المسلحة عن طريق ما يقتطع من عملهن بشكل ضرائب. وهن، من جهة أخرى، اذ يعملن، يسهمن، بشكل مباشر، في الاعداد للحرب، وان لم يكن يدركن ذلك في اغلب الاحيان. فضاربة آلة كاتبة في وزارة أو عاملة ثقب بطاقات عداد كهربائي، قد تسهم في الاعداد للحرب أكثر مما يسهم فيها بعض العسكريين المتهنين. وفي مختبرات البحوث، تكثر المختصات والعاملات، ويسهمن، بشكل مباشر، بأعمالهن ومعارفهن، في استكشاف أي نوع من انواع الفولاذ هو الافضل لأبراج دبابات القتال، وأي غاز من الغازات النفسانية ـ الكيميائية يمكن أن يؤثر في المنعكسات وردود الفعل لدى الانسان.

واخيراً، توجد الآن آلاف النساء يرتدين البزة العسكرية، ويشكلن جزءاً من القوات المسلحة في كثير من البلدان. وتتلقى بعضهن الآن تأهيلاً عسكرياً كضباط في المدارس العسكرية ذاتها التي يؤهل فيها الرجال.

واذا ما افترضنا وجود نساء أكثر مما هو موجود الآن، في المجالس النيابية، والحكومات، ومنظمة الأمم المتحدة، فهل سيعملن في سبيل السلام، أم من اجل الحرب؟.

يجيب غاستون بوتول[191] عن هذا السؤال بقوله إنْ «الحرب غريبة عن عالم النساء»، ويرى:

«أن النساء، بسبب ما حَبَتْهن الطبيعة من نفسية خاصة، وبما يحملن من قيم بيولوجية مختلفة عن قيم الرجال، يجب أن يشكلن كفَّة مقابلة لكفة قيم الرجال. وحتى يستطعن التعبير عن وجهات نظرهن بشكل متعادل، فعلين أن ينشئن كياناً سياسياً متميزاً. والنساء، إذ يشكلن نصف الجنس البشري، عليهن ان يشغلن نصف مقاعد المجالس النيابية، والوزارات، ومجالس الدولة. وإذا لم يتم هذا التقسيم في العمل، فإن أصواتهن لن تكون إلا نوعاً من الصدى الخفي لانتخابات الرجال.

وهذه الازدواجية التشاركية النسائية- الرجالية هي الشرط الاساسي لانشاء فن سياسي يقوم على مرتكزات بيولوجية وانسانية تساعد على تحرير الطاقات المنسجمة والمتكاملة للجنسين اللذين يشكلان الانسانية. وهذه الازدواجية التشاركية، التي ليست ايديولوجية وانما بيولوجية، هي الجديد السياسي الوحيد الذي لم يُجرب قط حتى الآن... ولن يجد العالم السياسي المقبل توازنه إلا بإبراز القيم النسائية وتصحيحها»..

وبما ان النساء أقل عدوانية من الرجال، فانهن سيفضلن السعادة على القوة، وسيكنّ أقل تشبثاً بالمبادىء، ولكن اكثر واقعية. ونتيجة لذلك، سيكنّ أقل استعداداً من الرجال لتأييد اية سياسة تقود الى الحرب.

ان هذه الفرضية تستحق أن تدرس بشكل اوسع وادق.

٣- دور المرأة في الحروب السابقة:

لقد لاحظنا فيما سبق أن من المجازفة أن نستنتج من ملاحظة سلوك الحيوانات علامات ودلائل تنطبق، بصورة نسبية، على سلوك الناس. غير أن ما يلاحظه الباحث عند الحيوان يمكن، احياناً، أن يدله على وجهة جديدة في بحوثه عن الانسان.

وهكذا، فعندما اكتُشف لدى بعض الحيوانات ان عدوانية الأنثى يمكن ان تكون

---

(١٩١) غاستون بوتول، «فن السياسة»، نشر سيغير، باريز ١٩٦٢، ص ٣٩ وما بعدها.

اكثر خطراً من عدوانية الذكر، فقد ظهر أن من المنطقي البحث عن الظاهرة نفسها لدى النوع البشري. وقد قضت السيدة جان فان لوفيك۔ غودال عشر سنوات في مراقبة الشمبانزي في مركز ابحاث غومب ستريم في تزمانيا(١٩٢). وقد نالت مؤلفاتها قيمة علمية مشهورة.

وفيما يلي نذكر ما يهمنا بصورة خاصة من ملاحظات السيدة جان فان لوفيك۔ غودال:

١)۔نادراً ما تستعمل الشمبانزي العنف الجسماني. ويسود نزاعاتها خوف متبادل.

٢)۔وبعد أن تنتهي المشاجرة مباشرة، حيث يكون الذكران المتشاجران قد تماسكا وتضاربا بشكل مرعب، يغدو الخصمان مسالمين، ويمد المغلوب يده إلى الغالب، فيداعب هذا رأس المغلوب، ثم يتبادلان الملاطفة والمداعبة.

٣)۔والأنثى من الشمبانزي أقل عدوانية من الذكر، ولكن قد تكون اخطر منه. وقد لاحظت السيدة فان لوفيك۔ غودال ان الذكور تتضارع فيما بينها ولكنها يغفر بعضها لبعض فوراً. وعلى العكس من ذلك، فان الانثى تهرب اذا ما هاجمها ذكر، ثم تعود بعد نصف ساعة بعد أن تكون قد وجدت ذكراً آخر طلبت منه ان ينتقم لها. وتقول السيدة فان لوفيك۔ غودال إنه ليس صحيحاً ان النساء لا يلعبن اي دور في العدوانية الاجتماعية. فعبر التاريخ كله، غذّت النساء هذه العدوانية لدى الذكور».

وهناك ملاحظة أخرى تستحق الانتباه، وهي أن انثى الشمبانزي حينما تدعوها الرغبة الجنسية، فانها هي التي تسيطر على الذكر. وتخضع الذكور للإناث خضوعاً طوعياً بغية الحصول على تعاونها(١٩٣)، بالرغم من أن الذكور هي التي تسيطر في الظروف الأخرى. وكذلك يحدث احياناً أن تحرض اناث الشمبانزي الذكور على القتال، أو تمارس عليها سيطرة سببها الهياج الجنسي.

وقد اشار روبير آردري في دراسته المخصصة عن الارض، إلى أن الليمور الأسود

(١٩٢) انظر مجلة «بريد اليونسكو»، عدد آب۔ ايلول ١٩٧٠، ص ٧ وما بعدها.

(١٩٣) اوتو كلينبيرغ، «علم النفس الاجتماعي»، المنشورات الجامعية الفرنسية، ١٩٦٧، ص ٣٢.

(وهو نوع من القرود) يشكّل مجموعات من اثني عشر من القرود الكبار والصغار، تدافع، بمجموعها، عن ارضها ضد اية مجموعات أخرى من الليمور الأمود [١٩٤]. وقد لاحظ آردري ان الاناث في هذه المجموعات تحتل مرتبة اجتماعية رفيعة، فهي التي تبدأ المشاجرات، وتظهر، في اغلب الاحيان، اكثر عدوانية من الذكور

والنساء، في المجتمعات البدائية، هن سبب الحرب. وغالباً ما تنشب المعركة بسبب:

- الزنا أو الاغتصاب.
- أسر النساء.
- الرغبة في الحظوة لدى النساء.
- التهيج للقتال الذي تثيره النساء.

وأسر المرأة ضمن الجماعة أمر ممنوع. وقد هدفت بعض الوصايا العشر الالهية [١٩٥] إلى تجنيب اعضاء الجماعة الواحدة التخاصم فيما بينهم، لأن ذلك يضعف الجماعة ويجعلها غير قادرة على الدفاع ضد الجماعات المعادية. غير انه يجب أن نلاحظ أن المرأة لم تكن تعتبر سوى «شيء للتملك». وقد منعت الوصايا (الخروج ٢٠-١٧) ان يشتهي الانسان امرأة جاره، أو خادمه، او خادمته، أو «أي شيء يخص جاره». وفي قبائل جد عديدة، لم يكن سبي نساء القبائل الأخرى عادة سائرة فحسب، وانما كان عملاً يستحق الثناء [١٩٦].

وعلى عكس ما هو معتقد به، فالرجل البدائي كان يمتلك نساءً عدة لدواعٍ اقتصادية اكثر من الحاجة إلى تلبية شهوته الجنسية. فالمرأة، قبل كل شيء، هي الشريكة التي تساعد الرجل في الكفاح من اجل الوجود، وهي التي تساعده في الحصول على الأولاد، أي إنها يد عاملة اضافية. والمرأة والأولاد عند الرجل البدائي يدخلون في ملكيته الخاصة.

اننا نعلم ان القوة هي التي تؤكد حق الملكية وتثبته. ومنذ ان اصبح ذلك قانوناً،

---

(١٩٤) «الارض» نشر ستوك، ١٩٦٦، ص ١٥٧.

(١٩٥) انظر الخروج (٢٠-١٧): لا تشته ابداً امرأة جارك، ولا خادمه، ولا خادمته، ولا أي شيء يخصه.

(١٩٦) دافي، «الحرب في المجتمعات البدائية»، بايو، باريز ١٩٣١، ص ١٥٢ وما بعدها.

اصبح كل مس بالنساء، أي كل مس بالملكية الخاصّة، يؤدي حتمًا إلى الانتقام. وفي مثل هذه الأحوال والشروط، اصبح أسر النساء، والاغتصاب، والزنا، أسباباً للحرب، لأنها ليست سوى مظهر خاص من الحرب في سبيل الملكية. وقد اورد دافي[197] أمثلة كثيرة تؤيد هذه النتيجة.

وكانت الغنائم البشرية، والمؤلفة بصورة خاصة من النساء والأولاد، تشكل اسباباً رئيسية للحرب في العهود القديمة، وحرب طروادة، وسبي السابينيات مثالان جد معروفين. والرغبة في الحصول على اعجاب أفراد القبيلة، وبصورة خاصة النساء منهم، كانت تحدو الرجال إلى البحث عن المناسبات التي تظهرهم وتميزهم في القتال. وكان الوشم يعبر عن التميزات البطولية التي تمنح صاحبها مكانة اجتماعية، فقد كان يشير - اي الوشم - إلى عدد من قتلهم من الاعداء. ويعتبر الفتيان، في أغلب الاحيان، كالنساء، قبل أن يوشموا بما يدل على مفاخرهم كمحاربين[198].

وأخيراً، فان النساء البدائيات لا يكتفين بتحريض الرجال على التقاتل، وانما يسخرن منهم، ولا يقبلن بهم عشاقاً، اذا لم يظهروا الحد المطلوب من العدوانية اثناء القتال. ففي قبائل با ـ هوانا في الكونغو:

«المحرضون الرؤساء على القتال هم النساء. واذا ما اتخذ الرجال موقفاً مسالماً وبدا عليهم أنهم أميل إلى السكوت عن الاهانة، هزئت النساء بهم («ها! انكم خائفون! انتم لستم رجالاً. لن نصحبكم بعد الآن. هُو، هُو...»)، وحينذاك يخرج الرجال ويذهبون الى القتال»[199].

وتشترك نساء القبائل في الجزائر في الحرب، بطريقتهن الخاصة، فيزودن المقاتلين بالمؤن والأسلحة، بالاضافة إلى انهن «يظهرن بحليهن في ساحة المعركة. وحضورهن يثير

---

(١٩٧) دافي، المرجع ذاته، ص ١٥٥.

(١٩٨) دافي، المرجع ذاته، ص ٢٣٦ وما بعدها.

(١٩٩) دافي، المرجع ذاته، ص ١٦١، وذلك بالاستناد الى مقالة كتبها توردي وجويس «قبائل با ـ هوانا»، مجلة معهد علم الاجناس بريطانيا وايرلندا، العدد ٣٦، ص ٢٨٩.

كثيراً حماسة المقاتلين»(٢٠٠). وتساند الحبشيات الرجال بتشجيعهم أثناء القتال «بالتهليل للشجاع، وبالتشهير بالجبان»(٢٠١).

وتساعد النساء الجرمانيات المقاتلين ويشددن أزرهم: «فبعد القتال يسبرن الجروح، ويشدن بها. وغالباً ما يبعثن الشجاعة في نفوس الفارين ويعدنهم إلى القتال. وينسب الجرمان إلى النساء موهبة التنجيم، لذلك كانوا يستشيرونهن حول المستقبل ليعرفوا ما اذا كان عليهم أن يبدأوا المعركة أم لا.

وتضرب النساء في قبائل سيمبر، أثناء القتال، على حصر مصنوعة من عصي الصفصاف، محدثة ضجيجاً مرعباً. وتذبح كهنتهن، وهن من النساء، بعض الأسرى فوق بحرة كبيرة، ويستنتجن النبوءات والتكهنات من الطريقة التي تتدفق بها الدماء»(٢٠٢).

وفي بعض الأقوام، لا تكتفي النساء بالقيام باعمال تموين المقاتلين وحثهم على القتال، وانما تناضلن معهم جنباً الى جنب، منافسات إياهم بالشجاعة والضراوة. ففي ارخبيل فيجي، ليست قساوة النساء بأقل من قساوة الرجال. فالأمهات، بعد ان ينتهي القتال، «يقدن اولادهن الى ساحة المعركة، حيث يحضضنهم على ضرب المغلوبين، وشتمهم، ورفسهم باقدامهم»(٢٠٣).

وعند البرابرة «تنافس النساء الرجال في القوة والشجاعة»(٢٠٤). وأخيراً، لنتذكر حالة الجيش الدائم من النساء لملك داهومي. «فهذا الجيش المسمى «الأمازون»، نشأ حوالى عام ١٧٢٩ ... وقاتل بشجاعة لم يتوقعها أحد منه، مما ادى إلى دمجه بصورة دائمة كوحدة عسكرية نسائية في جيش البلاد... وقد قاتلت هذه الوحدة بضراوة المتوحشين وقساوتهم، فكانت تعمل على القمع والذبح.... وهؤلاء النساء مقاتلات شجاعات،

---

(٢٠٠) ش- لوتورنو، «الحرب عند مختلف الاعراق البشرية»، باريز، ١٨٩٥، نشر ل. باتاي وشركاه، ص ٢٧٠.
(٢٠١) لوتورنو، المرجع ذاته، ص ٢٩٧.
(٢٠٢) لوتورنو، المرجع ذاته، ص ٤٨٨ و٤٨٩.
(٢٠٣) لوتورنو، المرجع ذاته، ص ٤٠.
(٢٠٤) لوتورنو، المرجع ذاته، ص ٢٥١.

وكثيراً ما فاقت وحدتهن وحدة الرجال بالجرأة والضراوة»[٢٠٥].

وإذا ما أحطنا بظاهرة الحرب من نواحيها الأساسية، نلاحظ:

١)-ان النساء هن سبب سلبي للحرب، لأن الرجال يتقاتلون لغرضين معاً، هما الحظوة بالنساء، والدفاع عن حق امتلاكهن.

٢)-انه قد يحدث ان تكون النساء سبباً ايجابياً للحرب، وذلك بتحريضهن الرجال على التقاتل.

٣)-ان النساء يشتركن في القتال بشجاعة (وأحياناً بقساوة) لا تقل عن شجاعة الرجال.

ويمكن العثور على مثل هذه الملاحظات لدى مراجعة التاريخ العسكري. والدراسة التي اعدها كلاين- روبور بهذا الشأن ملآى بالدروس والمعلومات[٢٠٦]. فالنزاعات الدموية بين فريد يغوند وبرونيهو معروفة مشهورة. وقد قادت فريديغوند الجيش النوستري، وانتصرت على برونيهو في معركة لافو عام ٥٩٦. وخلال الحروب الصليبية، دافعت النساء عن القصور التي هجرها الرجال ليذهبوا لتخليص قبر المسيح. واشتركت نساء أخريات في الحروب الصليبية اشتراكاً مباشراً، مثل مرغريت دو بروفانس، زوجة سان لويس. وبعضهن قاتلن من على ظهور الخيول. وحينما كانت بلانش دوكاستيل وصية على العرش، قادت، مرات عديدة، جيوش ابنها لويس التاسع، الذي كان آنذاك قاصراً. وقد اشتهرت نساء كثيرات بشجاعتهن ورغبتهن في القتال عندما كن يدافعن عن مدنهن المحاصرة. وهذا ما جرى لتلك المرأة المعروفة باسم ماري فور التي القت، اثناء حصار مدينة بيرون من قبل الأمبراطوريين عام ١٣٥٦، في خندق المدينة بضابط عدوٍّ صعد إلى أسوارها، ودافعت عن نفسها برمحها الصغير ضد الجنود الذين تبعوه، حتى جاء ابناء قومها فانجدوها وردوا الأمبراطوريين.

ولا نرى ضرورة لذكر تاريخ جان دارك، ولا جان فوركيه، ولا ليزن المعروفة باسم جان هاشيت، فهن جد معروفات ومشهورات.

وفي اثناء حرب الثلاثين عاماً، قاتلت نساء كثيرات بشجاعة، وبخاصة خلال محاصرة المدن. ففي عام ١٥٢٤ حاصر شارل- كنت مدينة مرسيليا، وبدا أن النصر

---

(٢٠٥) دافي، المرجع ذاته، ص ٥٥ و٥٦.

(٢٠٦) كلاين- روبور، «النساء الجنديات عبر العصور»، انظر المجلة التاريخية للجيش، ١ شباط ١٩٦٠.

حليفه. ولكن أميليان دو بوجيه، ومعها نساء أسر بوسيه، ودولامور، ومانتو، ومعها ايضاً آن دومونتموربنسي، وغابرييل دولافال، ونساء أخريات، قاتلن إلى جانب الرجال المارسيليين، وانقذوا مدينتهم.

وفي اثناء الحروب الدينية، لعبت النساء دوراً كبيراً. فقد قامت عدة سيدات نبيلات بانشاء سرايا وكتائب على نفقتهن الخاصة، ودفعنها إلى قتال المنشقين أو البروتستانت، كمثل ما فعلت كاترين دوكليرمون تونير، دوقة ريتز، وكلودين دولاتور دوتورين، كونتيسة تورنون. وقد قادت مارغو دوليي نساء مدينة مونتيليمار «واجبرن الأميرال دوكوليني الذي كان يحاصر المدينة على رأس البروتستانت على الانسحاب. وقد فقدِ الأميرال احدى ذراعيه في المعركة عام ١٥٦٩»[٢٠٧].

وقد برهنت كاترين دو ميديسيس على شجاعة فائقة حينما خطبت في الجنود تحت نيران المدافع اثناء حصار مدينة روين. وتميزت نساء جنديات اخريات واشتهرن اثناءحكم لويس الثالث عشر. ولنذكر، على سبيل المثال، السيدة دوسان باستيمون التي صمدت، عام ١٦٢٦، صموداً ظافراً أمام محاصرة قصرها في نوفيل، فقد جرحت خمس مرات، وطارت قبعتها برصاصة.

ولعبت النساء دوراً كبيراً في حرب المقلاع ما بين عام ١٦٤٨ و١٦٥٣. فقد اشارت النساء باحتلال مدينة كوندي وتورين. ولكن الدوقة دومونبانسييه، المعروفة بالآنسة العظيمة، والتي اشتهرت آنذاك بحبها للقتال، انقذت الموقف. ولم تكن هذه المرأة جميلة، ولكنها كانت طموحة. وحينما عارض مازارين زواجها بلويس الرابع عشر، اعلنت العصيان. وقد استطاعت هذه المرأة بتدخلها الرائع يوم ٢ تموز ١٦٥٢، ان تنقذ كوندي من السقوط.

لقد اصبح الجيش الملكي في عهد لويس الرابع عشر، تحت قيادة لوفوا، انموذجاً يحتذى به في الدول الأخرى. فقد كان جيشاً محترفاً. وكانت نساء عديدات، من اجل ان يتبعن ازواجهن أو عشاقهن إلى الحرب، يخفين معالمهن كنساء تحت البزة العسكرية، ويقاتلن بشجاعة مثل شجاعة الرجال.

---

(٢٠٧) كلاين- روبور، المرجع ذاته، ص ١٢.

ويذكر كلاين- روبور[٢٠٨] حالة جو نيفييف بريموي التي تطوعت في لواء العقيد دوكوندي- دراغون، تحت اسم مستعار هو الفارس بالتازار، وكان عمرها آنذاك ستة عشر عاماً. وقد جرحت اثناء حصار مدينة إيبر، وعندما استعادت قواها، قتلت ضابطاً عدواً، واصابت آخر وأسرته، وقد اثنى عليها المرشال دوميير وهنأها امام اللواء. وقد تميز «الفارس بالتازار» اثناء حصار مدينة فالانسيين، وبرز أمام انظار لويس الرابع عشر. وفي مدينة ليل، بالرغم من انها اصيبت بضربة سيف، استطاعت ان تمنع التراجع، واسرت بعض رجال العدو، مما رشحها لأن تكون حاملة راية اللواء. وبعد معركة نيميغ رُفعت جونيفييف إلى رتبة ملازم، وكانت قد استولت على بطارية معادية، وسيفها مشهور بيدها. وقد جُرحت مرات عدة في رأسها وثديها، وقتل حصانها وكانت تمتطي صهوته. واستقبلت في بلاط لويس الرابع عشر، وكان هذا شرفاً عظيماً بالنسبة لضابط صغير الرتبة. وقد بلغ مجموع خدمتها في الجيش سبعة وعشرين عاماً.

وفي القرن الثامن عشر، اشتهرت كاترين الثانية في روسيا، بشخصيتها القوية. وكان عهدها رائعاً، ولكن لا بد من ان نلاحظ أنه لم يكن خالياً من الحروب. ويمكننا أن نتحدث أكثر عن امبراطورة النمسا ماري- تيريز، التي قادت بنجاح حربين جد طويلتين: حرب وراثة عرش النمسا (١٧٤٠-١٧٤٨)، وحرب السنوات السبع (١٧٥٦-١٧٦٣).

ودافعت كريستين جيلينشتيرنا زوجة شتيرن شتور والوصية على عرش السويد (١٤٩٤- ١٥٥٩) عن استوكهولم ضد هجوم كريستيان الثاني دفاعاً بطولياً.

ويمكننا ان نضاعف الأمثلة عن النساء اللواتي فعلن فعل الرجال، فقدن المعارك، أو سقطن فيها، أو قمن بالحروب بصفتهن حاكمات.

وقد يكون مناسباً من اجل دراسة العدوانية عند النساء أن نتوقف قليلاً عند مسألة المبارزة. فهذا القتال الذي يتبارز فيه شخصان، كان يجري سابقاً وفق قواعد شكلت خطوة اولى نحو وضع قواعد للعنف. فبعد مبارزات القرن الخامس عشر التي لم تكن، في اغلب الاحيان، اكثر من هجمات قتل، اصبح للقتال الفردي طقوس وتقاليد. اذ كثيراً ما

---

(٢٠٨) المرجع ذاته، ص ١٦ وما بعدها.

كان يتقاتل الفرسان بالمبارزة، رأساً لرأس، من اجل اهانة وجهت إلى امرأة. وكانت النساء، بشكل مباشر أو غير مباشر، سبباً كثير الحدوث للمبارزات بين الرجال. وتحتفظ كثير من النساء بحبهن للمبارزين الذين يتوجب عليهم أن يقتلوا سبعة أو ثمانية أعداء، ليكونوا جديرين بهذا الحب، حتى ان بعضهن يرفضن الزواج برجل لم يقتل بعد رجلاً في مبارزة(٢٠٩).

وتوجد ايضاً مبارزات بين النساء. وقد ذكر بالديك(٢١٠) حادثة مبارزة بالسكاكين، وقعت عام ١٧٧٢ بين آنستين هما جيني وديغييون، وقد جرحتا في المبارزة التي كان سببها نزاع على مسألة الأسبقية، أي سلم المراتب، وبكلمة اخرى، السيطرة.

وهكذا تكثر الأمثلة التي تثبت انه، منذ اقدم الازمان وحتى الثورة الفرنسية، كانت النساء تتقاتل مثل الرجال. وهذه النقطة تسترعي الانتباه.

خلقت ثورة ١٧٨٩ في فرانسا جواً من الحماسة اشتركت فيه النساء اشتراكاً واسعاً. وقد تلقت الجمعية التشريعية، في ٦ آذار ١٧٩٢، عريضة تحمل ثلاثمائة واربعة تواقيع، وقد كتبت بتعابير مُبيِّنة:

«ايها المشرعون!.

اننا نساء مواطنات نتقدم إليكم مطالبين بان يتوفر لكل فرد حق الدفاع عن حياته وحريته.

ان كل شيء يبدو وكأن هناك صدمة عنيفة وقريبة ستحدث. فآباؤنا، وازواجنا، واخوتنا، قد يكونون ضحايا عنف اعدائنا، فهل يمكن أن تحجب عنا حلاوة الثأر لهم، او الموت إلى جانبهم؟... وفيما يلي ما نأمل في الحصول عليه من عدالتكم وانصافكم:

١ـ السماح بتسليحنا بالحراب، والمسدسات، والسيوف، وحتى بالبنادق للواتي لديهن القدرة على استعمالها، وتطبيق انظمة الشرطة علينا.

٢ـ جمعنا في الأعياد أيام الآحاد لنتمرن على استعمال هذه الاسلحة.

---

(٢٠٩) روبير بالديك، «المبارزة وتاريخها»، نشر شبمان وهال، لندن، ١٩٦٥، ص ٥٩.

(٢١٠) المرجع ذاته، ص ١٧٣.

٣ـتسمية الحارسات الفرنسيات اللواتي سيتولين قيادتنا . . .»[٢١١].

لقد انتهت حروب الملوك، وبدأت حروب الشعوب. فهناك مجموعة مؤلفة من اكثر من ثلاثمائة امرأة، تطالب بحق اخذ الثأر للآباء والازواج والإخوة، أو حق الموت إلى جانبهم. وليس الأمر، كما كان في السابق، يقتصر على عدة نساء، يلقين بانفسهن في المعركة بدافع اليأس، وفي لحظة شجاعة، وبصفتهن الفردية، وخلال حصار (أي حينما تكون «ارضهن» مهددة). ان الأمر هنا مختلف عن ذلك كل الاختلاف، فهو يتعلق بمجموعة ثلاثمائة امرأة، طغت عليهن حماسة جماعية فائقة، يطالبن بالاسلحة ليشتركن في قتال ينتظرن أن يحدث. وقد رسَّخت الثورة الفرنسية المنعطف الذي اتخذته الظاهرة الاجتماعية ـ الحرب، بعريضة النساء هذه، واصبح ذلك واضحاً.

وقد لاحظ الرائد دولاندريسي يوم ٢٧ آب ١٧٩٣ أن:

«الحماسة الوطنية تعمر جميع القلوب. حتى النساء يتنافسن على اثبات اخلاصهن للقضايا العامة. فيوم أمس، لم نستطع منعهن عن هدفهن إلا بصعوبة بالغة، فقد كن يردن الزحف على الاعداء، ليقضين عليهم، او ليمتن دون ذلك»[٢١٢].

وقد حدث في وقت من الأوقات، ان اعيد كثير من النساء الجنديات إلى بيوتهن. وقد عهد إلى النساء، بموجب القرار المشهور الصادر في ٢٣ آب ١٧٩٣، مهامّ غير قتالية، كالشؤون الادارية والخدمات الصحية.

«منذ الآن حتى يتم طرد الاعداء من اراضي الجمهورية، يعتبر جميع الفرنسيين في خدمة الجيوش بصورة دائمة. فالشبان يذهبون الى القتال، والرجال المتزوجون يصنعون الاسلحة وينقلون الامدادات والمؤن، والنساء يخطن الخيام والألبسة، ويعملن في المستشفيات، والعجائز يتجمعون في الساحات العامة ليثيروا حماسة المحاربين، والحقد على الملوك، وليدعوا إلى وحدة الجمهورية».

---

(٢١١) المجلة التاريخية للجيش الفرنسي، ١٩٦٠، العدد الثاني «النساء الجنديات في التاريخ» مقالة كلاين ـ روبور، ص ٤.

(٢١٢) كلاين روبور، المجلة التاريخية، العدد الثاني، المرجع ذاته، ص ٤.

وبموجب تقسيم العمل الذي حدده هذا القرار بغية جعل الدفاع الكلي عن الأمة فعالاً بشكل كامل، لم يعد مكان عمل النساء في ساحات القتال وقد حملن الاسلحة في ايديهن، وانما اصبح في المؤخرة، أي في المعامل والمستشفيات. وبالرغم من هذا كله، فان هناك نساءً لم يكتفين بدعم المقاتلين، وانما قاتلن إلى جانبهم بحماسة وشجاعة فائقتين. وكانت حماستهن في المعارك رائعة، فكثير منهن، بالرغم مما أصابهن من جروح خطيرة، تابعن القتال. وبعضهن، مثل دوكو- لابورد، لم يترددن في الالقاء بأنفسهن، شاهرات سيوفهن، على مجموعات من الفرسان، لينقذن رفاقهن الذكور الذين وقعوا أسرى. وهناك نساء أخريات، مثل السيدة فافر، انتخبن من قبل الجنود، بسبب كفاءتهن، لمناصب معاونة القادة.

ومن جميع النساء الجنديات اللواتي اشتهرن اثناء الثورة وفي عهد الأمبراطورية، تستحق ماري- جان شيلينغ بان تذكر كمثل. وقد ولدت شيلينغ في غاند عام ١٧٥٧، ودخلت الخدمة العسكرية في الفوج البلجيكي الثاني عام ١٧٩٢. وخلال الفترة الواقعة بين ١٧٩٢ و١٨٠٧ اشتركت، عملياً، في جميع المعارك والحملات.

حازت ماري- جان شيلينغ على رتبة ملازم، وعلى جوقة الشرف من رتبة فارس، وورد اسمها في الأمر اليومي في أركول، وجُرحت في عدة مناسبات في جيماب وفينا، وكانت موضع اعجاب رفاقها.

وقد خاطبها نابوليون، حينما سلمها جوقة الشرف، قائلاً:

«سيدتي، اقدم إليك معاشاً مقداره ٧٠٠ فرنك، وجوقة الشرف من رتبة فارس. خذي من يدي نجمة الشجعان التي نلتها بشرف».

ثم التفت إلى الألوية والفرقاء والمشيرين من هيئة اركانه، واضاف قائلاً: (٢١٣)

«أيها السادة، انحنوا باحترام أمام هذه المرأة الشجاعة، إنها أحد أمجاد الأمبراطورية».

لم تكن النساء العاملات في مطاعم الجنود نساء جنديات بكل معنى الكلمة، طالما

---

(٢١٣) كلاين- روبور، المرجع ذاته، ص ١٦.

أنهن لم ينخرطن في الخدمة ليقاتلن. ولكن هذا لم يمنع عدداً منهن من الاشتراك في القتال، والسلاح في أيديهن، بينما راحت اخريات ينقذن الجرحى تحت نيران العدو.

هذا من جانب الثائرين والمؤيدين للثورة. أما في الجانب المعارض للثورة، فقد كانت هناك نساء جنديات كثيرات اثبتن ضراوة في الصراع. وقد حفظ التاريخ اسماءهن، واشهرهن اسمها رونيه بورديرو، المعروفة باسم لانجوفان. وقد قتل جميع أفراد أسرتها أمام عينيها، فراحت تقاتل تحت إمرة ليسكور. واشتركت في معارك عدة، وجرحت في مناسبات كثيرة. وقد تركت مذكرات جاء فيها:

«في سانت- ميلاني قرب بويساك، لقيت عمي على رأس سرية جمهورية، فقطعت عنقه دون أن ينبس ببنت شفة... وفي جسر سي، قتلت هذا اليوم ٢١...»[٢١٤].

بعد عام ١٧٨٩، لم تعد الحرب شأن الملك أو النبلاء، فقد اصبح الشعب بكامله يشترك فيها. فقد كانت النساء الجنديات في عهد الثورة والأمبراطورية ينتسبن إلى جميع الطبقات الاجتماعية. وحتى يتمكنّ من القتال إلى جانب الرجال، فقد كنّ، احياناً، مجبرات على التستر على جنسهن بارتداء بزة عسكرية رجالية.

وقد تميزت النساء الجنديات في تلك الفترة بنشاطهن الجنسي، الذي يمكن ربطه، جزئياً، بشروط وظروف حياتهن الخاصة، وبنيتهن القوية. وقد ماتت كثيرات منهن في سن متقدمة، وبخاصة في تلك الفترة (لانجوفان ٨٧ سنة، جوزفين ترينكار ٨٠ سنة، ماري شيلينغ ٨٣ سنة، اليزابيت هيتزلر ٩١ سنة، تيريز فيغور المشهورة باسم «سان- جين» ٨٧ سنة، أنجيليك برولون ٨٧ سنة، الخ...).

وفي تلك الفترة، لم يكن وجود النساء اللواتي يقاتلن بشجاعة إلى جانب الرجال، مقتصراً على فرنسا فحسب، ففي اسبانيا، اثناء حصار ساراغوس، لم تكتف النساء بتحريض ازواجهن وابنائهن على المقاومة حتى النهاية فحسب، وانما دفعن حياتهن ببسالة من اجل ذلك. ولم تظهر النساء الروسيات شجاعة أقل من ذلك في الدفاع عن وطنهن.

---

(٢١٤) كلاين- روبور، المرجع ذاته، ص ٢٧.

ويمكن الاستنتاج انه اثناء فترة الثورة والأمبراطورية كانت النساء الجنديات موجودات في كل مكان، وبخاصة في احوال رد المحاصرين أو الغزاة عن ارض الوطن.

وقد اشتركت النساء في الحملات على القرم، وايطاليا، والمكسيك، والجزائر، وحرب ١٨٧٠- ١٨٧١[٢١٥]. واظهرن كثيراً من القابلية للقتال، والجرأة، والشجاعة، مثلهن في ذلك مثل الرجال. حتى ان بعضهن، بعد عودتهن من القتال إلى بيوتهن، أخذن يسعين للالتحاق بحملة غازية، ليستعدن مرة ثانية تلك الحياة المليئة بالأخطار التي عرفنها. ولكن الاتجاه نحو رفض اعطاء النساء دوراً قتالياً إيجابياً، وقصر دورهن على الأعمال الثانوية المساعدة، أخذ يترسخ أكثر فأكثر.

وخلال حرب ١٩١٤- ١٩١٨ بقيت النساء خلف جبهة الجيوش. وفي جميع الأحوال فقد اشتركت بعضهن بشكل مباشر في الصراع، وذلك بمساعدة الأسرى الحلفاء على الهرب والالتحاق بوحداتهم المقاتلة. ولنذكر، على سبيل المثال، ايديث كافيل، وغابرييل بوتي اللتين قدمتا حياتيهما ثمناً لنشاطهما الوطني.

وقد غيرّ تطور الاسلحة دور النساء في الحرب[٢١٦]، فهناك عشرة ملايين رجل كان عليهم أن يهجروا حقولهم ومعاملهم، فحلت النساء محلهم. ولم يكن بمقدور الانتاج الزراعي والصناعي أن يلبي الطلبات الجديدة، إلا اذا حلت النساء محل الرجال في جميع مجالات النشاط الوطني تقريباً.

ففي فرانسا، حثت الحكومة النساء على العمل من اجل النصر. وقد تشكلت جمعيات، مثل جمعية التجنيد الطوعي للفرنسيات لخدمة الوطن، ساعدت على تعبئة جميع الطاقات لصالح القتال. وعملت النساء في الحقول، وادرن المصانع، وخرطن القنابل، بشجاعة لم يشك فيها أحد قط. لقد صنعن اقنعة الغاز، والمعدات والتجهيزات، والخوذات، والاعشاب والاشجار التمويهية، وطلقات البنادق، والصواريخ، والقنابل المنثارة. وباختصار، لقد صنعن الاسلحة، واعددن المؤن والذخائر.

---

(٢١٥) راجع المقالة الثالثة لكلاين- روبور في المجلة التاريخية للجيش، العدد ٣، ١٩٦٠، ص ٥٧ وما بعدها.
(٢١٦) غابرييل بيرو، «الحياة اليومية للمدنيين في فرانسا اثناء الحرب العظمى»، هاشيت، ١٩٦٦.

وفي مطلع شهر آذار ١٩١٧، كان يوجد بين مليون ونصف مليون عامل في المصانع الحربية ربع مليون أمرأة. وقد اوجز المارشال جوفر اهمية اسهام النساء الفرنسيات في الدفاع عن بلادهن، فقال:

«لو أن النساءاللواتي كن يعملن في المصانع توقفن عن العمل عشرين دقيقة، لكان الحلفاء خسروا الحرب».

وكانت النساء في حرب ١٨٧٠- ١٨٧١ يعملن في الصليب الأحمر. وخلال الحرب العالمية الأولى اثبتت «السيدات ذوات الثوب الابيض في الصليب الأحمر» شجاعة من نوع آخر تختلف عن الشجاعة المطلوبة من المقاتل، ولكنها لا تقل عنها استحقاقاً للتقدير. فقد عملت هؤلاء النسوة في تنظيف جروح الجرحى، ونزع ثيابهم الملوثة بالدم والملأى بالقمل وغيره من الهوام، وحلق ذقونهم، وتنظيف ارجلهم من الأوحال العالقة بها. وكان عليهن ان يحضرن، دون أن تخور قواهن، عمليات بتر الاعضاء، وشق البطون. وكان هناك جرحى لا يستطيعون حراكاً، فتوجب على هؤلاء السيدات أن يسقينهم، ويطعمنهم، وينظفنهم، ثم يغسلن الأوعية والثياب. وباختصار، فان هؤلاء الممرضات اللواتي تم اعدادهن على عجل، قمن بخدمة من الطراز الأول في ذلك النضال العظيم الذي تطوعن فيه. غير أنه من الصعب ان نفهم كيف كان لدى هؤلاء النساء، اللواتي كن في الغالب ولا عمل لهن، أو كن مجرد ربات بيوت عاديات، او فتيات صغيرات ليس لديهن أية تجربة في الحياة، القوة والشجاعة لممارسة مهنة حساسة كمهنة التمريض، ولم يكن قد اعددن لها انفسهن سابقاً.

ولقد لعبت النساء، كمحرضات على القتال، دوراً هاماً في الحرب العالمية الأولى. فالنساء، وعلى الأخص «نساء الشعب»، لم يكنّ يوفرن اية وسيلة لاهانة الرجل الهارب من القتال.

«ان عدالة العالم النسائي تسيطر على شخصية المرأة. اذ تكفي نظرات خفية أو قاتلة، او انعكاسات تلقيها المرأة مباشرة على الرجل الذي كمن في عزلة ينأى فيها عن ساحة القتال، لتشكل حوله دائرة من التوبيخ والتأنيب لا يستطيع الفكاك منها بسهولة. لقد كانت هناك اعتداءات صريحة على امثال هذا الرجل، وكان هناك خداعون وماكرون

يظهرون بوجهين. لهذا فقد بلغت رسائل التشهير ثلاثين الف رسالة في كل ربع من عام ١٩١٥ . . .»[٢١٧].

وهناك طريقة أخرى لتشجيع الرجال على الذهاب إلى القتال، كانت موضع تقدير واعجاب النساء من اجل المقاتلين بعامة، والجرحى بخاصة، تلك هي زواج الممرضات بمرضاهم، وقد كثرت وقائع هذا الزواج. وكانت هناك حالات رائعة عن «اتحاد حيث انبثق الحب فيه من الاعجاب والرغبة في الإخلاص» ذكرها بيرو[٢١٨] فقد تزوجت مدرِّسة من مستغانم ضابطاً من الخيالة، فُقئت عيناه، وبترت ذراعاه. وتزوج اعمى ممرضة، ووقف رفاقه العميان الاثنا عشر كصف شرف لتحيته وعروسه السعيدة. وتزوجت ابنة مؤلف موسيقي كبير طالباً شوه وجهه تشويهاً مرعباً. وتُظهر هذه الأمثلة إلى أي حد تستطيع الحماسة الوطنية لدى النساء أن تبلغ.

وقد تكفلت المراسلات الحربيات (وهن الفتيات والسيدات اللواتي يتبرعن للكتابة إلى الجنود في الحرب) بتقوية معنويات المقاتلين. وهن ينتسبن إلى جميع طبقات المجتمع. فالنساء جميعهن يردن ان يكون لكل منهن ابن مُتبنىً، بالحرب، يبعثن إليه بالرسائل وبالطرود الهدايا التي تحمل بعض المأكولات، والأوشحة، والألبسة الصوفية. واثناء الاجازات التي ينالها هذا الابن اُلمتَبنى، بالحرب، يحل ضيفاً على الأسرة التي تبنته، مع كل النتائج التي تنتج عن ذلك بالضرورة. وكثير من هؤلاء النساء «يعتقدن انهن يقمن بواجب وطني حينما يعملن، سواء باتباع الشكليات القانونية او بدونها، على الترويح عن المحارب»[٢١٩].

وتفضل مراسلات الحرب الطيارين على غيرهم من الجنود، لأن مهمتهم الرائعة؛ واوسمتهم، ولباسهم، واسطورة الطيران، تجذبهن وتفتنهن. وتفضل الفرنسيات، من بين الاجانب، البلجيكيين. غير أنه منذ عام ١٩١٧، اصبح الأميركيون «موضع البحث عنهم

---

(٢١٧) غابرييل بيرو، المرجع ذاته، ص ٢٤٩.

(٢١٨) المرجع ذاته، ص ٥٣ وما بعدها.

(٢١٩) غابرييل بيرو، المرجع ذاته، ص ٤١.

والسعي إليهم، وذلك بسبب تكوينهم الجسماني، وسعياً وراء الفضول، والاستطلاع، ومن اجل دولاراتهم أيضاً»[٢٢٠].

ان النتائج الاجتماعية لاشتراك النساء في حرب ١٩١٤-١٩١٨ ذات اهمية فائقة. فخلال عدة اعوام، ظلت النساء منفصلات عن الرجال. وفي الوقت ذاته، بلغ التماسك الاجتماعي مستوى رائعاً. ووجدت حوادث الأمراض العقلية، والايحاء، والمحاكاة، ارضاً صالحة عند مجموعات العاملات، والممرضات، والموظفات. واكتشفت كثير من النساء، بفضل عملهن الخاص، انهن يستطعن ان يصبحن مستقلات عن ازواجهن. وقد اعطى تبدل العادات، والاتصالات الجديدة، والتقاليد المختلفة، الناتجة عن المناخ الخاص لسنوات الحرب الاربع، عقلية النساء توجهاً جديداً.

سارت الحرب العالمية الأولى خطوة هامة في طريق تحسين الوضع الاجتماعي للمرأة وتحقيق المساواة بين الجنسين. وقد احتدمت المناقشة بشأن الحرية الجنسية للمرأة، وذلك بسبب الفرق العددي بين النساء والرجال في إثر الخسائر التي حلت بالجيوش. يضاف إلى ذلك، ان عادات جديدة نشأت اثناء الحرب واستمرت بعدها. وكانت نساء ارامل كثيرات اصبحن، بقوة الواقع، صاحبات أُسَر، مما اجبرهن على الاستمرار في تحمل مسؤولية أسرهن، تلك المسؤولية التي لم يكنَّ يعرفنها قبل الحرب. وعادت أخريات إلى حياتهن العائلية إلى جانب ازواجهن، وتخلين عن الدور الذي قمن به أثناء الحرب. وقد غدون الآن اكثر ثقة بأنفسهن، بعد التجربة التي اكتسبنها.

وقد نشأت حركات نسائية حددت لنفسها هدفاً هو تحرير المرأة مدنياً واجتماعياً وسياسياً[٢٢١].

ولقد جاءت الحرب العالمية الثانية مختلفة عن حرب ١٩١٤-١٩١٨. فقد اصبح المدنيون فيها هدفاً عسكرياً. وتجاوزت الخسائر في ارواح المدنيين في فرنسا، وهولندا، وبلجيكا، والنرويج، وتشيكوسلوفاكيا، ويوغوسلافيا، واليونان، والاتحاد السوفييتي،

---

(٢٢٠) غابرييل بيرو، المرجع ذاته، ص ٤٢.

(٢٢١) من اجل معرفة هذه التطورات، انظر الجزء الثالث من «مذكرات اوروبية» تأليف لويز فايس- بايو، ١٩٧٠.

الخسائر العسكرية تجاوزاً كبيراً. ولنذكر، على سبيل المثال، بعض الحالات، فقد خسرت بلجيكا ٩٠٠٠ عسكري مقابل ٥٠٠٠٠ مدني، وخسرت هولندا ٣٠٠٠ عسكري مقابل ١٩٧٠٠٠ مدني، وفرنسا ٢٣٨٠٠٠ عسكري مقابل ٤١٥٠٠٠ مدني، والاتحاد السوفييتي ٧٠٠٠٠٠٠ عسكري مقابل ١٨٣٠٠٠٠٠ مدني[٢٢٢].

ولم تكن ملايين النساء وحدهن فقط ضحايا مباشرين لأعمال العدو، ومهددات بحياتهن دوماً، وانما اولادهن واهلهن ايضاً كانت حياتهم معرضة للخطر، لأنه لم يكن هناك إنسان قط في منجى من الخطر.

ولأول مرة في التاريخ، اصبح الموت والدمار، بفضل تقدم الطيران، مثل سيف دموكليس، معلقاً بصورة دائمة فوق رؤوس النساء. وقد كان الناس غير المقاتلين، حتى الحرب العالمية الثانية، محميين من ضربات العدو المباشرة. حتى اذا حل عام ١٩٤٠ تغير كل شيء. فبينما كان الجنود يعملون في الجبهات على ايقاف غزو التراب الوطني، هاجم الطيرآن المعادي ارتال اللاجئين وضرب بيوت المقاتلين بعيداً وراء الجبهة.

لقد اصبح القضاء على السكان وارهابهم جزءاً من تكتيك جديد. ولم يعد استعمال النار حكراً على العسكري وحده. والنساء اللواتي عشن مآسي هيروشيما، وناغازاكي، او قصف لندن، او كوفنتري، او هامبورغ، أو درسرن، شاهدن بعيونهن دماراً وموتاً لا يستطيع بعض العسكريين أن يكوِّنوا لانفسهم فكرة عنها. وقد اصبح قتل الناس، وتدمير الممتلكات، بالنسبة للطيار في الحرب العالمية الثانية، عملية هي في الوقت ذاته تكنيكية ومجهولة النتائج، لأنه لا يرى جثث المدنيين الذين يقصفهم. كما اصبح القتل اللاشخصي من مسافات بغيدة متطوراً إلى حد انه لم يعد ممكناً حماية النساء والمسنين والاولاد بابعادهم إلى أمكنة أخرى.

وأمام هذه الحالة الجديدة، اصبحت الحرب قضية الجميع.

وفي بادىء الأمر، اشتركت النساء في المقاومة جنباً إلى جنب مع الرجال في الاراضي التي احتلها العدو. ففي بلجيكا، كان ١٠٪ من عناصر اجهزة المخابرات من إلنساء،

---

(٢٢٢) غراند- جان، المرجع ذاته، ص ٤٤.

وكثيرات منهن قمن باعمال نقل الرسائل الخطيرة. ووضعت نساء أخريات بيوتهن تحت تصرف عملاء المخابرات، الذين يختفون بعد ان يكونوا قد بلغوا رسائلهم بالراديو إلى لندن. أما هؤلاء النسوة اللواتي قدمن بيوتهن ملجأ لعملاء المخابرات، فيبقين حيث هن معرضات انفسهن لخطر التوقيف. وعملت بعض النساء دليلات لطياري الحلفاء (الذين أصيبت طائراتهم واستطاعوا النجاة بواسطة المظلات) لمساعدتهم على العودة إلى انكلترا. واوقفت نساء كثيرات. وقامت امهات عديدات متهمات بالنشاط الوطني، بالهرب من المناطق المحتلة والالتحاق بلندن بعد اجتياز جبال البيرينيه سيراً على الاقدام وبعد سجنهن في اسبانيا. وفي بريطانيا كان التضامن في النضال رائعاً. اذ لم تكتف النساء بالقيام بحماية بيوتهن بواسطة الخدمة بنشاط في اجهزة الحماية المدنية، والعمل في الحقول والمصانع، وانما تطوعن للخدمة في القوات المسلحة. وفرضت الديموقراطية الانكليزية ما لم يجرؤ الدكتاتوران الالماني والايطالي على فعله، اذ جعلت الخدمة العسكرية كلها خدمة قتالية، وهذا أمر لا سابقة له في التاريخ. وهكذا اصبحت النساء يتلقين تدريباً عسكرياً في الثكنات، ويرتدين البزة العسكرية، ويبحرن في اليم، ويكافحن الحرائق، ويطلقن المدافع، مثلما يفعل الرجال تماماً. وخضعن لانضباط جد صارم. وبلغ عدد النساء البريطانيات العاملات في القوات المسلحة خلال الحرب ٥٠٠٠٠٠ امرأة، ثلثهن في الوحدات المضادة للطائرات. وهكذا عرفت اكثر من نصف مليون امرأة بريطانية حياة العسكري المقاتل، وهذا أمر لم يسبق له مثيل في التاريخ، كما أن منعكساته الاجتماعية-النفسانية ابعد من أن تعرف بسهولة.

وكان سلوك النساء الجنديات مماثلاً، في اغلب الأحيان، وفي جميع المجالات، لسلوك الجنود الذكور.

وقد نشأ عن العيش ضمن مجموعات ضرورات اجتماعية جديدة. فالانحرافات العقلية فرضت بعض التصرفات التي لم تكن النساء يستوعبنها. وفي مجال العلاقات الجنسية، لم يكن لدى النساء الجنديات ما يغري الرجال بهن. وكان اظهار الحرية الجنسية العدوانية وسيلة لإثبات الذات، ولتأكيد هذه الحرية. وقد اخذ بعضهن يحتسين الخمور، وراحت اخريات يثرن الأشتباكات. ويمكن القول بايجاز، بان النساء العاملات في القوات

المسلحة، كن يسلكن، سواء عن وعي أو غير وعي، سلوك الجنود الحقيقيين بكل ما في الكلمة من معنى.

لقد كان أمراً عجيباً أن تتذوق النساء الحياة المغامرة المليئة بالمخاطر التي عرفنها. وقد روت السيدة ماسو[٢٢٣]، في كتابها «عندما كنت روشامبيل» قصة مجموعة مؤلفة من اربع واربعين امرأة تطوعن في الولايات المتحدة الأميركية للعمل في الاسعاف، واشتركن في عمليات الفرقة المدرعة الثانية بقيادة الجنرال لوكلير. ومن نيويورك إلى بيرشتيسفادن، برهنت هؤلاء النسوة عن شجاعة رائعة. وعندما اعلنت الهدنة في ٨ أيار، كتبت السيدة ماسو تقول:

«وفي إطار من النشوة الشاملة، استدعيت «عائلة روشامبيل»، وكنا مجتمعات كلنا تقريباً، في غرفة من بيتهن الصغير. كان الجو حزيناً: فقد قالت احداهن دون ان يبدو عليها الاقتناع: «انه لشيء رائع، انه السلام»، وقد سقط صوتها على صمت مطبق. وقالت أخرى وهي تبكي «سنعود إلى بيوتنا». وشعرت لأول مرة ان المعنويات ستنهار، ولمعت في ذهني فكرة: «يبدو ان الجنرال لوكلير سيجند متطوعات للهند الصينية». لقد كانت كلماتي هذه ساحرة. . . فارتفعت نحوي جميع الجباه، ولمعت العيون. وبهذا الأمل المشجع، احتفلنا بالنصر والسلام».

ان السلام المُضْجِر ليس مقبولاً إلا لأن الحرب تلوح في الأفق من جديد.

وهؤلاء النسوة، اللواتي عرفن، طيلة أشهر عدة، التعب، وعشن في جو الخطر الدائم، وحاذَيْن الموت بلا انقطاع، تملكهن الخوف من العودة إلى حياة لا اضطراب فيها، وتسير على وتيرة واحدة بشكل محزن.

بعد ان انتهى القتال، استمرت بعض النساء في الخدمة في القوات المسلحة. فبعد ان عملت ٢١٠٠٠٠ امرأة في القوات البرية خلال الحرب العالمية الثانية، وشغلن مائة واربع عشرة وظيفة مختلفة، قرر البرلمان البريطاني ان تضم هذه القوات نساء يعملن فيها.

---

(٢٢٣) من منشورات بيرنار غراسيه، باريز (انظر ص ٢٥٥).

ثم شمل هذا القوات الجوية. وسلكت السلوك نفسه الولايات المتحدة وفرنسا، تقبلت النساء أفراداً في قواتها المسلحة.

وهكذا نتج عن الحرب العالمية الثانية مطلب عجيب، فقد طالبت النساء بحق الخدمة في القوات المسلحة في زمن السلم!(٢٢٤).

ولكن إلى جانب النساء الجنديات، كان هنا ضحايا. فقد عرفت آلاف النساء معسكرات الابادة، وبخاصة في زافينسبروك، وأوشفيتز. فمن بين ٢٥٦٥٩ بلجيكياً دخلوا معسكر أوشفيتز، كان هناك ٤٧٥٨ ولداً من الجنسين أعمارهم أقل من ١٦ عاماً، و١٠٢٨٢ امرأة. ومن بين هذا العدد من النساء، بقي على قيد الحياة ٤٧٧ امرأة فقط (أي اقل من ٥٪).

وقد قدمت السيدة ماري- كلود فايان- كوتورييه، حاملة جوقة الشرف من رتبة فارس، ونائبة السين، والتي قضت سبعة وعشرين شهراً في معسكرات التجمع، شهادة في محكمة نورمبورغ، نقتطف منها الوقائع التالية(٢٢٥):

آ)- «من اصل قافلة مؤلفة من ٢٣٠ فرنسية ارسلن الى اوشفيتز يوم ٢٣ كانون الثاني ١٩٤٣، لم يعد منهن سوى ٤٩ فقط (أي ٢١٪)»

ب)- «أُخْضعت هؤلاء النساء لظروف وشروط للعيش غير إنسانية، وهي ظروف وشروط معروفة جيداً».

ج)- «طيلة أوقات العمل، كان أفراد الصاعقة الألمانية، رجالاً ونساءً، الذين كانوا يراقبوننا، يضربوننا بالهراوات، ويطلقون علينا الكلاب». «وكانت المراقبات يضربننا مثل الرجال، وكان الرجال يقلدن النساء في ضربنا. وكانت النساء اكثر وحشية من الرجال. ولم يكن هناك فرق بين الجنسين».

---

(٢٢٤) راجع في مجلة القوات النسائية الفرنسية «بولون» لشهر كانون الثاني- شباط ١٩٥٦، العدد ٣٤ وما بعده، مقالات سيمون روبان.

(٢٢٥) راجع: «الف وجه، ومعركة واحدة»، النساء في المقاومة، وقائع روتها سيمون بيرتراند، نشر: الناشرون الفرنسيون المتحدون، باريز، ١٩٦٥، ص ١٢ وما بعدها.

د)-«وكنا نرى اكوام الجثث تملأ الباحة. ومن حين لآخر، كانت يد، أو رأس، من بين هذه الجثث تحاول أن تنهض. انها جثة امرأة على وشك الموت، تسعى الى الخروج من الكومة لتعيش... وكنا نرى الجرذان الكبيرة بحجم القطط، تتراكض وتنهش الجثث، بما فيها الجثث التي تلفظ انفاسها، دون أن يكون لهذه الجثث القوة لتدفع عنها الجرذان...».

هـ)-«وكانت النساء يعقّمن حتى ينقطع نسلهن، سواء بالحقن، او العمليات، أو الاشعة... وكانت معنويات اللواتي تجُرى لهن عمليات جراحية قوية.».

و)-«كم كان في المعسكر من النساء بشكل اجمالي؟. لقد بلغ عددهن ساعة التحرير ١٠٥٠٠٠ امرأة ونيفاً».

من هذه الشواهد النموذجية، والتي اكدتها مئات الشواهد الأخرى، نستنتج أنه في الحرب العالمية الثانية:

-عانت مجموعة من النساء عمق الالم والرعب، في وقت كان فيه كثير من الرجال يقضون طيلة سنوات الحرب في بيوتهم.

-غيَّرت الأشهر والسنون التي قضتها النساء في معسكرات التجمع هذه، عقلية النساء المعتقلات تغييراً عميقاً. فقد عانين مركب الدونية الذي تحول، في بعض الحالات، إلى مركب الفوقية (الاستعلاء). وزاد التحرر بواسطة الألم تلاحم السجينات السياسيات القديمات، فتكتلن، بصورة عامة، على شكل جمعيات.

-كانت قساوة النساء المكلفات مراقبة السجينات تعادل، على الأقل، قساوة الرجال من قوات الصاعقة.

ويمكننا القول، استناداً إلى الاحصاءات الجزئية التي اعلنها وزيرا الصحة العامة والدفاع الوطني في بلجيكا، اننا يمكن أن نقدر بشكل اكيد أن اكثر من ١٠٪ من عملاء المخابرات، ومن المقاومين كانوا من النساء.

اننا أمام واقع جديد لم تعرف جميع منعكساته بعد. فمن الواضح ان غزو البلاد من

قبل النازيين اطلق العنان للمنعكس الحيواني في الدفاع عن «الارض». وعندما سئلت مقاومة شابة: «ما هو دليلك إلى البطولة؟»، اجابت: «بكل بساطة، انه ذلك الشيء الذي لا يطاق، انه الغزو، واحتلال مقاطعة بروتاني وفرنسا»[٢٢٦].

ان هذا الجواب، مثله في ذلك مثل العدوانية التي اظهرتها النساء في الدفاع عن مدينة محاصرة، توضح الاهمية التي يجب أن تعطى «للارض». وسنعود إلى هذه النقطة فيما بعد.

ولا بد هنا من ان نخص بالذكر موقف النساء السوفييتيات اثناء الحرب العالمية الثانية[٢٢٧]. والنساء في الاتحاد السوفييتي يتمتعن بالحقوق ذاتها التي يتمتع بها الرجال، وعليهن مثل ما على الرجال من واجبات. وهذا هو احد الأسباب الرئيسية لاشتراك النساء الروسيات الواسع في النضال ضد الجيوش النازية. ففي المعامل التي خلت من الرجال الذين ذهبوا الى القتال، كان على النساء أن يحتللن امكنة الرجال. وساقت المواطنات السوفييتيات القاطرات، واخرجن من الارض المعادن والفحم الحجري، وعملن في الحقول. وجندت النساء التي تراوحت اعمارهن بين ١٦ و٤٥ عاماً، واستوعب اقتصاد الحرب مئات الألوف منهن. وكان اسهام النساء الروسيات في العمل عنصراً هاماً في الانتاج الحربي.

وكانت النساء، حتى في زمن السلم، يخدمن في القوات المسلحة السوفييتية، وبخاصة في الخدمات الصحية ووحدات الاشارة والاتصال.

واثناء الحرب، شغلت هؤلاء النساء مناصب عسكرية متنوعة. فكن يشكلن القسم الاعظم من أفراد التشكيلات الصحية، ويعملن في هيئات الاركان، وينظمن سير الحركة على الطرقات. وبالاضافة إلى ذلك اشتركن في القتال إشتراكاً مباشراً في وحدات الدفاع ضد الطائرات، أو في التشكيلات القتالية النسائية، أو كراميات ماهرات.

---

(٢٢٦) سيمون بيرتراند، المرجع ذاته، ص ٢٨.

(٢٢٧) راجع لهذا الموضوع:

١) «الاتحاد السوفييتي في الحرب العالمية الثانية» في ٥ مجلدات، باريز، ١٩٦٧.

٢) «نساء في الحرب» تأليف ألبير مالواز. نشر لوفوا، باريز، ١٩٥٧، ص ٣١٥ وما بعدها.

وفي الجيش الأحمر، خدمت النساء كطيارات، وسادنات رشاشات، ورئيسات دبابات، وقائدات وحدات، ومارسن سلطتهن على زملائهن الذكور. واشتهرت نساء كثيرات بين الانصار، بجَلَدهن، وشجاعتهن، وشراستهن في القتال.

ومنحت الحكومة السوفييتية لقب «بطل الاتحاد السوفييتي» للنساء كما منحته للرجال.

وليس في الاتحاد السوفييتي أي فرق بين الرجال والنساء بسبب الجنس. والنساء الجنديات الروسيات جد بعيدات عن أن يكنّ عنصراً ثانوياً في الجيش، فبعضهن يعلّمن زملاءهن الذكور استعمال الاسلحة.

والسبب الثاني لاستبسال النساء السوفييتيات في الدفاع عن بلادهن هو، بلا ريب، ردة الفعل البيولوجية التي اثارها انتهاك ترابهنّ الوطني. وكانت ردة الفعل هذه عامة وشاملة. ففي المدن المحاصرة، كانت النساء موجودات في كل مكان ليشتركن في الدفاع. وقد اثار انتهاك التراب الوطني ردة الفعل ذاتها في كل مكان. وقد يكون احد الاسباب التي دعت إلى عدم حمل النساء الالمانيات الاسلحة الى جانب ازواجهن، هو أن هؤلاء الرجال كانوا يقاتلون خارج حدود بلادهم، وان البيوت الالمانية، نتيجة لذلك، لم تتعرض للتهديد.

مما سبق، تستطيع أن نستخلص العناصر التالية:

١ـتمر حركة تحرير المرأة في مرحلة تطور شامل، وقد ساعدت الحربان العالميتان هذه الحركة على التطور السريع.

٢ـخففتّ أهمية القوة الجسمانية في الحياة، مما ادى، في وقت واحد، إلى تنشيط حركة تحرير المرأة، وفتح الباب، عند الاقتضاء، لسوقهن كمقاتلات.

٣ـاستطاعت المرأة، إلى حد معين، ان تحصل على استقلاليتها السياسية والاقتصادية. وتوجد الآن وسائل مانعة للحمل منحت المرأة حرية جنسية لم تعهدها من قبل.

٤ـتسهم النساء، كعاملات مثقفات ويدويات، في الإعداد للحرب، حالهن في ذلك حال الرجال.

سبب الثورة التكنيكية التي نعيشها في الوقت الحاضر، أصبحت الحرب تهدد النساء تهديداً مباشراً، بينما كانت الجيوش، في الماضي، بإيقافها العدو عند الحدود، تنقذ غير المقاتلين من ضربات الخصم.

٦ـتوجد بين الحيوانات أنواع لا تقل عدوانية إناثها عن عدوانية ذكورها. وانثى الشمبانزي تثير عدوانية الذكور، واحياناً تسيطر عليها.

٧ـفي المجتمعات البدائية دفعت العوامل التالية القبائل إلى التقاتل: اسر النساء، الزنا والاغتصاب، الرغبة في الحصول على الحظوة عند النساء، التحريض الحربي الذي تثيره النساء.

٨ـغالباً ما تقاتل النساءُ بانفسهن، ويبدين قساوة لا تقل عن قساوة الرجال. ويبدو أن هذه الظاهرة عامة شاملة تظهر على مدار تاريخ الانسانية.

٩ـحولت الثورة الفرنسية تحويلاً عميقاً مجرى الحرب، اذ بدأت النساء يقاتلن، أو يزودن المقاتلين بالمؤن، ويشاركن في القتال، وبذلك لم تعد الحرب شأن الملوك، وانما اصبحت من شأن الشعوب.

١٠ـفي الحرب العالمية الأولى، ساندت النساء المقاتلين، وبخاصة بالعمل، وبالنوع الطوعي منه. أما في الحرب العالمية الثانية، فقد عُبِّئت جميع الطاقات من اجل الدفاع، وأُلزمت النساء بالعمل والخدمة العسكرية الاجبارية.

١١ـفي الحرب العالمية الثانية، فقد الرجل احتكار البطولة الحربية واحتكار المعاناة. وتغيرت عقلية النساء (كما تغيرت ايضاً عقلية الرجال ولكن بنسبة مختلفة).

١٢ـفي ظروف مشابهة لظروف الحرب، يصبح سلوك النساء جد قريب من سلوك الرجال، وبخاصة حينما تتعرض الارض للتهديد.

انطلاقاً من هذه الحقائق والملاحظات، يبدو الرأي القائل بأن قرار شن الحرب أو عدم شنها يمكن أن يختلف حسب اختلاف جنس الذين اتخذوا القرار، رجالاً كانوا أو نساء، رأياً مشكوكاً فيه.

وقد اثبتت دراسات علم الاجناس ان الاختلافات بين سلوك الجنسين هي بمعظمها وليدة «التربية». وقد لاحظت مرغريت ميد[٢٢٨] أن بعض القبائل، مثل قبائل الأرابش، يظهر رجالها ونساؤها على السواء، بسبب التربية التي تلقوها «متعاونين، ذوي عدوانية قليلة، منتبهين إلى حاجات ورغبات الآخرين».

ويحدث عكس هذا عند قبائل موندوغومور، حيث يبدو رجالها ونساؤها على السواء، قساة وعدوانيين. وعند قبائل تشامبولي تشكل النساء الشريك المسيطر، والرجال هم التابعون. والنساء يدرن الشؤون، والرجال ذوو مسؤولية أقل من النساء. وتمثل هذه القبيلة الصورة المقلوبة لمجتمعنا المعاصر في مختلف المجالات.

وقد خلص كلينيبيرغ إلى أن عدوانية الرجل «يمكن أن تكون مساوية لعدوانية المرأة، أو اشد أو اضعف منها، وأن الجنسين يمكن أن يتشابها في نماذج «الذكر» و«الانثى» التي اعتدنا عليها في مجتمعنا المعاصر. ويبدو أنه لم يعد هناك شيء هام، فيما يتعلق بالفطرة، إلا ونستطيع نسبته، بشكل مؤكد، إلى التأثير البيولوجي والنفساني للجنس»[٢٢٩].

وإذا وضعت النساء، في يوم من الأيام، أمام مسؤولية زج بلادهن في حرب، فليس من المؤكد أبداً أن قرارهن سيكون مختلفاً عن قرار الرجال.

لقد سلكت السيدة انديرا غاندي، رئيسة وزراء الهند، في حرب الهند ضد الباكستان، المسلك ذاته الذي يسلكه رئيس وزراء ذكر.

لقد سلكت النساء منذ القديم، فيما يخص الحرب، مثل سلوك الرجال. وكانت ردود فعل النساء والرجال متشابهة، وهذا يعني أنه ليس بمجرد تسليم النساء حقائب وزارات الخارجية سيعم السلام في العالم. غير أن هذا لا يعني أن لا نجرب ذلك، فكما

(٢٢٨) راجع «الجنس والفطرة في ثلاثة مجتمعات بدائية»، ١٩٣٥، ذكره كلينيبيرغ، المرجع ذاته، ص ٣٢٢ وما بعدها.

(٢٢٩) المرجع ذاته، ص ٣٢٢.

أنهن سيكونن الضحايا في المستقبل، مثلهن في ذلك مثل الرجال، فمن العدل أن تكون لهن كلمتهن التي يقلنها في مسألة هي مسألة حياة أو موت، أي مسألة الحرب أو السلام.

٣٣ـ التطور البيولوجي والحرب.

العالم موجود منذ مليارات السنين. وقد ظهرت الحياة على الارض في يوم من الأيام. ومع أن جميع الكائنات الحية قد انحدرت من اصل واحد، فمن الملاحظ انها تحولت وتغيرت تحت تأثير مختلف العوامل. وبالرغم من ان الحيوانات والنباتات تفرعت من بنية هيكلية واحدة، فانها اختلفت فيما بينها اختلافاً جذرياً كلياً. واذا كان سير التطور ما يزال حتى الآن غامضاً جزئياً[٢٣٠]، فانه امر يقيني، وهذا ما يجب أن يسترعي انتباهنا.

لقد استوى الانسان الحالي في نهاية سلسلة من التحولات البيولوجية. وهو، في الاصل، حيوان من الفقريات الثدييات. وهنأك أوجه تشابه بين الانسان والقطة، أو الكلب، أو القرد، من المهم أن تؤخذ بعين الاعتبار.

ان الوظائف الأساسية في جسم الانسان (التنفس، الهضم، التمثل، التنسيق بين الجهاز العصبي والغدد الصماء) تجري بالطرائق العامة ذاتها والعلاقات الفيزيائية والكيميائية ذاتها التي تتم فيها عند الحيوانات الأخرى»[٢٣١].

ولكن الانسان، بكل تأكيد، هو حيوان مختلف جداً عن الحيوانات الأخرى. وينصب هذا الاختلاف، بصورة خاصة، على السلوكية، ومنجزات الكائن الانساني، واستعداده لحماية نفسه من الظواهر الطبيعية، والعمل على التأثير في البيئة التي يعيش فيها.

واذا ما قارنا الانسان بغيره من الثدييات من حيث القامة، فان الانسان يبدو وكأنه

---

(٢٣٠) «البيولوجيا»، قواميس المعرفة الحديثة، باريز ١٩٧٠، الجزء الثاني، ص ٢٣٨.
(٢٣١) «البيولوجيا»، المرجع ذاته، الجزء الثاني، ص ٣٤٢.

مجرد من القدرة على الهجوم أو الدفاع. ولقد اصبح هذا الكائن الحي اكثر القَتَلة إرعاباً عبر القرون، بالرغم من انه لا يملك اسلحة طبيعية، اذ ليس لديه أنياب قوية كأنياب الضواري، ولا صفات كصفات الحيوانات المتوحشة. فهو بطيء الحركة ضعيف البنية. وبالرغم من هذه العوائق، استطاع الانسان أن يسيطر على جميع الحيوانات الأخرى، بفضل دماغه، ويديه، وقدرته الكبيرة على التكيف.

وجميع البشر الذين يسكنون في الوقت الحاضر كوكبنا الارضي يعودون إلى اصل واحد هو: النوع الانساني. والحيوانات التي هي أقرب من غيرها الى النوع الانساني هي القرود الكبيرة، مثل الشمبانزي، والغوريلا، وإنسان الغاب (السعلاة)، والشِّق (وهو نوع من القرود من أشباه الانسان). يضاف إلى ذلك، ان الزمر الدموية الأربع، موجودة لدى البشر ولدى القرود معاً، ويمكن حقن دم الشمبانزي في دم إنسان ذي زمرة دموية مماثلة لزمرة الشمبانزي، دون أي محذور[٢٣٢]. وثمة اوجه شبه وتماثل عديدة بين انسان اليوم والقرود الشبيهة بالانسان. اما الاختلافات فهي ايضاً كثيرة وهامة، وبخاصة فيما يتعلق بالدماغ.

«يبلغ حجم اتساع جمجمة الانسان ما بين ١٣٠٠ و١٦٠٠ سنتمتر مكعب، بينما لا يتجاوز ذلك الحجم ٦٢٠ سنتمتراً مكعباً لدى الغوريلا وما بين ٤٠٠ و٤٥٠ سنتمتراً مكعباً لدى الشمبانزي... وهكذا لا يوجد أي شك في ان حجم الدماغ يؤثر على الذكاء وقابلية التعلم»[٢٣٣].

ويبين الجدول التالي تطور حجم دماغ الانسان[٢٣٤]:

- انسان ما قبل ٢٠٠٠٠٠٠ سنة، الحجم المتوسط: ٥٠٠ سنتمتر مكعب.
- انسان ما قبل ١٧٥٠٠٠٠ سنة، الحجم المتوسط: ٦٨٠ سنتمتراً مكعباً.
- انسان ما قبل ٥٠٠٠٠٠ـ ٦٠٠٠٠٠ سنة، الحجم المتوسط: ١٠٠٠ سنتمتر مكعب.

---

(٢٣٢) «البيولوجيا» المرجع ذاته، الجزء الثاني، ص ٣٤٣.

(٢٣٣) «البيولوجيا» المرجع ذاته، الجزء الثاني، ص ٣٤٤ و٣٤٥.

(٢٣٤) راجع تيودوسيوس ديزانسكي «الانسان في تطور» نشر فلاماريون، باريز ١٩٦٦، ص ٢٣٤.

ـانسان ما قبل ١٥٠٠٠٠ سنة، الحجم المتوسط: ١٤٠٠ سنتمتر مكعب.
ـانسان ما قبل ٦٠٠٠٠ سنة، الحجم المتوسط: ١٤٥٠ سنتمتراً مكعباً.

وخلال مليوني عام كبر حجم دماغ الجد البعيد للانسان ثلاث مرات، ولكنه حافظ على ما هو عليه، تقريباً، منذ ٦٠٠٠٠ سنة.

ومن المؤكد، ان حجم الدماغ ليس وحده الذي يحدد القدرة العقلية للانسان، فهناك، بالاضافة الى الدماغ، بنية الانسان. والنتيجة التي انتهى اليها البيولوجيون وعلماء الأجناس، مستندين فيها إلى ملاحظاتهم وابحاثهم، هي نتيجة تتصف بالمغامرة وما تزال موضع جدل، ومفادها ان القدرة العقلية للنوع الانساني يمكن أن لا تكون قد ازدادت منذ انسان جاوا (أي منذ ٥٠٠٠٠٠ سنة)ـ ان هذه النتيجة ليست ذات نفع في بحثنا. بل على العكس من ذلك، فان ما يجب أن نؤكد عليه، هو ان الكائنات التي انتهى تطورها إلى النوع الانساني، منذ مليوني سنة (أو اكثر)، لم يكن بامكانها الاستمرار في البقاء إلا باستعمال القتل.

لقد كانت حياة اجدادنا مهددة بصورة دائمة ومباشرة خلال ملايين السنوات. وحتى لا يتعرض الانسان للفناء، فلم يكن أمامه حل آخر ممكن سوى ذلك الحل الذي يتمثل بالتضامن والتجمع مع غيره من بني جنسه، بغية القضاء على أولئك الذين يشكلون تهديداً لهم، أو القيام بأعمال الصيد للعيش (صيد الحيوان أو الانسان، اذ ليس اكل لحم البشر سوى وسيلة من وسائل أخرى يستخدمها الانسان حتى لا يموت من الجوع).

يمكننا ان نستخلص ما يلي:

١) خلال ملايين السنوات، كان على اجدادنا أن يدافعوا عن انفسهم ضد حيوانات تملك اسلحة طبيعية قوية (انياب كبيرة، مخالب، قرون، وغيرها). وبما انهم كانوا محرومين من الاسلحة الطبيعية، فقد تجمعوا وتكتلوا في مواجهة الاخطار التي تهددهم جميعاً: لقد وحّدوا جهودهم من اجل التغلب على اعدائهم.

وردة الفعل هذه ليست خاصة بالنوع الانساني وحده، اذ تمكن مشاهدتها ايضاً عند بعض الحيوانات؛ فامام التهديد يتكتل الناس، وهذا ما نطلق عليه «تكتل الأشباه بالمقاومة المشتركة».

٢)طيلة ملايين السنوات، كان اجدادنا مضطرين إلى القتل من اجل ان يعيشوا. وإلى استعمال العنف حتى لا يكونوا هم القتلى بدورهم.

ما يزال العنف حتى الوقت الحاضر الوسيلة الوحيدة لتحقيق الأمن للأفراد والجماعات.

هناك قاعدتان للسلوك فُرضتا على النوع الانساني، وهما: القتل من اجل العيش، وتوحيد جهود الجماعة كلها من اجل القتال أو السيطرة على الحيوانات او أفراد الجماعات الأخرى.

وحتى يكون تعاون الجماعة مجدياً، فقد كان لا بد من تقسيم العمل، وتوزيع الواجبات حسب قدرة كل فرد، وتشكيل قيادة وتسلسل مراتبي وخضوع للضرورات الاجتماعية. فبدون تعاضد متبادل، ولا تسلسل مراتبي وانضباط اجتماعي، لم يكن باستطاعة الانسان أبداً أن يصمد للأخطار التي لا تحصى، والتي ما تزال، منذ نشوئه، تهدده بصورة مستمرة. فالسعدان العجوز، او المجروح، أو المريض، الذي لا يستطيع أن يلحق بقطيع بني جنسه، يعرض نفسه ليكون طعاماً لأحد الفهود. ولم يكن الأمر أحسن من هذا بالنسبة لاجدادنا القدامى، فمن ينفصل عن قبيلته، يكون قد حكم على نفسه بالهلاك.

ومنذ مئات الألوف من السنين، اصبحت ردود فعل الدفاع الفردية والجماعية لدى الناس آلية. فأمام أي تهديد، تستعد بنية الانسان والجماعة فوراً للقتال. ولا نستطيع، من الناحية العملية، ان نسيطر على ردة الفعل هذه، إلا بقدر ما نستطيع أن نمنع اللعاب من الافراز حينما نأكل. ويغدو عقلنا لا قدرة له امام ردود الفعِل الآلية لبنيتنا. ففي مواجهة تهديد مباشر، لا يستطيع فكرنا ولا بصيرتنا أن يمنعانا من اللجوء الى العنف من اجل ان ندافع عن انفسنا. فلماذا ذلك؟ ان الجواب عن هذا السؤال يجب أن يبحث عنه في تاريخ التطور الانساني.

وقد أثار كوستلر[٢٣٥]، وآردري[(٢٣٦)]، بالاستناد الى مؤلفات عالم الأعصاب الأميركي ماك لين، مسألة العلاقات بين بنية دماغ الانسان القديم جداً وبنية دماغ الانسان

---

(٢٣٥) «الحصان في القاطرة- التناقض الانساني»، كلامان- ليفي، باريز ١٩٦٨، ص ٢٥٩ وما بعدها.

(٢٣٦) «القانون الطبيعي»، المرجع ذاته، ص ٣٩٩ وما بعدها.

الحديث، أو بتعبير اكثر دقة، بين ادمغتنا الثلاثة. وقد كتب ماك لين يقول:

«وجد الانسان نفسه في حالة مربكة حين تلقى بصورة اساسية من الطبيعة ثلاثة ادمغة يجب عليها أن تتصل وتعمل فيما بينها كمجموعة، بالرغم مما بينها من اختلافات كبيرة في البنية. واقدم هذه الادمغة الثلاثة هو في الاساس موزوث من فصيلة الزواحف، وثانيها موروث من الثدييات الدنيا. وثالثها تطور حديثاً عند الثدييات، وبلغ ذروته القصوى عند الثدييات الراقية، وجعل من الكائن البشري إنساناً متميزاً فرداً... ان الدماغ الزواحفي مليء بالذكريات السلفية، وقد نفذ بأمانة ما أمره به الاجداد، ولكنه لم يكن دماغاً جيداً لمواجهة الحالات الجديدة. ويقال إنه قام بالتحديد العصابي للأنا المثالية السلفية... وقد بدأ الكائن، خلال تطوره، في التحرر من الأنا المثالية السلفية، عندما ظهر دماغ الثدييات الدنيا الذي بنته الطبيعة فوق الدماغ الزواحفي... وقد اثبتت البحوث التي جرت خلال الأعوام العشرين الأخيرة أن دماغ الثدييات الدنيا لعب دوراً رئيسياً في السلوك العاطفي... فهو اقدر بكثير من الدماغ الزواحفي على تعلم الطرائق الجديدة للتصدي للمشكلات وحلها على أساس التجربة المباشرة. غير أنه لم تكن لديه امكانية التعبير عن مشاعره بالكلام، حاله في ذلك حال الدماغ الزواحفي»[٢٣٧].

ويبدو ان الدماغ الزواحفي للانسان لعب دوراً اساسياً في مجموعة الغرائز والاجهزة اللاإرادية التي تنطلق منها ردود الفعل للدفاع أو الهجوم. ويعني هذا ان السيطرة على العنف، او ممارسته، هما، إلى حد ما «مبرمجان» في دماغنا الزواحفي، الذي يدير بعض الأفعال الغريزية، مثل البحث عن ملجأ، او الصيد، او التزاوج، او التناسل، أو الانصياع لرئيس، أو قيادة الآخرين، وغير ذلك.

وليس للدماغ الزواحفي منطق او تفكير، فهو يجعلنا نكرر ما كان اجدادنا القدامى يفعلونه مرات كثيرة في حالات محددة من اجل انقاذ حياتهم.

وقد عرض ماك لين المشكلة حينما تساءل: «إلى أي حد يستطيع الجزء الزواحفي من

---

(٢٣٧) كوستلر، المرجع ذاته، ص ٢٥٩ وما بعدها.

دماغ الانسان أن حدد طاعة هذا الانسان للسوابق في مجال المراسم والطقوس الدينية، والخضوع للقوانين، والآراء السياسية، والاحكام المسبقة الخاصة بفترة.زمنية ما، وغير ذلك».

كتب هنري لابوريت حولّ هذا الموضوع:

«حينما يبول الكلب، وهو من فصيلة الثدييات، على مرآة عاكسة، من اجل أن يحدد ارضه، انما يخضع بذلك لدماغه الزواحفي.

«ومن المفيد أن نعرف ماذا يكمن في هذا الفعل اللاإرادي لدى الانسان في مجال مفهوم الملكية، والطبقة، والوطن. فالتصرفات التي يقوم بها الانسان، أو التي ينوي القيام بها، تصطدم، من الناحية الحقيقية، بتصرفات أخرى تنبعث من عمل مناطق دماغية اكتشف مؤخراً أنها من موروثات الانسان القديم. ان الفعل اللاإرادي للإنسان هو فعل لا شعوري، أي إنه مجهول، أو يمكن اعتباره وكأنه منبعث من مبادىء أساسية، هي مبادىء اخلاقية مرتبطة «بالطبيّعة» الانسانية، وهذا يعني ان الفعل اللاإرادي يشكل جزءاً من «الطبيعة» الانسانية، بينما كان، سابقاً، يشكل جزءاً من «الطبيعة» الزواحفية.

«وحينما يتناسى الانسان وجوده وقوته الاساسية، فانه بذلك يفتح الطريق واسعاً امام نشوء العُصاب والقلق والخوف، وبخاصة عندما تجُبره الجماعة على كبت فعله، أو تمنعه عن الإتيان به...»[٢٣٨].

غير ان الثدييات، اثناء تطورها، اضافت إلى دماغها الزواحفي، دماغاً «جديداً» احاط بالدماغ الأول.

«إنه قُوَيْسة من قشرة أولية تحيط بالدماغ الزواحفي الاصلي. وتُشاهد هذه القويسة عند جميع الثدييات، ويعود تاريخها إلى نحو مائة مليون سنة، وهذا يعني أنه كان أمام الدماغ الجديد وقت طويل جداً لاقامة صلاته وتنظيمها مع الدماغ الزواحفي»[٢٣٩].

---

(٢٣٨) هنري لابوريت «العدوانية المنحرفة»، الاتحاد العام للناشرين، باريز، ١٩٧٠، ص ٦١ وما بعدها.
(٢٣٩) «القانون الطبيعي»، المرجع ذاته، ص ٤٠١.

لقد زاد هذا الدماغ الجديد زيادة كبيرة قدرات التعلم لدى الثدييات. ونمت حاسة الشم، بصورة خاصة، وتطورت بشكل ادى إلى التعرف، بصورة سهلة، على الأفراد الذين ينتمون الى الجماعة نفسها، كما ادت ايضاً إلى الكشف على الاعداء.

واذا ما لجأنا الى تبسيط الموضوع كثيراً، يمكننا ان نقول إن الإرث الزواحفي يتألف، على الأخص، من لب الدماغ الذي يعمل عمل «مَقْسم» ووسيط عاطفي، مشكل من مجموعة خلايا تتحكم بالغرائز الجنسية الاساسية الاربع التي توجد عند جميع الكائنات الحية، وهي: الغريزة القتالية، والغريزة الغذائية، والغريزة الجنسية، والغريزة التناسلية.

ولب الدماغ هذا هو المسؤول عن الطريقة التي نتصرف بها في مواجهة العالم الخارجي. فالخوف، والغضب، والعدوانية، مثلاً، كلها توجه من لب الدماغ الذي يعمل مباشرة بالضغط الشرياني، ويزيد، في لحظات التوتر، ضربات القلب، كما يرفع نسبة السكر والتخثر في الدم، وهذا يعني ان لب الدماغ يُعِدُّ البدن للقتال.

أما الدماغ الثاني، وهو الذي ورثناه عن الثدييات الدنيا، فهو مؤلف من المجموعة الحافِّية التي تشترك في العواطف. فالخوف، والغضب، والجوع، والغريزة الجنسية، يمكن أن تثور عند الحيوانات بواسطة مسارب شبيهة بالمجموعة الحافِّية. وكما يفعل الدماغ الزواحفي، تتحكم المجموعة الحافِّية بالغرائز الأساسية الاربع (القتالية، والغذائية، والجنسية، والتناسلية). وقد استغرق الأمر نحو مائة مليون سنة حتى تم اندماج وتكامل الدماغين القديمين الحيوانيين [٢٤٠]

وفي مرحلة ثالثة من التطور، ظهرت عند الثدييات «قشرة جديدة»، غلَّفت الدماغين القديمين. وعلى خلاف هذين الدماغين، فان القشرة الجديدة اصبحت هي جهاز السلوك «الذكي». وتطورت حتى غدت قادرة على التلاؤم الاصلي مع البيئة.

«... يتجه الدماغان القديمان نحو المستقبل، مدفوعين بالتجارب الماضية، الموروثة والشخصية، بينما يقفز الدماغ الجديد (أي القشرة الجديدة) في المستقبل، مستنداً الى الماضي، وناظراً الى الحاضر يُقدم عليه. يعمل الدماغان القادمان في «البرمجة»،

---

(٢٤٠) «القانون الطبيعي»، المرجع ذاته، ص ٤٠١.

ويستنبطان المستقبل من الماضي. أما الدماغ الجديد فانه يتنبأ بالمستقبل، ويبنيه حسب هواه، ويحاول أن يجعل الحاضر يتلاءم مع هذا البنيان الخيالي...» (٢٤١).

وهكذا فاننا نستطيع، بفضل الدماغ الجديد، أن نتوقع المستقبل، وان «نتصوره».

هناك بين الدماغين القديمين والدماغ الجديد فرق جد عميق يتعلق ببنية القشرة الجديدة التي يحملها الانسان منذ ولادته. واذا كان دماغانا الحيوانيان قد استطاعا الاندماج والتكامل خلال تطور استمر نحو مائة مليون سنة، فلم يمض علينا، مع الاسف، سوى نحو نصف مليون سنة لاقامة الصلات بين القشرة الجديدة والإرث الدماغي الذي خلّفه لنا الحيوان.

«والدماغ الجديد يتكلم لغة لا يفهمها الدماغ القديم. فمع المصادر الهائلة للوحدات العصبية للقشرة الجديدة الانسانية، اصبح التنبؤ، والتذكر، واللغة الرمزية، والتفكير التصوري، ووعي الذات، اموراً ممكنة. أما الدماغ الحيواني فانه لم يعرف هذه اللغة. ويستطيع الدماغ القديم أن يتواصل مع الدماغ الجديد ضمن إطار العواطف والميول، ولكننا لا نستطيع أن نجيب الدماغ القديم إلا بصعوبة فائقة، لاننا نكون حينذاك نتحدث تماماً إلى حيوان. ولهذا نستطيع أن نفهم، مثلاً، سبب داء نفساني- جسماني دون أن نكون قادرين على معالجته، فنقول حينذاك اننا نعمل «ضد تشخيصنا»، او «اننا نترك اسوأ الدوافع تسيطر»، أو «اننا لا نستطيع أن نسيطر على الداء». وهكذا فقد اكتشفت جراحة الدكتور بول ماك لين الحيوان القديم الذي ما يزال يسكن في انفسنا. وككل جراحة جيدة، استطاعت هذه الجراحة، بعد ان كشفت لنا الداء، ان تُعدَّ لنا الدواء.

«والحيوانات، كما نعلم، تستطيع ان تغدو مُدَجَّنة إلى حدود معينة. والحيوانات التي ما تزال تصر على نكران التطورات التي طرأت على السلوك الانساني، اصبح الأمل في تدجينها جد ضعيف. والحيوان الذي يكمن في ذاتنا، والذي نُنكر وجوده، ونجهل عاداته وحضوره، هو، بصورة سرِّية، حاقد أو خائف، ولكنه يبقى حيواناً متوحشاً. أما الحيوان المتوحش الذي قبلناه فيما بيننا، وعلمناه السلوك، وكلمناه بلغته اكثر مما كلمناه بلغتنا، فمن الممكن ان يصبح حيواناً مُدجَّنا...

---

(٢٤١) لابوريت، المرجع ذاته، ص ٦٤.

«اننا لا نستطيع أن ننكر وجود الحيوان في ذاتنا، كما لا نستطيع أن نتجاهل وجود الذئب وراء السور. ذلك ان الذئب يمكن ان يُدَجّن حتى ولو لم يوثق به كثيراً. ومن يدرينا، انه بعد عدة آلاف من اجيال العلاقات العطوفة الودودة، سيصبح الذئب كلباً.

«وليس هذا، بالتأكيد، سوى أمل يقوم، بدون شك، على الخيال، ويقدم، الى الانسان، في جميع الاحوال، بعض العزاء، الآن أو في المستقبل القريب، في صراعه مع مخاوفه. نحن دائماً، اذن، ذلك النوع المتوحش الذي تحدث عنه هوكسلي. ان ادراك وتدجين الحيوان الكامن في ذواتنا، مهما كان تأثير ذلك الادراك والتدجين، يبقيان صفة مكتسبة، ولا يمكن نقلهما إلى احفادنا. وهكذا يجب البدء من الصفر مع كل جيل يولد. غير اننا اذا نسينا الذئب، فانه لن يكون لدينا نقطة انطلاق»(٢٤٢).

نستطيع القول ان التطور البيولوجي، الذي بدأ بالزواحف وانتهى بالانسان الحديث، قد انتج حيواناً مزوداً «بثلاثة ادمغة» لا تتحدث بلغة واحدة، وهذا ما يفسر تصرفاتنا المتناقضة وغير المعقولة.. وقد تطلب الأمر مئات الملايين من السنين حتى تم بلوغ هذه المرحلة. ويضاف إلى ذلك ان تطورنا تعرض، خلال الخمسمائة الف سنة الأخيرة، الى تسارع في مسيرته، بلغ على ما يبدو، خلال العشرة آلاف سنة الأخيرة، حداً لم يسبق له مثيل. وفي الواقع، فقد غدا الانسان، خلال اقل من مائة عام، وبالرغم من انه احد أكثر حيوانات الطبيعة ضعفاً، الكائن الأسرع والأقوى على البر، وفي الماء، وفي الجو.

ويعود هذا، كما لاحظ غاستون بوتول، إلى تحول بيولوجي حقيقي. وقد اصبحت وسائل الانسان للقتال والقتل من مسافات بعيدة في الوقت الحاضر غير محدودة. وبفضل الدماغ الجديد، استطاع الانسان ان يخترع ويصنع اجهزة تفوق قدرتها التدميرية قدرة الزلازل الارضية وثوران البراكين.

وبدلاً من ان تسكّن الأسلحة روع الانسان، فقد اثارت مخاوفه. واذا كان الدماغ الجديد قد تنبأ بالمآسي التي يمكن أن يؤدي إليها استخدام هذه الأسلحة، فان الدماغين القديمين يتصرفان كما يفعلان دائماً أمام الخطر: فهما يُعدّان اعداداً آلياً ولا شعورياً جهاز

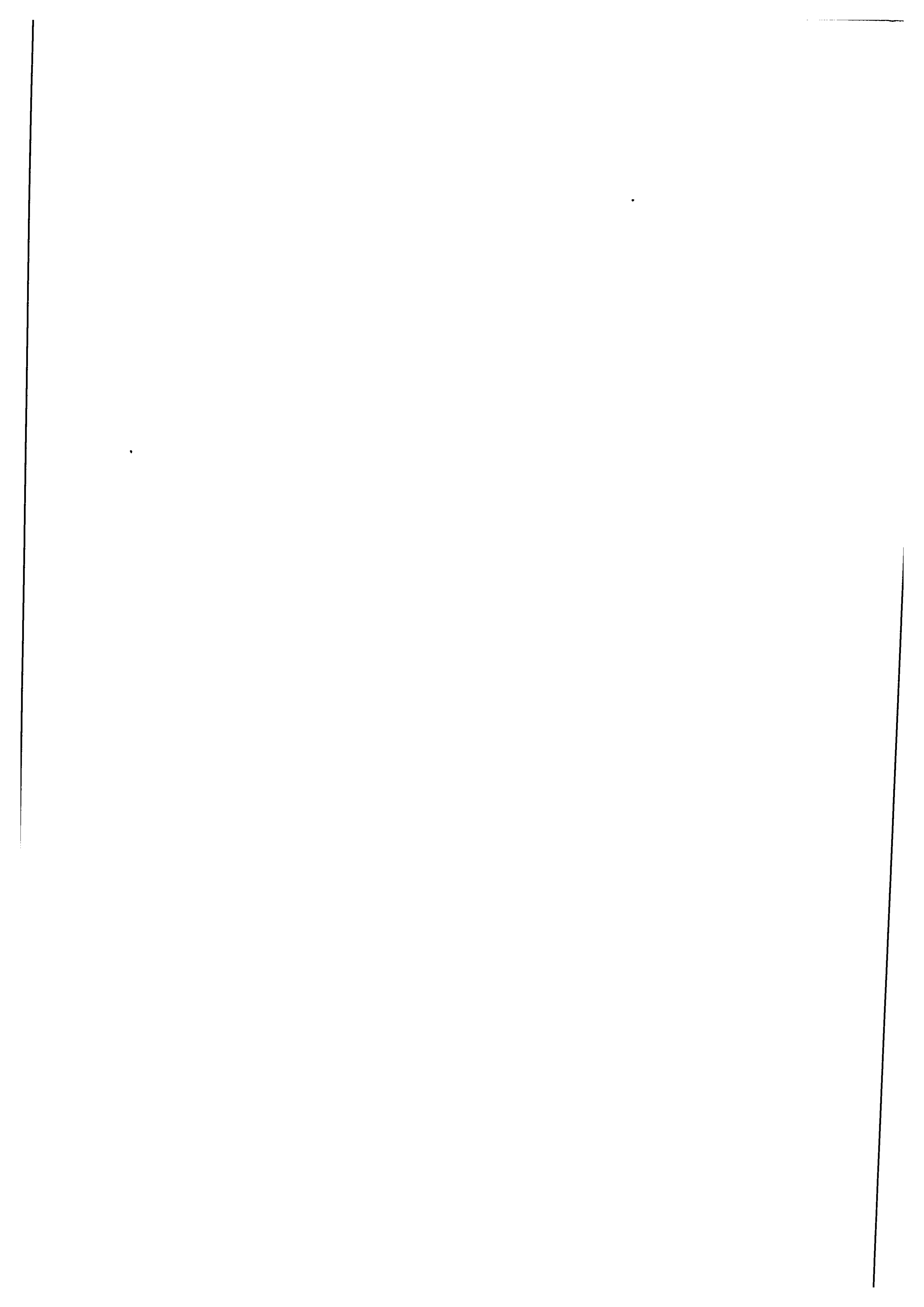
---

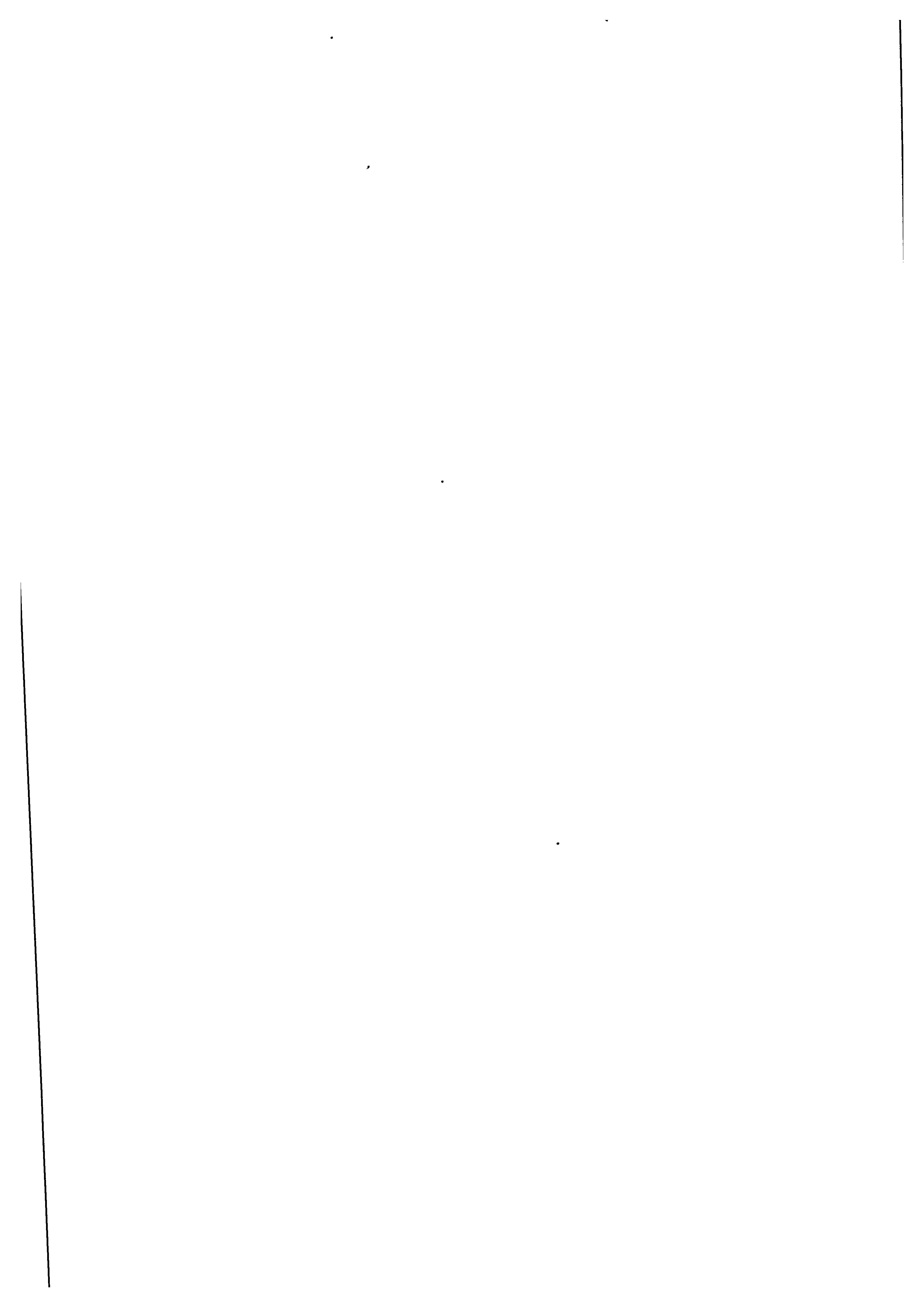
(٢٤٢) «القانون الطبيعي»، المرجع ذاته، ص ٤٠٢ وما بعدها.

الجسم الفردي والجماعي للقتال. وكما كان الأمر منذ ملايين السنين، فان الناس، في الوقت الحاضر ايضاً، يتكتلون بغية القضاء على اولئك الذين يهددونهم. ومن هنا يحدث الانقسام المتعدد الاستقطاب في العالم، كحلف الاطلسي، وحلف وارسو، والصين. . . واذا ما لاح خطر جديد، قادم من أفق جديد، فان تكتلات أخرى ستولد وتنشط. ولنضرب مثلاً على ذلك في الصين وفي اوروبا. فاذا ما تطورت الصين عسكرياً وصناعياً تطوراً جد سريع، او اذا ما قامت أوروبا السياسية واصبح لها جيش يضاهي جيوش القوى العظمى، فمن الواضح ان تحالفات جديدة ستنشأ «بصورة آلية».

لقد زودنا التطور البيولوجي بجهاز يقود سلوكنا الفردي والجماعي الذي يتباين ويتنافر تكوينه وتشكيله، فالكائن البشري يتلقى الأوامر من ثلاثة رؤساء لا يتفاهمون فيما بينهم. وعلى عكس ما يُعتقد، فان الدماغ الاحدث بين هذه الادمغة (الدماغ الجديد) لا يستطيع دائماً ان يتوصل الى تفاهم مع الدماغين القديمين. ولهذا فان ردود فعلنا الحيوانية تبقى هي المسيطرة، وما سلوك النساء في الحرب إلا اكبر مثل معبر عن ذلك.

وبما أن لغة العقل ليست دائماً مفهومة (وقد فسر لنا التطور البيولوجي سبب ذلك)، فمن العبث الاعتماد على نصائح الفكر بشأن تدجين ردود فعلنا في العنف، أو العدوانية، أو القلق. وهذه النقطة هامة، لانها تفسر عبثية الأوهام الكبرى التي ينخدع بها البشر من اجل القضاء على الحرب.





الفصل الثاني

العدوانية والحرب

٣٤- العدوانية.

٣٥- القلق والحرب.

٣٦- ردع العدوان.

٣٧- التكنولوجيا والعدوانية.

٣٤- العدوانية:

صدرت، خلال الأعوام العشرين الماضية، آلاف الكتب التي تعالج العدوانية. وبالاضافة إلى ذلك، فقد عقدت ندوات ومؤتمرات كثيرة [٢٤٣]، اشترك فيها مختصون في علوم: اصول الأجناس، والنفس، والأخلاق، والتحليل النفسي، والسياسة، والاجتماع ودافعوا عن نظريات متباينة مختلفة بشأن العدوانية، حتى ان بعضها كان يرتكز على مسلّمات ما تزال موضع جدال وخلاف واسعين. وفي مثل هذه الاحوال والظروف، ليس مستغرباً أن يلاحظ المرء إلى أي مدى ما تزال النتائج التي انتهى اليها الباحثون غير مؤكدة ولا موثوقة.

وبغية محاولة فهم السلوك العدواني للناس باعتبارهم أفراداً في بادىء الأمر (حالة القادة السياسيين والعسكريين، وحالة المنفذين للأوامر التي يتلقونها) وجماعات مؤلفة من أفراد بعد ذلك (مجالس الوزراء، الرأي العام، جموع الناس، الجماهير، وغيرها)، فان علم اجتماع الحرب لا يمكن ان يستخدم إلا ما تستطيع العلوم الأخرى أن تقدمه إليه. وبما أن النظريات والآراء بشأن العدوانية ما تزال حتى الآن غير حاسمة ولا دقيقة، فان علم اجتماع الحرب لا يستطيع أن يتقدم في هذا المجال إلا على ارض جد متحركة وغير ثابتة.

---

(٢٤٣) عقدت اليونسكو ندوات ومؤتمرات عديدة، تم نشر أعمالها. انظر لهذا الشأن: الجزء ٢٣ (١٩٧١)، العدد الأول من المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية «فهم العدوانية».

.ولهذا فان جميع الشكوك الخاصة بالعلوم الانسانية تنبت بالضرورة، في علم اجتماع الحرب:

ولنلاحظ، بادىء ذي بدء، ان العدوانية يمكن أن تأخذ معنيين مختلفين، فهي تعني أحد المعنيين التاليين:

آ)-الحيوية، الجرأة، الفكر المبادر، تأكيد الذات.
ب) - العداء، الحقد ، العدوان، العنف، الميل الجريمي، إرادة الهجوم والقتل، التصميم على الدفاع عن النفس.

وسنتناول بالدراسة المعنى الثاني فقط. ولقد كنا شرحنا سابقاً كيف أن التطور البيولوجي جعل من الانسان قاتلاً، اذ بفضل دماغه، اصبح الانسان اكبر قاتل مرعب في عالم الأحياء. وهذه احدى المعطيات الثابتة. وقد اكدت التجارب، في الواقع، أن بالامكان تعديل الوظائف العقلية بواسطة.الجراحة (جراحة مخية جبهية) والالكترونيك (تحريض الدماغ) والكيمياء (استعمال المسكّنات)[٢٤٤]. وهكذا يمكن، بالارادة، جعل الحيوان المسالم متوحشاً، والمتوحش مسالماً.

ولكن للعدوانية اسساً نفسانية ايضاً. فالحيوان والانسان يشعران ببعض الحاجات، كمثل الجوع، والعطش، والتزاوج الجنسي. وتتخذ التصرفات الهادفة الى اشباع هذه الحاجات عند الحيوانات شكلاً مكرراً على نحو لا يتغير.

«وفي جميع الأحوال، على عكس المفاهيم التقليدية التي تقول ان التصرفات الموجهة نحو هدف ما هي دائماً غريزية عند الحيوان، فقد اصبح معروفاً اليوم انه حدث تعديل متقدم رفع درجة الكائنات الحية. فقد اخذت نسبة كون التصرفات مرسومة مسبقاً تخف شيئاً فشيئاً، وغدت تلك التصرفات تزداد ارتباطاً بالتعلم شيئاً فشيئاً. وبصورة عامة، فان التصرفات الموجهة نحو هدف ما هي عند الانسان مكتسبة متعلّمة... والتصرفات الغرائزية المرسومة مسبقاً عند الانسان، والمنبعثة من الغرائز اصبحت نادرة، ان لم تكن

---

(٢٤٤) راجع ديلفادو: «الأساس العصبي للعنف»، المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية، المجلد ٢٣، العدد الأول، ص ٣٠ وما بعدها.

معدومة. فالغريزة تبلغ هدفها بتصرفات مختلفة حسب الاهداف»[245].

وهنا يجب ان تُفهم الغريزة على انها تلك القوة البيولوجية اللاشعورية التي، بعملها الدائم، تسهم في القيادة.

وهكذا فان السلوك الانساني يتغذى بالغرائز، غير ان «هذه الغرائز لا تظهر بمظهر صافٍ محض» إلا في الحالات القصوى. كما انها تنحل نهائياً في الحالات المركبة وحالات الانصهار والاندماج[246]. وتؤثر الغرائز العدوانية والجنسية، بصورة عامة، بعضها في بعض، ويبدو هذا واضحاً في حالة الاغتصاب. واثناء الثورة الفرنسية، قامت النساء باستعراض في مواكب، حاملات السيف بيد، وكاشفات عن احد الأثداء. واكثر الأفلام التي تتحدث عن الرومان «السود» نجاحاً ورواجاً تلك التي تتعاقب فيها مشاهد الجرائم والفظاعات والمناظر الجنسية الماجنة.

ويبدو أن الكتّاب متفقون على أنه توجد لدى كل فرد يسعى إلى اشباع حاجاته طاقة عدوانية تنتظر دائماً الفرصة السانحة لتنطلق وتتحرر. وتستطيع التربية، والوسط الاجتماعي، والبيئة، في بعض الحالات، ان تحد أو تمنع الافعال العدوانية العنيفة والمباشرة. وبالرغم من ذلك، فما ان تضعف عوامل الكبت والمنع (مثل بروز الشعور باللامسؤولية، او عدم وجود أي عقاب)، حتى تندفع العدوانية وتطلق لنفسها العنان. ففي حرب ١٩٣٩ـ ١٩٤٥ قدمت لنا معسكرات التجميع امثلة لا تحصى على الفظاعات التي بلغت حد السادية، ولا نرى ضرورة للعودة إلى ذكرها[247]

وعلى العكس من ذلك، فانه لذو مغزى في السنوات الأخيرة، «أنْ يُسجَّل في لوس أنجلوس، بين كل مليون ساكن من سكان المدينة، نحو ١٢٠ حالة معاملة اولاد معاملة جد سيئة، ٢٠٪ منها انتهت بموت الاولاد. وفي مدينة نيويورك سُجلت ٧٠٠ حالة في عام

---

(٢٤٥) ج. دولي وب. بيشو: «موجز علم النفس» نشر ماسون وشركاه، باريز، ١٩٧١، الطبعة الثالثة، ص ٨٧.

(٢٤٦) أليكسندر ميتشيرليش، «فكرة السلام والعدوانية البشرية»، غاليمار ١٩٧٠، ص ٤٥.

(٢٤٧) راجع بهذا الشأن:

آ)«قضية بريدنوك»، للاستاذ جول وولف، نشر لارسييه، بروكسيل، ١٩٧٣.

ب)«المثلثات الحمر»، تأليف عمر حبّارو، نشر ج. فسبيندر، آرلون، ١٩٤٦.

١٩٦٧، و٢٥٠٠ حالة في عام ١٩٧٠ . . . وتسعة بالمائة من هؤلاء القساة الأفظاظ تبين بعد فحصهم انهم ذوو ثقافة جامعية، و٦٠٪ منهم يتمتعون بمدخول أعلى من المدخول المتوسط، و٤٠٪ منهم يتمتعون بمدخول أدنى. وأقل ١٪ منهم ظهرت عليهم علامات الاستلاب العقلي، و١,٥٪ منهم فقط يمكن تصنيفهم في فئة الساديين بالمعنى الواسع للكلمة. . . ويتصرف الازواج غالباً كأشخاص منفذين للانضباط العائلي باعتبارهم خاضعين لإرادة الأم. .والنساء هن أقل من الرجال عدداً كقساة أفظاظ مع الأولاد، ولكنهن، بالمقابل، أكثر قساوة وفظاظة منهم في مثل هذه الأحوال. . . والعمر الوسطي لهؤلاء القساة يتراوح بين ٢٠ و ٣٠ عاماً. و٩٠٪ من هؤلاء المجرمين يذكرون أن السبب الموجب لارتكاب العنف هو البكاء والصراخ المستمران للولد»[٢٤٨].

وقال روبين كلارك، بدوره، أنه في انكلترا:

«خلال عام واحد فقط، فحَصَ المجتمع الذي يحرم القساوة مع الأولاد، ١١٤٦٤١ ولداً، وقدم ذويهم إلى المحاكمة في ٣٩٢٢٣ حالة. وخلال عام ١٩٦٤ في الولايات المتحدة، كان يُقْتَل انسان واحد في كل ساعة، وفي انكلترا كان يجرح شخصان او ثلاثة في المدة المذكورة. وخلال فترة ٧ سنوات، ازداد عدد الجرائم العنيفة في الولايات المتحدة ٥٧٪. وفي لندن، اصبحت السرقات المسلحة اليوم مضاعفة عشر مرات عما كانت عليه منذ سنوات عشر. وفي ٥ سنوات، في الولايات المتحدة، جرى اغتيال ثلاثة رجالات سياسيين من مستوى رفيع، بينهم رئيس»[٢٤٩].

يستطيع كل فرد، تبعاً للظروف، ان يطلق العنان لعدوانيته بدرجة كثيرة العنف والقساوة أو قليلتها. والعوامل القادرة على إثارة تصرفات عدوانية جدُّ كثيرة، منها الكبت (او بتعبير أدق الشكل الذي يظهر فيه الكبت على الانسان) الذي يعتبر العامل الرئيسي. غير أن العدوانية يمكن ان تُثار بتأثير مشاعر الدونية الجسمانية أو الاجتماعية، او بسبب رفض ونبذ المجموعة للفرد الذي ينتسب إليها، أو بتأثير فقدان الأمن، او الحرمان من العاطفة، او فيضان العاطفة، او بسبب الاغراق في الرأفة أو التسامح او الحرية. وبصورة

(٢٤٨) راجع فريدريش هاكر «العدوانية- العنف في العالم الحديث» نشر كالمان- ليفي، ١٩٧٢، ص ١٧٧ وما بعدها.
(٢٤٩) راجع روبين كلارك «السباق نحو الموت»، نشر سوي، ١٩٧٢، ص ٢٤٨ وما بعدها.

عامة، يتشارك كثير من هذه العوامل، ويؤثر بعضها في البعض الآخر.

ان هتلر، وغليوم الثاني، ونابليون (الذي كان يتألم من قامته القصيرة) هم أمثلة على العدوانية المتولدة، في جزء كبير منها، من عقد الدونية. وقد كانت عدوانيتهم هذه غير محدودة وذات نتائج مذهلة.

ان حالة الملازم الأول كالِّي[٢٥٠]، أقل وضوحاً من الحالات التي اشرنا إليها، ولكنها مليئة بالدروس. ففي خلال حرب فيتنام قتل هذا الضابط وجنوده سكان قرية مي لبي. وقد حكمت محكمة مؤلفة من ضباط على الملازم الأول كالِّي بالسجن المؤبد مع الأشغال الشاقة لأنه اعتبر مجرماً بقتله عن سابق تصميم وتعمد ٢٢ مدنياً فيتنامياً. وقد قال شهود عيان أن كالِّي اطلق النار على اولاد غير مسلحين وقد لاذوا بالفرار، كما اطلق النار على أسرى مجردين من أية وسيلة للدفاع، وانه اجبر جنوده، بضربات قدميه، على قتل مدنيين كانوا متجمعين في حفر. فمن هو كالِّي هذا؟. إنه رجل قصير القامة، وضابط غير موهوب، ولم يكن يسمع به أحد قبل ان تجذب جرائمه الانتباه إليه. غير أنه منذ أن اصبح يتصرف بسلاح يستطيع استخدامه بحرية، ومنذ أن غدا يأمر جنوداً، راح يعوِّض عن دونيته وضعفه باطلاق العنان لعدوانيته المكبوتة التي يحملها في نفسه. وقد تدخل الرئيس نيكسون من اجل إطلاق سراح الملازم الأول كالِّي، ووضعه محجوزاً في بيته. فلماذا هذا التدخل الشخصي لرئيس الولايات المتحدة الأميركية؟.. لان الرأي العام الأميركي اندفع مؤيداً السلوك المجرم لكالِّي. فقد وصلت مائة الف برقية الى البيت الابيض. وفي مقابل كل مائة برقية منها مؤيدة لكالِّي، كانت توجد برقية واحدة ضده. وقد اعلن عدة حكام ولايات، بتصريحات رنانة، تمجيدهم للقتل، «ليبارك الله الملازم الأول كالِّي الذي ناضل من اجل قضية الأمة».

وهناك آلاف الرجال الذين تقدموا الى السلطات العسكرية يعترفون بارتكابهم جرائم مماثلة. ويثبت تحقيق قام به معهد غالوب ان ثمانية من كل تسعة أميركيين يعتقدون ان ادانة القضاء العسكري لكالِّي غير عادلة. ويؤكد هذا، مع الأسف، ان العدوانية القاتلة ليست حكراً على الملازم الأول كالِّي وحده.

---

(٢٥٠) راجع هاكر، المرجع ذاته، ص ٢١٥ وما بعدها.

وقد أثار محامو هذا القاتل كاليي، في مجال الدفاع عنه، مسألة طاعة الأوامر المتلقاة. فكيف يمكن تفسير ان رجالاً يقبلون بالقيام بأعمال القتل لان رجالاً آخرين قد أمروهم ان يفعلوا ذلك؟. لا شك في ان هذا السؤال جد هام، لان هناك ملايين الرجال قاموا، خلال جميع الحروب، بقتل أمثالهم. بل الأمر يتعدى ذلك، فهناك مواطنون عاديون، كانوا، في الحياة العادية، يسلكون سلوكاً مسالماً، وكانوا آباء صالحين لأسرهم «ولم يسيئوا قط إلى ذبابة»، كما يقول التعبير الشعبي، نراهم ينقلبون، بين يوم وآخر، إلى قَتَلة، فور أن تنشب الحرب. واغلبهم لم يناقشوا قط الأوامر، ولم يكونوا بحاجة إلى استعمال القوة ضدهم لاجبارهم على الطاعة، بل العكس هو الصحيح، وكانوا، جميعهم، فخورين بانهم يؤدون واجبهم. ولم يكن اي احد منهم يشعر باية مسؤولية عن قتله عدداً من الرجال أمثاله. ونخلص من هذا إلى أن الطاعة البشرية يمكن أن تقود الى القتل.

ومنذ اكثر من عشر سنوات، اجريت تجارب في الولايات المتحدة الأميركية، اثبتت أنه ليس في زمن الحرب فقط يمكن أن يكون الانسان قاسياً فظاً باطاعته الأوامر التي تصدر إليه. وقد وصف هاكر هذه التجارب قائلاً[٢٥١]:

«منذ ١٩٦١ بدأ عالم النفس الاجتماعي ستانلي ميلغرام في مدينة نيوهافن تجاربه بشأن الطاعة البشرية. وقد كرر تجاربه هذه فيما بعد في بلدان عديدة، واصبحت اليوم مشهورة بشكل واسع. فقد اراد هذا العالم أن يعرف كم من الاشخاص يبدون رغبة في معاقبة ضحايا عقاباً شديداً، بل قاسياً فظاً، على أن ينتقى هؤلاء الضحايا انتقاء عشوائياً غير مقصود (وفي الواقع هم أشخاص مُلقَّنون ومُعدون للتجربة)، ويعلن عنهم انهم مصابون بفقدان الذاكرة. وقد تم اختيار المشتركين في هذه التجربة من سكان مدينة نيوهافن ومدينة بريد جبورت (من ولاية كونيكتيكت) من الذكور الذين تتراوح اعمارهم بين ٢٠ و٥٠ سنة، وجرى انتقاؤهم من فئات مهنية جد مختلفة.

«بدأ مدير التجربة بان منح المشتركين تعويضاً صغيراً مقابل ضياع وقتهم. ثم اعلمهم بأنه سيقوم بتحقيق هام حول فعالية العقوبة في مجال التذكر، فوزعهم على

---

(٢٥١) راجع هاكر، المرجع ذاته، ص ٢٠٩ وما بعدها.

مجموعات، كل مجموعة مؤلفة من شخصين: احدهما يأخذ دور «المعلم»، والثاني دور «التلميذ». ويختار مدير التجربة الشخص غير الملقن ليقوم بدور المعلم، ويختار هذا شريكه في التجربة ليقوم بدور التلميذ. ويجلس هذا التلميذ على كرسي كهربائي، ليجيب على مجموعة من الاسئلة المحضَّرة مسبقاً والتي تشكل تجارب للتذكر. ومهمة المعلم هي أن يعاقب التلميذ على كل جواب خاطىء بصدمة كهربائية ذات قوة متزايدة. ويحمل الجهاز الذي يطلق هذه الصدمات الكهربائية ٣٠ رقماً: يبدأ اولها بقوة ١٥ فولت، وينتهي آخرها بقوة ٤٥٠ فولت. وهذه الارقام تتناسب في مطلعها مع صدمة خفيفة، ثم تزداد قوة مع الصدمات العنيفة. ويتعرض المعلم نفسه قبل بدء سلسلة التجارب إلى صدمة بقوة ٤٥ فولت من قبيل التعرف بهذه الصدمات، وبفعالية الاجهزة التي سيعمل عليها. ويضاعف التلميذ عدد الاجوبة الخاطئة. وينفذ المعلم الامر الذي يتلقاه، فيزيد قوة الصدمة. ويبدأ التلميذ بالانين والبكاء عندما تبلغ الصدمة قوة ٧٥ فولت، ثم يأخذ بطلب الرحمة حينما تبلغ الصدمة قوة ١٨٠ فولت. وعند الفولت ٣٠٠ يتلاشى صراخه. وهنا يأمر المديرُ الأستاذ بان يستمر في التجربة: «يجب أن تتابع، فليس هناك حل آخر». وينفذ الأستاذ الأمر. وقد ثبت في هذه التجارب أن ٦٥٪ من «الأساتذة» من نيوهافن، و٤٨٪ من بريدجبورت اطاعوا المدير، ونفذوا اوامره، بالرغم من أنه شخص مجهول بالنسبة لمعظمهم، واصموا آذانهم عن صراخ واستنجاد ضحاياهم، ذلك الصراخ والاستنجاد اللذان لم يكونا، في الحقيقة، سوى تسجيلات صوتية. وبالرغم من ان «الأساتذة» لم يشكوا قط في صحة وصدق ما يسمعون، فقد تابعوا التنفيذ حتى الحد الأقصى من عيارات الصدمة الكهربائية.

«لم يكن هؤلاء الرجال الذين اشتركوا في هذه التجارب ساديين، بل كانوا مواطنين بسطاء، ومسالمين، ويحترمون القوانين، ولم يكونوا حتى ذلك الحين قد اساؤوا إلى انسان. ولكنهم، منذ اللحظة التي اجتازوا فيها باب المختبر، كانوا قد قبلوا أن يقوموا بتنفيذ ما يؤمرون به، فمسؤوليتهم، حسب رأيهم، ليست مُتورِّطة، ولا يشعرون بانهم مجرمون اكثر مما يشعر به الطيار الذي يقوم بالقصف».

وقد قام معهد ماكس بلانك بالتعاون مع التلفزيون البافاري، بتجارب مماثلة. فقد كان يُظن أن الألمان، بعد فظائع الحرب العالمية الثانية، قد اصبحوا محصنين ضد الطاعة

الآلية. غير أن هذه التجارب كشفت عن أن ٨٥٪ من الأشخاص الذين تعرضوا للتجربة كانوا طيعين لأوامر المدير العلمي للتجربة.

ان الطاعة في تنفيذ الأوامر الصادرة عن سلطة قائمة أو مفترضة ليست مقتصرة على فئة معينة من الرجال، ولا على مواطني أمة محددة. فنحن، جميعاً، مستعدون لطاعة القواعد التي تفرضها مؤسساتنا، ومستعدون أيضاً للخضوع للضرورات الاجتماعية ولضغوط بيئتنا الاجتماعية، والترسبات الدفينة في المناطق المظلمة من لا شعورنا. نضيف إلى ذلك، أنه بواسطة تدريب عسكري جد متقدم، اصبح من الممكن، في أي بلد من بلدان العالم، تحويل أي مواطن بسيط إلى قاتل لا يرحم. وهذا هو الغرض من هذا التدريب، فالعدوانية الكامنة في ذاتنا لا تنتظر إلا الفرصة لتتحرر وتنطلق، وتعبر عن نفسها باشكال مختلفة في الحياة اليومية. غير أنه، منذ ان اخذت البيئة الاجتماعية تتغير بسرعة لم يعد التلاؤم يسايرها بالوتيرة ذاتها، تحررت الغرائز وفتحت السبيل أمام اشباع رغباتنا، حتى تلك الرغبات المظلمة وغير المدركة. لقد كان الفلاحون الفرنسيون الذين صنعوا ثورة ١٧٨٩ محاربين شرسين، وقدموا لنا مثلاً جيداً. فالحرمانات التي تحملوها، وعقد الدونية التي تألموا منها، ثم التعويض عنها، بين يوم وآخر، بعدوانية لا حدود لها. فهؤلاء الذين كانوا لا شيء في الأمس، اصبحوا اليوم مواطنين، واعطي لهم السلاح، ولم يعودوا غارقين في المجهول المُهْمَل، وانما اصبحوا رسل فرانسا الراغبين بحمل الحرية إلى جميع الشعوب على أسنة الحراب! . لقد حازوا على هوية، حققت لهم، كما رأينا، احدى اقوى الضرورات النفسانية الاساسية الثلاث التي اشار اليها آردري، والضرورتين الأخريين وهما التحريض والأمن.

الانسان عدواني، اذ يمكن ان يكون عنيفاً، وقاسياً، وسادياً، وقاتلاً. ويبدو ان تلك صفات مكتسبة. لقد كتب ميتشيرليش بهذا الشأن يقول:

«لقد علمتنا البحوث العلمية حول السلوك الإنساني، أن عاطفة التدمير ترتبط في انفسنا جميعاً، بدون استثناء، بالغريزة. وتعود هذه العاطفة في اصلها إلى احدى امكانات الانسان. وليس هناك أي مجتمع- مهما بلغ به الأمر- يستطيع أن يعفينا من العناية بترويض عدوانيتنا»[٢٥٢].

---

(٢٥٢) ميتشيرليش، المرجع ذاته، ص ١٣٩.

ومن المناسب أن نضيف إلى هذه الملاحظة ان نفجار العدوانية الفردية التي تُطلق العنف، ليس أمراً ضرورياً، ولا حتمياً، ولا حدثاً لا يمكن تجنبه. ولقد اصبح ممكناً الآن أن تكبح تصرفات «غير مكتسبة» وانما «طبيعية»، بطرائق سلوكية اجتماعية مكتسبة بالتعلم.

ويمكن كبح العدوانية التدميرية، أو إضعافها أو تقويتها بإثارات داخلية أو خارجية، حقيقية أو خيالية. وتستطيع التربية ان تلعب دوراً في كبح العدوانية. ومع ان الكبت قد لا يؤدي، بالضرورة، كما أثبت(٢٥٣) بيركوفيتز، إلى إثارة الغضب وأعمال العنف، فان من المؤكد ان الآمال المخفقة والانتظارات والترقبات المكبوتة تزيد في احتمالات العدوان. والدرس الذي نستطيع استخلاصه من هذه الحقائق هو ضرورة تعليم الانسان كيف يحد من أطماعه، وكيف يقبل بالقواعد والأصول التي تسمح له باجتياز انسياق التسلسل المراتبي الاجتماعي، واحترام هذه القواعد والاصول، عوضاً عن أن يعمل على قلبها رأساً على عقب بالثورة العنيفة.

ومن المناسب، بغية تجنب نتائج الآمال المخفقة، ان نعمل على عدم ايقاظ ما لا يمكن تحقيقه منها. ولهذا يجب البدء في إسكات صوت الغوغائيين الذين يعدون ناخبيهم بالقمر، والذين يثيرون عواطفهم من اجل الحصول على اصواتهم المؤيدة.

ومع ذلك فان التربية الموجهة نحو كبح الطمع، ونحو احترام القواعد والاصول احتراماً كلياً، ليست خالية من المخاطر. فهي، أولاً، تنحو نحو تجميد الأوضاع، وترسيخ «الوضع الراهن»، مما يعتبر شكلاً من اكثر أشكال العنف استتاراً. وحينذاك، لا يجد اولئك الذين لا يؤيدون استمرار الوضع الراهن، أمامهم، إلا أن يتخلوا عن تحسين مستقبلهم، مما يزيد شعورهم بالكبت والحرمان، ويؤدي، بالتالي، إلى تنامي عدوانيتهم. ومثل هذه التربية، ثانياً، يجب ان تعتمد، اكثر فأكثر، على اسلوب العقاب والثواب، أو على طريقة «غسل الدماغ». ويؤدي هذا الى استخدام العنف للتوصل إلى جعل الانسان

---

(٢٥٣) بيركوفيتز، «العدوان- تحليل نفساني اجتماعي». نشر ماك كرو- هيل بوك كومباني، ١٩٦٢، ص ٢٦ وما بعدها.

يتخلى عن العنف. وقد ثبت أن هذا الاسلوب غير فعال، حاله في ذلك حال استخدام طريقة العدوان لمنع العدوان.

ان الحد من مطامع الانسان وتجميد التسلسل المراتبي الاجتماعي يخنقان حيوية الانسان، بالاضافة إلى انهما يلهبان عدوانيته.

وتبقى هناك الغوغائية، التي يبدو لنا انها تشكل قرحة تشكو منها جميع الأنظمة السياسية، تقريباً. فالغوغائي الذي يدغدغ عواطف الشعب لينال الحظوة لديه لا يفكر ابداً فيما اذا كانت الآمال التي يقدمها، بصورة اصطناعية، قابلة للتحقق أم لا. والمشكلة هي أن الأمل حينما يُبعث في النفس، يصبح الاحفاق في تحققه أمراً خطيراً. واننا لنعتقد اننا يمكن أن نستخلص مما سبق ان مكافحة الغوغائية هي مكافحة لتنامي العدوانية العنيفة لدى الأفراد.

ان حالة الملازم الأول كالبي هي مَثَل على العدوانية الفردية لدى إنسان مُنفِّذ، ادعى، من اجل أن يدافع عن نفسه، انه لم يفعل غير طاعة الأوامر.

ان القادة السياسيين، وبخاصة اولئك الذين يتربعون على قمة الهرم، هم أناسٌ كغيرهم. واذا كانت عدوانيتهم تعبر عن نفسها بطريقة شفاهية فقط، بواسطة الأوامر أو الخطب، فان هذه العدوانية يمكن أن تكون، في نهاية الأمر، مدمِّرة اكثر من عدوانية مواطن بسيط.

(لقد اعلنت السيدة غولدا مايير، رئيسة وزراء اسرائيل، في تشرين الأول ١٩٧٣، ان القوات الاسرائيلية «ستسحق عظام العرب». وبذلك اصبح بامكان كل جندي إسرائيلي، بعد هذه الكلمات، ان يقتل العرب، والشعور باداء الواجب يغمر نفسه، بدون اية عقدة بالشعور بالذنب).

لقد حل ونستون تشرشل محل تشامبرلين كرئيس للوزراء في عام ١٩٤٠. وفي اول خطاب القاه، وقد غدا الخطاب مشهوراً، لم يعد تشرشل إلا «بالدم، والألم، والعرق،

والدموع». وحدد الهدف من الحرب بوضوح قائلاً: «النصر بأي ثمن»، اي حتى لو بلغ الثمن حد القيام بأكبر المجازر في التاريخ. ويمكننا، ولا شك، ان نتحدث كثيراً عن هتلر الذي كانت عدوانيته اكثر وضوحاً وإغراقاً. أما نابوليون، فلمْ يكن هناك اقدر منه على نفخ جنوده بروحه العدوانية، بواسطة خطبه الملتهبة. فقبلَ معركة أولم، عام ١٨٠٥، اعلن في خطاب وجهه إلى جنوده:

«أيها الجنود، لو كنتُ قصدتُ هزيمة العدو فقط، لما اعتقدت أن من الواجب ان أستنهض شجاعتكم، وحبكم للوطن، ولي. فان هزيمة العدو ليست هي الجديرة بكم وبامبراطوركم، إذ الواجب هو أن لا نترك جندياً قط من جيش العدو يهرب...»[٢٥٤].

فكيف سيتردد هؤلاء الفلاحون الفرنسيون، ومعظمهم أميون، في قتل الأعداء. طالما ان امبراطورهم، إلههم، يأمرهم بذلك؟.

ولنذكر الآن مثلاً أقرب إلينا زمناً، يستحق أن يجذب انتباهنا. ففي يوم ٢٥ تشرين الأول ١٩٧٣، وُضعت القيادة الجوية الاستراتيجية، ومختلف المراكز الاستراتيجية الأميركية، ووحدات التدخل السريع، في حالة استنفار، كرد فعل ضد إرسال ١٥٠٠ جندي سوفييتي نحو الشرق الأوسط. وقد احيط مجلس حلف الأطلسي بهذه التدابير بعد ساعات عدة من اتخاذها. والقواعد التي وضعت في حالة الاستنفار هي، بالدقة، تلك القواعد التي توجد فيها صواريخ كثيرة (القيادة الجوية الاستراتيجية في نيبراسكا، ومونتانا، وشمالي داكوتا)، والفرقة الثانية والثمانون المحمولة جواً (المتمركزة في فورت براغ في كارولينا الشمالية) والقاعدة الجوية في ايلينغتون (التكساس). وقاعدة مالستروم في مونتانا هي تلك القاعدة التي يمكن منها إطلاق الصواريخ عابرة القارات «مينوتيمان»، وهي القاعدة الاميركية الوحيدة للصواريخ المضادة للصواريخ. وأُعدَّت للهجوم القاذفات العملاقة «ب-٥٢»، والطائرات «كس- ١٣٥» المختصة بالتموين في الجو، والقاذفات ف‌ب-١١١» والمطاردات «ف-٤» فانتوم. وكانت هذه هي المرة الأولى التي تبلغ فيها الاستنفارات في الولايات المتحدة هذه الدرجة من الخطورة: انها الدرجة التي يجب بلوغها

(٢٥٤) راجع «نابوليون بونابرت: بيانات، اوامر يومية، نشرات الجيش»، الاتحاد العام للناشرين، ص ٤٦.

في حالة ازمة فورية. وقد اتخذ الرئيس الأميركي قرار الاستنفار هذا بدون العودة إلى حلفاء الولايات المتحدة.

وقد علم الأمين العام لحلف الأطلسي والسفراء ممثلو الدول الأعضاء في مجلس حلف الاطلسي، بواسطة الصحافة والأذاعة، كمثل ما جرى اثناء أزمة كوبا، بأن الحرب يمكن أن تندلع ما بين لحظة وأخرى. ان هذا لأمر جد خطير.

وهكذا، فان رجلاً أحَداً، وهو في هذه الحالة رئيس الولايات المتحدة الأميركية، اتخذ، لوحده، قرار البدء بتشغيل جهاز حرب يمكن ان ينخرط فيها العالم بأكمله. وقد ذهب بعض المعلقين السياسيين إلى القول ان التدابير التي اتخذها الرئيس نيكسون كانت ردة فعل غير متناسبة مع حجم التهديد الذي يمكن ان يخلقه ارسال ١٥٠٠ جندي روسي الى الجبهة العربية. بينما رأى آخرون في قرار الرئيس الأميركي وقفة عنيفة قاسية هدفها أن تنزع من نفس الروس كل رغبة في «الكسب»، بانذارهم، بشكل واضح، بان الولايات المتحدة كانت مستعدة لدعم اسرائيل بالاسلحة. لقد كان ذلك كله «ضربة بوكر» خطيرة.

واخيراً، هناك فرضية ثالثة قدمت في هذا المجال. وهي أنه في ذلك الشهر، أي تشرين الأول ١٩٧٣، كان الرئيس الأميركي مهدداً بدعوى «الاتهام» التي قد تؤدي إلى عزله. وقد اظهرت اختبارات سبر الرأي العام الأميركي التي تبعت ذلك، ان اكثر من نصف الأميركيين كانوا يرون أن على الرئيس نيكسون أن يستقيل، وذلك نتيجة للفضائح المختلفة التي نشرت الصحافة الأميركية والدولية تفصيلاتها. ويدل هذا على ان الشروط النفسانية التي اتخذ فيها رئيس الولايات قراره الخطير بوضع القواعد الذرية في حالة استنفار كانت بعيدة عن ان تكون ملائمة للتفكير الهادىء الصافي. وقد اثبت الاستاذ هولستي[٢٥٥]، بأمثلة عديدة، ان الآثار التي تنجم عن ازمة سياسية ذات توتر شديد تؤدي، بصورة رئيسية، إلى تخفيض نوعية القرارات التي يتخذها القادة السياسيون. وحينما يكون أمام هؤلاء المسؤولين فسحة صغيرة من الوقت لاتخاذ قرار، فانهم يتعرضون

---

(٢٥٥) راجع المجلد ٢٣ (١٩٧١) العدد الأول، المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية، مقالة هولستي «ازمة، وتوتر، وقرار»، ص ٦١ وما بعدها.

لأن يصبحوا أقل قدرة على تقدير النتائج والآثار المحتملة لهذا الخيار أو ذاك. وكلما اشتد التوتر، كلما اصبح الفكر اكثر تصلباً. وأقل قدرة على التنبؤ والتوقع.

وفي حالة التوتر، تكون طاقة الذكاء لدينا غارقة بردود الفعل لشعورنا الباطني. وحينذاك تعبر العدوانية الفردية عن نفسها بهذا الشكل أو بذاك، ولكنها تنفجر على كل حال. وقد كان الجهاز العصبي للرئيس نيكسون مُثاراً منذ عدة أشهر بحملات الصحافة التي وضعت مباشرة المنصب الرفيع الذي يشغله في السلم المراتبي موضع الاتهام. وقد كان احتمال فقدان هذا المنصب «الهوية السامية»، يستوجب، بالضرورة، إثارة عدوانيته، التي تمثلت بمظهرين. ففي بادىء الأمر، اتجه مباشرة ضد اولئك الذين هاجموه، وهم، في هذه الحالة، الصحفيون. وفي بلاد تمارس الصحافة نفوذاً وتأثيراً كبيرين، لا يبدو أن التصرف كان وليد تفكير ناضج. ثم اتجه بعد ذلك بشكل غير مباشر نحو الروس. فهل كان هذا الأمر تعبيراً عن عدوانية منحرفة، أم ان رئيس الولايات المتحدة الأميركية اراد، بهذه الطريقة، أن يبرز مأساوية الحالة قاصداً ان يحرف العدوانية التي اظهرها الرأي العام تجاهه نحو تهديد خارجي؟. ومهما كان الأمر، فان الوقائع تشير، بكل وضوح، إلى أن التفكير الحر المتأمل ليس وحده هو الذي املى على الرئيس نيكسون اتخاذ قرار كان يمكن ان يكون مثقلاً بالنتائج.

ويبدو جلياً ان عدوانية الرئيس الأميركي دفعته إلى الانزلاق إلى خطر ضربة البوكر التي، لو لم تنجح، لكانت سببت كارثة عالمية.

ان اولئك الذين يدعون ان اسلحة التدمير الشامل وحدها هي التي ستمنع وقوع حرب عالمية ثالثة، قد نسوا ان عدوانية إنسان أحَد يمكن ان تعرِّض، في يوم من الأيام النوع الانساني كله للخطر.

ان دراسة العدوانية الفردية ونتائجها ومنعكساتها على الظاهرة الا-جتماعية- الحرب تشكل، اذن، قطاعاً للبحث، يتوجب على علم اجتماع الحرب ان يلج في استقصائه حتى الأعماق. ويمكن لمثل هذه الدراسة الاستقصائية ان تعلمنا، بشكل دقيق، لماذا يحث القادة السياسيون، ما بين فترة وأخرى، شعوبهم على ان تتحارب وغيرها من الشعوب، ولماذا يطيع المواطنون المسالمون اوامر قادتهم.

اننا لم نبحث حتى الآن سوى العدوانية الفردية. غير ان الحرب، في نهاية الأمر، ليست سوى ظاهرة عدوانية جماعية. واذا كانت العدوانية الفردية تضع النار في البارود، فمن المؤكد ان البنية الاجتماعية لشعب ما لا بد لها أن تكون تحاربية حتى يقبل ذلك الشعب ان يقوم بالحرب. ولهذا، فلا بد للعدوانية الجماعية من ان تستحوذ على اهتمامنا.

ومن الواضح ان العدوانية الجماعية هي شيء آخر غير ذلك التراكم البسيط للعدوانيات الفردية، اذ يمكن ان تنقلب جماعة مؤلفة من أناس مسالمين الى جماعة عدوانية بشكل متطرف، تحت ضغط بعض القوى الاجتماعية، او السياسية، او الاقتصادية، او النفسانية. وان هذا لأمر جد خطير. وفي الواقع، فانه ليس مؤكداً ان مجموعة من الناس (برلمان، مجلس وزراء، فريق من المستشارين) تستطيع ان ترفض عمل الحرب بسهولة أكثر مما يستطيع ذلك رئيس يتخذ قراره لوحده. ومَثَل الحرب الفرنسية- الالمانية يبرهن على عكس ذلك، فنابوليون الثالث كان يرفض الحرب، ولكنه انقاد إلى اعلانها بعد ثلاثة اجتماعات عقدها مجلس الوزراء. وكانت هتافات المؤيدين لأعضاء الاكثرية في المجلس التشريعي، تطغى على صوت تيير الذي وجه نداءً للتعقل. أما حالة بلجيكا عام ١٩١٤ حين قبلت مقاومة الغزو الالماني فهي اكثر تعبيراً من سابقتها، بالرغم من انها اقل شهرة منها. ولنتفحص هذه الحالة عن قرب. ففي ٢٣ تموز ١٩١٤، وقع الانذار النمساوي- الهنغاري الموجه إلى صربيا وقع الصاعقة. وفي بروكسيل، اشتد القلق، حيث كانت مسألة حياد بلجيكا موضع دراسة وزارة الخارجية البلجيكية بشكل عميق منذ عدة سنوات. وكانت تقارير سفيري بلجيكا في برلين وفيينا قد بعثت، منذ زمن طويل، في نفوس البلجيكيين الأمل بتجنب الحرب في اوروبا. وكانت جميع الاحتمالات الممكنة الخاصة بالمسّ بحياد بلجيكا قد تم تصورها ودراستها للاجابة عن التساؤل التالي:

«ماذا يجب أن يكون موقفنا، في هذه الحالة المحددة، لنؤدي واجبنا نحو انفسنا ونحو أوروبا»[٢٥٦].

وقبل ان توجه ألمانيا انذاراً إلى بلجيكا، يبدو ان القلق اخذ يساور الحكومة

---

(٢٥٦) راجع ألبير دوباسّو مبيير «ليلة ٢- ٣ آب ١٩١٤ في وزارة الخارجية البلجيكية»، نشر المكتبة الأكاديمية، بيران وشركاه، باريز، ص ٧ وما بعدها.

البلجيكية بخشيتها من «عدم قدرتها على القيام بواجبها»، و«ضياع الشرف» اكثر من خوفها من الخسائر في الارواح البشرية والتدميرات المنتظرة من الحرب. وقد اوضح دوباسومبيير ذلك حين أكد أن جميع الدراسات التي اعدتها وزارة الخارجية «تثبت بجلاء تصميم الحكومة على القيام بالواجبات التي تفرضها على بلجيكا معاهدات ١٨٣٩، وذلك بكل نزاهة واستقامة، وفي جميع الأحوال، ومهما كان الثمن الذي ستدفعه البلاد»[٢٥٧]. وقبل أن يصبح التهديد مباشراً، كانت الحكومة مستعدة ايضاً لأن تغامر بحياة الآلاف من البلجيكيين في سبيل احترامها لتوقيعها على المعاهدات المذكورة.

في الساعة ١٩ من يوم ٢ آب ١٩١٤ قدم الوزير المفوض الالماني في بروكسيل الى الحكومة الالمانية الانذار الذي تُلي، واعيدت تلاوته، في مجلس العرش الذي انعقد في مساء اليوم ذاته برئاسة الملك ألبير. وكان الانذار يتضمن الجمل التالية:

«تجد الحكومة الالمانية نفسها مضطرة لخرق الاراضي البلجيكية، وتطلب أن لا ترى بلجيكا في ذلك عملاً عدائياً ضدها، وأن لا تقاومه. وتتعهد الحكومة الالمانية بضمان سلامة اراضي بلجيكا والتعويض عليها. واذا ما تصرفت بلجيكا تصرفاً عدائياً ضد القطعات الألمانية. . . فان المانيا ستكون مجبرة على اعتبار بلجيكا عدوة، بحيث يكون موضوع مصيرها مرتبطاً بالسلاح»[٢٥٨].

ويشكل القسم الأخير من هذا المقطع تهديداً رهيباً، بينما القسم الأول ليس سوى محاولة ماهرة لكبح ردود الفعل الدفاعية عند البلجيكيين. وبعد ان درس القادة البلجيكيون الأمر، بتفكير بارد، ودون ان يتركوا انفسهم تخضع للانفعال أو القلق، توصلوا إلى المنطق التالي: «ان النزاعات بين الدول الكبرى أمر لا يهمنا. واذا ما قاومنا المانيا فان عدداً كبيراً من مواطنينا سيقتلون (لقد وقع ٤٤٠٠٠ قتيل)، ومدننا ستخرب. واذا ما انحنينا أمام هذا الانذار، وحتى لو لم تعوض ألمانيا علينا، فربما فقدنا حرياتنا، غير أن ذلك، في نهاية الأمر، افضل من أن نفقد الحياة». إلا أن مثل هذا المنطق لم يكن، من

---

(٢٥٧) دوباسو مبير، المرجع ذاته، ص ١٠

(٢٥٨) راجع فان أو فرستراتن «مبادىء الحرب عبر العصور»، الجزء الثاني، ص ٥٥ وما بعدها، بروكسيل، مكتبة ألبير دورت، ١٩٢٦.

الناحية العملية، مقبولاً في ذلك الحين، .وسيعامل من يفكر به على أنه «جبان». وفي الواقع، اجمعت المقالات التي صدرت آنذاك على إثارة النقمة، والانفعال، والخشية من العار! ولكن، ما هو الشرف؟ وما هو العار؟. ومنذ زمن طويل لم يعد هناك إنسان «جدير بهذا الاسم» يفضل ان يقاتل غيره بالمبارزة (أي أن يغامر بان يُقتل أو يَقْتل انساناً آخر)، لأنه عومل على أساس أنه «كذاب» أو «جبان». وحينما تحمل فتاة عازبة، فان «عارها» يرتد على اسرتها كلها. وحينما قلبت ايطاليا موسوليني عام ١٩٤٣، وبعد ان قاتلت الحلفاء ثم انضمت حليفة إلى صفوفهم، هل شعر الايطاليون بالعار؟.

في الحقيقة، استولى شعور «الخوف من أن يظهر المرء خائفاً» على جميع اعضاء مجلس العرش، تقريباً، يوم ٢ آب ١٩١٤. وظهرت، في جميع التقارير الخاصة بهذه الجلسة التاريخية، كلمات «التوتر العصبي الأقصى»، و«الشرف»، و«العار»، و«الواجب»، و«الانفعال العميق»، و«الخوف»، و«ارادة البقاء الشريف»، و«الجو الضاغط». وكان معظم وزراء الدولة والوزراء اصحاب الحقائب الوزارية رجالاً مُسنين، أو عجائز مرضى (مثل السيد لانستشير الذي كان يتحرك بصعوبة، وكان مضطراً الى الخروج من قاعة الاجتماع مرتين أو ثلاث مرات مستنداً إلى ذراع أحد الخدم، والكونت غريندل الذي كان يستنشق، حنجور أملاح، ويولِّد ضجة ملحوظة...) (٢٥٩).

بدأت الجلسة مساء يوم أحد، واستمرت إلى نحو منتصف الليل. وينتهي الانذار في الساعة ٧ صباحاً. وباختصار، فقد اشترك التوتر، والتعب، والانفعال، في استمرار القلق. وكان اصفرار بعض الوجوه معبراً: «لقد قال السيد دافينيون، وزير الخارجية، الذي كان وجهه مصبوغاً بالصفرة، ان الأمر سيىء، سيىء جداً». وقد استنتج بول هيمانز من تصريح ادلى به السيد شولار، ان المانيا ستغزونا: «لقد بدا لي أني تلقيت لكمة على صدري، واشعر بالخوف يملأ نفسي»، ووصف وزيراً آخر بقوله: «كان السيد ووست منحني الظهر، اصفر الوجه داكنه». وصفرة الوجه هي احدى العلامات الجسمانية الدالة على الخوف.

غير ان البعض واجه هذا الخوف بعدوانية. وعندما اعلن السيد ووست ان قوة المانيا

---

(٢٥٩) راجع بول هيمانز «مذكرات»، نشر معهد سولفيي لعلم الاجتماع، ١٩٣٨، الجزء الأول، ص ٨٧.

رهيبة، ويجب الاكتفاء بمظاهرة بسيطة (أي بمقاومة ظاهرية)، ثم الانسحاب إلى أنفرس، وترك الأمور تسير في مجراها المقدر لها، عندما اعلن ووست ذلك، كان جامداً، ولم يجرؤ على الالحاح على رأيه. وهاكم ما يرويه بول هيمانز عن هذا المشهد:

«كان السيد ووست أول المتكلمين، وشرح رأيه بهدوء وبتعابير مقتضبة. لقد لخص رأيه قائلاً ان الحالة جد خطيرة، واننا نواجه قوة رهيبة، وان بلجيكا بلد صغير، لذا علينا أن نحتج ونتمسك بالمعاهدات التي تحمينا والتي وقعت عليها المانيا. اننا لا يجوز أن نرضخ، ويجب ان نطلق المدافع. ولكن بعد هذه المظاهرة التي لا بد منها، والتي تبقى بدون فائدة، بسبب ضعفنا، يجب علينا الانسحاب إلى انفرس، وترك الأمور تسير في مجراها المقدر لها. ولقد بدا لي أنه من المستحيل أن اترك النتيجة التي انتهى إليها السيد ووست تمر دون جواب عليها. . . لقد قلت ان علينا ان نقاوم بكل قوانا، فهذا واجبنا. من المحتمل أن ننهزم، ولكننا نكون قد انقذنا الشرف، وبذلك سنبقى ونحيا. واذا لم نفعل ذلك فاننا سنفقد كل شيء. ان النهاية غير مؤكدة. واذا كانت المانيا هي المنتصرة، فان الهزيمة التي ستحل ببلجيكا سترفع قيمة هذا البلد في نظر المنتصر، وتأتي بالدعم من الخارج.

«لقد انفجر السيد ساديلير باللعنات ضد ألمانيا، وضد الأمبراطور. لقد كان عنيفاً، وساخطاً، وبليغاً في غضبه. وقد دعمه فان دين هوفل، وقال ان الانذار لا يمكن قبوله. ولم يصر السيد ووست على موقفه. وبدا أن هناك اتفاقاً عاماً، فطلب الملك التصويت. وانتقل المجلس إلى التصويت بالنداء على الاسماء. وكانت النتيجة قراراً إجماعياً بالمقاومة»[٢٦٠].

وهكذا قرر مجلس العرش، بالاجماع، أن يقاتل البلجيكيون الألمان. وكان هذا القرار منافياً للعقل منافاة كلية. فكيف تم اتخاذ هذا القرار؟ في الواقع، لقد جرّت عدوانية بول هيمانز الآخرين إلى اتخاذ هذا القرار في جو متأزم، فبعد أن تكلم، انجرف وزراء آخرون إلى المزاودة الخطابية، والى الغضب، والنقمة. وكما يظهر لنا في مكان آخر من كتابه[٢٦١]، فقد كان هيمانز قلقاً. والقلق، بصورة خاصة، عامل خطير من عوامل

---

(٢٦٠) بول هيمانز، المرجع ذاته، الجزء الأول، ص ٨٦.

(٢٦١) راجع دراستنا «القلق، والخوف، والحزب»، المرجع ذاته.

العدوانية. يضاف إلى ذلك، ان بول هيمانز، وقد سُمي وزير دولة يوم انعقاد مجلس العرش، «اراد ان يتقدم خطوة الى الأمام» و«ان يلفت إليه الانظار»، أي، بكلمات موجزة، إنه سعى الى أن يخرج من الظل الى نور الشهرة. غير أنه بعد ان اتخذ هيمانز موقفه العدواني هذا، لم يعد هناك أحد يجرؤ على ان ينصح بحكمة «الخوف من أن يظهر المرء خائفاً».

اما السيد ووست، الوزير العجوز الذي كان المستقبل قد اصبح وراءه، والذي لم يكن بحاجة إلى البحث عن الظهور والشهرة، فقد كان الوحيد (كما كان تيير قبله عام ١٨٧٠) الذي تكلم بلغة العقل. ولكنه «لم يُصر» على رأيه، فقد فعل كما فعل الآخرون، اذ صوَّت معهم مؤيداً الحرب، اذ انه قدَّر، في نهاية الأمر، انه ليس وحده المسؤول.

ويثبت هذا المثل ان مجلس وزراء واقعاً تحت تأثير العوامل النفسانية الخاصة بالاجتماعات والمجالس، يمكن ان يتخذ قراراً بقبول التضحية بعشرات الألوف من مواطنيه، حاله في ذلك حال رئيس دولة يعمل ويقرر لوحده. ولذا فان قرارات مجلس وزراء ليست، بالضرورة، اكثر ذكاء من قرارات قائد يقرر لوحده.

إن أزمة كوبا عام ١٩٦٢ تقدم لنا مثلاً على عمل المستشارين، الذين، بسبب الطيش والرغبة في اظهار مزايا الرئيس، دفعوا بالرئيس كينيدي إلى الهجوم على الروس:

«غير أن مما ازعجه (أي الرئيس كينيدي) هو أن جميع العسكريين الذين التقينا بهم، باستثناء الجنرال تايلور، لم يفكروا مطلقاً بنتائج التدابير التي اوصوا بها. فقد كانوا دائماً مقتنعين بان الروس والكوبيين لن يردوا، واذا ما فعلوا ذلك، فان نتيجة الحرب ستكون في صالحنا الوطني. وقد صرح لي احد رؤساء الاركان إنه من انصار الهجوم الوقائي الاستباقي ضد الاتحاد السوفييتي. وفي هذا اليوم التاريخي، صباح يوم الأحد، حيث اعلن الروس أنهم سيسحبون صواريخهم، اقترح احد كبار المستشارين العسكريين ان نقوم بالهجوم، مهما كانت الأحوال، يوم الاثنين»[٢٦٢].

---

(٢٦٢) راجع روبير كينيدي «ازمة في البيت الابيض»، نشر اكسبريس دونوييل، باريز ١٩٦٨، ص ١١٠ وما بعدها.

٣٥- القلـق والحـرب:

استطاع الانسان، بفضل دماغه، ان يتنبأ بالمستقبل، وبما يمكن ان يكون ملائمًا له أو غير ملائم. والمنتَظَر الذي يرغب فيه الانسان يسمى الأمل، وما هو مضاد له، تقريباً، يسمى القلق. واذا كان الخوف هو الانفعال (اي اضطراب في الانفعال) الذي ينطلق كردة فعل ضد خطر حقيقي وجاثم، فان القلق هو الانفعال الذي ينطلق كردة فعل ضد خطر لا يوجد في العالم الخارجي، ولكنه ممكن الوجود. والروس، ومثلهم في ذلك الأميركان، يتصورون أن من الممكن أن تكون بلادهم، في يوم من الأيام، هدَفاً لهجوم حراري-نووي صاعق. وقد خلقت هذه الفكرة، عند كل من الطرفين، قلقاً سارياً مليئاً بالمخاطر. وفي الحقيقة، فان الروابط بين القلق والعدوانية جد وثيقة. كما ان الانتقال من احدهما الى الآخر يجري بسهولة.

إن احدى نتائج القلق هي ان انتظار حدث مشكوك في وقوعه أمر أشق من معاناة الحدث نفسه والعيش فيه. فاذا ما وقعت الحرب، فان «وجوب انهائها» يغدو صمام الأمان للقلق.

ان احد الاغراءات الخطيرة للحرب الوقائية، من بين إغراءات أخرى، يتمثل في أن هذه الحرب تضع نهاية للقلق غير المحتمل الذي يسببه عدوان الخصم.

ويظهر دور القلق جلياً في السباق نحو التسلح. فكل دولة تشعر بأنها مهددة طالما ان الدول الأخرى تملك قدرة تدميرية تقدرها تلك الدولة، سواء كان التقدير سليمًا أو خاطئاً، انها تفوق قدرتها، وبالتالي، فانها تراها كافية لتفسد عليها أمنها وسلامتها. وفي الواقع، فان القوة المطلقة غير موجودة، فالقوة والضعف هما، بصورة أساسية، نسبيان. فاتساع ارض دولة ما، ونموها الصناعي المتسارع، وامتلاكها ثروات وطاقات تفوق ما لدى جيرانها، جميعها عوامل تُغرق تلك الدول المجاورة في بحر من الاضطراب، بل القلق الذي يدفعها إلى العمل.

وقد كانت الاسلحة، فيما مضى من الزمان، بسيطة، وقدرتها التدميرية ضعيفة، واستعمالها فردياً، لذلك فقد كانت قوة دولة ما تقاس بملاكات جيشها (أي بعدد أفراد

الجيش). وكانت المنافسة السياسية بين الدول تستند على أساس المنافسة بين الملاكات. ومنذ أن فرض ملوك فرانسا ضريبة حربية دائمة، اصبحت لديهم الوسيلة لتأسيس جيوش دائمة، وبخاصة السرايا الخاصة بهم. ومنذ ذلك الحين، تضاعف عدد الجيوش، وعوضاً عن ٥٠٠٠٠ جندي الذين اشتركوا في معركة مارينيان (عام ١٥١٥)، اشترك ٢٠٠٠٠٠ جندي في معركة مالبلاكيه (عام ١٧٠٩)[٢٦٣].

وكبر الجيش الفرنسي من ١٢٠٠٠ رجل مسلح في عهد شارل السابع إلى ١٨٠٠٠٠ رجل مسلح في عهد لويس الرابع عشر. وقد دق مونتيسكو اجراس الخطر من جراء هذا التسابق في الملاكات:

«لقد انتشر مرض جديد في اوروبا، واصاب أمراءنا، فجعلهم يحتفظون بعدد غير مألوف من القطعات. ولهذا المرض مضاعفاته، وقد اصبح، بالضرورة، مرضاً سارياً، فما ان تزيد دولة ما قطعاتها، حتى تزيد الدول المجاورة لها قطعاتها، بشكل لا يؤدي إلى أي مكسب قط، سوى الدمار المشترك. وتحتفظ كل مملكة بالجيوش التي تستطيع انشاءها كما لو ان شعبها معرض لخطر الابادة. ويسمون هذه الحالة من الجهد حيث يقف الجميع ضد الجميع، يسمونها(حالة سلام).

وكان على الملوك أن يدفعوا رواتب الى الجنود. وقد ادى النقص في الموارد المالية إلى انحسار لا بد منه في حجم الملاكات. ولم تكن لدى ملوك فرنسا سلطة تطبيق نظام التجنيد (الخدمة الالزامية). غير أن بروسيا استطاعت، عشية الثورة الفرنسية، ان تحتفظ بنحو ١٩٥٠٠٠ رجل برواتب منخفضة، لانها فرضت الخدمة العسكرية على مواطنيها. فقد فُرض على كل ولاية (كانتون) ان يزود لواءه بما يكمل ملاكه. أما الجيش الفرنسي، فلم يكن يضم، في الفترة ذاتها، سوى ١٨٠٠٠٠ رجل، وكان يكلِّف، في النفقات، ضعف ما كان يكلفه الجيش البروسي.

غير أن الأمور تغيرت منذ الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩. فعندما اعطت الدولة بطاقة انتخاب وتصويت إلى كل مواطن، وضعت على ظهره حقيبة الجندي. وقد رأينا كيف أن

---

(٢٦٣) راجع برنارد دوجوفينيل، المرجع ذاته، ص ٢٢٧.

القرار الصادر في ٢٣ آب ١٧٩٣ ادى إلى تعبئة الأمة بكاملها.

وقد عمَّ نظام التجنيد بعد ذلك، اذ اصبح جميع المواطنين في جميع الدول جاهزين للاستدعاء، بمن فيهم النساء، كما جرى في الحرب العالمية الثانية في بريطانيا. وقد ادى النصر الألماني عام ١٨٧٠ إلى «ارعاب اوروبا، ودفع جميع الدول إلى اتباع نظام الخدمة العسكرية الإلزامية كما فعلت المانيا». وقد ادى الخوف من دولة جارة لديها ملاكات كبيرة بجميع الدول إلى ان تحضِّر، منذ زمن السلم، تعبئة جميع مواطنيها، من الجنسين معاً. وقد بلغت تعبئة الموارد البشرية الآن ذروتها، فمنذ الحرب العالمية الثانية وصل التسابق إلى الملاكات إلى العجائز، والنساء، والأولاد، بالاضافة إلى الرجال الذين هم في سن حمل السلاح. وهكذا اصبح الجميع مقاتلين، كما اصبحوا، في الوقت ذاته، اهدافاً للعدو.

غير ان تقدم التسلح ادى إلى نشوء نوع جديد من القلق. فكل سلاح جديد، وكل اختراع جديد، يتصفان بالقدرة على التدمير، يخلقان قلقاً جماعياً لا يمكن أن يهدأ إلا اذا تم امتلاك اسلحة مشابهة تعادل، ان لم تفق، اسلحة الجيران والخصوم. ومثل هذا التسابق في التسلح يخلق لدى هيئات اركان اكبر الجيوش في العالم خشية دائمة من ان تكون متخلفة في وسائل القتال الحديثة. ولا يستطيع أي قائد عسكري ان يعلن انه يملك اسلحة كافية في عددها وقدرتها، فالجميع يتابعون، بقلق، المنجزات والتطورات الجارية في الجيوش الأخرى، وعمل مكاتب الاستخبارات في جميع هيئات الاركان في العالم لا ينقطع أبداً.

لقد اصبح القلق موجعاً حقاً، ومؤثراً فعلاً، حتى بدا، في اللاشعور، وكأنه صدى الأمل الأسمى في انقاذ السلام. وبعد ان اصبحت قدرة الاسلحة ومداها غير محدودة، اخذت كل دولة تتصور أن الدولة الأخرى يتملكها الخوف من الرد فلا تبدأ هي بالقتال. وهكذا بلغنا ما يسمى «السلام المتوازن المتبادل»، أي «سلام الرعب المتبادل»، والذي يحمل من المعاني ما يريد ان يعبر عنها. ومن المؤسف ان سلام الرعب المتبادل يفرض:

١)-ان يكون كل خصم من الخصمين جاهزاً، في كل آن، ليقوم بالرد الذري.
٢)-وان يكون كل منهما مقتنعاً بان خصمه قد قرر أن يقوم بهذا الرد.

ويجب ان يكون التهديد مرعباً ومُصدَّقاً ليكبح كل تفكير بالعدوان عند العدو

المحتمل، وبذلك ننتهي إلى ما سماه جان غيتّول بالتناقض الذري:

«حتى لا تكون الحرب المطلقة في الوجود أبداً، يجب ان تكون هذه الحرب ممكنة الوقوع في كل حين»[264].

ويجب ان يكون التهديد مرعباً ومُصَدَّقاً «لردع العدوان»، اذ يؤدي إلى خلق الخوف الكافي عند العدو لكبح عدوانيته. وتتباهى الدولة بقوتها، وهي آملة في ان لا تستخدمها. وهذه الطريقة في التصرف ليست، في الحقيقة، سوى حالة خاصة من التكيفية المرعبة المعروفة عند الحيوانات. فالكلب الذي ينفش وبره، ويزمجر، ويكشر عن انيابه، يصبح مرعباً بقصد ارهاب خصمه. والقرد الذي يضرب على صدره، والفيل الذي يلوح بأذنيه، والأسد الذي يزأر، تتغير جسمانياً لتبعث في نفس خصمها خوفاً كافياً للهرب. ومن المؤسف، أن التكيفية المرعبة في التجمعات البشرية المنظمة ليس لها التأثيرات ذاتها، بشكل دقيق، كما عند الحيوانات. فالانسان يستبق الشر، ويسعى إلى حماية نفسه من الخطر. وخياله يساعده على ان يستشف ما يمكن أن يحدث اذا لم يعمل ويتحرك في الوقت المناسب. وباعتباره جزءاً من جماعة، فان مواهبه التفكيرية تتحول، ولا يعمل دائماً كما لو كان يفكر ويعمل لوحده. يضاف الى ذلك، ان الانسان، باعتباره غير منعزل وينتسب إلى جماعة، فانه يستمد من ذلك شعوراً بالقوة، ان لم نقل شعوراً بأنه لا يقهر. ومنذ ذلك الحين، لم يعد القلق الذي يشعر به امام الخطر والتهديد يثير في نفسه دائماً الحاجة الى الهرب، وانما، على العكس من ذلك، يمكن أن يثير في نفسه عدوانيته.

وحدث، في هذه الأثناء، ان جهدت الحكومات في إقناع مواطنيها، وإقناع نفسها ايضاً، بالنوايا الحسنة للخصم. وبالرغم من قدرة الاسلحة التي تملكها الحكومات، فانها تعلن، بحزم، ان لا مصلحة لها في استخدام هذه الاسلحة، لأن الرد من الطرف الآخر سيكون رهيباً، بحيث تصبح، هي ذاتها، ضحية الكارثة التي بدأتها. هذه هي، بالتحليل، نظرية الحرب المستحيلة، التي تحدثنا عنها.

وقد سمح القلق لبعض الحكومات التي تعمل وكأن الحرب الحرارية- النووية لن

(٢٦٤) راجع جان غيتّون «الفكر والحرب»، نشر ديسكلي- دوبروور، ١٩٦٩، ص ١٧٢ وما بعدها.

تقع أبداً، بأن تشرح مواقفها. ونحن نعلم، ان الانسان، في سبيل الصراع ضد قلق الموت، يحاول ان يتناساه عن طريق العمل وكأنه لن يموت. ان هدف نظرية الحرب المستحيلة، هو إنكار الحرب، وتناسيها، وتجاهلها. وقد تكون هذه طريقة للكفاح ضد القلق الذي تولده الحرب، أي ضد الموت المحتمل، كمثل عجوز يرفض الاعتقاد بنهايته القريبة.

وتواجه بعض الحكومات الخطر بعدوانية طاغية، وذلك كنتيجة مباشرة لقلقها أمام الخطر الذري، وتورِّط بلادها في سباق مدمِّر للتسلح الذري، ذي فعالية مشكوك فيها، وذلك كله من اجل الرد على التهديد الذري. وبعد أن تبني هذه الحكومات قوة ضاربة وطنية، تسرع إلى الإعلان أن الاتسراتيجية الجديدة تقوم على أساس تجنب الحرب. والشكل الوحيد لردع العدوان هو أن تكون قوياً بشكل يكفي لأن يوحي إلى العدو بخوف ملائم. وهكذا نعود الى الحكمة القديمة التي تقول: إذا كنت تريد السلام، فاستعد للحرب، تلك الحكمة التي سيطرت على السياسات الخارجية على مدى التاريخ.

٣٦- ردع العدوان

ليس السباق الى التسلح وردع العدوان أمران جديدان، ففي اثناء انعقاد مجلس الوزراء البلجيكي يوم ١٤ تشرين الأول ١٩٣٦، صرح ملك بلجيكا ليوبولد الثالث قائلاً:

«ان سياستنا العسكرية، مثل سياستنا الخارجية التي تحدد، بالضرورة، سياستنا العسكرية، يجب ان لا تهدف إلى الاعداد لحرب منتصرة، ولكن يجب ان تسعى الى أن تبعد الحرب عن وطننا. . . ان وضعنا الجغرافي يوجب علينا أن نحتفظ بقوة عسكرية قادرة على ردع أي من جيراننا عن ان يستخدم ارضنا ليهاجم منها دولة أخرى. . .».

وقد ايد الرأي العام البلجيكي، بدون تحفظ، تصريح الملك. وهذه السياسة، التي هي بلجيكية صرفة، توجب الاعتماد على «قوة عسكرية قوية بشكل كاف» لكي تجعل المهاجم المحتمل يتردد، ثم يفكر ثانية، مما يؤدي به، منطقياً، إلى ان يتخلى عن عبور الاراضي البلجيكية. وقد الحّ الملك على الهدف المحدد لهذه السياسة.

«ان علينا، وأكرر ذلك، ان نَقِيَ انفسنا الحرب، من حيثما أتت، وان يرد عليها جهازنا العسكري اذا ما وقعت. ومن المهم ان يتلقى الرأي العام اعلان الحرب بدون جدال»[٢٦٥].

ان ما جرى بعد ذلك معروف، ففي ١٠ أيار ١٩٤٠، اكتسح هتلر بلجيكا.

ان ردع العدوان بواسطة تراكم وسائل الدفاع هو ردة فعل للقلق بكل معنى الكلمة. وقد ثبت ان الردع الطويل المدى ليس فعالاً دائماً. ويدعي البعض انه بفضل القوى العسكرية لحلف الأطلسي، وبفضل التسلح الذري الأميركي، بصورة رئيسية، لم تقع حتى الآن الحرب العالمية الثالثة. قد يكون هذا القول ممكناً وقد يكون صدقه محتملاً، غير ان هذا لا يكفي لأن يكون الأمر كذلك دوماً.

ان الفرضية الأساسية للردع، هي أن العدو حينما يقرر البدء بالهجوم، يقدر المخاطر التي سيقدم عليها بصورة جد واضحة ودقيقة. ونحن نعلم ان حالة التوتر الشديد ليست ملائمة للتفكير، وان نوعية القرارات المتخذة في ظروف الازمة هي، في اغلب الاحيان، ادنى من نوعية القرارات التي تتخذ في حالة الهدوء. ويسعى اسلوب الردع الى ان يثير عند العدو قلقاً يجرده من الجرأة على الهجوم، لأنه يعرف بانه هو نفسه سيصبح مدمراً. ومن المؤسف ان الخصم يمكن:

- أن يخطىء في حساب المخاطر، ويتصور أنه بواسطة هجوم صاعق، سيجرد خصمه من امكانية الرد.
- ان تكون لديه ردة فعل عدوانية، فلا يحسب حساباً للخسائر التي يمكن ان تحل به، أو يقنع نفسه بأنه هو الأقوى. ويبدو هنا شعار «سننتصر لأننا الأقوى» ذو مغزى.
- ان يتعود على الخوف. فبعد أن يكون قد تراجع في مناسبات عديدة أمام تهديدات لا تنتهي إلى تأثيرات محددة، فقد يتصور أن الأمر سيكون دائماً على هذه الشاكلة.

---

(٢٦٥) راجع الجنرال فان او فرستراتن «ألبير الاول- ليوبولد الثالث، عشرون عاماً من السياسة العسكرية البلجيكية، ١٩٢٠- ١٩٤٠»، نشر ديسكليه، دوبروور، ص ٢٣٣.

ففي عام ١٩٦٢ و١٩٧٣، اكتفى الأميركان بوضع قواعدهم الذرية في حالة استنفار حتى يجعلوا الروس يتراجعون. ومن يجرؤ على التأكيد انه في الازمة المقبلة لن يأبه الروس لموقف الأميركان، وانهم سيضعون، بدورهم، قواعدهم الذرية في حالة استنفار؟. ان المنظّرين في كلا الجانبين يؤكدون ان القيمة الاستراتيجية للقنابل الذرية والهيدروجينية تكمن في حال عدم استخدام هذه القنابل.

ويعتقد الجنرال بوفر[٢٦٦] ان خطر نشوب صراع عالمي تستعمل فيه الاسلحة الحرارية - النووية هو، من الناحية العملية، أمر عَدَم، إلا اذا نشأت بعض الاحتمالات العارضة. وان الاسراف وإساءة استعمال حالة استنفار القواعد الذرية يدخل، حسب رأينا، في إطار هذه «الاحتمالات العارضة».

٣٧- التكنولوجيا والعدوانية:

اصبحت الاسلحة الحديثة جد متقنة إلى حد أنها توفر السيطرة للضعيف على القوي. (فلولا نوعية الاسلحة التي يملكها الاسرائيليون، ولولا كفاءتهم في استعمالها، لكان العرب قد سحقوهم منذ زمن طويل. وكردة فعل على ذلك، غدت العدوانية الجماعية للإسرائيليين جد شرسة). والسلاح المطلق لم يوجد حتى الآن، وما يزال البحث جارياً عنه. وقد خصصت نفقات ضخمة، من بين جهود أخرى، في الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، من اجل القيام باعمال علمية باهرة تؤدي الى تحقيق تفوق دامغ. وتشترك جميع مختبرات البحوث، من الناحية العملية، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، في تطوير وتحسين آلات الموت.

وقد اشار روبين كلارك إلى ذلك بقوله:

«ادى البحث في الاشعة تحت الحمراء الى اكتشاف طرائق جديدة في توجيه الصواريخ. وقد حسّن البحث في قياس ضوء النجوم ملاحة الغواصات. وادى البحث في الجزئيات الى اكتشاف وقود جيد لصاروخ بولاريس...»[٢٦٧].

---

(٢٦٦) راجع «الردع والاستراتيجية»، باريز ١٩٦٤، ص ١٥٩، و«مدخل الى الاستراتيجية»، باريز ١٩٦٣، ص ٧٦

(٢٦٧) المرجع ذاته، ص ٢٢٥.

وهناك تداخل خطير بين البحث العلمي المدني والبحث العلمي العسكري. وتستخدم المكتشفات، في اغلب الاحيان، من اجل تدمير الحياة اكثر من استخدامها من اجل حماية الحياة، فهي تسمح بالقتل بطريقة تزداد سهولة أكثر فأكثر. وهنا يكمن الخطر الأكبر، فكمية العدوانية اللازمة للقتل اصبحت تزداد اضعافاً مضاعفة. وفي الواقع، فان تفكك العمليات المطلوبة للقيام بالكوارث الحربية قد تطور إلى حد جعل الحركات والأعمال التي يجب أن تنفذ للقضاء على آلاف الكائنات البشرية تصبح، بشكل مؤكد، غير هجومية بحد ذاتها. فلم يعد متوجباً على المقاتلين، كما كان الأمر في الماضي، أن يبقروا بالحربة بطن عدوهم، او يرشوا بالرشاشات المهاجمين عن قرب. وقد كانت هذه الأعمال، بحد ذاتها، جد بغيضة. أما اليوم، فقد اصبح ممكناً تحقيق اكبر مجازر التاريخ، في وقت قياسي في قصره، بواسطة فرق من التكنيكيين يعملون في مراكز تحت الارض شبيهة من حيث المظهر بالمركز الموجود في هوستون. وليس على كل عضو في هذه الفرق أن يفعل اكثر من القيام بحركات غير هجومية، ويكررها مرات لا تحصى، بشكل تصبح معه آلية. فأحد الاعضاء يدير بيده منظماً آلياً يستعمله كل يوم، وآخر ينقل مجموعات من الارقام إلى الحاسبات الالكترونية ضاغطاً ببعض اللمسات على ازرار أمامه، وثالث يبث كلمة رمزية (كودية) بالراديو، وقد يكون جاهلاً معناها الحقيقي. وهكذا دواليك. وقد تكون حصيلة هذه العمليات الروتينية قصفاً حرارياً ـ نووياً، او طوفاناً بحرياً اصطناعياً، او نشر أوبئة قاتلة. ان كل هذا يمكن أن يحدث، دون أن يشعر أي واحد من هؤلاء الذين ساعدوا على وقوع هذه الكوارث، بأقل شعور بالإجرامية، لأنهم لا يرون آثار ونتائج اعمالهم الشخصية. انهم لم يفعلوا شيئاً سوى الضغط على ازرار، واطاعة الأوامر التي تلقوها. وربما كان الخطر الاكبر للتكنولوجيا والبحث العلمي يكمن في التفكك الكبير للعمليات اللازمة للقتل الجماعي.

وقد حدث بعد الانتصارات التي حققتها القطعات الثورية الفرنسية، ان انتفخت الكبرياء الفرنسية بشكل خطير. وقد اثار بونابرت، ككل قائد عسكري، كبرياء المواطنين الجنود الذين يقودهم، ليشجعهم على التضحية بحياتهم، اذا ما لزم الأمر، من اجل انقاذ الوطن. ومن قبيل الحدس، ناشد نابليون في جنوده مجموعة من القوى النفسانية، غير أن ما يجب ان يلفت انتباهنا الآن هو هذا الشعور بالفوقية التي اراد نفخها في قطعاته:

«أيها الجنود!

اليوم هو ذكرى ١٤ تموز. انكم ترون امامكم اسماء رفاق السلاح الذين ماتوا في ساحة الشرف في سبيل حرية الوطن، وقد اعطوكم المثل. يجب عليكم جميعاً أن تنذروا انفسكم للجمهورية، ولسعادة ثلاثين مليوناً من الفرنسيين، ولمجد هذا الاسم الذي تلقى مأثرة جديدة بانتصاراتنا. . . .

«ان الملكيين، منذ ان ظهروا، ما يزالون على قيد الحياة. فكونوا متماسكين. ولنقسم بارواح الأبطال الذين ماتوا الى جانبنا في سبيل الحرية، ولنقسم على راياتنا الجديدة: لتكن حرباً قاسية على أعداء الجمهورية واعداء دستور العام الثالث»(٢٦٨).

إذن «انتم» الذين ستحققون السعادة للفرنسيين. وقد تلقى اسم «الفرنسي» مأثرة جديدة «بفضلكم». والعدو، منذ أن ظهر، ما يزال على قيد الحياة.

ان هذه الكلمات توجه إلى أناس كانوا، منذ عشر سنوات، يعرفون انهم لا شيء، ويقال لهم اليوم انهم منقذو الوطن من الخطر.

والخلاصة: شن حرب قاسية ضد اعداء الجمهورية. فمن هم هؤلاء الأعداء؟ انهم اباطرة وملوك بقية أوروبا. وهكذا فنحن أمام صراع ينطلق، بأشكال مختلفة، من اجل الحصول على مركز اجتماعي، ومن اجل حماية هذا المركز، ويعود للظهور، ما بين فترة وأخرى، طيلة القرن التاسع عشر كله، ويستمر، بشكل ما من الاشكال، حتى أيامنا هذه.

ويلاحظ وجود علاقة بين نشوء وتطور الوطنية من جهة، وبين تطور العوامل الديموغرافية من جهة أخرى. ففي عام ١٧٨٩ كانت فرانسا بسكانها الثمانية والعشرين مليوناً اكثر بلدان اوروبا الغربية سكاناً. وفي تلك الفترة، اضبحت القومية الفرنسية عدوانية بصورة خاصة. وخلال القرنين التاسع عشر والعشرين، شهدت اوروبا ثورة ديموغرافية، واثناء هذه الفترة تماماً، ظهرت القوميات الى الوجود.

---

(٢٦٨) بونابرت، المرجع ذاته، ص ٢٠- ٢١.

وما بين ١٨٠٠ و١٩٠٠ ارتفع عدد سكان المانيا من ٢٥ مليوناً الى ٥٦ مليون نسمة، وايطاليا من ١٨ إلى ٣٤ مليوناً، وانكلترا من ١٦ إلى ٣٩ مليوناً. أما التطور السكاني في فرانسا فقد كانت وتيرته ابطأ، فقد ازداد السكان من ٢٨ مليوناً إلى ٤١ مليون نسمة، وهو العدد التقريبي الذي كان عليه الشعب الفرنسي عام ١٩٣٩. وعلى العكس من ذلك، ارتفع هذا العدد عام ١٩٦٩ ليصبح ٥٠ مليوناً.

وتفسر هذه الأرقام تفسيراً جزئياً على الأقل، نشوء القوميات الألمانية، والايطالية، والبريطانية، كما تفسر، إلى حد ما، نشوء القومية عند الجنرال دوغول.

وفي كل عام، يأتي إلى العالم ألوف الأفراد ليقيموا فوق أرض لا تتسع حدودها، وعليهم، بالضرورة، ان يطوروا ويعدلوا العلاقات الاجتماعية بينهم وبين اولئك الذين يعيشون على الأرض ذاتها. وفي هذا يقول دوبرييل:

«... لقد ظهر فيض الكثافة السكانية، في بادىء الأمر، بشكل علاقات سلبية. ففي كل بيئة اجتماعية تكبر، تعم، دائماً، بعض الفوضى، بسبب القادمين الجدد»[٢٦٩].

وتعتبر الثورة الفرنسية، في هذا المجال، مثلاً واضحاً. فقد اشارت دراسة ديموغرافية أعدها موهو عن الفترة بين عام ١٧٧٠ وعام ١٧٧٤ إلى الوقائع التالية:

- عدد الزواجات: ١٩٢١٨٠
- عدد الولادات: ٩٢٨٩١٨
- عدد الوفيات: ٧٩٣٩٨٣

وهكذا يكون هناك ٤,٨٣ ولادات مقابل زواج واحد، وهذه نسبة جد مرتفعة في الولادة تعادل ٣٨,٧ في الألف، مع نسبة مرتفعة في الوفيات أيضاً، تبلغ ٣٣ في الألف.

وقد تزايد الشعب الفرنسي، من حيث عدد السكان، تزايداً منتظماً خلال القرن الثامن عشر. والفوضى التي ظهرت في المجتمع الثوري لعام ١٧٨٩ لا يمكن نسبها إلى تأثير العوامل الديموغرافية وحدها، اذ اننا جميعاً نعلم ان الظواهر البشرية هي حصيلة مجموعة

---

(٢٦٩) دوبرييل «علم الاجتماع العام»، المطبوعات الجامعية الفرنسية، باريز، ١٩٤٨، ص ٣٣١.

من الأفعال والأفعال المتداخلة للاحداث والمشاعر والأفكار. ويكفي هنا أن نلاحظ وجود حالة تنصف، في آن واجد، بزيادة ديموغرافية هامة، وبظهور القومية العدوانية، لنتوصل إلى صياغة الفرضية حول وجود علاقة بين هاتين الظاهرتين.

ويعتبر تزايد السكان، من وجهة النظر العسكرية، عاملاً من عوامل القوة، وبخاصة في عصر الجيوش الكبيرة، لأن الأثر النفساني للعدد يخلق شعوراً بالقوة يعتبر، بصورة عامة، مصدراً خطيراً للكبرياء، ويلاحظ هذا في الدول الثلاث التي كانت لديها عام ١٩٤٠ اكبر نسبة من الرجال الذين تتراوح اعمارهم بين ١٨ و٤٠ عاماً، وهي: المانيا، وإيطاليا، واليابان[٢٧٠].

لا شك في ان زيادة السكان هي من العوامل المنشطة للاقتصاد، فقد ساعدت اليد العاملة المهاجرة من اوروبا مساعدة قوية على إنماء الصناعة في الولايات المتحدة. وفي انكلترا والمانيا، في اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، ازداد الانتاج بنسب كبيرة لأن الفلاحين كانوا يشكلون احتياطاً للعمال في الصناعة. ويمكننا القول، بايجاز، ان زيادة السكان تسبب بعض ردود الفعل التي تسهم في خلق شعور بالتفوق والكبرياء. وقد كتب رونوفان ودوروسيل في كتابها «مدخل الى تاريخ العلاقات الدولية»:

«ان تضخم عدد السكان هو علامة على الحيوية التي توحي بالثقة بالمصير الوطني، وتبرر نشوء شعور بالتفاؤل. وتعتبر الامبراطورية الألمانية، في اواخر القرن التاسع عشر، مثلاً على هذا التطور في علم النفس الجماعي، فقد ترافق التفاؤل والثقة مع شعور بالتفوق بالنسبة للشعوب التي لم تعرف آنذاك تضخماً ديموغرافياً مماثلاً»[٢٧١].

درس دوبرييل وهنري جان ظاهرة التكاثر سواء بالولادة او بالهجرة ولاحظا أن الجماعات والأفراد «المستقرين» لهم مركز آمن مضمون. أما القادمون الجدد، سواء عن طريق الولادة أو الهجرة، فهم يطمحون أيضاً إلى الاستقرار، ويريدون أن يخلفوا اولئك

---

(٢٧٠) بوتول «قتل الأطفال المتنوع»، المرجع ذاته، ص ٨٣.

(٢٧١) رونوفان ودوروسيل، المرجع ذاته، ص ٣٧.

«المستقرين». واذا كان هؤلاء «القادمون» قليلي العدد، وكان قدومهم يتوالى بتواتر بطيء، فان تحقيق مطالبهم يحتاج إلى قوة. أما اذا كان القادمون الجدد كُثُرُ يدخلون المجتمع ككتلة، فان مطالبهم تغدو ضاغطة مؤثرة: وهذا ما يحدث ايضاً بين الجماعات، فقد كتب دوبرييل:

«حينما تكبر جماعة ما بسرعة تفوق نسبة التضخم لدى الجماعات المحيطة بها، تصبح هذه الجماعة وكأنها قادم جديد يرى أن وضعه ضمن الجماعات الأخرى لا يتناسب مع حاجاته ولا مع ما يستحق الحصول عليه. وهكذا تؤدي رقة حال تلك الجماعات إلى نشوء «قادمين» و«مطالبين». . . ».

واذا كان الأمر يتعلق بجماعة وطنية، فان مطالبها من الجماعات الوطنية الأخرى تضع تلك الجماعات في موقف دفاعي.

وعندما تكون هناك أمة ما تكبر ديموغرافياً فانها تصبح، بصورة آلية تقريباً، مهددة باختلال التوازن النفساني الذي لا تمكن ازالته إلا بكبح زيادة سكانها (كالأوبئة، والهجرة منها، وضبط الولادات، والحرب) أو بالتعويض عليها تعويضاً نفسانياً يهدف إلى تأكيد ذاتها، ويؤدي، مباشرة، الى عبادة المجتمع التي تعبر عن نفسها، بصورة عامة، بالقومية. وتعتبر الثورة الفرنسية، والفاشية الهتلرية، أمثلة تؤكد هذه الملاحظة.

ان منعكسات الاختراعات والمكتشفات على حياة الجماعات ذات تأثير بالغ، فكل تقدم تكنيكي يحدث سلسلة من التأثيرات المادية، والاجتماعية، والنفسانية. وقد تكون هذه التأثيرات، احياناً، غير متوقعة، فاختراع المطبعة، والقاطرة البخارية، والكهرباء، والطاقة الذرية، تشكل منعطفات في الحياة الجماعية.

ان التداخل الوثيق بين التقدم التكنيكي والتقدم الاجتماعي أمر معروف. كما ان التداخل بين التطورات الاجتماعية والانتاج، والنقل، والتسلح، التي اصبحت ظاهرة للعيان، وبخاصة في القرن الحالي، لا يبدو انه يسير دائماً في منحى ملائم. وقد اشار دوبرييل إلى ذلك بقوله:

«. . . لقد خلَّف كل تقدم تكنيكي تفاهم النفوس وراءه، هذا التفاهم الذي هو

القاعدة الأساسية لجميع القيم الروحية... كما اخذ التكنيك، من وراء حدود التطور الذي يعيشه، واثناء تقدمه، يجعل تفاهم الأفكار يزداد صعوبة اكثر فأكثر، دون ان يقصد، في مسيرته، اضعاف هذا التفاهم»[٢٧٢].

ومن الملاحظ، في الواقع، ان الاختراعات والاكتشافات تثير بعض الاختلالات الاجتماعية في المجتمعات البشرية. وتتمثل التغيرات الناجمة عنها بتعديل الادوار في مجتمع معين، ولا يتم هذا إلا بعد ان تثير هذه التغيرات اضطرابات يمكن، احياناً، ان تبلغ حد الفوضى. فقد تشعر بعض الجماعات بأنها مهددة. فتعمل وتتحرك نتيجة لهذا الشعور. كما ان استبدال طريقة ما بطريقة أخرى تحدث، كما اشار إلى ذلك دوبرييل، تأثيراً غير مباشر أو بعيد المدى، يؤدي إلى زيادة القوة الاجتماعية لأولئك الذين يطبقون تلك الطريقة، او الذين تبنوها في بادىء الأمر، سواء كان هؤلاء أفراداً أو جماعات.

ان التنظيم الهرمي الاجتماعي يستند، بصورة مباشرة، على عدم المساواة القائمة بين القوة الاجتماعية للأفراد، والقوة الاجتماعية للجماعات. ويأتي التقدم التكنيكي ليعدِّل علاقات الفوقية والدونية بين الأفراد، كما يعدلها في الوقت ذاته بين الجماعات. ولقد حازت الولايات المتحدة على تميز وقوة لا تعادلها قوة أخرى غداة الحرب العالمية الثانية، لأنها كانت، آنذاك، الدولة الوحيدة القادرة على صنع القنابل الذرية.

ان القوة التي يمكن أن تستمدها الولايات المتحدة من التقدم التكنيكي، والطريقة التي تستخدم فيها هذا التقدم، بعثتا، بصورة عامة، الكبرياء في نفوس مواطنيها، الذين استفادوا من هذا التقدم، بشكل مباشر أو غير مباشر. لذا فان التطابق بَين ظهور القوميات وبين الاختراعات التكنيكية المتتابعة التي قامت بها «الثورات الصناعية» لم يكن أمراً مفاجئاً.

ان الفترة التي بدأت في عام ١٧٨٩ وما تزال مستمرة حتى ايامنا هذه، هي تلك الفترة التي شهدت التقدم التكنيكي المثير. وفي خلال هذه الفترة ذاتها، رأت القومية

---

(٢٧٢) دوبرييل، المرجع ذاته، ص ٣٤٤.

النور، وتطورت، وما تزال مستمرة في العمل والتحرك في الوقت الحاضر، باشكال مختلفة.

لقد اعطت الصناعة، في تطورها، الدولة- الأمة الوسائل المادية لتجهز وتغذي الجيوش الكبيرة التي ادى نظام التجنيد إلى انشائها وإدامتها. ولهذا، فإن الدول اصبحت الآن تخشى من التخلف في الميدان الصناعي اكثر من خشيتها من التخلف في الميدان العسكري الصرف.

لقد كتب ليست يقول:

«ان كل كيلومتر من السكك الحديدية بنته أمة ما قبلنا، وكل كيلومتر من الطرق تملكه اكثر مما نملك، يعطي تلك الأمة تفوقاً علينا... وليس لنا الحق في التردد باستخدام الاسلحة الدفاعية الجديدة التي يزودنا بها التطور، فاجدادنا لم يكونوا ليترددوا باستخدام البندقية بديلاً عن القوس والسهم»(٢٧٣).

لقد استثمرت صناعة الاسلحة التقدم التكنيكي استثماراً عميقاً. وتكمن قوة الدولة في طاقتها الصناعية، بصورة عامة، وفي مصانع اسلحتها، وفي مواردها البشرية. وهناك علاقة مباشرة بين الكبرياء الوطني، والثقة بقدرة الأمة على ان تفرض نفسها على الأمم الأخرى، من جهة، وبين امكاناتها على القضاء على اولئك الذين تعتبرهم أعداء لها. ويوضح مثل المانيا الهتلرية، بشكل مؤكد اكثر من غيره من الأمثلة، العلاقات الموجودة بين التقدم التكنيكي وبين القومية. وان الانطواء الكلي الذي شهده الاقتصاد الألماني على ذاته، استوجب، بالضرورة، البحث عن حاجاته في الأسواق الاجنبية. وقد فرضت ارادة القوة والسيطرة ضرورة اختراع اسلحة جديدة وطرائق جديدة في الحرب. وفي مقابل ذلك، فان اختراع اي سلاح جديد، او اي اكتشاف في مجال التكنيك، أو التكتيك، أو الاستراتيجية، يمنح الأمة التي تستخدم هذا الاختراع او الاكتشاف، قوة جديدة تضاف إلى قوتها، سرعان ما تخلق شعوراً بالتفوق او الكبرياء، الذي يدعم القومية ويشجعها. وهكذا، فان الاختراعات والاكتشافات التي اقترح غيبير على الجيش الفرنسي

---

(٢٧٣) اورد ذلك فوللر في كتابه «تأثير التسلح في التاريخ»، بايو، باريز، ١٩٤٨، ص ١٣٣.

تبنيها احدثت آثاراً عميقة في طريقة قيادة الحرب. فقد كتب برنار يقول:

«لم ينقض زمن على «الغيبيرية» قبل ان تحتفل بانتصارها. فبعد ست سنوات من موت صاحبها، قاد بونابرت حملاته وقد تأبط «غيبير» تحت ذراعه. وكانت الثورة الفرنسية آنذاك اثقلت كاهل أوروبا بصعوبات فائقة. وعندما فرض قانون الجمعية التأسيسية الصادر يوم ٢٣ آب ١٧٩٣ هبَّة الشعب للدفاع وحق الدولة الدائم في مطالبة الرجال والمؤسسات الاسهام في الدفاع، كان ذلك ايذاناً بانتهاء الحرب المحدودة التي عرفها القرن الثامن عشر.

«وعندما انشىء نظام الأمة المسلحة، بدأ عصر حروب الشعب ضد الشعب. . . وقد شقت الثورة الفرنسية الطريق ليس نحو حرب الجماهير فحسب، وانما نحو حرب الحقد ايضاً. . .

«وقد مارست حكومة الادارة وبونابرت، في مواجهة الخصوم الذين كانوا يحترمون قواعد اللعبة في القرن الثامن عشر، الحرب المطلقة، مع فرض أتاوات على البلاد المحتلة، بغية تحقيق هدف محدد جرى التخطيط له بهدوء، وهو استجرار خيرات الاراضي المحتلة نحو باريز. . .»[٢٧٤].

لقد زود غيبير الأمة الفرنسية، باختراعه طريقة جديدة في الحرب، بالأداة التي تسمح لها بتأكيد قوتها في الوقت المناسب، حيث يقدم العامل الديموغرافي الوسيلة اللازمة لتطبيق التعبئة الجماهيرية. وفي الوقت ذاته، زود فن رسم الخرائط، الذي شهد تقدماً كبيراً، وعلم المساحة (التوبوغرافيا) الذي نشأ آنذاك، الرؤساء العسكريين بالقدرة على التنبؤ وتنظيم الحركات الاستراتيجية للجماهير التي وضعتها الأمة تحت تصرفهم. وليس السلاح الفردي الذي يحمله الجندي، كالبندقية الفردية من طراز ١٧٧٧ التي ادت إلى زيادة القدرة النارية للمشاة، وليس تعميم طريقة غيبير في فرانسا بدءاً من عام ١٧٧٥، سوى مثلين يشيران إلى التوافق والتطابق بين تطور الأسلحة وبين انطلاقة نمو القومية.

---

(٢٧٤) هنري برنار، المرجع ذاته، الجزء الأول، ص ٧١.

وقد وجد رونوفان ودوروسيل بعض التماثل بين نظريات القومية الانكليزية ونظريات القومية الجرمانية أو القومية السلافية. فالشعب الانكليزي يرىٰ أن التوسع الأمبراطوري هو «قانون التطور التاريخي»، ويرى في نفسه نزوعاً نحو لعب دور حاسم في «مستقبل العالم»، ويشعر بأنه ينتسب إلى «عرق حاكم مسيطر». وحينما وسعت انكلترا امبراطوريتها الاستعمارية، لم تكن ترى في عملها هذا انها تسعى إلى نفع ما، وانما في سبيل «مثالية قومية». وهكذا، ففي خلال السنوات التي تلت الحرب الفرنسية- الالمانية عامي ١٨٧٠- ١٨٧١ اقتطعت انكلترا لنفسها اكثر من ١٢ مليون كيلو متر مربع، أي اكبر من مساحة الاحتلالات الاستعمارية لفرانسا وألمانيا مجتمعتين. ويرى فوللر ان «هذه التوسعات الكبيرة يعود الفضل في تحقيقها إلى البندقية التي تلقم بالمغلاق». ويظهر هذا الرأي، الذي يبدو أنه مبني على الواقع، مرة أخرى العلاقات الموجودة بين القومية والتقدم التكنيكي.

وهناك سؤال آخر يستحق أن نوليه العناية: ما هي العلاقات الموجودة بين التلاؤم الاجتماعي والقومية؟.

والتلاؤم، بصورة عامة، هو «قبول العضو بشروط الحياة وظروفها، مما يستتبع، بشكل أساسي، حدوث توازن، وانسجام، بين العضو والبيئة»[(٢٧٥)].

وهناك تلاؤم فردي وتلاؤم جماعي. فحينما يترك مزارعُ الريفَ ليصبح عاملاً في مصنع، وحينما تتحول أمة زراعية بالتصنيع إلى أمة صناعية، وحينما تنال أمة مستعمرة استقلالها، فان هؤلاء الثلاثة يعملون ويتصرفون من اجل مواجهة التغيرات الناجمة عن هذه الحالات الجديدة. ومهما كانت ردود الفعل هذه متنافرة، فانها تبقى، بصورة رئيسية، من النوع النفساني. واذا لم يستطع المزارع ان يتلاءم مع البيئة الجديدة التي يعيش فيها، او اذا حدث التلاؤم بصعوبة، أو اذا تحسر على حياته السابقة في الريف، فانه يصبح شخصاً «غير متلائم»، أي إنه يصبح مستاء يتجه دائمًا نحو المطالبة بميزات ومنافع جديدة. أما

---

(٢٧٥) راجع في «التلاؤم والعدوانية»، المنشورات الفرنسية الجامعية، باريز، ١٩٦٥، رسالة الآنسة ديشازو عن «التلاؤم من وجهة نظر العلوم الطبيعية».

تلاؤم جماعة اجتماعية مع حالة جديدة، فانه يطرح مشكلات سياسية، واجتماعية، واقتصادية، ونفسانية، تخلق، غالباً، مشاعر مختلطة من القلق، وزوال الأمن، والدونية، والفوقية، والكبت.

ان تكاثف هذه المشاعر، التي تحمل جميعها، تقريباً، بعضاً من الطاقة العدوانية، يرتبط، بشكل مباشر، بالسرعة التي تحدث بها هذه التغيرات. ولنضرب مثلاً على ذلك بحالة انهاء سريع للاستعمار، أي ان عملية التلاؤم مع الاستقلال ستبدأ بدون تحضير، ولا مرحلة انتقالية. وسيؤدي هذا الى حدوث فوضى واسعة بين سكان الدول التي نالت الاستقلال بهذا الشكل السريع. ويُلاحظ، حينذاك، كردة فعل من بين ردود فعل أخرى، ان القومية تظهر وكأنها نوع من الدفاع في وضع جديد وخالٍ من اية تجربة سابقة. وتعتبر زائير مثلاً نموذجياً لحالة انهاء الاستعمار بدون أن يسبقها إعداد كافٍ، ولحالة تلاؤم صعب مع وضع جديد، ولظهور قومية لم تكن موجودة حتى حصول زائير على استقلالها.

وتفسر لنا الثورة الفرنسية بشكل جيد العلاقات الموجودة بين عدم التلاؤم الاجتماعي وبين القومية. ففي خلال فترة زمنية جد قصيرة، انقلبت حياة الفرنسيين بشكل عميق، فانقلب السلم المراتبي الاجتماعي رأساً على عقب، وانتقل الفلاحون والعمال، ما بين عشية وضحاها، من دونية كانت مقبولة منذ قرون عديدة، إلى مساواة مثيرة. ولم يعد الحاكم هو الملك، وانما الأمة هي الحاكم، اي جميع الفرنسيين. وعوضاً عن الطاعة والسكوت، اصبح، فجأة، يحق لكل فرد أن يأمر ويتكلم بصوت عالٍ وقوي. يضاف الى ذلك ان تغيراً كاملاً في الوضع الاقتصادي والاجتماعي يستتبع بدء فترة من القلاقل والتهديدات تتعرض المؤسسات خلالها إلى الانهيار.

ان السرعة التي حدثت فيها التغيرات في بُنىَ المجتمع الفرنسي، تفسر الصعوبات التي واجهها وعاناها هذا المجتمع في سعيه للتلاؤم مع الحالة الجديدة. فبعد أن كانت الأمة، اي الشعب بمجموع افراده الفرنسيين، تعتبر وكأنها لا شيء، اصبحت، ما بين يوم وآخر، موضع الثقة والايمان بوجودها. إن الفرق بين اعتبار أمة ما لا شيء، وبين اعتبارها متفوقة على الأمم الأخرى التي يعيش مواطنوها دائمًا في حالة دونية قانونية بالنسبة لقادتهم، ليس سوى خطوة واحدة. وعلى هذا، فان المسافة للانتقال من شعور الفوقية إلى الكبرياء

القومي جد قصيرة، بينما عدد الذين يعتقدون بالفوقية كبير.

إن التلاقي والتطابق بين ظهور القومية وبين التحولات الثورية في حياة الأفراد، وكذلك في حياة الجماعات، منذ عام ١٧٨٩ حتى ايامنا هذه، لا يمكن اعتبارهما مجرد تلاقٍ وتطابق بسيطين. ففي خلال القرن الأخير، تضاعف، تقريباً، عدد سكان المانيا وإيطاليا. كما ان سرعة الانتقال، في الوقت ذاته، ازدادت بشكل كبير، بحيث اصبح اليوم أكثر سهولة، واصبح الانتقال بين برلين وروما اسرع من الانتقال من لوكسمبورغ إلى كولونيا منذ ثلاثين عاماً.

ويمكن القول، انه تَبِع تضخمَ سكان المانيا وايطاليا من جهة، وتزايد سرعة الانتقال من جهة أخرى، ظاهرة جديدة مفادها أنه لم يترك تحت تصرف كل ايطالي وكل الماني اكثر من عشر مساحة الارض التي كان يتصرف بها اجدادهما قبل عام ١٨٧٠. وان الاهمية البيولوجية والنفسانية للارض أمر معروف. يضاف الى ذلك، ان الالمان والطليان استطاعوا، منذ عام ١٨٧٠، ان يعبروا المحيطات جواً وبحراً بسهولة اكثر مما تعبرها الطيور أو الاسماك، بينما لم يكن يستطيع الناس، خلال مئات الألوف من الأعوام، ان ينتقلوا من مكان الى آخر، إلا على الارض، ولمسافة عدة كيلومترات، وبسرعة جد بطيئة.

ولقد تعرض الانسان، خلال بعض فترات التاريخ البشري، إلى تحول بيولوجي حقيقي، وذلك بتدجين وتطويع قوى الطبيعة، بينما استمر الانسان نفسه، من الناحية العضوية، كما كان عليه منذ آلاف السنين، أي انه استمر «حيواناً ارضياً». ولقد استطاع الانسان، عبر مئات الآلاف من السنين، ان يتلاءم، خطوة بعد خطوة، جسمانياً وعقلانياً، مع طراز من الحياة تطور بشكل كامل، وخلال فترة زمنية جد قصيرة، ليسمح للانسان بأن يعتاد عليه، ويلائم بين هذا الطراز وبين بنية الانسان الاجتماعية.

وقد سببت هذه الحالة فوضى واسعة، جهدت المجتمعات البشرية، بشكل لا شعوري، في ان تحمي نفسها منها، فظهرت القومية كردة فعل للدفاع ضد القلق العميق الذي يسببه ما اطلق عليه غاستون بوتول «عقدة الازدحام»، ويسببه، ايضاً، الاضطراب الذي تعانيه الحضارة الصناعية. ونعتقد، كنتيجة لما ذكرنا، انه يمكننا ان نؤيد الفرضية التي تقول ان القومية هي وليدة تأثيرات انقلاب التنظيم الطبقي الاجتماعي، والضغوط

الديموغرافية، وتسارع التقدم التكنيكي. ولا ندعي ابداً، ان القومية لا يمكن ان تولد ايضاً من تزاوج التفاعل والتعامل بين عدة ظواهر أخرى، لا نعرف عنها شيئاً. غير أنه يبدو لنا أن سرعة الانقلابات، التي أشرنا إليها، لا تسمح بالتلاؤم مع الشروط والظروف الجديدة للبيئة إلا بعدة ردود فعل من انواع مختلفة، منها ردة الفعل النفسانية في تأكيد الذات، اي القومية. وعلى هذا، فان القومية هي القوة التي تجر، غالباً، شعباً من الشعوب إلى المغامرة الحربية.

ولكننا نتساءل، لماذا تكون القومية، بالضرورة، معتدية، وبالتالي تعتبر عاملاً عدوانياً؟.

ان الناس، باعتبارهم يشعرون بضعفهم، لا يسعون، عادة، افرادياً، إلى إثارة نزاعات مع نظرائهم. واذا ما كانت العلاقات الاجتماعية التي اقاموها ايجابية، فليست هناك مشكلة قط. اما اذا كانت هذه العلاقات سلبية، واذا كانت مبنية على عدم التحابب وفقدان التعاطف، فان هؤلاء الناس يخلقون خصومات قد يغذيها الخوف المتبادل، والمصلحة، وبعد الناس عن بعضهم بعضاً، والتربية. ان ظواهر تلاحم الاجهزة المتنوعة، وابتعاد المختصين عن بعضهم بعضاً، لا تمنع نشوء تكتلات اجتماعية متميزة، ولكنها نادراً ما تترك مجالاً، منذ «الاتصالات الأولى» لمعارضات عدوانية بين فردين اثنين يختلفان بصورة منفصلة.

ان كل طرف من الأطراف المتخاصمة، يعرف قوته الخاصة، ويخشى ردود فعل الطرف الآخر، مما يدعوه إلى تدبر الأمر وتسويته، طالما ان العدوانية لم تنطلق من عقالها بعد. وكما لاحظ دوبرييل قائلاً:

«ليست هناك غريزة تحمل الجماعات على أن تدبر أمورها وتسويها بصورة متبادلة، بل على العكس من ذلك، فالدور العادي لغريزتي السلام والتفاهم، اذ يشتد لدى كل جماعة، يفصل الجماعة عن الأخرى، ويخلق بين المجتمعات مشاعر عدم الثقة والخصومة. اما اذا كانت هذه المجتمعات متفاهمة بشكل كامل، فان اعضاء الجماعتين، يشكلون، عن طريق اتصالهم المستمر، كلاً واحداً...»[٢٧٦].

---

(٢٧٦) دوبرييل، المرجع ذاته، ص ٧١.

ويمكننا أن نضيف إلى ذلك، انه كلما ازداد عدم الثقة والخصومة بين الجماعات، كلما اتجه- اثناء المفاوضات- كل وفد من وفود هذه الجماعات إلى اخفاء عدم اتفاقه مع الوفود الأخرى، والى تعاون اعضائه فيما بينهم لحماية انفسهم من وفود الجماعات الأخرى. ويتعلق الأمر هنا بظاهرة تلاحم الاجهزة المختلفة عن طريق المعارضة المشتركة. كما ان تلاحم جماعة ما يصبح عامل عدوانية يشكل، بحد ذاته، تهديداً للجماعات الأخرى. يضاف الى ذلك، انه كلما ازداد عدد أفراد جماعة ما، كلما برزت قوة تلك الجماعة، اكثر فأكثر، مما يرفع حدة التهديد الذي تمثله، ويقوي، بالتالي، تلاحم المجموعات الأخرى وعدم ثقتها. واخيراً، حينما تغدو جماعة ما صاحبة مطالب، وتنادي بتفوقها على الجماعات الأخرى، فانها تدب الاضطراب في صفوف تلك الجماعات، وتدفعها، بصورة آلية، الى اتخاذ تدابير دفاعية.

ان الخصومات، التي يمكن اعتبارها أمراً طبيعياً بين التكتلات الاجتماعية، تقوى وتشتد بالتدابير التي تتخذها احدى الجماعات، مما يخلق القلق عند الجماعات الأخرى، فتلجأ هذه، بالمقابل، الى اتخاذ تدابير مماثلة. ان مصير هذا التحرك الخطير لكفتي الميزان هو النزاع الاجتماعي، فاذا كان الأمر يتعلق بالأمم، فان مصير هذا التحرك هو الحرب.

ان نزعة جماعة ما نحو الاستمرار في الوجود تشكل احدى الصفات الاساسية لهذه الجماعة. وفي الواقع، فان الأفراد يجنون من حياتهم الجماعية ميزات عدة، يعتبر الأمن من ابرزها واهمها. واذا ما انقطعت الجماعة عن تقديم هذه الميزات والمنافع الى افرادها، فان هؤلاء يلجأون إما إلى تبديل الجماعة، فينتسبون الى جماعة أخرى، وإما إلى تغيير بُنىَ جماعتهم. غير أنه عندما تظهر عقبات خارجية تهدد أمن الجميع، فان رؤية الأفراد تتعدل، ويسعون، قبل كل شيء، إلى شد أزر الجماعة التي تحميهم. ومن المعروف، ان التهديدات، بانواعها المختلفة، موجودة بصورة شبه دائمة. وهكذا فان الجماعة تبقى دائماً في حالة خطر تجاه الطوارىء، وتجاه نمو الجماعات الأخرى القادرة على التأثير في أفرادها أو جعلهم توابع لها. ولهذه الاسباب فان الهم الذي يشعر به الأفراد من اجل الحفاظ على تشاركهم، حتى ولو بلغ الأمر حد التضحية، يظهر لدى الأفراد المتكاتفين وكأنه احد العوامل الأكثر حسماً في سلوكهم. وهكذا تبقى قوة استمرار الجماعة في الوجود احد

الموضوعات الرئيسية لتفسيرات علم الاجتماع، بصورة عامة، ولعلم النفس الاجتماعي بصورة خاصة. . .»[٢٧٧].

وهكذا، فان الخصومات بين الأفراد هي اقل حدوثاً مما عليه بين الجماعات، وذلك لأن الجماعات تنزع دائمًا نحو استمرار البقاء. غير أن استمرار البقاء هذا يعني بالنسبة لجماعة ما، الكِبر والاتساع، أي زيادة قوتها الاجتماعية، كوسيلة للتأثير في الجماعات الأخرى، أو فيها نفسها. ونمو الجماعة يوفر الأمن، وهو ضمانة للمستقبل، ومهدىء للقلق الذي تسببه الاضطرابات في المستقبل. ومن المؤسف ان كل نمو لجماعة ما يثير مخاوف الجماعات الأخرى التي ترى في هذا النمو تهديداً لأمنها الخاص. ولهذه المخاوف ما يبررها، وبخاصة عندما يكون الاختلال في التناسب كبيراً بين جماعتين محددتين، اذ ان اكبر الجماعات تبتلع، بصورة عامة ، اصغرها.

ان ما قلناه عن الجماعات مستقل عن عدد الأفراد الذين تتألف منهم هذه الجماعات، ولذلك فهو ينطبق على الأمم. ان الخصومة بين الأمم أمر طبيعي، لأن الأمر اذا لم يكن كذلك، فان الأفراد الذين تتألف منهم هذه الأمم يقيمون فيما بينهم علاقات اجتماعية ايجابية، ويضمون ما لديهم من اجهزة، بعضها إلى بعض، ويشكلون أمة واحدة. ان المخاض المؤلم لأوروبا يثبت كم كانت الخصومات القومية ذات جذور اجتماعية ونفسانية جد عميقة.

ان الأمم تنزع إلى الاستمرار في البقاء وإلى التكاثر، حالها في ذلك حال الجماعات الأخرى. وليست المسألة سوى مسألة قوة اجتماعية، فالكبار يسعون إلى ابتلاع الصغار، أو تحويلهم إلى توابع لهم. ان نزوع كل أمة إلى الاستمرار في البقاء، والى التكاثر، وتأكيد الذات، يبعث المخاوف في الأمم الأخرى، ويثير ردود فعل للدفاع.

لقد رأينا أن القومية تنبعث نتيجة لمجموعة عوامل، نذكر فيما يلي اهمها حسب تقديرنا:

---

(٢٧٧) دوبريل، المرجع ذاته، ص ٩٠.

-الكبرياء،
-عقد الدونية والفوقية،
-الارتباط بالارض،
-التزايد الديموغرافي،
-تسارع التقدم التكنيكي،
-صعوبات التلاؤم مع الشروط والظروف الجديدة للحياة، والناجمة عن العاملين السابقين.

ومن المؤسف ان جميع هذه العوامل تخفي في طياتها طاقة عدوانية فردية وجماعية جد كبيرة.

ويجب ان نضيف إلى هذه العوامل الستة العوامل التي اشرنا إليها على أنها مرتبطة بحياة الجماعات، وهي:

-الخصومات بين الجماعات أمر طبيعي،
-الجماعات تنزع إلى الاستمرار في البقاء،
-الجماعات تسعى إلى التكاثر،
-تلاحم الاجهزة في إطار المعارضة المشتركة،
-عدم تلاؤم الناس مع التحولات المادية والنفسانية والاجتماعية السريعة في البيئة التي يعيشون فيها.

ان جميع هذه العناصر، تحتوي على العدوانية، أو تحافظ عليها، أو تثيرها. وعلى هذا، فان التحليل المبسط للقومية يفسر صفتها العدوانية. ويمكننا تعميق الدراسة اكثر اذا ما اخذنا في الاعتبار عناصر أخرى ايضاً، منها:

-المصالح الاقتصادية،
-العوامل الاستراتيجية،
-العوامل الدينية،
-العقليات،

-مشكلات اللغة،
-العامل الجغرافي- السياسي،
-القلق المتولد من الحاجة الماسة إلى الأمن.

غير أن جميع هذه العناصر تصدر، بشكل مباشر أو غير مباشر، عن العناصر التي كنا اشرنا إليها.

وحينما يُعلي شعب ما قيمته، فانه يستخف، بشكل غير عادل، بالشعوب الأخرى، ويبعث الاضطراب في الانسجام الدولي. والشعب الذي كان مضطهداً ونال استقلاله، يسعى إلى اضطهاد الآخرين، فلعبة عقدة الدونية التي نالت فوق ما تستحق جد معروفة. والدفاع عن الارض، الذي يمكن اعتباره فطرياً أو غريزة مكتسبة على الأقل منذ آلاف السنين، هو عامل اختلاف اكثر منه عامل تفاهم، وبخاصة عندما تكون تلك الارض مهددة بادعاءات أمة ما تطالب بمجال حيوي اكثر اتساعاً.

لقد القى التقدم التكنيكي المتسارع والتوسع الديموغرافي الفوضى في البنى الاجتماعية للدولة، فراحت هذه تسعى الى ايجاد حل لمشكلاتها عن طريق اظهار عدوانيتها الخاصة تجاه الدول الأخرى، مما يؤدي، بصورة آلية، إلى زيادة تلاحم هذه الدول ونشوء عدوانية جديدة لديها. وهكذا يستمر الميزان في حركته الاختلالية حتى ينفجر النزاع المسلح. وفي هذه اللحظة، اي لحظة نشوب النزاع المسلح، يعلن كل من المعسكرين، بِنِيَّة سليمة، انه ضحية للعدوان. وهكذا تُظهر الصفة العدوانية للقومية وكأنها طبيعية.

ومن المناسب أن لا يغيب عن نظرنا، ان القومية يمكن أن تظهر باشكال جد مختلفة. فهناك قوميات الأمم الكبيرة، وقوميات الأمم الصغيرة، وهناك قوميات البلاد المصنعة وقوميات البلاد النامية، وقوميات البلاد العريقة في استقلالها، وقوميات البلاد التي تريد خوض حروب تحريرية، إلى غير ذلك من القوميات.

غير أنه مهما كان الشكل الذي تظهر فيه القومية، فاننا نجد العناصر التي اتينا على ذكرها، مشتركة فيما بينها بنسب مختلفة، وتحتوي على بعض طاقة من العدوانية.

وهكذا نكون الآن قد بلغنا، شيئاً فشيئاً، مرحلة صياغة فرضية ما تزال تحتاج ايضاً

إلى تحقيقات واسعة. ولكن لنقبلها الآن مؤقتاً. ويمكن تلخيص هذه الفرضية كما يلي:

١)ـ القومية هي وليدة الانقلاب الحادث في التنظيم الهرمي الاجتماعي، والضغوط السكانية، والتسارع ذي الوتيرة العالية في التقدم التكنيكي الذي لا يترك الوقت الكافي أمام الجماعات البشرية المنظمة لتتلاءم مع الاوضاع الجديدة.

٢)ـ القومية هي ردة فعل دفاعية أمام الفوضى الجماعية، وهي ردة فعل لا يراها علم النفس الاجتماعي غير عادية، بل على العكس من ذلك، فهو ينظر اليها على أنها طبيعية، كما انها ملتصقة بمفهومنا عن الدولة.

٣)ـ ان جميع العناصر التي تسهم في توليد القومية مشحونة بطاقة عدوانية عالية، مما يفسر الصفة التخاصمية للقومية.

واذا ما كانت هذه الفرضية سليمة، فاننا نتساءل عما اذا كنا نسير نحو اختفاء القومية أم نحو انبعاثها ونهضتها.

لنلاحظ، باديء ذي بدء، ان عدة دول كانت مستعمرات قديمة، اصبحت بشكل سريع، بعد ان نالت استقلالها خلال السنوات الأخيرة، دولاً قومية. نضيف إلى ذلك، أن القومية ظهرت تحت شكل اقليمي، مثل قوميات بروتون، والباسك، وكاتالان، وفلاماند، ووالُون، وايكوسيا، وغالوا، الى آخر ما هنالك من قوميات اقليمية.

وفي مقابل ذلك، ظهرت حركة جديدة أخذت تتطور، مثل انشاء المجموعة الأوروبية، حيث تسعى دول هذه المجموعة إلى أن تقيم معاً دولة فوق دولها، يكون أساسها مجموع اراضي الدول الاعضاء فيها، ومجموع الأمم المختلفة التي تسكن تلك الاراضي. وهنا يخطر على البال فوراً هذا السؤال: هل ستكون هذه الدولة فوق الدول قومية ام لا؟. اننا لا نرى كيف يمكن أن تكون لا قومية، فجميع الشروط والظروف متوفرة من اجل ان تكون هذه الدولة قومية، اذ ان المجتمع الأوروبي ما يزال يتعرض، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، الى انقلاب غير عادي.

واذا ما نظرنا إلى النظام الاقتصادي، دون غيره، فيمكن أن نلاحظ انه لم يتعدل

تعديلاً بسيطاً في بناه فحسب، وانما هو على وشك ان يغير طبيعته[٢٧٨]. فهناك تبدل حقيقي، وليس مجرد تعديل. ففي العام ٢٠٠٠ سيبلغ الدخل القومي الصافي للانسان في اوروبا ثلاثة اضعاف ما هو عليه الآن!.

لقد لفت هنري جان الانظار في كتابه المعنون «زمن التغير» إلى الطابع المدني (نسبة الى المدينة) للمجتمع الجديد الذي هو قيد التشكل. «يطبع طراز الحياة المدنية جميع مرافق المجتمع في مختلف انحاء الأمم المتقدمة، ويمتد هذا الطابع ليشمل المناطق الريفية، فقد تصنَّعت الزراعة نفسها، واصبح طراز الحياة في هذه المناطق مثله في المجتمع الشامل، وقد تم نقله إليها بواسطة وسائل الاتصال الجماهيرية. وحتى اذا ما حددنا الواقع المدني بعامل الكثافة السكانية بالنسبة لمساحة الارض التي يقيم فيها سكان المدن، فان اكثرية سكان البلاد التي تعيش مرحلة «ما بعد التصنيع» تعيش في بيئة مدنية تماماً...».

ان وسائل الاتصال الجماهيرية، ونشوء «المدن العظمى» و«ركامات المدن» هي على وشك أن تخلق تحولاً فكرياً وثقافياً لم يشهد التاريخ له مثيلاً. وقد تنبأ هنري جان بأن تأثيرات هذا التحول ستكون ثورية. وستحدث هذه الظاهرة عندما تتكاثر البشرية بسرعة قياسية، ليس بفعل الانفجار السكاني فحسب، وانما بفعل تحرر المرأة ايضاً. وهذان السببان سيلعبان دوراً سلبياً، بينما يؤديان الآن دوراً ايجابياً في المجالات السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية. يضاف الى ذلك، أن العقائد الدينية ستتراجع، وتبدل شكلها أو غرضها. والخلاصة، ان المجتمع الذي توشك اوروبا على انجاز بنائه هو الآن في حالة تغير متسارع كامل شامل، وقد اشار البروفسور هنري جان إلى النتائج، فكتب بخاصة:

«ينحو التحول الذي حدث في وسائل الاتصال الجماهيرية، (وبخاصة في مجال الصوت والصورة) نحو ادخال علاقات جديدة على الثقافة، لأسباب غير الأسباب السياسية والنفسانية، مثل: التأثير الفوري، والتضامن النفساني، التصرفات غير المنطقية».

---

(٢٧٨) راجع هنري جان «زمن التغير»، مجموعة جامعة مارابو، فيرفييه، ص ٣١.

ويبدو الانقلاب الذي يتعرض له المجتمع الحالي، بالنسبة للانقلاب الذي احدثته الثورة الفرنسية، ذا أهمية صغيرة، مع أن كثيراً من العوامل التي ادت الى ولادة القومية الفرنسية عام ١٧٨٩، تفعل اليوم في اوروبا فعلها بقوة اكبر. واذا ما حققت اوروبا يوماً وحدتها السياسية والاقتصادية، فانها لن تستطيع البقاء إلا اذا حققت تلاحماً كافياً بين مواطنيها الذين سيحصلون على مواطنية جديدة. واذا ما ارتبط هؤلاء «المواطنون الأوروبيون» بوطنهم الجديد، واذا ما اصبحوا فخورين بما انجزوه بمجموعهم، وشعروا بأنهم انتقلوا من حالة الدونية الدولية إلى المساواة، ان لم يكن الى الفوقية، ألا يكونون بذلك قد تجرعوا الجرعة الكافية من الكبرياء ليتجهوا نحو قومية جديدة، ستكون، هذه المرة، قومية اوروبية؟.

وعلى العكس من ذلك، اذا لم يكن الأوروبيون راضين عن الدولة الجديدة التي انشأوها، واذا رأوا ان حالتهم السابقة كانت افضل مما هي عليه في الحالة الجديدة من مختلف النواحي، واذا لم يتوصلوا الى الشعور نحو وطنهم بمشاعر مماثلة للمشاعر التي كانوا يعبرون عنها سابقاً تجاه امتهم التي كانوا ينتسبون اليها، فان اوروبا لن تكون قابلة للحياة آنذاك.

وهنا يبرز سؤال رئيسي: إلى أي حد سيؤدي ظهور هذه الدولة فوق الدول على المسرح الدولي إلى إحداث الاضطراب لدى القوى الكبرى الأخرى؟. وإلى أي حد سيؤدي تعديل التسلسل المراتبي بين الأمم، تحت تأثير ردة الفعل الدفاعية، إلى تأجيج القومية الروسية، أو الأميركية، او الصينية، او اليابانية؟. ماذا ستكون عليه القوة العسكرية لأوروبا السياسية الجديدة هذه، التي يعلّق الكثيرون عليها الآمال؟ هل ستكون لها قوة ضاربة مماثلة لما لدى الولايات المتحدة، او الاتحاد السوفييتي، او الصين، أم لن تكون لها تلك القوة؟. واذا لم تمتلك مثل هذه القوة، فهل ستحتل على المسرح الدولي المكانة التي تصبو إليها؟. واذا ما ملكتها، فأية مخاوف ستثيرها في العالم، وأية طموحات ستبعثها في نفوس الأوروبيين؟.

ويبدو لنا أنه ليس من المستبعد أن لا يكون المخاض العسير لأوروبا سوى انطلاق شعلة جديدة للقومية، مع كل ما يلازم ذلك من مخاطر الحرب.

ويبدو موضوع إقامة أوروبا الموحدة في نظر الأوروبيين هدفاً يجب بلوغه بما امكن من السرعة. وهم يرغبون في ان يرتفعوا، قدر الإمكان، إلى مستوى القوة الاقتصادية للولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، مستفيدين من تميزهم في الحياة الدولية كأصحاب الحضارة القديمة التي يمثلونها. هذا هو الحلم. فلنأمل في أن لا يصبح هذا الحلم كابوساً. ويجب علينا ان نبقى حذرين.

من المؤكد، أن غالبيتنا تبني آمالاً عظاماً على إقامة أوروبا. ونحن ايضاً، ولنقل ذلك بوضوح، نتمنى ذلك بحرارة. غير أن رغباتنا شيء، ونتائج تحقيق هذه الرغبات شيء آخر. واذا ما كان انشاء هذه الدولة الجديدة، الدولة فوق الدول، سيحمل في طياته القدرة على ان يخلق، في يوم من الأيام، الخطر الجسيم لحرب عالمية، فمن الأنسب، وهذا أمر بدهي، أن نعيد، بشكل دقيق، تقييم السياسة التي التزمنا بها، آخذين بعين الاعتبار ما يعلمنا إياه علم اجتماع الحرب.

ولا يبدو لنا أن هذا الخطر وهمي، مهما كان بعيداً، ولهذا رأينا أن من الضروري أن نقول هذا الرأي لأن هذا هو، بكل دقة، دور الباحث. واذ يضع الباحث نفسه فوق التيارات الفكرية، ويبعد نفسه عن النزاعات السياسية، ويدرس الظواهر الاجتماعية، بعيداً عن العاطفة، وخارج كل مصلحة شخصية، تماماً كالكيميائي الذي يدرس عملية كيميائية، فان دوره يتحدد في تسجيل ما يلاحظه ويراه، وفي نقل هذا الذي يلاحظه ويراه، حتى ولو كانت ملاحظاته تنحو ضد الرأي العام.

هذا ما حاولنا أن نقوم به. فاذا ما اخطأنا فلن يكون ذلك أمراً سيئاً. واذا ما كان الأمر غير ذلك، فان آخرين سيعمقون ويوسعون الدراسة التي بدأنا بها. وفي هذه الحالة، فان الدراسة لن تكون غير ذات نفع.



الفصـل الثالـث

العدوانيـة الجماعيـة والحـرب

٣٨- دور الأرض في خلق العدوانية الجماعية.

لقد درسنا سابقاً مفهوم الارض تحت ضوء البيولوجيا. وقد ذهل العلماء المختصون بالحيوانات والبيولوجيون من الواقعة التي تؤكد أن الحيوان يدافع عن نفسه بشجاعة وفعالية اكثر عندما يكون قريباً من مركز الارض التي يقيم فيها.

ان الحاجة الحتمية إلى الارض، هذا التحريض الذي يدفع كل كائن حي إلى احتلال جزء من الارض يريد أن يعيش فيه، والى حماية هذه الارض من كل انتهاك، هي قوة تؤثر، في آن واحد، على الناس باعتبارهم افراداً، وعلى الجماعات البشرية المنظمة.

ان الأرض، من وجهة النظر السياسية- القانونية تؤكد وتدعم ردة الفعل البيولوجية للدفاع عنها.

«مهما كان شكل السلطة، فان الارض هي احد الشروط الرئيسية لوجود الدولة. وتعتبر الدولة هنا رمزاً وحماية مسبقة للفكرة القومية، فهي التي تحقق ذلك التمازج بين الارض والفكر، والذي يعتبر جوهر الأمة.

«ولهذا فلا بد من ايلاء اهمية كبيرة لانشاء المستند الأرضي للجماعة القومية، لأن الاحتلال الدائم لمنطقة محددة يسمح بنمو الميول القومية، كما انه يبعث همة جديدة بفضل ما يحتوي عليه من آمال في الثبات والاستمرار»[٢٧٩].

(٢٧٩) راجع دراستنا «قوة الكلمات والحرب» في «الاتصال الاجتماعي والحرب»، مركز العلم الاجتماعي للحرب، نشر بروبلانت، بروكسيل ١٩٧٤، ص ١٧ وما بعدها.

وحينما تتم جماعة ما تحديداً دقيقاً لأرضها، فانها تبدأ بالتفرد والانفراد، وتعطي لنفسها هوية، وتعبر بذلك عن ارادتها بالاستقلال. وترى حكوماتها في ذلك كله حدود ولايتها واختصاصاتها، وهي تريدها ولاية لا تعلو عليها ولاية. وبالرغم من جهود منظمة الأمم المتحدة، فان الشؤون الداخلية للدول ما تزال، بشكل دقيق وصارم، بين ايدي كل حكومة من حكومات الدول.

ومنذ ان تم تعميم التعليم الإلزامي، اكتسبت الارض، التي جرى رسم حدودها بشكل دقيق، اهمية جديدة. وفي الواقع، فان الأطالس المدرسية تقدم إلى الطلاب صوراً ملونة تلويناً غزيراً لأجزاء الكرة الارضية، حيث تنتظم جماعات محددة على شكل دول. وصورة فرانسا أو بلجيكا ما تزال محفورة في ذاكرتنا منذ عهد المدرسة. والخارطة الجغرافية لبلد ما تظهر وكأنها امتداد لارض هي ملك مواطنيها. وإن قوة هذه «الرمزية الخرائطية» (والتعبير لفان جينيب)[٢٨٠] فائقة إلى حد دعا الحكومة الفرنسية في الأول من شهر آب ١٩١٤، في الوقت ذاته الذي قررت فيه التعبئة العامة، إلى انذار العدو «لتثبث له انه اذا لم يسحب قطعاته إلى مسافة عشرة كيلومترات بعيداً عن الحدود، فانه يعرّض منطقته الصناعية في بريي إلى الخطر»[٢٨١].

لقد كانت التأثيرات النفسانية لهذا التدبير هامة، فقد كان غزو فرنسا بالنسبة للفرنسيين، واغلبهم فلاحون، يثير في انفسهم فعل الدفاع، بمثل ما يثيره اعتداء السارقين أو المعتدين على ارض تخصهم وهم ملاكها. وكان الحق، وهو حق الملكية، إلى جانبهم، وكانوا مستعدين للتضحية بحياتهم في سبيل الدفاع عن هذا الحق.

ولقد اصبحت الحدود جد هامة، بحيث لا يمكن تعديلها بارادة الحكومات فقط. ففي بلجيكا يتطلب الأمر موافقة السلطة التشريعية على «تغيير» أو «تصحيح» «حدود الدولة، وحدود الولايات والتقسيمات الادارية» (المادة الثالثة من الدستور). وفي القسم الدستوري الذي يؤديه ملك بلجيكا لتوليه العرش يحلف اليمين على «الحفاظ على الاستقلال الوطني، وسلامة تراب الوطن ووحدته» (المادة ٨٠ من الدستور).

---

(٢٨٠) فان جينيب «دراسة مقارنة في القوميات»، الجزء الأول، باريز، ١٩٢٢، ص ١٩٩ وما بعدها.

(٢٨١) هنري برنارد «الحرب الشاملة والحرب الثورية»، الجزء الأول، بروبولس، بروكسيل، ص ٢٥٥.

لقد اسهمت الرمزية الخرائطية، ومعها تعميم التعليم، اسهاماً كبيراً في اعطاء مفهوم الارض معنى روحياً. فحتى تتمكن الدولة من تأدية مهمتها، يجب أن تكون الارض التي تمارس عليها تلك المهمة محددة تحديداً دقيقاً، تحت الضغط المتبادل الذي تمارسه الجماعتان اللتان تعودان إلى الدولتين المسؤولتين، كل من جهتها، عن الحد الذي يفصل بينهما.

وعلى هذا فان التراب الوطني هو ذلك الجزء المحدد من الارض والبحر والجو، حيث تكون للحكومات الولاية المناسبة عليها، فتخضع لتشريعها جميع الانشطة الجارية فيه. وقد تم تقنين هذا المبدأ العام في الالتزامات الدولية التي اخذتها الدولة على نفسها.

أما بالنسبة للأناس المحكومين تحت ولاية الدولة، فقد التزمت الدولة تجاههم بتوفير الأمن والسلام داخل التراب الوطني، وبحماية الاستقلال حيال الدول الأخرى في الخارج.

ويعني التراب الوطني تلك المنطقة التي اذا فقدت فان حياة الذين يعيشون فيها وأمنهم سيتعرضان للخطر، وينتج عن ذلك ان الدفاع عن الارض هو واجب على الجميع. ولهذا السبب فان البحر الاقليمي والمجال الجوي هما امتداد للتراب الوطني. وهما مجالان تبدو فيهما حقوق الدولة أقل امتداداً مما هي عليه فوق البر، إلا فيما يخص شؤون الدفاع. وقد حدد مدى البحر الاقليمي بأكبر مدى تصل إليه قذيفة مدفع تطلق من البر. أما المجال الجوي، فان للدولة حق ضبطه ومراقبته. والحماية والأمن هما الخاصتان الغالبتان للمركز الدولي للتراب الوطني وامتداداته البحرية والجوية.

ولاتساع التراب الوطني اهمية كبيرة في مجالي الدفاع والثروات الطبيعية. وكلما كانت الارض متسعة، كلما كانت حمايتها في البعد ممكنة، وكانت قوتها الاقتصادية والسياسية متوفرة.

وهكذا يصبح نزوع الدولة إلى توسيع ارضها أمراً منطقياً. وقد استعملت، عبر التاريخ، جميع الوسائل لبلوغ هذا الهدف، كالاحتلال، والزواج بين ورثة العروش، وتكتل الدول (اتحادات، ودول متحدة) سواء كان بالتراضي أو الاخضاع أو التسلط، والاتحادات القائمة على ارادة الاشخاص أو ارادة الشعوب، والاتفاقيات الاقتصادية أو

اتفاقيات الأمن الجماعي، والسيطرة على الأجواء، واستثمار قيعان البحار. . .

ومهما كانت الزاوية التي ينظر منها إلى دراسة موضوع الارض، فان المرء مجبر على أن يلاحظ الأثر القومي للحاجة الماسة للأرض. والشعب الذي يعيش فوق مساحة برية محددة بحدود دقيقة، ينفعل ويتحرك بصورة أشبه ما تكون بثورة عارمة ضد كل تهديد حقيقي أو مُتَصَوَّر يمكن أن ينقص مساحة الارض «الوطنية». غير أن مثل هذا التهديد لا يمكن، في الواقع، ان يصدر إلا عن جيران مباشرين يعيشون في الجهة الأخرى من الحدود. وتعتبر عمليات الضم المتتابعة التي كانت الألزاس واللورين ضحيتها مثلاً مأساوياً على ذلك.

ويعود معظم عدم التفاهم والنفور بين الأمم المتجاورة إلى مشكلات الحدود المحددة بصورة دقيقة. غير أن من المؤسف أنه بفضل تقدم الصواريخ، والاتصال الاجتماعي، ووسائل النقل، والتكافل الاقتصادي المتزايد بين الدول، تضاعفت اسباب الخلاف والنزاع بين بلدان يبعد بعضها عن البعض الآخر آلاف الكيلومترات. (ولنضرب مثلاً على ذلك بقرار العرب بتخفيض انتاجهم للنفط، فهذا التخفيض لن يضر بالحبشة وزائير فحسب، ولكنه يمكن أن يخلق ازمة اقتصادية جد خطيرة في العالم. فبسبب وجود النفط داخل حدود الاراضي العربية، فان العرب يتصرفون به كما يريدون، حتى ولو أدى ذلك إلى حدوث بطالة عامة في اوروبا والولايات المتحدة الأميركية، مما ينتج عنه، على المدى الطويل، نشوء بُنى خطيرة عدوانية).

ويمكن أن نلاحظ ايضاً ان تطور التلفزيون، والاذاعة، ووسائل النقل، والسياحة، اعطى التراب الوطني، المحدد بحدود مرسومة، صورة جديدة. فقد اصبح بمقدور كل انسان ان يقاسم مواطني بلد يقع في الطرف الآخر من العالم حياتهم، وهذا يعني، من وجهة نظر الجغرافيا والعادات، ان ارض العالم كله معروفة تقريباً من قبل العالم كله. وفي مقابل ذلك، اصبحت الاسلحة الحديثة تهدد بالدمار جميع مراكز المدن الكبرى اينما كانت. ولم يعد الأمن مضموناً في اي مكان على الارض. وغدت الحدود قابلة للاختراق بواسطة اكثر صواريخ الموت إرعاباً. فلأول مرة في التاريخ، تجد واشنطن، وموسكو، وبكين، وطوكيو، ولندن، وباريز، نفسها في الخط الأول بصورة دائمة، كما اشار الى ذلك غاستون

بوتول (راجع: دراسات في علم الحرب،" المرجع ذاته، ص ١١٥) بقوله «ان هذا التخفيض النسبي في قيمة عامل الحدود يعرض المعطيات التقليدية للسياسة الدولية للاضطراب العميق».

٣٩- القومية[٢٨٢] والعدوانية الجماعية:

هناك عامل عدواني مُغرٍ آخر، هو ذلك الشكل من الكبرياء الجماعية التي تدفع أمة من الأمم إلى المطالبة بحق ممارسة سياسة تمليها اعتبارات توسعها، وتميزها، وقوتها، وتعترض على كل تكتل يسعى إلى الحد من حريتها في العمل. ان القومية هي الوضعية التي تتبناها أمة من الامم تعرف قيمتها الخاصة، ولكنها تنزع إلى تعظيم تلك القيمة، وتقديرها باكبر مما هي عليه.

ويعلن القادة القوميون، بكبرياء، تفوق امتهم التي يديرون شؤونها. وبمثل ما تدفع الكبرياء فرداً إلى أن يظهر غير متسامح ومستبداً، تتصرف الدولة القومية تجاه الدول الأخرى بشكل متعجرف، وعنيد، وجد مثير، فتصبح بذلك عامل إقلاق وإرباك في العلاقات الدولية. والكبرياء تعبير عن الحاجة إلى السيطرة، وكذلك هي القومية. المتكبر يعزل نفسه بنفسه عن الجماعة، والأنا المتضخمة عنده تمنعه عن التلاؤم الاجتماعي المنسجم. ومثل ذلك يجري في الأمة التي تدعي في كل حين أنها متفوقة على الأمم الأخرى، وتطالب بحقوقها من علٍ، وتسعى إلى فرض ارادتها على الآخرين، والسيطرة عليهم، وتعدل، لمصلحتها فقط، التسلسل المراتبي القائم بين الدول.

إن كبرياء الفرد «هي سبب الإخلال في التوازن في العلاقات الإنسانية»[٢٨٣]، والكبرياء القومية هي سبب الإخلال في التوازن بين الأمم. وكبرياء البعض تنحو إلى دفع الآخرين (افراداً وجماعات) إلى تحت في التسلسل المراتبي الاجتماعي، وإلى مقاومتهم في تأكيد ذواتهم، فلا يكون أمامهم سوى الخضوع او التمرد.

---

(٢٨٢) راجع دراستنا «اذا القومية عامل عدواني» في الكتاب الجماعي «القومية»، دراسة في علم اجتماع الحرب، نشر بروبلانت، بروكسيل، ١٩٧٢، من ص ٣١ إلى ص ٦٧.

(٢٨٣) راجع د. بول شوشارد «الخوف- الارادة- النشاط». نشر مركز دراسة وتنشيط المطالعة، باريز، ١٩٦٨، ص ١٣٠.

ان دور عقد الدونية والفوقية التي تولد من التعويض أمر معروف، اذ يكفي أن يتذكر المرء القومية المثيرة لهتلر، أو موسوليني، أو حتى ديغول، لكي يقتنع.

غير أن القومية يمكن ان تلبس أشكالاً جد مختلفة. وهكذا فاننا نجد في شرقي أوروبا، في الوقت الحاضر، ثلاثة أنواع من القوميات، هي:

١)- القومية الروسية التي تسعى إلى تأكيد تسلط الاتحاد السوفييتي على الدول الشيوعية الأخرى.

إن القومية السوفييتية، التي تعبر عن نفسها بمبدأ بريجينيف في التسلط، تشكل دليلاً واضحاً على عقدة الفوقية المقلقة. فالاتحاد السوفييتي يسعى الى التسلط، والدول الاشتراكية الأخرى توابع له. وتمثل نظرية السيادة المحدودة التي نادى بها كوفاليف- بريجينيف مذهباً ثابتاً في العلاقات بين الدول الاشتراكية، ينظر إليه على أنه مذهب عادل، ومنطقي، ومنقذ لمصالح الجميع. ولنذكر مقطعاً من مقالة كتبها كوفاليف في جريدة البرافدا في أيلول ١٩٦٨:

«اذا ما حاولت دولة اشتراكية ان تتخذ لها وضعاً خارج إطار الكتلة (السوفييتية)، فانها ستستمر في الحفاظ على استقلالها الوطني المُنْقَذ بواسطة قوة المجموعة الاشتراكية، وبالدرجة الأولى بواسطة مركز هذه المجموعة، اي الاتحاد السوفييتي، وعلى الأخص، بواسطة القوات المسلحة للاتحاد السوفييتي. ان ضعف الصلات في النظام الاشتراكي يحدث تأثيرات على جميع الشعوب الاشتراكية التي لا يمكن ان تبقى غير مبالية بذلك».

ويمكننا القول إنه لا يمكن اعتبار الحقوق التسلطية لدولة عظمى على الدول الدائرة في فلكها انها حقوق معترف بها ومؤكدة. ففي الشرق يقف الاتحاد السوفييتي على قمة التسلسل المراتبي للدول، مما يفرض عليه، في الواقع، أن يذكِّر، في كل حين، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، بتفوقه على الدول التي تشكل جزءاً من الكتلة السوفييتية. وإن قبول الاتحاد السوفييتي بأن تكون ايديولوجيته، أو تطبيقها، موضع خصام، يعني قبوله بإضعاف تفوقه، مما يشكل، من الناحيتين النفسانية والاجتماعية، خطراً على تلاحم واستمرار بقاء الاتحاد السوفييتي. وهذا ما يفسر غزو تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨.

٢)-قومية الشعوب التي تريد أن تدافع عن سيادتها ضد القومية السوفييتية الفوقية.

وهذه هي حالة يوغوسلافيا ورومانيا. وقد جعل الرومانيون النظرية الوطنية في السيادة البعد الأول في سياستهم والموجِّه لايديولوجيتهم. وقد جعل الحزب الشيوعي الروماني من نفسه وحده حزب الأمة على اعتباره طبقة.

٣)-القومية الباحثة عن الخضوع.

تسعى بعض الشعوب، بسبب انقسام العالم إلى كتل بين القوى، إلى ان تدخل، طوعياً، في معسكر تحت حماية قوة عظمى، لتدافع عن نفسها ضد التعديات المحتملة التي قد تقوم بها قوة عظمى أخرى. وهذه هي حالة بولونيا وجمهورية المانيا الديموقراطية. فالبولونيون يدافعون عن الفكرة التي تقول ان العزلة، في الوضعية التي يوجدون فيها، هي أمر لا يمكن أن يقوموا به. فهم يرون «ان المواطنية البولونية مرتبطة بالأممية، وهذا يعني ان للدولة البولونية والأمة البولونية مصلحة حيوية في الاندماج بمصالح مفهوم أوسع يشمل أمماً ودولاً أخرى. . .».

«يكمن هذا المفهوم، في حالة.بولونيا هذه، في الاشتراكية. . . ومركز هذه الكتلة هو الاتحاد السوفييتي. ويجب ان لا ننسى هذا لحظة واحدة، فتعاوننا، وصداقتنا، وارتباطنا، ووحدتنا المنيعة، مع الكتلة الاشتراكية، تشكل العنصر الأساسي في المفهوم الجديد للأمة البولونية والدولة البولونية. . .».

ان قومية التبعية هذه لا تقل خطورة عن قومية التسلط. فقد طالب البولونيون، بشكل اعنف مما طالب به الاتحاد السوفييتي، بالقيام بعمل عسكري في تشيكوسلوفاكيا بغية ايقاف «تفكك الاشتراكية في بلد شقيق»، بينما راح اليوغوسلافيون والرومانيون يحتجون، بصراحة، على انتهاك سيادة تشيكوسلوفاكيا.

ان بولونيا، بسعيها الى انقاذ تلاحم الكتلة، وباتخاذها موقف المدافع عن الدول الاشتراكية، كانت تأمل في ان تحوز على مزيد من القوة، كتعويض لها عن دونيتها.

وتسمح ثورة ١٧٨٩ ايضاً بإلقاء مزيد من النور على العلاقات والروابط بين عقد الدونية والفوقية من جهة، وبين القومية من جهة أخرى. فقبل عام ١٧٨٩، كان المجتمع الفرنسي، من الناحيتين الاجتماعية والقانونية، مجُمَّداً. فقد كان يحتوي على «طبقات»

كرّسها القانون. فكانت هناك «دول» أو «عدة جهات تصدر الأوامر». وكان أولئك الذين ينتسبون إلى هذه الجهة (أو الدولة) يتمتعون بمجموعة من الامتيازات لا تتمتع بها الجماعة المنتسبة إلى «دولة» ادنى من تلك. وكانت الدولة الأولى في المملكة تتمثل في سلك النبلاء، الذي كان نفسه مقسمًا ايضاً إلى سلك أعلى (النبلاء) وسلك أدنى (اخذوا من الشعب). والنبلاء ينقسمون، بدورهم، إلى طبقات ايضاً، فكان بينهم متميزون بين المتميزين، وأغنياء وفقراء، ونبلاء بلاط ونبلاء مقاطعات. ولم يكن الشعب نفسه أيضاً سوى هرم من الطبقات: البورجوازية العالية، والبورجوازية الصغيرة، والعمال، وأخيراً الفلاحون الذين كانوا يشكلون، وحدهم، تسعة أعشار الشعب.

وفي مثل هذا المجتمع الغارق في طبقية مفرطة، كان كل انسان دُوناً في نظر القانون، او بالنسبة لانسان آخر. كما ان ممارسة الامتيازات والإذلالات الناجمة عنه وفيه تولد الشعور العنيف بجميع انواع اللامساواة، وتثير، بالتالي، عقدة الدونية. فالجروح التي اصابت الكبرياء والكرامة، وبخاصة تلك التي حلت بالبورجوازيين، كانت، في بعض الاحيان، جد أليمة. وحينما رأى بارناف أمه، يوماً، تطرد من عملها في مسرح غرينوبل بأمر من احد النبلاء، بدت له عجرفة النبلاء جد شنيعة، ومثيرة لا تحتمل كما لم يرها من قبل.

لقد كانت البورجوازية ذليلة، لأنها كانت مقصاة عن قيادة الجيش، وعن الوظائف العامة، والمراتب الاجتماعية العالية، والقضاء العالي، بينما كانت قوتها الاقتصادية والاجتماعية ترشحها للصعود على السلم الاجتماعي. وكانت هذه البورجوازية تقرأ، وتطالع، وتفكر، وتزداد وعياً باللامساواة القانونية التي كانت تمنعها عن الصعود وإشغال المناصب التي تستحقها في ادارة الشؤون العامة أما الفلاحون الأميون الذين كانت تقع على عاتقهم سلسلة من الأعباء المالية، والذين لم يكونوا قادرين على قتل حيوانات الصيد التي تتلف مزروعاتهم، فقد كانوا هم الوحيدون الذين لم يكونوا يمارسون تعسفات النظام القائم وتجاوزاته.

ضمن هذه الشروط والظروف، يصبح من الطبيعي أن تغدو المساواة في الحقوق، أو بتعبير آخر، إلغاء الدونية، مطلباً رئيسياً ويتضمن اعلان حقوق الانسان لعام ١٧٨٩ في مادته الأولى ما يلي:

«يولد الناس ويعيشون أحراراً، ومتساوين في الحقوق. والتمييزات الاجتماعية لا يمكن أن تكون مؤسسة إلا على المنفعة المشتركة».

وقد اعتبرت المساواة قائمة منذ الولادة، ولكنها ايضاً «حق طبيعي وأزلي، مثلها في ذلك مثل الحرية (المادة الثانية من الاعلان)، والملكية، والأمن، ومقاومة الاضطهاد».

وبعد ذلك بعامين، جعل «إعلان حقوق الانسان والمواطن» لعام ١٧٩١ المساواة «حقاً طبيعياً وأزلياً» مثلها في ذلك مثل الحرية، والأمن، والملكية (المادة الثانية من الاعلان) ولكن ذكرها جاء قبل تلك الحقوق جميعها. يضاف إلى ذلك، أن المادة الثالثة تنص على أن «جميع الناس متساوون بالطبيعة وأمام القانون». كما تنص المادة الرابعة على أن «القانون واحد بالنسبة للجميع، سواء من حيث حمايتهم أو فرض العقوبات عليهم...». وفي الاعلان ايضاً احكام أخرى (مثل تلك المتعلقة بالقبول في الوظائف العامة) تضمن المساواة للجميع، وهذا يعني ان هذه الاحكام تخلِّص كل انسان من الشعور بالدونية.

وفجأة، اصبح جميع أولئك الذين كانوا، حتى ذلك الحين، مسحوقين بالطبيعة المهنية، وبالأحكام الاجتماعية والسياسية والقانونية التي كانت تقف في وجههم ضد صعودهم في السلم الاجتماعي، مساوين لأولئك الذين كانوا يُذلُّونهم.

وما بين عشية وضحاها، ، اصبح ذلك الذي لم يكن شيئاً، متساوياً مع ذلك الذي كان الخضوع له، بالأمس، أمراً واجباً. ولم يعد يدعوه «سيدي» أو «السيد» وانما «أيها المواطن». وانتقلت السيادة من رأس الملك إلى رأس النواب، أي إن الأمة هي التي اصبحت صاحبة السيادة الحقيقية. واصبحت الارادة الوطنية، أي ارادة كل فرد، هي صاحبة القرار، في نهاية المطاف. وانفتحت جميع الآمال أمام الارتقاء في سلم المراتب الاجتماعية. وصعد إلى السلطة محامون بسطاء (مثل دانتون، وبرناف، وغيرهما)، واصبح ابن صاحب احدى الحانات (مورا) مارشالاً، ثم ملكاً على نابولي، وابن فلاح (سول) دوقاً على دالماتي. ولم يكن اب ماسينا، دوق ريفولي، وأمير إيسلينغ، سوى صاحب كرم عنب بسيط.

لقد اصبح أولئك الذين كان محكوماً عليهم أن يعيشوا في الذل، يرفلون بالأمجاد.

«ان الفلاح، ذلك البائس الذي اعتاد على السكوت والالم، لم يبدأ بالشعور باهميته

إلا يوم أن وضعت البندقية بين يديه، وحين دعي للدفاع عن الأمة، وحين اثبتت له المخاطر التي يواجهها، بوضوح ساطع، انه اصبح، فعلاً، مساوياً للنبيل والمتميز»[٢٨٤].

وقد برهنت الحرب لأولئك الذين لم يكونوا، بالأمس، يشتركون فيها بصورة مباشرة، على أنهم يشغلون ايضاً مكاناً في الدولة. فقد حازوا على المساواة، وليست ورقة التصويت التي يمسكون بها بأيديهم، وكيس الجندي الذي يحملونه على ظهورهم، سوى دليلين محسوسين على ذلك. وحتى لا يفقدوا هذه المساواة الغالية، وحتى لا يُلقى بهم ثانية في أسفل السلم الاجتماعي، فقد اصبحوا مستعدين للتضحية بأموالهم، وحين الضرورة، بدمائهم. فالأمة حررتهم، وجاءت إليهم بالمساواة على الارض، بينما لم يَعِدْهُم الدين بها إلا في السماء.

ومن هنا لم يكن هذا النوع من المجتمع الجديد سوى قومية ١٧٨٩. فقد استعيض عن مذبح الكنيسة بمذبح الوطن. ولم يعد من الممكن التفكير بالحد من ارادة الأمة، فقد اصبحت للأمة سلطة هي فوق سلطة المواطنين، وهذا يعني أن الأمة قد انزلت المواطنين «من أعلى إلى اسفل» من جديد. فكل شيء يجب أن يخضع للارادة الوطنية، «اعداء الداخل واعداء الخارج». غير أن اعداء الخارج هؤلاء هم الذين يخشون على الامتيازات التي يتمتعون بها، من أن ينتزعها منهم مواطنوهم، عن طريق العدوى. لذلك فهم لا يستطيعون أن يقبلوا بان يهبطوا إلى مستوى ادنى. وبما أن هؤلاء كثيرون تجمعهم ارادة الدفاع عن وضعهم الاجتماعي، ويشعرون، جميعهم، بانهم مهددون بمحبة الفرنسيين «للأمة الفرنسية»، فقد تضامنوا، واندمجوا ضمن إطار المعارضة المشتركة.

(٢٨٤) روجيه كالوا «انحدار الحرب»، نشر آ. ج. نيزيت، باريز، ١٩٦٣، ص ١٤٣.

إســتنتاجات عامــة

يضع التهديد بالمذبحة الحرارية- النووية، بقاء البشرية، بصورة مباشرة، موضع الخصم. وقد قدر «معهد استوكهولم الدولي لابحاث السلام» عام ١٩٧٠ ان القدرة الانفجارية للاسلحة النووية التي تملكها البلدان النووية تبلغ «٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠» كيلوغراماً من مادة ت. ن. ت أو ٥٠٠٠٠ ميغاطن. وهذا يعني وجود قوة قنبلة من وزن ١٠٠٠٠ كيلوغرام من مادة ت ن. ت لكل انسان على الكرة الارضية. وتملك الولايات المتحدة الأميركية نحو ١٠٠٠٠٠ رأس نووي، بينما يملك الاتحاد السوفييتي عدة عشرات الآلاف منها. يضاف الى ذلك أن الإعداد للحرب الفضائية، وحرب الغواصات، والحرب الكيميائية، والحرب البيولوجية، يجري على قدم وساق. كما ان البحوث لتحسين عمليات الابادة التي يجري الاستعداد لها، تنشط بشكل واضح في المختبرات.

ان ما يصدم المرءَ أمام هذه الحالة المذهلة، هو عدم مبالاة الرأي العام الأوروبي. ففي اثناء انعقاد ندوة دولية نظمتها اليونسكو في باريز في شهر تشرين الثاني ١٩٧٣ حول «الادراك الجديد للتهديدات»، قدم «المعهد الفرنسي للرأي العام» للمشتركين في الندوة نتائج تحقيق قام به المعهد بكل ما يتطلبه التحقيق العلمي من دقة. وقد تبين من تقرير المعهد أن القصف الذري لفرنسا، من بين جميع التهديدات بمختلف انواعها، يبدو وكأنه الأقل احتمالاً في الحدوث. اذ قدر ١٤٪ فقط من الفرنسيين الذين سئلوا، ان بلادهم (وهي قوة نووية) يمكن أن تكون، في يوم من الأيام، ضحية النار النووية. ويبدو ان ٨٦٪ من الفرنسيين الذين رأوا أن هذا الخطر غير موجود لم يكونوا مزودين بالمعلومات اللازمة.

وفي الواقع، فقد طلب، المحققون من الاشخاص الذين سئلوا ان يصنفوا من بين ٤٠ خطراً ذكروها لهم تلك المخاطر التي يرونها الأكثر خطراً فيما اذا وقعت. وقد جاء ترتيب القصف النووي لفرنسا، نتيجة التحقيق، يحتل المرتبة الخامسة. أما المراتب الأربع الأولى التي اعتبرت أخطر من القصف النووي، لفرنسا، فقد كانت: تراجع الطبيعة، وزيادة الأمراض النفسانية والعصبية، وحوادث الطرق، ونمو النزعة الإجرامية. إن هذا،

ببساطة، ليس سوى اللاوعي بذاته.

وأخيراً، فقد اعتبر «الخوف من الاسلحة النووية» كأول عامل من عوامل السلام. وهذا يعكس الايمان.بأن «سلام الرعب المتبادل» سيستمر أبداً، ويكشف عن الثقة المطلقة في مذهب «ردع العدوان».

واننا نعتقد أنه في الإطار الحالي لمعارفنا:

١) لا يُعرف بعد كيف يمكن منع الحرب الشاملة من النشوب لفترة من الوقت، إلا بتطبيق مذهب ردع العدوان.

٢) وطالما انه لم يتم التوصل بعد، بالبحث الأساسي الهادف إلى الحصول على معرفة كافية بالأسباب والأفكار والعوامل التي تخلق فيما بينها محركاً يدفع الناس، ما بين وقت وآخر، إلى ارتكاب جرائم جماعية، بغية التمكن من منع وقوع تلك الجرائم الجماعية في الوقت المناسب، فان الحرب الشاملة ستنشب، في وقت قريب أو بعيد، فلا الردع بالرعب المتبادل، ولا مؤتمرات نزع السلاح، ولا الاجتماعات المخصصة للأمن الأوروبي، ولا التوقيع العلني على اتفاقيات حظر الحرب النووية، بقادرة على منع الحرب من النشوب. وليست هذه الوسائل سوى ادوية تنصح بها «امرأة طيبة» لمعالجة السرطان. ومن المؤسف أنه طالما اننا لا نعرف، بعد، وسائل شفاء اكثر فعالية ونجاعة، فلا يمكن التخلي عنها.

لقد اوضحنا أن التوقيع على بعض الاتفاقيات ليس سوى ضمانة وهمية للسلام. فالاتفاقية الخاصة بحظر الحرب النووية الموقعة في ٢٢ حزيران ١٩٧٣ بين بريجينيف ونيكسون، مُزقت، من الناحية العملية، بعد اربعة أشهر من ذلك، باعلان حالة الاستنفار في القواعد الذرية الأميركية رداً على التهديد الروسي بارسال قطعات الى الشرق الاوسط.

ومن الجدير أن نلاحظ ايضاً:

١) أنه لم تكن هناك ضرورة لعقد هذه الاتفاقية، طالما أن معاهدة برياند ـ كيلوغ لعام ١٩٢٨ اعتبرت جميع الحروب خارجة على القانون وليس الحرب النووية وحدها.

٢) وان المادة الرابعة من هذه الاتفاقية تحمي «الحق الطبيعي في الدفاع الذاتي، الفردي

والجماعي، الذي نصت عليه المادة ٥١ من ميثاق الامم المتحدة».

وبما أن الحرب، كما هو معروف، هي دائمًا «خطيئة الطرف الآخر»، فانه لا يوجد هناك من يعترف بأنه بادر الى الهجوم، وانما الجميع لا يفعلون سوى «الدفاع عن انفسهم». ولهذا فقد آن الأوان لأن نفعل «شيئاً جديداً» قبل ان نجد انفسنا وقد جرفتنا كارثة لا مثيل لها ابداً.

ولكن، ما هو هذا الشيء الجديد الذي نريد ان نفعله؟.

في بادىء الأمر، نشرع بدراسة الظاهرة الاجتماعية ـ الحرب. وحتى نفعل ذلك، لا بد من تشكيل مجموعات من الباحثين من جميع الاختصاصات. ويجب ان توضع الحوادث، والسلوك الفردي والجماعي، والبُنى الاجتماعية، جميعها في آن واحد، تحت ضوء جميع فروع المعرفة الانسانية. وبعد ذلك يُبدأ باستكشاف الأسباب والنتائج لتداخلات وتفاعلات جميع هذه العناصر وتأثير بعضها في البعض الآخر. غير اننا نجد انفسنا أمام عدد من المتغيرات التي ما تزال معرفتنا بها جد بسيطة ومحدودة، مما لا يجعلنا نستطيع التوصل الى استنتاجات تتضمن احتمالاً مقبولاً بايجاد تطبيق عملي مباشر. ويبدو لنا، في الوقت الحاضر، أن من الصعب ان نفعل شيئاً افضل من عزل بعض هذه المتغيرات، التي ننتقيها بصورة عشوائية، تقريباً، لأنها تظهر، للوهلة الأولى، انها تلعب دوراً كبيراً في نشوب الحروب. وقد كنا درسنا، كأمثلة على ذلك، العلاقات بين القلق، والعدوانية، والقومية، والاتصال الاجتماعي، من جهة، وبين الحرب من جهة أخرى. غير أن من المؤكد، أن النتائج التي حصلنا عليها، ما تزال نتائج جزئية، وابعد ما تكون عن الكمال. وان دور الباحث في علم اجتماع الحرب لا يمكن أن يكون، في الوقت الحاضر، سوى السعي إلى تحقيق التداخل والتفاعل بين المنجزات العلمية الحديثة لجميع فروع المعرفة الانسانية للتوصل إلى معرفة أكثر عمقاً لجميع أنواع البُنى، الداعية للحرب. وان عملاً من هذا النوع يتجاوز امكانات انسان فرد واحد. لقد شق غاستون بوتول الطريق، فليتبع آخرون هذه القدوة.

يجب، اذن، تشكيل فرقاء من الباحثين الذين يستطيعون، بسبب تأهيلهم الاختصاصي المتنوع، تبادل المعلومات والتشارك في توضيح ما يعالجون. وخلال السنوات

الأخيرة، قدم إلينا علماء الأخلاق معلومات كثيرة عن سلوك الحيوانات. ومن بين هؤلاء العلماء، نذكر كونراد لورينز (وقد نال جائزة نوبل) الذي الف كتباً رائعة، وبخاصة ما يتعلق بطبيعة العدوان الحيواني. وباعتباره مختصاً ذا قيمة علمية كبيرة، فقد قام باكتشافات لا ينازعه بها أحد. ومن المؤسف، ان الانتقال من السلوك الحيواني إلى شرح السلوك البشري، يثير انتقادات الأطباء، وعلماء النفس والاجتماع.

ان ظاهرة الحياة الحيوانية جد معقدة إلى حد أن دراستها لم تكن ممكنة خلال عدة قرون إلا بتقسيمها إلى قطاعات مختلفة، مثل: علم الحياة، وعلم الأخلاق، والطب (بفروعه المختلفة)، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم الاقتصاد، وعلم السياسة.

وعندما يريد عالم ما تقدم في بحوثه في احد هذه القطاعات، أن يعمم ويطبق معارفه في قطاع آخر، فان ذلك يقوده، حتماً، إلى الوقوع في اخطاء. لذا فان عمل الفريق وحده هو الذي يدفع بعلوم الحياة الى التقدم. وهذه هي احدى مُسلَّمات علم اجتماع الحرب الذي يتطلب، بالتحديد، بحثاً يتميز بالانضباط التعاوني.

اننا نعتقد بأنه من الضروري أن تنشأ، بسرعة، في جميع الجامعات، مراكز للبحوث المتخصصة في السلم والحرب. واذا ما دعونا إلى دراسة الحرب قبل دراسة السلم، فلاننا ننظر إلى الحرب على أنها مرض اجتماعي لا يمكن القضاء عليه، والشفاء منه، إلا بقدر ما نعرفه معرفة دقيقة.

وبعد ان يتم انشاء مراكز البحوث في الجامعات، يجب تعميم النتائج الأولى المستخلصة من علم اجتماع الحرب. ومهما كانت هذه النتائج جزئية أو غير موثوقة، فانه لا يجوز اهمالها، لأنها تعرض لنا مخاطر، هذه بعضها:

- التكاثر السكاني القافز،
- المركزية المفرطة في السلطة،
- قدسية السيادة الوطنية،
- الارتباط البيولوجي بالارض،
- تكون دماغ الانسان،
- العدوانية البشرية من جهة، والطاعة البشرية من جهة أخرى،

-القومية،
-تطوّر وسائل الاتصال الجماهيري،(٢٨٥)،
-غوغائية الزعماء السياسيين،
-البحث العلمي الجامع غير المضبوط ولا المراقب،
-تكنولوجيا الحرب التي تسمح بقتل جماهير البشر بدون أن تدرك ذلك،
-المصالح الاقتصادية،
-الاوهام الكبرى حول الحرب والسلام.

اننا نعرف ما هي قدرة التربية وقوتها. فمن المعروف، ان السلوك البشري، في بيئة ملائمة، يمكن أن يتحول تحولاً عميقاً. وعلى هذا، يجب ان نعرف، بوضوح، أي منحى نوجه فيه التربية. ويجب، ايضاً، ان تكون لدينا فكرة دقيقة عن الشكل الذي نوجه به التربية في مختلف انحاء العالم لبلوغ النتيجة المطلوبة في كل مكان وفي وقت واحد.

ان التحكم بالعدوانية الجماعية في بعض البلدان، وبقاء هذه العدوانية واستمرارها في بلدان أخرى، سيكون أكثر خطراً مما لو لم نفعل شيئاً. ويجب أن لا ننسى أبداً، انه اذا كان من الضروري أن يكون هناك شخصان اثنان من اجل إقامة السلام، فانه يكفي ان يكون هناك شخص واحد فقط لشن الحرب. غير أن الوسائل التكنيكية الجديدة للاتصال الاجتماعي، ربما استطاعت أن تلعب دوراً هاماً في السيطرة على العدوانية الجماعية. ونقول «ربما»، لأن الواقع، حتى الآن، هو عكس ذلك. ومهما يكن الأمر، فان الوسائل، أي الأداة، موجودة.

ان اللقاءات الدولية، في جميع المستويات، تتضاعف. كما ان المؤتمرات والندوات التي يعقدها الباحثون من جميع البلدان، تسمح لهؤلاء الرجال بالاتصال بعضهم ببعض، وبالتعارف، وقد ينتهون إلى تفاهم افضل فيما بينهم. ومن الطبيعي، ان يحثهم تأهيلهم العلمي، على التخلي عن الوسائل السحرية، والشعوذة، والرُّقْيات، من اجل مكافحة ظاهرة اجتماعية تهدد مصير الإنسانية. ان شاعراً مثل شارل بيغي، قد ترك نفسه تخضع

---

(٢٨٥) راجع دراستنا «قوة الكلمات والحرب» في «الاتصال الاجتماعي والحرب». مركز علم اجتماع الحرب، نشر بروويلانت، بروكسيل، ١٩٧٤، ص ١٧ وما بعدها.

لموسيقى الكلمات حين قال: «سعداء هم الذين ماتوا في حرب عادلة»، ان هذا لأمر مغفور. غير أنه يجب، رغم كل شيء، أن تكون هناك حدود للامعقول، اذ لا يعقل أن يقوم انسان عالم، من أية جنسية كان، بقبول اللامعقول، لأن هذا ضد الحقيقة.

ان اللقاءات بين الباحثين من مختلف البلدان، تسهل الحوار بين هؤلاء الذين يملكون، بسبب معارفهم العلمية، لغة مشتركة. ويجب الاعتراف بأن اليونسكو تقدم خدمات جلى بتسهيلها إقامة هذه اللقاءات الدولية.

اننا نعتقد بان الأمل الوحيد في القدرة على السيطرة على الظاهرة الاجتماعية-الحرب، يكمن في فهم هذه الظاهرة، لنتمكن بعد ذلك من منع حدوثها. وحتى نفهمها يجب أن ندرسها. ولكي ندرسها، يجب ان نناشد وندعو جميع الباحثين في العالم كله ليقوموا بهذه الدراسة. واذا كانت بحوث علم اجتماع الحرب لا يؤمل منها ان تحقق مرابح كبيرة لهؤلاء الذين يمولونها، كما هي الحال في مسحوق للغسيل، أو سائل معطر منشط للشعر، او مادة متفجرة قاتلة، فانها قد تؤدي إلى توفير الحياة لملايين الناس الذين ستودي الحرب العالمية الثالثة بحياتهم.

وفي كل مرة كانت الانسانية تتعرض لكارثة، لم يكن باستطاعة البشر انقاذها الا باستخدامهم ذكاءهم. لقد تخلصوا من أكل لحم البشر، ومن العبودية، والأوبئة. وليس هناك ما يثبت انهم، بتعبئة جميع طاقات وإمكانات ذكائهم، لن يتوصلوا إلى السيطرة على ظاهرة التدمير الذاتي التي هي الحرب، أو، على الأقل، إلى توجيهها وضبطها. وطالما أن الأمر يتعلق بمصير الانسانية وبقائها، فمن المؤكد اننا سنكون مضطرين الى أن نكون أذكياء. ان السلمية العلمية هي أملنا الأخير في الخلاص من اكبر كارثة يمكن أن يعرفها العالم. اننا اذ نحشد الادمغة ونعبئها، فقد نتوصل، في يوم من الأيام، إلى حل الجيوش. اننا لا نرى أن هناك بديلاً آخر لذلك. ولنأمل في أن لا يأتي ذلك اليوم متأخراً.

موجـز المـراجـع

- ر . آردري : «الأرض»، ستوك ١٩٦٦.
«القانون الطبيعي»، ستوك ١٩٦٦.
- آ. آرمينغو. : «التاريخ العام لسكان العالم»، مونتشريشتاين، باريز ١٩٦١
- ر. آرون : «السلم والحرب بين الأمم»، كالمان ـ ليفي، ١٩٦٢.
- م. بومون : «سقوط السلام» (١٩١٨ـ ١٩٥٩)».
المنشورات الجامعية الفرنسية، ١٩٤٥.
- الجنرال بوفر : «الردع والاستراتيجية»، باريز ١٩٦٤.
«مدخل الى الاستراتيجية»، باريز ١٩٦٣.
- ب بيتارتس، م. هاوزر ٠٠٨ ج. مورين
«من الليبيرالية الى الامبريالية (١٨٦٠-١٨٧٨)»،
المنشورات الجامعية الفرنسية، ١٩٣٩.
- ج. بيرجورون : «عمل الدولة»، آر كولان، ١٩٦٥.
- م. برنارد : «الحرب الشاملة والحرب الثورية»، بريبولس، ١٩٦٥.
- ج. بوتول : «الحروب ـ عناصر علم الحرب» بايو، ١٩٥١.
«٨٠٠ اتفاقية سلام»، جولبار، ١٩٤٨.
«الحصول على السلام»، غراسيه، ١٩٦٧.
«دراسات في علم الحرب»، دونوييل ـ غونتييه، ١٩٧٦.
«فن السياسة»، سيغير، ١٩٦٢.
«قتل الأطفال المتنوع»، هاشيت، ١٩٧٠.
- ر. كالوا : «انحدار الحرب»، آ.ج. ينزيت، باريز ١٩٦٣.
- ج.ب. كاسيلان : «رفض المحاربة»، المنشورات الجامعية الفرنسية، ١٩٧٣.
- و. تشرشل : «الحرب العالمية الثانية»، بلون، ١٩٤٨.
- ر. كلارك : «هل الحرب البيولوجية هي حرب الغد؟»، فايار، ١٩٧٢.
- ر. كوست : «مشكلة قانون الحرب في فكر بيوس الثاني عشر»، اوبييه، ١٩٦٢.
- م. دافي : «الحرب في المجتمعات البدائية ـ دورها وتطورها»، بايو، ١٩٣١.
- ل. ديلبيز : «مفهوم الحرب»، بيدون، باريز، ١٩٥٣.
- ج. دوش : «المنعطف الكبير» (١٩١٥-١٩٤٤)، تاريخ العالم، الجزء الرابع، فلاماريون ١٩٦٦.
- ج. ب. دوروسيل : «اوروبا من ١٨١٥ حتى الوقت الحاضر»، المنشورات الجامعية الفرنسية، ١٩٦٤.
- اي. فروم : «عاطفة التدمير»، روبير لافون، ١٩٧٥.
- فوللر : «تأثير التسلح في التاريخ»، بايو.
- الجنرال ف. غامبييه : «جلد الحزن»، مجلة الدفاع الوطني، كانون الثاني ١٩٧٠.
ج. م غاثورون هاردي : «تاريخ الأحداث الدولية (١٩٢٠ - ١٩٣٩)»،
المنشورات الجامعية الفرنسية، ١٩٤٥.
- ل. جينيت : «التاريخ المعاصر، ١٨٤٨-١٩٣٩»، هاتييه، باريز ١٩٤٦.
- ف. جيرارد : «نحو الوحدة الاتحادية للعالم»، دونوييل، ١٩٧١.
- ب. غراند ـ جان : «الحروب، والتغيرات، والعقائد»، سيديس، باريز، ١٩٦٧.

ـ ج. غيتون :«الفكر والحرب»، ديسكليه دو بروور، ١٩٦٩.
ـ ف. هاكر :«انعدوان والعنف في العالم الحديث»، كالمان ـليفي، ١٩٧٢.
ـ هـ. آ. جاكوبسن،
هـ. دولينجر :«من ميونيخ الى بيرل هاربر»، هاشيت، ١٩٦٧.
ـ هـ. جان :«النظام الاجتماعي ـ دراسة في النظرية العامة»،
معهد علم الاجتماع، جامعة ليبر، بروكسيل، ١٩٦٨.
«زمن التغير»، مارابو، ١٩٧١.
ـ هـ. كان، آ. فييز :«العام ٢٠٠٠»، روبير لافون.
ـ ر. كينيدي :«ازمة في البيت الأبيض»، دونويل، ١٩٦٨..
ـ و. كلينيبيرغ :«علم النفس الاجتماعي»، المنشورات الجامعية الفرنسية، ١٩٦٧.
ـ هـ. لابوريت :«العدوانية المنحرفة»، الاتحاد العام للناشرين، ١٩٧٠
ـ س. لوتورنو :«الحرب في الأجناس البشرية المختلفة»، باتاي، ١٨٩٥
«علم الاجتماع في نظر علم خصائص الشعوب»، س. راينوالد، باريز، ١٨٨٤.
ـ ك. لورينز :«العدوان»، فلاماريون ١٩٦٩.
«دراسة حول السلوك الحيواني والبشري»، لوسبي، ١٩٧٠
ـ ر. س. ماكنمارا :«الأمن الأميركي والسلام العالمي»، فايار، ١٩٦٩.
ـ آ. مالواريه :«النساء في الحرب»، لوفوا، ١٩٥٧.
ـ م. ميرل :«السلمية والأممية»، آ. كولان، ١٩٦٦.
«الحياة الدولية»، آ. كولان، ١٩٧٠.
ـ آ. ميتشرليش :«فكرة السلام والعدوانية البشرية»، غاليمار، ١٩٧٠.
ـ ج. موش : «مصير السلام»، ميركور دو فرانس، ١٩٦٩.
ـ د. موريس :«حديقة الحيوانات البشرية»، غراسيه، ١٩٧٠.
«القرد العاري»، غراسيه، ١٩٦٧.
ـ نوفيكوف :«الحرب ومحاسنها المزعومة»، آ كولان، ١٨٩٤.
ـ ج بير :«تحولات الحرب الحديثة (١٧٩٢ـ١٩٦٢)»، بايو، ١٩٦١.
ـ د. بير :«الحياة او الموت للجميع»، المطبوعات الأكاديمية
الأوروبية، بروكسيل، ١٩٦٩.
ـ ب. راد كليف :«البنية والعمل في المجتمع البدائي»، منشورات دومينوي، ١٩٦٨.
ـ ب. رونوفان :«السلام الأوروبي والحرب العالمية الأولى»، المنشورات الجامعية الفرنسية، ١٩٤٨
ـ رونوفان ودوروسيل :«مدخل الى تاريخ العلاقات الدولية»، آ. كولان، ١٩٧٠.
ـ ي. ريفيس :«تحليل السلام»، تالانديه، ١٩٤٦،
ـ و. شيرر :«الرايخ الثالث»، ستوك، ١٩٦٠.
ـ ج. تولات :«القنبلة أو الحياة»، فايار، ١٩٦٩.
ـ ب. اوربانيس :«حروب وشعوب»، منشورات دوبروغريه، الاتحاد السوفييتي،
موسكو، ١٩٧٢.
ـ آ. فاندربول :«المذهب المدرسي لقانون الحرب»، بودون، ١٩٢٥.
ـ فان جينيب :«دراسة مقارنة للقوميات»، بايو، ١٩٢٧.
ـ الجنرال فان اوفرشترايتن :«مبادىء الحرب عبر العصور»، مكتبة ألبير دورت، ١٩٢٦.
ـ ر. فان رءسوم :«حرب ذرية، أم جرثومية، أم كيميائية؟»، مجلة سكالبيل،
العدد ٢٣ ـ ٢٤ (١٩٦٨).



تشكل الحرب العالمية الثالثة هاجساً يومياً يقلق أفكار السياسيين والمنظّرين الاستراتيجيين وأنصار السلام في مختلف أرجاء العالم. إنها سيف ديموقليس المسلط فوق رأس البشرية كلها، والكارثة الجماعية التي سيؤدي اندلاعها، واستخدام أسلحة الدمار الشامل فيها، إلى فناء مئات الملايين ودمار الحضارة على سطح كوكبنا الأرضي.

هذا الكتاب يتحدث عن ظاهرة الحرب عبر العصور والعوامل الكامنة وراءها، والجهود الرامية إلى تبني مبدأ اللاعنف، ورفض العنف كوسيلة لحل النزاعات بين الأمم والجماعات.

ويقدم المؤلف على صفحات الكتاب، الحرب العالمية الثالثة كصراع تستخدم فيه الأسلحة الكيماوية والنووية والبيولوجية والجيوفيزيائية ومركبات الفضاء، وكنوع من الانتحار الجماعي المتبادل، ليصل إلى المناداة بنزع السلاح، كمدخل للسلام العالمي، الذي يبدو في الظروف الراهنة مستحيلاً.

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير ـ
ت ٨٠٧٩٠٠/١ برقياً «موكيالي»
بيروت ـ ص. ب: ٥٤٦٠/١١ بيروت
تلكس: LE/DIRKAY ـ ٤٠٠٦٧